

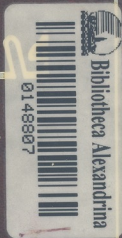


الطليقة

في الشعر الجاهلي

مكتبة النهضة العربية

عالم الكتب



الطبيعة
في الشعر الجاهلي



بيروت - المزرعة بناية الايمان - الطابق الأول - ص . ب . ٨٧٢٣
تلفون : ٣٠٦١٦٦ - ٣١٥١٤٢ - ٣١٣٨٥٩ - برقياً : نابعلبيكي - تلکس : ٢٣٣٩٠



الطبعة في الشعر الجاهلي

الدكتور
نوري جمودي القيسي

عالم الكتب مكتبة النهضة العربية

الطبعة الثانية
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

الإهداء

إلى من أعانني على إنجاز هذا العمل .. ودفعني إلى اتمام الرسالة ..
وصحبني في الرحلة الشاقة ..

إلى زوجتي ... التي كانت تخفف الأعباء وتهوّن الصعوبات .
وتُعين على الصبر .

أهدي هذا العمل ... تقديراً للمودة . واعترافاً بالفضل وإيماناً بالحياة
المشتركة ...

نوري

بينهم الله الرحمن الرحيم

تقديم الدكتور شوقي ضيف

هذه دراسة علمية خصبة للطبيعة في الشعر الجاهلي نهض بها الدكتور نوري حمودي القيسي ، وهي تمتاز بخصلتين أساسيتين : خصلة الريث والأثانة في الأحكام الأدبية حتى تجتمع لها الأدلة التي تسندها من النصوص الحسية وما يداخلها من الحقائق الفنية ، وخصلة الجهد الشاق وابتغائه والمتاع به متاعاً من شأنه أن يجعل صاحبه كلما ذلل صعوبة من صعاب البحث وعقبة من عقابه تحول إلى أخرى باذلاً في تذليلها كل ما استطاع من قوة وكل ما تهيأ له تهيؤاً حسناً من وسائل البحث العلمي وأدواته ، حتى تستقيم له ، وحتى تنقاد انقياداً .

ولست الدراسة في الشعر الجاهلي شيئاً سهلاً المنال ، إذ لا بد لها من التزود زاداً وفيراً باللغة والفاظها الآبدة ، وزاداً وفيراً آخر بأساليبها وصياغاتها العتيقة ، ولا بد لها من التحقق من صحة الشعر ونسبته الوثيقة إلى أصحابه ، ولا بد لها من الفقه به فقهاً يحوط الأحكام المستنبطة ويحول بينها وبين الخطأ والتورط فيه قليلاً أو كثيراً ، ثم لا بد من الإحاطة بنماذج هذا الشعر ومحاولة استقصائه واستقرائه حتى لا يعتور ما يستنبطه الباحث عوج أو نقص أو انحراف ، وحتى تنكشف له الحقائق دون غموض ودون مبالغات تشوبها وقد تفسدها إفساداً .

ولا أغلو إذا قلت إن الدكتور نوري حمودي القيسي صَبَّرَ نفسه على البحث في الشعر الجاهلي حتى كَفَّلَتْ له الأسباب المعينة على صحة نتائجه العلمية فيه صحة تصور في تضاعيفها جهداً مضمناً كما تصور قدرة واضحة على دراسة هذا الشعر وفهمه وتحليله قوياً . والدراسة موزعة على تمهيد وبابين أما التمهيد فجعله لوصف جزيرة العرب وصفاً جغرافياً دقيقاً ،

ومضى يدرس في الباب الأول الطبيعة في الشعر الجاهلي دراسة موضوعية صورها في فصلين ، خصّ أولهما بالطبيعة الصامتة واتخاذ الشاعر الجاهلي عناصرها مادة لأشعاره ورّمزه بهذه العناصر أحياناً لمعان كلية على نحو رمزه بالجليل للبقاء والخلود ، مع بعثة للحياة والحركة في جوانبها الهامدة ، ومع إحساسه بما يتناثر فيها من حسن ، ومع ما أوجت إليه من معان متنوعة . وفي الفصل الثاني تحدث عن الطبيعة الحية مفصلاً القول في حيوانها الأليف والوحشي وما كان يجد فيه شعراء الجاهلية من جمال جعلهم يبدعون في وصفه ، كما جعلهم يستشعرون فيه كثيراً من الأحاسيس والمشاعر الإنسانية ، كما فصل القول في تصويرهم للطير والتفائل به والتشاؤم ، مع ما مثلوا في الحمام من حنين لا ينضب معينه .

وانتقل إلى الباب الثاني ، وفيه عني بدراسة الطبيعة في الشعر الجاهلي دراسة فنية ، ممهّداً لذلك بالحديث عن فن الشعر الجاهلي وتطوره حتى غدت له تقاليد راسخة ، والباب بدوره مقسوم إلى فصلين ، أما الفصل الأول فتحدث فيه عن تصوير الشعراء لظواهر الطبيعة الصامتة ومسدى ليمانهم بقوى خفية تكمن في بعض عناصرها وروعة تصاويرهم لأحاسيس الحيوان مع التوقف بإزاء الأطلال وبكائها ومحاولة تفسير هذه الظاهرة تفسيراً دقيقاً . وأما الفصل الثاني فقصره على الخصائص الفنية لشعر الطبيعة في الجاهلية ، ملاحظاً أنه يمتاز بالواقعية وعرض الحقائق دون أي نقاب أو حجاب ، وأن روحاً قصصية تشيع في ثناياه دون أي تهويل أو مبالغة ، وأن صياغته تمتاز بالقوة والصلابة والجزالة ، مع إصرار الشعراء دائماً على إرضاء الأسماع ، مما دفعهم دفعاً إلى الملازمة الوثيقة في الجرس بين الكلمة والكلمة ، بل الحرف والحرف ، حتى تصفى الأذان لإرئاناتهم المتلاحقة ، وتصفى القلوب والأفئدة .

وأنا أهنيء الدكتور نوري حمودى القيسي بما حقق في هذه الدراسة العلمية من فوز ومن نتائج سديدة تفيد الباحثين في الشعر الجاهلي فوائد قيمة . والله أسأل أن يلهمنا الإخلاص في الفكر والقول والعمل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

شوقي ضيف

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطَّفَرَة

استهوتني دراسة الشعر الجاهلي لاعتقادي بأصالة هذا التراث واستيعابه كثيراً من جوانب الحياة الجاهلية . فالشعر الجاهلي أساس لكيان الشعر العربي ، والأصل الذي هيا لكل المتأخرين أن يستمدوا منه فيض معانيهم وصورهم وأخيلتهم .

وينبغي أن تكون دراسته دراسة تتوفر فيها عناصر الدقة ولا تنهياً مثل هذه الدراسة إلاّ إذا اقتصر على جانب من جوانبه أو ظاهرة من ظواهره ، أو تيار من تياراته له سماته المتميزة ، وهكذا وجدت نفسي أتبع الجوانب والظواهر والتيارات ، لأقف عند واحد منها ، وانتهيت من هذا التفكير برسائلي الأولى التي قدمتها لنيل الماجستير ، وكان موضوعها (الفروسية في الشعر الجاهلي) ، وظلت الرغبة تحذوني إلى الاستزادة من دراسة هذا الأدب ، ولهذا وجدت نفسي مرتبطاً بهذا العصر ، فكان موضوع رسائلي الثانية « الطبيعة في الشعر الجاهلي » لأن شعر الطبيعة أخذ مكانته البارزة في القصيدة العربية ، ورمز إلى كثير من الأوضاع النفسية التي كان الشاعر يعيشها .

ويقع البحث في باين ، جعلت الباب الأول للدراسة الموضوعية وقسمته إلى فصلين ، الأول تناولت فيه الظواهر الصامتة في الطبيعة الصحراوية وجعلت فيه الجبال والكتبان والسراب والوديان والدارات والبرق والرياح والحرّات والآبار والعيون والرياح والأنواء والأمطار والشجر والنبات .

وعقدت الفصل الثاني للظواهر المتحركة في الطبيعة الصحراوية وجعلت فيه الحيوان الأليف والوحشي والطيور والزواحف ، وقسمته إلى فصلين ، وعرضت في الفصل الأول منه لتصوير الطبيعة ، فدرست تصوير الطبيعة الصامتة ، ووقفت عند حديث الشعراء عن الأطلسال ثم درست تصوير الحيوان الوحشي والأليف وأنهت هذا الفصل بدراسة الصيد ودوافعه ، ووسائله ، ثم كان الفصل الثاني الذي أفردته للخصائص الفنية ، وقد انتهت إلى أن هناك خصائص عامة يتميز بها هذا الفن الشعري ، وهي الواقعية والقصصية وخصائص معنوية ولفظية .

لقد ظل هذا الشعر - شعر الطبيعة - مبعثراً في دواوين الشعراء ومتفرقاً بين الأغراض التي عاجلها على الرغم من وضوح ملامحه عند أغلب الشعراء وفي أكثر قصائدهم ، ولم أجد القدامى ، أو أصحاب الاختيارات من التفت إليه فصنّف فيه كتاباً مستقلاً .

ولكن هذا لا يمنعني من التنويه بالمصادر التي اعتمدتها أساساً في هذا البحث وهي المعلقات والمفضليات والأصمعيات ، ودواوين الحماسة باعتبارها أوثق المجموعات الشعرية وأروع ما بأيدينا من نصوص الشعر الجاهلي ، ثم الدواوين الشعرية الموثوق بها ، والمحققة تحقيقاً علمياً ، بالإضافة إلى الكتب الأدبية والتاريخية التي تعد من مظان كتب اللغة وأمّهات مصادر الأدب ولا تفوتني الإشارة إلى كتاب الحيوان للجاحظ ، الذي يعدّ ذخيرة قيمة للدراسة الظواهر المتحركة من الطبيعة ، فقد عرض لها الجاحظ عرضاً واسعاً لأن كتب الحيوان - بما في ذلك كتب الخيل والإبل والغنم والشاة والوحوش والطيور

والبازي والحمام والحيات والعقارب والنحل والحشرات - التي ألفت قبل الجاحظ ، أو بعده ، كان يراد بها أن تكون أبحاثاً في اللغة ، فهي بمثابة معجمات لغوية خاصة بما ألفت له .

وفي حيوان الجاحظ تكمن عقليته الدقيقة التي اعتمدت التجربة أصلاً لكل حديث يعرض له ويبرز ذوقه الفني المرهف . في اختيار النصوص الشعرية التي يستشهد بها . أما أساس منهجي الذي سلكته فكان يعتمد أولاً على استقصاء الشعر الجاهلي الصحيح الذي يعني بالطبيعة ، ويعرض لمظاهرها ، ويعتمد ثانياً تحليل هذا الشعر ، ودراسته واستقراء نماذجه ، واستخلاص النتائج منه . مسجلاً من خلال ذلك الظواهر البارزة فيه .

ودراستي تشمل جانبين من هذه المظاهر ، الجانب الموضوعي الذي كنت أنظر إليه نظرة دقيقة فاكشف عن معالجة الشعراء له وأوصافهم الخارجية والداخلية لأشكاله وأجزائه والجانب الفني الذي أوضح إحساس الشعراء وموقفهم من هذه الظواهر .

وقد حاولت تحديد الزمن الذي اخترته لهذا الموضوع ، فكان بداية العصر الأدبي الذي عرف بالعصر الجاهلي .

وبعد ، فهذا ما استطعت تحقيقه في هذه الدراسة ، كما وجدته عند الشعراء وكما رأيتهم متمثلين في الصور الشعرية التي قدموها لنا من خلال أوصافهم لهذه المظاهر .

أما أستاذي الدكتور شوقي ضيف ، المشرف على هذه الرسالة ، فله شكري على الجهود التي بذلها في قراءة ما كتبت والرعاية التي شملني بها وأنا أتلمس الخطوات الأولى في العمل جزاء الله عني كل خير ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

نوري حمودي القيسي

بغداد ١٩٦٦/١/٢٢

تمهيد وصف جزيرة العرب

تقع جزيرة العرب في الجنوب الغربي من آسيا ، وسميت جزيرة لإحاطة البحار والأنهار بها من جميع جوانبها ، أما مساحتها فتزيد على ثلاثة ملايين كيلومتراً مربعاً ، ويرى علماء الجيولوجيا أنها كانت قسماً من أفريقيا الشرقية ، فحدثت في العصور الجيولوجية المتأخرة سلسلة من الحركات الأرضية ، أدت إلى تكوين الأخدود الذي يشكل البحر الأحمر ، وخليج السويس ، وبذلك انفصلت جزيرة العرب عن قارة إفريقيا .

وتمتد الجزيرة في مناطق متعددة ، وفي الحجاز مساحات واسعة غطتها صخور سود ، تمثل حمم البراكين التي ثارت في بعض العصور القديمة ، وتعرف هذه المناطق البركانية باسم الحرات ، والحرث في بلاد العرب كثيرة^(١) . لأنها كانت أماكن تستقر فيها القبائل ، وتقيم عندها ، لوفرة مياهها وخصوبة أرضها ، ولم تشكل الحرات وحدها مناطق الحصب في

(١) انظر ابن الفقيه الهمداني في مختصر البلدان - ٣١ ، والبكري في معجم ما استمعتم ٢-٣٥ وما بعدها ، وياقوت في معجم البلدان ٢- ٢٥٢ .

جزيرة العرب وإنما كانت الدارات والبرق والرياض والوديان تشكل جانباً آخر من هذه الأراضي الحصبة التي نزلت عند مياهها القبائل .

وقد حفلت كتب الجغرافية بذكر هذه البرق والرياض والحرّات والدارات وألفت فيها الكتب لأهميتها ، ووصلت أعدادها إلى المئات كما تعرّض لذكرها أصحاب المعاجم ، وتسابقوا في جمع ما تنائر من أسمائها . وتحترق جزيرة العرب سلسلة جبال السراة المحاذية للساحل الغربي من الشمال إلى الجنوب ، مكونة انحداراً شديداً نحو الغرب وخفيفاً تدريجياً نحو الشرق ، وتسمى المنطقة الساحلية تهامة وقد تذكر مضافة إلى القسم الذي تحاذيه ، فيقال ، تهامة اليمن . وتهامة الحجاز ، وتضيق هذه المنطقة وتوسع في أماكن معينة حتى يصل عرضها في بعض الأحيان إلى الأربعين أو الخمسين ميلاً وتسمى الغور لانخفاض أرضها .

وأغلب هذه المنطقة الساحلية رملي شديد الحرارة ، قليل الإنبات ، وقد قامت بها بعض المرافئ والغور ، وتتصل منطقة الهضاب والنجد بالمنطقة الشرقية من جبال السراة مباشرة ، وتمتد الهضاب والنجد إلى الشرق مسافة طويلة حتى تحاذي العراق والسماء .

وتزخر هذه المنطقة بكثبان الرمال الحمر ، التي تتخللها بعض المراعي القسيحة ، المؤذنة بالخصب ، وتجمع القبائل ، وإذا اقتربت هذه الصحراء من أرض العراق انبسطت نحو الجنوب ، لتفصل بين نجد والبحرين ، وحينئذ لا يطلق عليها الدهناء التي تشكل قوساً ضيقاً من النفوذ ، يختلف عرضه من عشرة إلى خمسة وسبعين كيلومتراً فتربط النفوذ الشمالي بالربع الخالي ، وتشكل في الوقت الحاضر حدوداً بين نجد والأحساء .

أما القسم الأعلى من الدهناء ، فيمتد شمالاً حتى بادية الشام ويقطعه وادي الرمة ، وتنتشر رمال الدهناء في القسم الجنوبي وتسير موازية لهضبة الصمان الصخرية .

وتمتد العرّفة في غربها ، وهي منطقة قصيرة ، تنتهي في وادي حنيفة ، ثم تستمر الدهناء إلى جنوب الصمّان نحو الشرق ، وتنحدر نحو الغرب ، ثم تستمر في سيرها حتى تتصل بالربع الخالي ، وتعرض الطريق الجنوبي من هذه الرمال بعض الحجارة .

والدهناء ضيقة في أطرافها الشمالية والجنوبية ، ولكنها عريضة في المناطق الوسطى ، حيث تضم مجموعة من التلال الرملية الهرمية المرتفعة والتي يصل ارتفاع بعضها إلى مائة وخمسة وسبعين متراً . يصعب عبورها في مواسم القحط لخطورتها ، وتتأثر في أطرافها بعض الآبار غير العميقة . وقد ساعدت بعض البدو على الرعي في هذه الأطراف ، وخاصة في فصل الشتاء والربيع ، وقد وصف ياقوت مراعي الدهناء ، وأورد ما قاله الشعراء فيها^(١)

وتعد هذه الصحارى التي تحيط بنجد في أقسامها الثلاثة قفاراً متسعة ، لا تجد فيها أثراً للحياة ، إلا في موسم الشتاء الذي ترتدي فيه أقسامها الشمالية رداءً أخضر من المراعي بعد نزول المطر .

وتشمل العروض ، اليمامة والبحرين وما والاها ، وفيها مرتفعات وأغوار ، لقربها من البحر ، وانخفاض مواضع منها ، ومسايل أودية فيها .

أما اليمن ، فيشمل القسم الواقع خلف تليلث ، وما قاربها إلى صنعاء ، وما والاها من البلاد إلى حضرموت والشحر وعُمان وما بينهما ، وفيها التهام والنجود ، وقد يطلق اليمن على الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة ، وهو الإطلاق المشهور الآن . وهو أكثر أرضها خصباً . وتمتاز اليمن عن غيرها من أقسام الجزيرة بأوديتها الكثيرة ، وسهولها وزراعتها ، لكثرة أمطارها وقد ساعدت هذه الحياة على الاستقرار الذي عم هذا الجزء من جزيرة العرب .

(١) انظر ياقوت . معجم البلدان ٢ - ٦٣٥ .

وهذا التقسيم الإقليمي لجزيرة العرب ، يقوم على التقاء هذه الأقسام في صفات مشتركة ، وخضوعها لظروف طبيعية واحدة . على أن هذا لا يحول دون اشتراك جميع الأقاليم في خصائص تشمل جزيرة العرب بأكملها ويجعل منها إقليماً موحداً .

٥ وبلاد العرب كثيرة الجبال الجرد . وتعد السلسلة الجبلية المستطيلة والممتدة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب من أعلى المناطق ارتفاعاً ، وتضم هذه السلسلة قنناً يبلغ ارتفاعها أحياناً ثلاثة آلاف متر فوق سطح البحر وتنساقط الثلوج على بعضها في فترات متقطعة^(١) وتتخلل هذه الجبال الوديان الصالحة لإقامة السكان الذين يعتمدون على ما تنبت أرضهم . وما يجدونه فيها من ماء يشربونه ومرعى يسمون فيه أنعامهم . ومن الطبيعي أن تتشكل هذه الوديان نتيجة للتكون الطبيعي للجبال الممتدة فوق الجزيرة . وسقوط الأمطار . وتوزع هذه الوديان بالنسبة إلى السطح الذي تنبسط فيه . فهي قصيرة ومنحدرة وعميقة حينما تنحدر إلى البحر الأحمر ، بسبب ضيق الشقة بينها وبين البحر ، وطويلة ومنبسطة وأقل عمقاً عندما تنحدر إلى الشرق .

وقد عرفت في الجزيرة وديان كثيرة ترددت في أحاديث الشعراء وأوصافهم ، فكان وادي الرمة ، ووادي حنيفة ، والحزامي ، والساجوم ومطروق ، وسرحان ، والدواسر ، والعقيق ، وغيرها من الوديان . كما تنتشر فيها مجموعة من الجبال التي عرفت منذ أقدم الأزمنة . منها أبان وشلان ، ورضوى ويذبل وضارج وكبكب ويلملم وتعار ، وإلى الجنوب من هذه الجبال توجد سلاسل آكام ممتدة على محاذة الساحل . وفي الوسط منطقة جبلية أخرى ، وفي أطراف المدينة إلى الشمال والغرب والجنوب عدة جبال مشهورة أهمها أحد . وفي أطراف مكة مجموعة من الجبال التي انتشرت أسماؤها

(١) انظر الهمداني . الإكليل - ٧ - ٨ ، والاصطخري . المسالك والممالك - ١٩ ، وتاريخ العرب (مطول) فيليب حتي ١ - ٢١ .

في احاديث الشعراء ، وإلى شرقي السلسلة العظيمة من الشمال إلى الجنوب ، تبدأ الهضبة النجدية ، وفي ديار طي سلسلة أجا وسلمى ، وما تضمنه من هضاب وقفن .

وتشكل الكثبان الرملية الحمر في منطقة الربع الخالي سلسلة طويلة متصلة ، تتوزع بينها الرمال المتماوجة والتلال والهضاب بشكل غير منتظم ولا متسلسل . وترتفع هذه الكثبان وتنخفض في أماكن عدة ، وتتكون في أغلب الأحيان من الرمال الرقيقة التي تسفيها الرياح . وتعد منطقة الربع الخالي أكبر حقل لهذه الكثبان . وقد ظلت هذه المنطقة مجهولة في التاريخ لأن البدو الذين يخترقونها . لا يميزون حدودها وأقسامها لتشابه المناطق واتساع رقاعها وقد دفعت هذه المناهات - في العصور المتأخرة - بعض الغربيين إلى اختراقها من الجنوب إلى الشمال الشرقي ، واستغرقت هذه الرحلة أكثر من شهر^(١) .

وفي أواسط منطقة الرمال ترتفع سلسلة عروق كلسية ، ترتكز قاعدتها على هضبات المنطقة النجدية المتاخمة للمحيط الهندي .

وأدى وفود جزيرة العرب في المنطقة القريبة من خط الاستواء إلى اشتداد الحرارة إلا أن هذا لم يحل دون وجود ظروف إقليمية ومناخية متفاوتة ، وأماكن ذات هواء معتدل ، وجو لطيف بسبب وجود الأماكن المرتفعة ، أو القليلة الارتفاع .

ونظراً لجفاف الصحراء ، فإن مناخها في حرارته وبرودته متطرف ، ففيها هيب يشوي الوجوه . وسموم تلفح الأبدان ، ولهذا التطرف الشديد في المناخ اثر كبير في تنقل البدو فقد تهطل الأمطار الغزيرة . فتحدث السيول ثم تعقبها فترة طويلة من الجفاف التام .

ولا غرابة إذا وصل العرب بعلم الأنواء إلى درجة بعيدة من الدقة إذ

(١) فؤاد حمزة . قلب جزيرة العرب - ٢٣ .

كان علم الحياة بالنسبة لهم..

وهذه الأمطار التي كانت تنعم بها السماء عليهم لم ينتفعوا بها لتسربها إلى مسابيل الأودية ، التي تصبها في البحر أو ذهابها إلى الفيافي المقفرة التي يفيض عندها الماء فلا يترك فيها إلا غدراناً وقيعاناً وأحساء وعيوناً .

ومن هنا كانت الوديان إلى جانب الدارات والبرق والحرات والرياض ، تشكل الكثرة العظمى من الأراضي الزراعية التي كانت تقوم حولها الحياة ، لكن هذه الأودية بما تحويه من مياه — لم تشكل أنهاراً دائمة الجريان وإن وردت إشارات إلى الأنهار والغدران في الشعر الجاهلي . ويسود الاعتقاد عند بعض المؤرخين أن هذه الأودية كانت تشكل أنهاراً في الوقت الذي كانت تسود جزيرة العرب ظروف مناخية تختلف عن الظروف السائدة اليوم كوادي الرمة ، الذي تنصب فيه عدة أودية^(١) .

ووادي الدواسر الذي يعد من أعظم أودية الجزيرة ، ووادي المروث وفيه يقول الأعشى^(٢) :

ولو أن دون لقائها المروث دافعةً شعابهُ
لعبّرتهُ سبْحاً ولو غُمرت مع الطرفاء غابه
ووادي الجريب الذي أكثر الشعراء من ذكره^(٣) .

وكانوا إذا حبس المطر عن مكان انتجعوا أمكنة أخرى ، يلتمسون فيها مواقع الغيث والكلأ ، وعرفت لهم في هذه الأوقات تقاليد يمارسونها^(٤) . وكانت الرياح المتجاوبة في أجواء الجزيرة تختلف شدة وجفافاً باختلاف مهابها ، وقد وضعت العرب لكل ربح اسماً ، يختلف باختلاف مناطق هبوبها

(١) انظر عرام بن الأصبغ : أسماء جبال تهامة وسكانها - ٤١٤ ، ٤٢٠ ، ٤٣١ . والبكري : معجم ما استمعتم ٢ - ٦٧٥ .

(٢) الأعشى : الديوان - ٢٨٧ . (٣) انظر البكري : معجم ما استمعتم ٢ - ٣٧٨ - ٣٨٠ .

(٤) إلحاحظ : الحيوان ٤ - ٤٦٦ .

وكانوا يطعمون إذا هبت الصبا ، كما كانوا يتشاءمون بالرياح الشمالية ويعتبرونها مثلاً للشر . وقد أشار الشعراء إلى قسوتها وبرودتها وشدهتها لأنها تنذر بالقحط ، وتنزل الجذب . وهذه المقاييس تختلف بالنسبة للاتجاهات التي تهب منها وعليها . وقد سماوا الريح التي تهب بين مهيب ريحين أصليين ، النكباء كالتي تهب بين الصبا والجنوب . أما الجربياء فهي التي بين الجنوب والصبا ، وقيل هي الشمال . وذكروا الهيف . وهي الريح الباردة التي تنجم من قبل مهيب الجنوب . وقيل هي كل ريح ذات سموم تعطش المال وتيبس الرطب . وقد حفلت كتب اللغة والمعاجم بأسماء كثيرة من الرياح التي أطلقوا عليها من الاسماء ما يتناسب مع ما تحمله لهم من غيث او سموم .

✓ وتشكل الواحات المتناثرة في الجزيرة جزءاً كبيراً من المناطق الخصبة القابلة للزراعة . وهي تختلف من حيث التكوين الطبيعي وسعة المساحة . ويمكن اعتبار البلاد سلسلة من الواحات . لإحاطة الصحراء بها من جميع جهاتها . وتعدّ هذه الواحات من المصادر الممولة للسكان بالفواكه والكروم والثمار .

أما النخيل فقد أصبح الرمز الشامخ للجزيرة وقد عرفت الزراعة في كثير من المناطق . وإلى جانب النخل تبرز أسماء أصناف أخرى من الشجر والنبات والعشب والأزهار والبقول . كالنبق والشوحط والضال والتنضب والعرفط والسر والائل والغضا ، والخزامى والأقحوان والشيخ والقصيص والقيصوم .

وكذلك الحيوان الذي شغل جانباً فسيحاً من الحياة الجاهلية لاتصاله بأسباب هذه الحياة . فالخيل والإبل والغنم والبقر والكلاب . كانت وسيلتهم على مقاومة قسوة الحياة . أما الحيوانات الأخرى التي كانت تنتشر في أطراف الجزيرة . كالحمير والثيران الوحشية والظباء والضباع والذئاب والوعول والاسود والتمور . فكانت تأخذ مكاناً بارزاً في القصيدة الجاهلية .

وقد حكى حول بعضها أساطير غريبة . تتجلى في أحاديث الشعراء . أخبار القصاص والرواة .

المَبَابُ الأول

الدَّرَاسَةُ الموضوعِيَّةُ

الفَصْلُ الأول

الطَبِيعَةُ الصَّامِتَةُ

- ١ - الجبال والكثبان والسرَاب
- ٢ - الوديان والدَّارات والبرق والرياض والحِرات
- ٣ - الآبار والعيون والحِساء
- ٤ - الرياح والأنواء والأمطار والنجوم
- ٥ - الشجر والنبات

الجبـال والكثبان والسراب

الجبـال :

تعد سلسلة جبال السراة الممتدة من اليمن جنوباً إلى أطراف بادية الشام شمالاً ، من أعلى المناطق ارتفاعاً ، وتبرز في ذرى هذه السلسلة مراقب عالية . اتخذ منها الصعاليك والنؤبان ملاذاً يأوون إليه للاستراحة ، أو الاستخفاء ، وتحتضن هذه السلسلة الممتدة ودياناً ومدناً وقرى كثيرة ، لاذت بها كثير من القبائل ، ونعم بخضرتها الجاهليون ، ووقف عند رياضها وجناتها عدد كبير من الشعراء يذكرون خيرها وخصبها ونماءها .

ولم تكن هذه السلسلة وحدها في الجزيرة ، وإنما هناك سلاسل أخرى تحيط بها من سائر أقسامها ، ويتجه قسم من هذه السلاسل نحو الداخل ، مشكلاً مجموعة أخرى لا تصل في ارتفاعها إلى ما وصلت إليه سلسلة جبال الحجاز .

وكان الشعراء يتحدثون عن الجبال في أثناء حديثهم عن قطع المفاوز ، وقدرتهم على اختراقها وعبورها بناقة تقرب البعيد وتصل ما تباعد من الجبال ، قال امرؤ القيس^(١) :

(١) امرؤ القيس . الديوان ١١٦

جالت لتصرغي فقلت لها اقصري إني امرؤ صرعي عليك حرام
فجزيت خير جزاء ناقة واجسد ورجعت سالمة القرا بسلام
وكأنما بدرٌ وصيل كتيبةٍ وكأنما من عاقل أرماس^(١)

وقال تأبط شراً يفخر بنفسه ، لأنه سبق أصحابه ولم يكسل بفضل قوته
وصبره وصعوده قمة الجبل التي تشبه سنان الرمح لدقتها وطولها^(٢)

وقلّة كسنان الرمح بسارزة ضحيانة في شهور الصيف محراقٍ
بادرت قنتها صحبي وما كسلوا حتى نمت إليها بعد إشراقٍ

وفي حديث الشعراء عن ديار أحبّتهم ، ومواضع سكنهم . اشاروا
إلى مواضع الجبال وأماكنها فذكروا جبل خزاز ، قال عمرو بن كلثوم: ^(٣)
ونحن غداة أوقد في خزاز رفدنا فوق رفد السرافدنا
وجبل الرجام الذي أشار إليه أوس في قوله^(٤) :

زعمتم أن غولاً والرجام لكم ومنعجاً فاذكروا والأمر مشترك
وجبل شطب الذي ذكره عبيد^(٥) ، وامرؤ القيس^(٦) ، وأوس بن حجر^(٧)

ومثل هذا في الشعر الجاهلي كثير . كما ذكروا الجبال مقترنة بحوادث
معينة تمثل انتصارهم أو اندحارهم . خصبهم أو جدبهم . قال لبيد^(٨) :

درس المنّا بمُتالعٍ فأبّان وتقاومت بالحُبسِ فالسُّوبان
فنعافٍ صارّةً فالقَتان كأنها زُبُرٌ يرجعها وليدُ يَمّانٍ

(١) كتيبة - من بلاد باهلة ، وعاقل جبل قريب منها . أرماس . متباعد عنها (وفي البيت الأول والثالث أقواء) (٢) المفضل . المفضليات ١ - ٢٧ . (٣) انظر ابن الأنباري . شرح القصائد السبع الطوال - ٤٠٩ ، ٤٣٩ ، وديوان لبيد - ٢٦٥ ، ومعجم ما استمعتم - ٢ - ٤٩٧ .
(٤) أوس بن حجر . الديوان - ٨٠ ، وانظر المفضليات ٢ - ١٨٧ . (٥) انظر ديوان عبيد - ٥٩ (٦) انظر ديوان امرئ القيس - ٢٠١ . (٧) انظر ديوان أوس - ١٥ .
(٨) لبيد الديوان - ١٣٨ .

وقال أيضاً^(١) :

فالضيف والجار الجنيب كأنما هبطا تبالة مخصباً أهضامها
ووجدوا فيها ملاذاً يلوذون به في مواسم الصيف ، قال تأبط شراً^(٢) :
هلاً سألت عميراً عن مصاولتي قوماً منازلهم بالصيف البان
وحصوناً يصعدون إلى شعابها ، ويدخلون فيها العيال والذراري^(٣) وأمكنة
يتحالفون عندها^(٤) .

وكانوا يذكرون الجبال في أحاديثهم عن السيول ، لأن قوة هذه السيول
كانت تحط الوحوش من ذرى هذه الجبال ، وتسقط الشجر من قلالها ،
وتنزل العصم من كل جانب من جوانبها ، وهذا ما دفعهم إلى تصوير هذه
الحركات العنيفة في أشعارهم^(٥) . قال لبيد يصف سيلاً^(٦) :

وحطّ وحوش صاحبة من ذراها كأن وعولها رمك الجمال
أقول وصوبه متي بعيد يحطّ الشث من قلل الجبال
وقد شغل حديث المراقب جانباً كبيراً من شعر الهذليين والصعاليك لأنهم
وجدوا فيها أمكنة آمنة ، لإنجاز مهماتهم ، يرقبون منها أعداءهم ويترصدون
صيدهم ، لأن طبيعة حياتهم كانت تضطرهم إلى الحذر الدائم والترقب الشديد ،
وقد رسم أبو كبير الهذلي صورة لبعض هذه المراقب في بعض أبياته قائلاً^(٧) :
وعلوت مرتبياً على مرهوبة حصاة ليس رقيبها في مثمّل
عيطاء معنقة يكون أنيسها ورق الحمام جميعها لم يؤكل

(١) لبيد . الديوان - ٣١٨ ، وانظر - ٤٨ . (٢) البكري . معجم ما استمع - ١ - ١٨٧ .
(٣) انظر النفاذ - ٢ - ١١٥ والأغاني - ١٠ - ٣٣ والعقد الفريد - ٣ - ٣٠٧ ومعجم ما استمع
٢ - ٣٦٥ - ٣٦٦ . (٤) البكري . معجم ما استمع - ٣ - ٨٢٤ . (٥) انظر ديوان
امرى القيس - ١١٦ . (٦) لبيد . الديوان - ٩١ - ٩٣ . (٧) أبو كبير الهذلي . شرح أشعار
الهذليين - ٣ - ١٠٧٧ .

وَضَعَ النعامات الرجال بريدھا من بين شَعَشَاعٍ وبين مُظَلَّلٍ
أُخْرِجَتْ مِنْهَا سَلْقَةٌ مَهْزُولَةٌ عَجْفَاءٌ يَبْرُقُ نَابُهَا كَالْمَعُولِ^(١)

وكان ارتقاء هذه المراقب يعد من المفاجئ حتى تمدحوا به فقال أبو المثلّم
برئي صخر الغي^(٢) :

رَبَّاءٌ مُرْقِبَةٌ مَنَاعٌ مَغْلَبَةٌ رَكَّابٌ سَلْهَبَةٌ قَطَّاعٌ أَقْرَانِ^(٣)

وكان شعراء هذيل يتناولون ، وهم يعرضون لأوصاف هذه الجبال
موضوع جمع العسل من بيوت النحل المبنية في حناياها ، وما كانوا يقاسونه
في سبيل تسلقها من المصاعب ، واصفين أدواتهم التي كانوا يستخدمونها
وطرائقهم التي كانوا يصلون بواسطتها إلى هذه البيوت^(٤) . والجبال الشاغرة
بالوانها المتباينة ، وأشجارها التي تكثف سفوحها ، تثير في النفس شعوراً
غريباً ، يشوبه الخوف . ويمارجه الإجلال ، لهذا الوقار الهادئ ، والرزانة
المستديمة ، وقد وجد الشعراء الجاهليون في هذه الظاهرة الصامتة صوراً
يعبرون بها عن هذه المشاعر .

وحاول فريق من الشعراء الجاهليين أن يكونوا دقيقين إلى حد ما في
تصوير بعض صور الجبل . متاولين الخصائص البارزة فيه ، من القمم
والشعاب والتلاع والسفوح ، وحاولوا كذلك تمييز الألوان التي كانت تتلون
بها بعض هذه الجبال . وما تثيره هذه الألوان في نفوسهم من الأحاسيس
الغريبة .

الكثبان :

أما الكثبان الرملية المنتشرة في مساحات واسعة من جزيرة العرب ،

(١) حصاء . ليس فيها نبات ، في مثل : في حفظ ، سلقة : ذئبة . (٢) أبو المثلّم -
شرح أشعار الهذليين ١ - ٢٨٥ . (٣) مناع مغلبة : يمنع أن يغلب ، وقطاع أقران : لا يثبت
على ما لا ينبغي عليه الثبات . (٤) انظر شرح أشعار الهذليين - ١١٠٣ - ١١١٣ .

مشكلة جبلاً^(١) وألسنة رملية متناسقة ، فهي أشكال عرفها الشعراء فارتسمت صورها في أذهانهم ، وحددوا أبعادها هندسياً ، فكان ما استطال منها جبلاً ، وما اعوجّ حقفاً ، وما استدار دعصاً . وما كان بين التقطع والاتصال منها فهو سقط ، وما احلودب كثيباً ونقاً . وبقيت هذه الأشكال واضحة ، يستمد منها الشاعر صورته ، ويعقد بينها وبين ما يريد الحديث عنه تشبيهاته ، ومثلما وجد الشعراء في الجبال أمكنة يذكرونها في أشعارهم كذلك وجد الشعراء في أسنمة الرمال المتناثرة وكتبانها أمكنة يقفون عندها في أحاديثهم وحكاياتهم .

فقد ذكر عبيد رمال لين فقال^(١) :

تغيرت الديار بذي الدفين فأودية اللوى فرمال لين
ووقف امرؤ القيس عند رملة حومل فقال^(٢) :

فما نبتك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول وحومل
وأشار إليها طرفه وهو يصف ناقته فقال^(٣) :

مؤلتان تعرف العتق فيهما كسامعتي شاةٍ بحومل مفرد
ورملة عالج التي ذكرها زهير في قوله^(٤) :

يهدلّه ما بين رملة عالج ومن أهله بالغور زالت زلازله
وكرر ذكرها لبيد في قوله^(٥) :

جاوزن فلجا فالخون يدلجن بالليل ومن رمل عالج كتباً
وقد ذكروا رملة هيم^(٦) وماذق^(٧) وكتبان العفر^(٨) وحنان^(٩) وغيرها .

(١) عبيد . الديوان - ١٣٢ . (٢) امرؤ القيس . الديوان - ٨ . (٣) طرفة .
الديوان - ٣١٤ (الأعلم) . (٤) زهير . الديوان - ١٤٤ . (٥) لبيد . الديوان - ٢٦ .
(٦) أوس بن حجر . الديوان - ١٤٠ . (٧) انظر البكري . معجم ما استعجم - ٤ - ١١٧٥ .
(٨) انظر البكري ٣ - ٩٤٨ . (٩) انظر البكري . معجم ما استعجم ٢ - ٤٧٠ .

ونستطيع أن نقول إن أغلب ما ورد فيه ذكر الرمال . كان في أثناء حديث الشعراء عن الأطلال ، وتخصيصهم ملتوى الرمل لأنهم كانوا لا يتناولون إلا في صلابه من الأرض ليكون ذلك أثبت لاوتاد الأبنية . وأمكن للخمير النوي ، وإنما تكون الصلابه حيث ينقطع الرمل ويلتوى ويرق . كما كانوا يتعرضون لذكر الرمل في حديثهم عن الثيران الوحشية . وغيرها من الحيوانات التي كانت تتعرض لهجمات الصيادين . فتتخذ الرمال الصريحة أمكنة للاختفاء لشدها وصلابتها وصلاحتها للبقاء^(١) . ولم ينس الشعراء صوت الرمال إذا هبت الرياح ، وما كان يسمع لها من أصوات وما كانوا يتوهمونه فيها . وهم ينصتون لهذه الأصوات ، وقد دفعهم هذا الوهم إلى أن يسموا رمالاً معينة (بالعزاف) لأنهم سمعوا فيها عزيف الجن^(٢) وقد حيكت حول هذه المناطق التي لم يتمكنوا من دخولها أساطير غريبة^(٣) وأطلقوا على بعض هذه المواضع مواضع الجن . وضربوا بها المثل^(٤) .

والصورة الرابعة التي كانت تجدها محلاً في أخيلة الشعراء . هي وصفهم للمرأة وتشبيه بعض أعضائها بالكثير والدعص والنقا وغيرها .

السراب :

وصف الشعراء كل ما شاهدوه في صحرائهم المترامية الأطراف . وصوروه بما كان يجيش في نفوسهم من الصور ، وعقدوا بينه وبين ما كانوا يتفنون وصفه من صور المشابهة ما تهيأ لهم . وأكثر ما كانوا يتحدثون عن مظاهر الصحراء في حديثهم عن المجالات التي يظهرون فيها بطولاتهم .

(١) انظر ديوان النابغة - ١٧١ ، ديوان بشر - ٥١ - ٨٢٠٥٥٠ ٢٠٥٠ . (٢) انظر ديوان زهير - ٢٦٥ . وديوان الأعشى - ٣٧ ، ٥٩ ، والبكري معجم ما استعجم ٢ - ٥٥٥ - ٣٠٠ - ٩٤٠ . وبلدان ياقوت ٣ / ٦٦٧ ، ٦٦٨ . (٣) انظر البكري . معجم ما استعجم ٤ / ١٣٦٦ . وبلدان ياقوت ٤ / ٨٩٦ . (٤) الهمداني . صفة جزيرة العرب / ١٢٨ ، وتاريخ العرب بلواد علي ٥ / ٤٢ - ٤٥ .

ولا بد أن يتطرقوا في حديثهم عن الصحراء ، إلى الحديث عن السراب ، وكانوا يتناولون في حديثهم عنه ارتفاعه الذي يكون به عن ارتفاع النهار وشدة الحر ، ثم يتطرقون إلى وصف رواحهم ، ويصفون عليها كل صفات القوة ، وهي ترتفع وتنخفض وسط هذا السراب كما تراءى لهم ، وحتى في حديثهم عن الجبال الشاخنة وسط هذا الفضاء الرحب ، والكثبان الرملية المنتشرة بينها ، كانوا يختارون لأوصافها أوقات النهار حين يمتد هذا السراب فإذا كل هذه المظاهر تتحرك في الصورة وتراقص أجزاءها فكأنها مجاميع من شجر الدوم والنخيل تارة ، أو السفين تارة أخرى ، قال امرؤ القيس (١) :

فسيبُهُمْ في الآل لما تكمشوا حدائق دَوْمٍ أو سفيناً مُقَسِّراً
أو المكرعات من نخيل ابن يامن دُونِ الصفا اللّائي يلين المشقراً (٢)
سوامق جبّار أثيث فَرُوعُهُ وعاليتين قنواناً من البُسْرِ أحمر (٣)
وقال زهير يصف ظعناً (٤) :

يقطن أجواز أميال الفلاة كما يَغْشَى النَوّاي غِمَارَ النَّجِّ بالسُّفْنِ
يَخْفِضُهَا الآل طوراً ثم يرفعها كاللّوم يعميدن للإشراف أو قطن

وأغلب ما ورد من الشعر في السراب كان — كما أسلفنا — من خلال أحاديثهم عن الإبل وسرعتها وشدتها ، والأعلام التي كانوا يهتدون بها وقد أشار المرقش الأكبر إلى ذلك في قوله (٥) :

وأعرض أعلام كأن رؤوسها رؤوس جبال في خليج تُغَامَسُ
إذا علم خلفته يهتدى به بدا علم في الآل أغبر طامس

(١) امرؤ القيس . الديوان / ٥٧ . (٢) المكرعات . النخيل المغروس في الماء . وهي أنعم النخل وأطولها . (٣) الجبار . الذي فات اليد لطوله . (٤) زهير . الديوان / ١١٨ - ١١٩ . (٥) المفضل . المفضليات ٢ / ٢٦ .

الوديان والدارات والبرق والرياض والحرات

الوديان :

تقوم الأودية المتشعبة بين جبال الجزيرة بمهمتين كبيرتين ، لإرسال المياه عند نزول الأمطار من منحدرات الجبال إلى البحر والفيافي ، وكونها تؤلف معظم الأراضي الخصبة التي نزلت حولها القبائل وأقامت عندها بيوتها وخيامها ومرابعها . فشاخص واد في ديار بني كنانة^(١) وشبرمان واد نزلت عنده بنو كعب^(٢) والشبيطان واديان نزلت فيهما تميم^(٣) ، وكان ورود الوديان في الشعر يأتي في كثير من الأحيان مقترناً بذكر الأنحبة ، والاشتياق إلى ديارهم ، قال امرؤ القيس^(٤) :

وتحسب سلمى لا تزال ترى طلاً من الوحش أو بيضاً بميثاء محلال^(٥)

وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا بوادي الخزامى أو على رسّ أوعال^(٦)

وقال زهير^(٧) :

بكرن بكوراً واستحرن بسُحرة فهنّ ووادي الرسّ كاليد في الفم

(١) انظر البكري . معجم ما استعجم ٣ / ٧٧٤ . (٢) نفس المصدر ٣ / ٧٧٨ . (٣) نفس المصدر ٣ / ٨١٩ . (٤) امرؤ القيس . الديوان ٢٨ / ٢٨ . (٥) الطلا . ولد الظبية والبقرة والحيثاء سيل الوادي . (٦) الرس . البئر . وأوعال . هضبة يقال لها ذات أوعال . (٧) زهير . الديوان ١٠ / ١٢ .

ظهري من السوبان ثم جَزَعْنَه على كل قيني قشيب ومفسأ^(١)
وقال لبيد^(٢) :

درس المنا بمتالع فأبان وتقدمت بالحبس فالسوبان
نفعا صارة فالقنان كأنها زبر يرجعها وليد يمان^(٣)

وطبيعي أن تكون خصوبة هذه الوديان . ووفرة مياهها من العوامل
التي حملت الناس على اتخاذها أماكن سكنى ينزلون بها . لأن عوامل التعرية
أزالت جزءاً كبيراً من سطح الأرض ، فقربت الإنسان إلى طبقة المياه الجوفية .
حتى أصبح من السهولة حفر الآبار القليلة الغور . ولا بد أن تكثر أسماء
الوديان في أخبارهم وأيامهم لارتباطهم بها . فالسوبان واد في ديار بني تميم .
وفيه حدث يوم من أيام تميم وعامر وفي ذلك اليوم سمي عامر بن مالك .
ملاعب الأُسنة ، وقد ردد ذكره زهير وليبد في ديوانيهما^(٤) والأحص
واد لبني تغلب كانت فيه بعض وقائعهم مع إخوانهم بكر وهذا ما حمل
المهلhel على أن يقول^(٥) :

وادي الأحص لقد سقاك من العدى فيض الدموع بأهله الدعس
وذو أقر ، واد الى جنب جبل أقر . كان أحماه عمرو بن الحارث
الغساني فتحاماه الناس ، وتربعته بنو ذبيان . فأوقع بهم هناك^(٦) وكان كثير
من الشعراء يرددون ذكر الوديان المقترنة بالنصر . للمباهاة . قال ربيعة
ابن مكرم^(٧) .

إن كان يفعلك اليقين فسائلي عي الظعينة يوم وادي الأخرم

(١) قيني . قتب طويل يكون تحت الهودج . مفسأ . وقد وسع . وزيد في جانيبه ليشع .
(٢) لبيد . الديوان / ١٣٨ . (٣) المنا . منزل . وقالوا المنا . أراد المنازل ثم حذف الزاي
واللام . والسوبان واد . (٤) انظر ديوان زهير / ١٢ وديوان لبيد / ١٢٦ . ١٣٨ ، ٢٣٦ .
(٥) البكري . معجم ما استمعتم / ١١٨ . (٦) البكري . معجم ما استمعتم / ١٧٩ .
(٧) الأصفهاني . الأغاني / ١٦ / ٦٥ . (دار الكتب) .

وذكرت بعض الوديان في أحاديث الشعراء عن ظعائن أحبتهم لأنها كانت تتخذ بعض الوديان مراكز تنزل فيها بعد عناء السفر الطويل والرحلات المتواصلة ، لتزود بما تحتاج اليه من مياه ، أو طعام ، قال امرؤ القيس ^(١) :

فأتبعتهم طرفي وقد حال دُونَهُمْ غواربُ رمل ذي آلاءٍ وشيرٍ
على لآثر حيٍّ عامدينَ لِنَيْسَةٍ فحلوا العقيق أو ثنيةَ مطريقٍ

وقد أثارت الوديان العميقة في نفوس العرب الهواجس والتصورات لتفردهم في السير فيها وإذا استوحش الإنسان ، تمثل له الشيء الصغير في صورة الكبير وارتاب ، وتفرق ذهنه وداخلته الظنون ومثلت له الأشخاص فكانت حكايات الجن ، وما حيك حول عزيقها من أساطير ، فكانوا يتصورون أشكال الجن ويسمعون أصواتها ، ويحسون بها وهي تتشكل بأشكال الحيوانات ، وقد حفل الشعر بأمثال هذه الحكايات وخاصة إذا توسطوا الصحراء والوديان والمهامة المقفرة قال زهير ^(٢) :

وبلدة لا ترامُ خائفة زوراء مُغبرة جوانبها
تسمعُ للجنِّ عازفين بها تضح من رهبة ثعلبها
يصعدُ من خوفها الفؤاد ولا يرقدُ بعض الرقاد صاحبها
وقال بشر بن أبي خازم ^(٣) :

وخرق تعزف الجنان فيه فيافيه يطير بها السهام
وقال الأعشى ^(٤) :

وبهماء تعزف جنانها مناهلها آجنت سدم
وقال لبيد ^(٥) :

غلب تشدّر بالذحول كأنها جنّ البدى رواسياً أقدامها

(١) امرؤ القيس . الديوان / ١٦٩ . (٢) زهير . الديوان / ٢٦٥ . (٣) بشر .
الديوان / ٢٠٣ . (٤) الأعشى . الديوان / ٣٧ . (٥) لبيد . الديوان / ٣١٧ .

واعظم اودية الحجاز وادي اضم ، الذي تردد ذكره عند الشعراء وهو وادي شق الحجاز ، حتى يصل الى البحر ، ويقع بين جبال تهامة ، ويسمى عند المدينة العثاء ، واذا انحدر الى اسفل يسمى اضمأ ، قال سلامة بن جندل يذكر ديار احبته^(١) :

يا دار اسماء بالعلياء من اضم بين الذكادك من قو فمعصوب
كانت لها مرة داراً فغيرها مر الرياح بسافي الترب مجلوب
وقال طرفة^(٢) :

لخولة بالاجزاع من اضم طلل وبالسفح من قو مقام ومحتمل
وقال النابغة^(٣) :

بانت سعاد وامسى جبلها انجذ ما واحتلت الشرع فالأجزاع من اضم
ومن اودية المدينة العتيق ، وفيه عيون ونخل^(٤) ، وفي نجد اودية كثيرة اعظمها وادي الرمة ، وهو وادي يمر بين ابانين ، ينحدر من الغرب ، وهو اكبر وادي بنجد يجيء من الغور والحجاز ، اعلاه لأهل المدينة وبني سليم ، ووسطه لبني كلاب وغطفان ، واسفله لبني اسد وعيس ، ثم ينقطع في رمل العيون ، لا بكثر سيله حتى يمدد الجريب ، وادي لكلات^(٥) قال طفيل الغنوي^(٦) :
قلذفن بني من ساهن بصخرة وذم بخيل الرمتين وناصله
وهناك اودية كثيرة وردت اسماءها في الشعر ، وتغني بخصبها ومنازلها ومياهها الشعراء ، فاستعذبوا الماء في وادي شوارق والابطن^(٧) ، وكانت غني تسكن وادي الجريب ، ثم صار لبني فزارة ، وتردد ذكره عند كثير

(١) شيخو . شعراء النصرانية ٤ / ٤٨٦ . (٢) طرفة . الديوان ١١١ / (٣) النابغة . الديوان ١٦٩ ، وانظر البكري معجم ما استعجم ١ / ٦٨ . (٤) انظر البكري معجم ما استعجم ٣ / ٧٠٠ . (٥) ياقوت ٢٠ / ٨٢٢ . (٦) الطفيل الغنوي . الديوان ٦٣ / (٧) البكري معجم ما استعجم ١ / ١٠٠ .

من الشعراء^(١) ، وكذلك وادي مطرق السذي اشار اليه امرؤ القيس^(٢) ،
ووادي ذو طلال الذي تحدث عنه عروة^(٣) ، ووادي الاحص الذي وقف
عنده المهلهل^(٤) ، وادوية اخرى حفلت بها دواوين الشعراء ، وكتب التاريخ
والادب والاماكن .

الدارات :

في بلاد العرب دارات كثيرة ، وهي كل ارض واسعة بين جبال ،
وقال الاصمعي^(٥) الدارة كل ما اتسع من الارض ، واحاطت به الجبال ،
غلظ او سهل ، ولكن الذي يبدو ، انها ارض سهلة ، لينة ، بيضاء في اكثر
الاحيان ، تنبت الاعشاب والنباتات الصحراوية ، وتتخذ في المباحط ونحوها
ولبعض الدارات شهرة كبيرة في الادب العربي ، لورودها على السنة
الشعراء ، وتغنيهم بها ، وتذكرهم ايامهم التي قضوها في ربوعها ، وقد
ألف الاصمعي كتاباً فيها^(٦) وذكر البكري ، ان ابن فارس ألف كتاباً في
الدارات والبرق ، ورام محمد بن حبيب جمعها ، وتلاه صاعد بن الحسن^(٧)
ولم يقع في ايدينا من هذه الكتب الا كتاب الاصمعي .

واختلف في عدد هذه الدارات ، ذكر الاصمعي ان دارات العرب
المعروفة في بلدانهم واشعارهم ، ست عشرة دارة ، وقال ابن الفقيه الهمداني
سبع عشرة دارة^(٨) وذكر البكري منها اثنتين وعشرين دارة^(٩) . اما ياقوت
فقد ذكر نيفاً وستين دارة ، استخرجها - كما يقول - من كتب العلماء

(١) نفس المصدر ٣٧٨/ ٢ . (٢) انظر ديوان امرؤ القيس ١٦٩ . (٣) انظر ديوان
عروة ١٢٣ . (٤) انظر البكري معجم ما استعجم ١/ ١١٨ (٥) الاصمعي . الدارات ١٤ .
(٦) سمي بنشره ، وجمع رواياته الدكتور أوغست هافتر ، وهو عبارة عن ثلاث صفحات ، جمع
فيها الاصمعي آياتاً لبعض الشعراء ، يذكرون بها دارات العرب ، ونشر في مجلة المشرق السنة
الأولى ١٨٩٨ (بيروت) . (٧) انظر معجم ما استعجم ٢/ ٥٣٣ . (٨) انظر مختصر
البلدان لابن الفقيه ٣٢ . (٩) انظر معجم ما استعجم ٢/ ٥٣٣ .

نقمة واشعار العرب المحكمة ، وافواه المشايخ الثقاة ، واستدل عليها الاشعار وقال ، انه لم يرَ احداً من الائمة القدماء ، زاد على العشرين دارة ، لا ما كان من ابي الحسين بن فارس ، فانه افرد لها كتاباً ، فذكر نحو لاربعين^(١) واوصلها السخاوي في سفر السعادة الى نيّف واربعين دارة ، واستدل على اكثرها بالشواهد لأهلها فيها ، وذكر المبرد في اماليه دارات كثيرة واورد الصغاني في تكملته احدى وسبعين دارة^(٢) .

وجاء ذكر قسم من هذه الدارات في المعجم اللغوية^(٣) وهي تنيف على مائة وعشر ، وادعى صاحب التاج ، انها لم تجتمع لغيره مع بحثهم وتنقيرهم فأوصلها الى مائة واثنتي عشرة دارة ، ذكرها مرتبة على الحروف الهجائية^(٤) .
واشهر هذه الدارات ، دارة جلجل التي اقترنت بذكر امرئ القيس^(٥) ودارة القلتين التي ذكرها بشر فقال^(٦) :

سمعت بدارة القلتين صوتاً لحنم فالنفوذ به مروع^(٧)
دارة موضوع التي قال فيها الحصين بن الحمام^(٨) :
جزى الله افناء العشيرة كلها بدارة موضوع عقوقاً ومأثماً
دارة الصفائح ، وفيها يقول الافوه الاودي^(٩) :
تبكيها الارامل بالملّي بدارات الصفائح والفصيل
دارة المرورة ، قال زهير^(١٠) :

تربّص فان تُقو المرورة منهم وداراتها لا تُقو منهم اذا نخل

(١) ياقوت . معجم البلدان ٢/ ٥٢٦ . (٢) التاج الدار . (٣) انظر مادة (دار) في اللسان والتاج . (٤) الزبيدي . التاج (دار) .
(٥) انظر ديوان امرئ القيس / ١٠ . (٦) بشر . الديوان / ١٣٢ .
(٧) حنم : اسم امرأة ، جاء به مرعماً . (٨) الأصمعي . الدارات / ١٨ ، والمفصليات ٦٢/١ (٩) الافوه . الديوان / ٢٣ . (١٠) زهير . الديوان / ١٠٠ .

ودارة محصن ، قال دريد بن الصمة^(١) :

فدارة محصن فبذى طلوح فسرواح الماثمن فالضواحي
واغلب احاديث الشعراء — كما وردت في النماذج — المتقدمة عن الدارات
كان يأتي من خلال احاديثهم عن الاماكن التي ارتبطت ببعض الحوادث ،
تاركة في نفوس الشعراء وقعاً تاريخياً معيناً وكانوا يذكرونه مقترناً بهذه الدارات

البرق :

اما البرق فهي غلظ فيه حجارة ورمل وطين مختلطة وتنبت اظهرها
البقل والشجر ، وتكون الى جنبها الرياض احياناً ، والغالب على حجارتها
البياض ، وفيها حجارة حمر وسود تبرق بلون حجارتها وتراها^(٢) .

وبرق ديار العرب تنيف على مائة ذكرها صاحب القاموس والتاج
واستشهد على كل برقة منها بشاهد واحد ، او اكثر ، وقد شاع ذكر البرق
في الشعر الجاهلي ، ودارت اسماؤها في احاديث الشعراء ، وهم يذكرون
ايام هومهم وصباهم ويحنون الى مراحب احبتهم التي كانوا يتخذونها في امثال
هذه البرق ، فيقيمون عندها ، وكان ذكرها يأتي من خلال احاديث الشعراء
عن الحوادث التي اقترنت بها .

وربما تكون العوامل التي دعتهم الى ذكرها هي نفس العوامل التي
دفعت الشعراء الى ذكر الدارات ولكن الذي يتميز في البرق انها كانت في
اغلب الاحيان — تتخذ اماكن للاستقرار واقامة القبائل ، واشهر هذه البرق ،
برقة شُهد التي افتتح بها طرفة معلقته فقال^(٣) :

لخولة اطلال ببرقة شُهد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

(١) دريد . شعراء النصرانية .

(٢) انظر مادة برق في اللسان والتاج . (٣) طرفة . الديوان / ٣٠ .

وبرقة رحرحان ، قال لبيد يعدد مفاخره^(١) :

اني امرؤ منعت ارومة عامر ضيمي وقد جَنَنْتْ عليَّ خُصُوم^(٢)
جهدوا العداوة كلها فأصدّها عني مناكب عزّها معلوم
منها حَوَيّ والذهاب وقبله يوم ببرقة رحرحان كسريم
وبرقة ثمّ قال بشر^(٣) :

تبينّ خليلي هل ترى من طعائن غرائر ابكارٍ ببرقة ثمّ
وبرقة الروحان ، قال عبيد يتحسر على تفرق قومه^(٤) :

لمن الديار ببرقة الروحان درست وغيرها صروف زمان
وبرقة حليت^(٥) وبرقة خنزير^(٦) وهناك برق كثيرة اخرى يمكن الرجوع
اليها في دواوين الشعراء^(٧) .

٣٨ الرياض :

تشكل الرياض في جزيرة العرب مساحات لا بأس بها ، ففيها من
الرياض - كما يذكر ياقوت^(٨) مائة وست وثلاثون روضة ، سميت بهذا
الاسم ، لاستراضة الماء فيها^(٩) وهي تكون مطمئنة ، يسيل اليها ماء السيول
فيسترىض فيها ، فتنبث ضروب من العشب والبقول ولا يسرع اليها الذبول ،
واذا اعشبت الرياض ، وتتابع عليها الوسمي ربت العرب بنعمها جمعاء ،
وكانت تسيل في بعضها الجداول الصغيرة وتسمى الرياض حدائق اذا التف
عشبا وتكاثف .

(١) لبيد . الديوان ١٣٢ . (٢) جنفت . جارت . (٣) بشر . الديوان/ ١٩٣ .
(٤) عبيد . الديوان/ ١٣٠ . (٥) انظر ديوان عامر بن الطفيل . الديوان/ ١٣٦ .
(٦) انظر ديوان الأعشى ، الديوان/ ٥٧ . (٧) انظر ديوان امرئ القيس ٧٨ وديوان
بشر / ٢٠٧ وديوان الأعشى / ٥٤ . وديوان لبيد / ١١٨ .
(٨) ياقوت . معجم البلدان ٢/ ٨٤٠ . (٩) استراض . استنقع فيه الماء .

وقد استرعى الجاحظ ذكر الشعراء لرطوبة النبات ، ولتدونة الاغصان وما يجري في ديارهم احياناً من خصب بعد مطر نزر^(١) وقد اعجب اعجاباً شديداً بوصف عنتره لروضة من هذه الرياض ، وتصويره للذباب وحركة جناحيه حين يسقط وتشبيهاته للحديقة في استدارتها وصفاء مأها ، وتشبيه صوت الذباب بصوت الشارب المترنم^(٢) .

وكانت بعض الرياض تضاف الى الاعلام او الاقوام او المواضع المجاورة او الوديان ، وللشعراء في ذكرها مواقف . قال طرفة يذكر روضة دعي^(٣) :

نحولة اطلال ببرقة شهسد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
فروضة دعي فاكفاف حائل ضللت بها ابكي وابكي الى الغد
وقال المسيب بن علس في رياض الاخرمين^(٤) :

ترعى رياض الاخرمين له منها موارد ماؤها غدق
وقال الاعشى يذكر روض التناضب^(٥) :

مليكة جاورت بالحجا زقوماً عداة وارضا شطيرا
بما قد تربع روض القطا وروض التناضب حتى تصيرا
وقال لبید في رياض الاعراف^(٦) :

هلكت عامر فلم يبقَ منها برياض الاعراف الالديار
ومن هذه النماذج نجد ان وصف الشعراء للرياض لم يكن واحداً بل يتفاوت ادراكهم لسر الجمال واحساسهم به .

(١) الجاحظ الحيوان ٣ / ١١٩ - ١٢٢ . (٢) الجاحظ . الحيوان ٣ / ٣١١ - ٣١٢ .

(٣) طرفة الديوان / ٣٠٨ (٤) شيخو . شعراء النصرانية ١ / ٣٥٤ .

(٥) الاعشى . الديوان / ٨٥ . (٦) لبید . الديوان / ٤٤ .

الحرّات :

اما الحرار ، فقد اشتهر بعضها بالخصب والنماء وبكثرة المياه فيها ولا سيما حرار المدينة وخيبر ، حتى اصبحت تؤلف مجموعة كبيرة من القرى المزدهمة بالسكان وقد استفاد العرب من هذه الحرار باستخراج احجار الرحي والمسان منها ، وشغلت احاديث الحرار جانباً كبيراً من قصص العرب ورواياتهم ، فحرة اشجع بين مكة والمدينة ، وهي التي ظهرت فيها نار الحدثان ، فكان طوائف من العرب يعبدونها تشبهاً بالمجوس ، فقام رجل من عبس يقال له خالد بن سنان - وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك نبي ضيَّعه قومه ، فقال : انا اقتل هذه النار كيلا تعبدوها العرب ، فتشبه بهذه الطماطم ، يعني المجوس فقال له اخوته ، مهلاً يا خالد انك ان قتلت هذه النار لا نأمن عليك من ان تموت قال : لا ابالي فقبض على عصاه ، وشدّ عليه ثيابه ، ومضى نحو تلك النار ، وجعل يضرب بعصاه ويقول : بدّاً بدا ، كل هذا له مؤدّى حتى اطفأها^(١) .

وظلت احاديث الحرار تتردد حتى عهد الخلفاء الراشدين ، فحرة النار لم تزال ثائرة تخرج منها النار حتى عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي)^(٢) .

ولا بد ان تدل هذه البراكين - التي كانت عاملاً من عوامل وجود هذه الحرار على ان فعلها لم ينقطع في جزيرة العرب ، وشأن الحرار في الشعر ، شأن الدارات والبرق والرياض ، فقد تطرق لذكرها الشعراء مندفعين بنفس العوامل التي اندفعوا من اجلها لقول الشعر في الدارات والبرق والرياض ، فقد ذكر النابتة حرة النار فقال^(٣) :

إمّا عَصِيْتُ فأنسي غيرُ مُتَفَلِّئٍ مِنِّي للصابُ فجنبنا حرّة النار

(١) البكري . معجم ما استعجم ٢ / ٤٣٥ . (٢) نفس المصدر ٢ / ٤٣٦ .

(٣) النابتة الديوان ٥٦ .

تُدافعُ الناسَ عنا حين نركبُها من المظالم تُدعى أم صَبَّارٍ^(١)
وذكر حرة راجل فقال^(٢) :

يؤمّ بربعي كأن زهائه اذا هبط الصحراء حرّة راجلٍ^(٣)
وذكر بشر بن أبي خازم حرة ليلي وحرّة ضارج فقال^(٤) :

مُعاليةً لاهمّ إلاّ محجّر وحرّة ليلي . السهل منها ولوبُها^(٥)
وقال في حرة ضارج :

بكل فضاء بين حرة ضارج ونخل الى ماء القصيبة موكب
ان تحديد الشعراء لهذه المواضع لم يقتصر على كونها مناطق خصب اتخذتها
القبائل مراجع تنعم بخصبها ومياهها ، وانما هي شيء غير هذا ، فالشعراء
حاولوا ان يحددوا لنا هذه المناطق . ويرسموا اماكنها بكل دقة ، وما كانوا
يجدونه فيها ، وبهذه المعلومات يوضحون اخباراً تاريخية ، ويصورون تخطيطاً
جغرافياً يمكن الانتفاع منه ، لانه يلقي اضواء قوية على هذه المناطق التي لم
تزل مجهولة وفي هذه الناحية تكمن اهمية الشعر الجاهلي الذي يعد من اصدق
الوثائق صحة وتوثيقاً .

(١) الصاب . الواحد لصب . الثقب الضيق من الجبل . حرة النار . حرة لبني مرة ،
يقول : إن عصيتوني فإني ألبأ إلى هذه الحارر فلا تصل إلى الجبل .

(٢) الثابتة . الديوان / ٩٥ . (٣) الربيع . الجيش المنسوب إلى الربيع ، يشبه الجيش
في كثرتة بجبل . (٤) بشر بن أبي خازم . الديوان / ١٤ . (٥) معالية . مرتفعة تقصد
أرض المعالية ، ومحجر وحرّة ليلي . موضعان . ولوب ، جمع لوبة ، وهي الحرة . يقول بانث
تقصد المعالية وليس لها هم إلا أن تأتي محجراً وحرّة ليل .

المياه

الآبار :

اجمع المؤرخون والباحثون على ان جزيرة العرب كانت تختلف اختلافاً كلياً من حيث وفرة المياه ، والخصب ، وكثرة الامطار ، والشعر البهاهي يحفل باشارات كثيرة الى الغدران والحداول والعيون والسيول والوديان ، وكثيراً ما كان يأتي ذكر بعض هذه المظاهر في حديث الشعراء عن قدرتهم على اجتياز المسالك الصعبة ، وقطع مجاهل الارض في جراحة ، غير محتاجين الى وصف الواصف ، او هداية الدليل ، قال تأبطشراً يصف غدراناً تجمعت من سيل عظيم ، خلع الصخر من مواضعه^(١) .

وشعب كشل الثوب شكس طريقه مجامع صوحيه نطاف مخاصر^(٢)
به من سيول الصيف بيض اقرها جبار لصم الصخر فيه قراقر
وكانت العرب تشبه الدروع الرقيقة النسج لصفائها ، والسيوف بالغدران .
قال عبد قيس يصف درعه^(٣) :

(١) الأصمعي . الأصمعيات / ١٣٥ . (٢) الصوحان . بضم الصاد ونحتها . جانباً الجبل أو حائطاً الوادي . النطاف . جمع نطفة ، وهي ما يجتمع من ماء المطر في موضوع . (٣) المفضل المفضليات ٢ / ١٨٦ .

وسابغة من جياذ الدروع تسمع للسيف فيها صليلاً
كماء الغدير زفته الدبور يجر المدجج منها فضولاً

فاذا امتلأ الغدير ، وضربته الرياح بدت فيه طرائق ، وعندها تنضح
الصورة في ذهن الشاعر ، وتتمثل صافية رقراقة ، قال أبو قيس بن الاسلت
يصف درعه^(١) :

اعددت للاعداء موضونة فضفاضة كالنهي بالقاع
احفرها عني بذني رونق مهند كالملح قطاع
وقال الشنفرى يصف حساماً^(٢) :

حسام كلون الملح صاف حديدہ جزار كاقطاع الغدير المنعت
واستخدم شعراء شرقي الجزيرة العربية صورة الانهر المتدفقة في المدح
لاظهار فيض المدحويين . قال النابغة يمدح النعمان بن المنذر ويعتذر اليه^(٣) .
فما القرائث اذا هبَّ الرياح له ترمي غواربه العبرين بالزبد
يوماً باجود منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غدٍ
وقال بشر يمدح اوس بن حارثة^(٤) :

ولو جاراك ابيض مثلث فُرى نَبَط السَّواد له عيال^(٥)
تهفُّ يداك من هذا وهذا وتعزف من جوانبه السَّجال^(٦)
لاصبحت السفين مَخَوِيَّاتٍ على القُدُفاتِ ليس لها بلال^(٧)

(١) المفضل . المفضليات ٢/ ٨٤ . (٢) المفضل . المفضليات ١/ ١٠٩ وانظر معلقة عمرو
ابن كلثوم في شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري/ ١٦٤ وديوان أوس/ ٨٤ وديوان عامر بن
الطفيل ٢٧/ ١٠٢ ، وديوان الأعشى ٢٥/ الأسميات/ ١٥٠ ، والمفضليات ١/ ٤٠ ، ٢/ ٨٢ .
(٣) النابغة . الديوان/ ١٥٤ (مختار الشعر الجاهلي للأعلم) . (٤) بشر . الديوان/ ١٦٩-١٧٠ .
(٥) أبيض مثلث . أي نهر أبيض . (٦) السجال . جمع سجل . يفتح السين
وهو الدلو الفسحة المملوءة ماء . (٧) مخويات . أي مرتفعات . القدُفات . الجبال ، والأعشى =

- ويمكننا ان نستدل ايضاً على وفرة المياه في بعض المناطق من اشارات بعض الشعراء الى وجود العروض والطحلب الاخضر الذي يعلو الماء ، قال ابو كبير يرثي بعض أصحابه^(١) :

ولقد وردت الماء فوقَ جمامة مثلُ الفَرِيقَةِ صُفِّيتَ للمُدفنِ^(٢)
فصدرت عنه ظامئاً وتركته يَهْتَزُّ غَلْفَقُهُ كَأَن لَمْ يَكْشَفْ

على ان هذه المناطق لم تكن في الواقع الا جزءاً صغيراً من جزيرة العرب ، اما المناطق الاخرى التي تشغل المساحات الشاسعة ، فقد كانت نادرة المياه ، وان توفرت بعض الآبار في اجزاء متباعدة منها ، ولهذا وجدنا التحول الاجتماعي الشامل في حياة سكانها ، فغلب عليهم طابع البداوة ، فكانوا قبائل رحلاً ، يطلبون الماء ويسعون وراء الكلاً ، الذي يعتبر عماد حياتهم .

وكان العرب في فجر تاريخهم البعيد ينظرون الى المياه نظرة تقديس لانها مورد الخصب والنماء ، وواهبه البركة والخير فكانوا ينشدون الأراجيز في اثناء حفر الآبار ، ويتبين من الأراجيز التي وصلت الينا ، ان نار المنافسة اشتعلت بين بطون قريش المختلفة ، كي يحفر كل بطن منها بئراً خاصة به ، ويسقي منها حجاج مكة ، فقد حفر قصي بن كلاب ابو القبيلة كلها بئراً سماها العجول . وفيها يقول بعض رجاز الحاج^(٣) :

نروى العَجُولَ ثم ننتلِقْ قبلَ صدور الحاج من كل أُفُقٍ
إن قصيًّا قد وفى وقد صدقَ بالشبع للناس وريٌّ مُغْتَبَقٌ

وحفر بنو هاشم زمزماً وسَجَلَةً وبَدْرًا ، قال ابن اسحق : وقد سمعت

= قصائد كثيرة ، يسلك فيها هذا المسلك ، ويشبه الممدوح بالفرات أو النيل أو النهر . انظر / ٢٩ ،

٣٩ ، ٥١ ، ٩٩ ، ١٠٩ ، ١٩٣ ، ٢٩٧ ، ٣٣٩ .

(١) أبو كبير . شرح أشعار المهذلين ٣ / ١٠٨٦ . (٢) الفرقة حلبة تطبخ للنساء مع حبوب .

(٣) البلاذري . فتوح البلدان / ٤٨ .

من يحدث عن عبد المطلب أنه قيل له حين أمر بحفر زمزم. (١)
ثم ادع بالماءِ الروي غير الكدر يستقي حجاج الله في كل مسبر

ليس يُخافُ منه شيء ما عمّر

وحفر بنو عبد شمس خُماً ورُماً والطوى . وحفر بنو أسد شُفِيّةً ،
وحفر بنو عبد الدار أم أحراد ، وحفر بنو جُمُع السَّنْبلة وحفر بنو سهم العَمَرُ
وحفر بنو عدي الحفير (٢) .

ونظم كل فريق منهم الارجيز التي ثني على بثره ، وتمدح ماءه وقد تعيب
ماء غيره من الآبار ، حتى أننا نجد بينها ما يشبه النقائص المعروفة : فاكتمى
بنو سهم ، وبنو عدي بوصف آبارهم بغزارة الماء قال شاعرهم (٣) :

نحن حفرنا بثرنا الحفيرا بحرّاً يَجيشُ ماؤه غزيراً
وشبه بنو جمع وبنو أسد ماء آبارهم بماء المطر الهاطل من السماء ، وأضاف
بنو أسد إلى بثرهم صفة أخرى ، وهي أن ماءه ليس بالماء الآسن المتكدر
فقالوا (٤) :

ماء شُفِيّة كماء المُرّن وليس ماؤها يطرق أجّن
ووافقهم على ذلك التشبيه بنو عبد شمس ، ولكنهم ذهبوا فيه إلى العذوبة
مع الصفاء ، قالوا (٥) :

إن الطوى إذا شربتم ماءها صوبُ الغمام عذوبة وصفاء
ووهب بنو هاشم سجلة للمطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف ،
ويزعم بنو نوفل أن المطعم ابتاعها من أسد بن هاشم ، وقد وجدت خالدة بنت

(١) ابن هشام . السيرة ١٥٦/١ . (٢) انظر ابن هشام ١٥٩/١ - ٦٢ . والبلاذري . فتوح
البلدان ٤٩ . (٣) البلاذري . وج البلدان ٤٩ . (٤) نفس المصدر ٤٩ .
(٥) نفس المصدر ٤٩ وانظر ياقوت (الطوي) .

هاشم الفرصة مواتية لتجلو محاسنها ، فذكرت أنها محضرة في أرض طيبة سهلة
وأن ماءها غزير يروي الحجيح دفعة بعد دفعة^(١) .

نحن وهبنا لعدي سجلة في تربة ذات عداة سهلة
تروي الحجيح زغلة زغلة

ولإذا كنا ترى في الشعر السابق فخراً ، فإن أشعار السقاة أو الماتحين تختلف
وتتنوع ، فمنهم من يفتخر بقوته وقدرته على العمل ، ومنهم من يمدح صاحب
البئر وحافرها كما ذكرنا^(٢) .

ولعلّ الحرمان ، وندرة المياه ، وجذب الأرض ، هو الذي جعلهم يبالغون
في تقدير الخصب ، ويرون له رونقاً خاصاً في هذه البيئة الجرداء ، ومن هنا
وجدنا القصص الطويلة التي دارت حول الآبار والمياه ، وما ورد حول حفرها
من روايات دليل على ما ذكرنا^(٣) .

وهم بعد هذا لم يكتفوا بتقدير الخصب وحده ، وإنما قدسوا مواطن الماء
القديمة ، واعتقدوا فيها أسراراً غامضة ، وأضافوا عليها من القوى الخفية ما لم
يصفوه على غيرها من الأماكن ، حتى كان إذا غمّ عليهم أمر الغائب ، جاؤوا
إلى بئر قديمة ، بعيدة الغور ، نادوا يا فلان أو أبا فلان ، ثلاث مرات فلإن
كان ميتاً لم يسمعوا في اعتقادهم صوتاً ، قال شاعرهم^(٤) :

دعوت أبا المغوار في الحفر دعوة فما آصص صوتي بالذي كنت داعياً
أظن أبا المغوار في قعر مظلم تجر عليه الذاريات السوافيا
وقال آخر^(٥) :

وكم ناديته في قعر ساج بعادي البثار فما أجابا

(١) البلاذري . فتوح البلدان/ ٤٩ . (٢) انظر أمالي القاضي ٢/ ٢٤٤ . (٣) ابن هشام
السيرة ١/ ١٥٤ . (٤) الألويسي . بلوغ الأرب ٣/ ٣ . (٥) المصدر نفسه ٣/ ٣ .

وما بُرّ زمزم إلا دليل من هذه الأدلة ، فقد انصرف إليها الناس لفضلها على سواها من المياه ، لجلال قدرها ، وكان يتمثل بشرفها على سائر المياه ، فكانوا يتفاخرون في المقام عليها ، والشرب منها ، والاعتسال بها ، لمكانها من المسجد الحرام ، ولأنها بُرّ اسماعيل عليه السلام^(١) وقد بلغت منزلة من يشرب منها درجة الشرف والفخر حتى قال الأعشى يهجو رجلاً ويؤنبه وينخبره أنه مع شرفه لم يبلغ مبلغ قريش الذين هم سكان الحرم الله ولهم حظ الشرب من زمزم^(٢) .

فما أنت من أهل الحُجون ولا الصفا ولا لك حق الشرب من ماء زمزم واقتخرت بها بنو عبد مناف على قريش كلها وعلى سائر العرب فقال مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وهو يفخر على قريش بما ولوا عليهم من السقاية والرفادة^(٣) .

ورثنا المجد من آبا ئنا فنسى بنا صعدا
ألم نسق الحجيج وننح ر الدلافة الرفدا
وزمزم في أرومتنا ونفقاً عين من حسدا
وقال حذيفة بن غانم أخو بني عدي بن كعب بن لؤي^(٤)

وساقى الحجيج ثم للخير هاشم وعبد مناف ذلك السيد الفهري
طوى زمزماً عند المقام فأصبحت سقايته فخراً على كل ذي فخر

وبلغ إعزازهم للمطر مبلغاً عظيماً ، حتى أصبح غاية دعائهم للمرجو والمشكور أن يقولوا . سقى الله فلاناً الغيث ، وأسقاهم ، وطلبوا له السقاية حتى إذا ذكروا أياماً طابت لهم قالوا . سقى الله تلك الأيام ، وربما دعوا للديار

(١) انظر الثعالبى ثمار القلوب / ٤٤٤ . انظر الأعلام النفيسة لابن رسته / ٤٠ و انظر ياقوت (زمزم) (٢) الأعشى . الديوان / ١٢٣ . (٣) ابن هشام . السيرة / ١٦٤ / ١ . (٤) ابن هشام . السيرة / ١٦٤ / ١ .

المحبوبة بالسقيا كما حدثنا الشعراء .

وندره المياه اضطرتهم إلى أن يمهروا في العثور على مواضع الماء وعرفت هذه الفراسة عندهم ، وعرف بعضهم بها ، فكانوا يستدلون عليه ببعض الإشارات الدالة على وجوده فيعرفون بعده وقربه بشم التراب أو برائحة بعض النباتات ، فالثليل مثلاً لا يكاد ينبت إلا على ماء وفي موضع تحته ماء يستدل به عليه ^(١) وكانوا يهتدون إلى الماء من حركة بعض الحيوانات ، ويسمى من له هذه الفراسة (بالنصّات) أو (القناقن) ^(٢) أما حفظ المياه ، فكانت له طرق معينة ، منها أنه كان يعهد إلى الجبّاة بجمعها في أحواض خاصة ، وقد ذكر النابغة هذه الطريقة في قصيدته التي يمدح فيها عمرو بن هند فقال ^(٣)

على أنيابها بغيرِض مُزْنٍ تَقْبَلُهُ الْجُبَّاءُ مِنْ الغمام
فأضحى في مَدَاهِنَ بارداتٍ بمنطَلَقِ الجنوبِ على الجَهَامِ
أو كانوا يجمعونها في حفر بين الجبال ، قال أوس بن حجر ^(٤)

وأخلفه من كل وقط ومدهن نطاف فمشروب يباب وناشف

وكانوا يتخذون مواضع تحفظ ماء السماء ، فتحفر فيها حفرة ، وتجعل لها مثايل من الماء ، فيجتمع ماء المطر فيها ، فيشربه الناس ، وهذا ما أطلقوا عليه الثماد . قال بشر بن أبي خازم يشير إلى يوم النثار الذي كان بين بني أسد وأحلافها وبين بني عامر ^(٥) .

اليكّ الوجّه إذ كانت مبلوكي ثمادَ الحزنِ أخطأها الربيع ^(٦)

(١) أبو حنيفة . النبات / ٨٢ . (٢) القناقن . البصير . بالماء في حفر الفتي ، وقيل . هو البصير . بالماء تحت الأرض ، أو بحفر المياه واستخراجها ، وقيل المهندس الذي يعرف موضع الماء تحت الأرض ، فيعرف مقدار الماء في البئر قريباً أو بعيداً من السماع (التاج مادة قن) .

(٣) النابغة . الديوان / ٢٠٣ (مختار الأعلام الشتمري) . (٤) أوس بن حجر . الديوان / ٦٨ .

(٥) بشر . الديوان / ١٣٥ . (٦) الملوك . جمع الملك بتثنية الميم ، وهو ها هنا بمعنى الماء .

وقال عبيد يصف أحد بني أسد^(١)

القائد الخليل تردّي في أعتتها وردّ القطا هجرت ظمياً إلى التمدد
أما حفظ الماء في بطون الإبل فكان معروفاً عند العرب الجاهليين ، وقد
أجمع شراح بيت علقمة على تفسير قوله^(٢)

وقد أصاحب فتیاناً طعامهم خضر المزاد ولحم فيه تنشيم

إن خضر المزاد ، هي البطون ، أراد أنهم يفتظون ماءها ، وكانوا إذا
قطعوا مفازة وأعوزهم الماء ، افتظوا كروش الإبل ، وشربوا ما فيها من ماء ،
ويذكر محمد بن حبيب^(٣) ، أن رافع بن عمير الطائي ، دليل خالد بن الوليد
(بن المغيرة) من اليمامة إلى الشام حين كتب إليه أبو بكر رحمه الله بالماضي
إلى الشام ، فظماً الإبل وكعمها^(٤)

وكانوا يشقون بطون الإبل ، ويسقون ماءها الخليل ويشربونه ، ويأكلون
لحومها ، ومن غير العقول أن تكون هذه الحادثة الأولى ، فلم تكن مسبوقة
بعشرات غيرها ، لما خاطر المسلمون باستعمالها ، وعرضوا جيوشهم لنتائج غير
معلومة ، إذ لا بد أن يكون طعامهم هذا في الغزو والسفر البعيد الغاية .

أما ما ذكره صاحب الأغاني عن السليك^(٥) فدليل آخر من أدلة هذه
النذرة التي دفعتمهم إلى إيجاد طرق غريبة في حفظ المياه ، قال أبو عبيدة .

(١) عبيد . الديوان/ ٥٩ . (٢) علقمة . الديوان/ ٤٣٢ . وجاء في التاج الفظ . ماء الكرش ،
يمتص ، ويشرب منه عند عوز الماء في المفاوز والفلوات ومنه قوله افتظ الرجل ، وهو أن يسقي
بعيره ثم يشد فمه لئلا يمتص فإذا أصابه عطش شق بطنه فمصر فرثه فشربه . (٣) محمد بن حبيب .
المحبر/ ١٩٠ . (٤) كعم والكمام . شي . يحبل على فم البعير لئلا يأكل أو يعض وكم البعير .
شد فاه . (٥) الأصمهاني . الأغاني/ ١٨/ ١٣٣ ، وتنسب القصة إلى دميمس الرمل العبدي في
المحبر/ ١٨٩ ، وفي الأزمنة والأمكنة ٢/ ٢١٤ ، ينسبها للسليك ، ويذكر أخباراً مستفيضة عن
أدلاء العرب وقد رتبهم على الاهتداء بواسطة النجوم ، ومعرفتهم مجاهل الطريق والمفاوز .

حدثني المنتجع بن نهبان قال . كان السليك بن عمير السعدي ، إذا كان الشتاء استودع بيض النعام ماء السماء ، ثم دفته ، فإذا كان الصيف ، ونضبت المياه وانقطعت إغارة الخيل ، أغار فلا يخطيء السميت ، ولا يضل عن تلك الدفائن فيمضي معتسفاً على غير هدى ، حتى يقف على البيضة .

إن ندرة المياه التي وجدناها تتفاوت عند هؤلاء الناس وتختلف صور التعبير عنها ، دفعتهم إلى السعي وراء الماء ، والاستقاء منه بأي شكل من الأشكال ، والمحافظة عليه بأي وجه من الوجوه ، وهذا ما دفع القبائل إلى الاحتفاظ بعيون معينة ، وآبار معلومة يستقون منها ، ويحمونها بكل ما يقدرون عليه ، من وسائل الحماية ، لذا فقد اقتصررت بعض الآبار والعيون على هذه القبائل التي كانت تقطن عندها ، وتنتفع بها ، وفي كثير من الأحيان كانت مصدرراً للنزاع الخطير بين هذه القبائل ، وسبباً من أسباب إثارة الحروب الطويلة ، وقد سميت بعض أيام العرب بأسماء هذه العيون والآبار .

أما وسائل استخراج المياه من الآبار فكانت بطريقة الدلاء ، والحبال والبكرات ، وكانت مواقع هذه الآبار ، مواضع للخصب والرزق ، يجتمع حولها الناس ويقيمون عندها ، فكانت تشعرهم بالتآلف وتملاً نفوسهم بالاطمئنان وقد صور لنا الشعر هذا الجانب من الحياة تصويراً دقيقاً ، وما كان يثيره التفرق في نفوسهم من ألم ، وحسرة نتيجة جفاف هذه العيون أو نضوب تلك الآبار .

وطبيعي أن يتحدث الشعراء عن الوسائل التي كانوا يستخرجون بها المياه والوسيلة التي ينقلونها بها من قرب ومزادات وما كانت تبعثه في نفوسهم أصوات هذه البكرات من حنين وشوق وما صاحب هذا العمل من صور وتشبيهات استعملوها في حياتهم ، قال بشر بن أبي خازم^(١) :

(١) بشر . الديوان/ ١٤ .

تحدّر ماء البئر عن جرشية على جربة تعلو الديار غروبها^(١)
 بغرب ومربوع وعود تقيمه محالة خطاف تصر ثقبها^(٢)
 وقال أيضاً ، وقد جعل قشيراً أحد خصومه ، غابة لحيله ، تطوّه ، حتى
 تنتهي إلى آخر قومه كما أن الدلاء غابتها قعر القلب^(٣) .
 جعلن قشيراً غابة يهتدي بها كما مدّ أشتان الدلاء قلبها
 وقال يهجو أوس بن حارثة ، ويشبه نقض قومه للعهد بقطع الحبل من
 الدلو^(٤) .

إذا عقدوا بحار أخفروه كما غرّ الرشاء من الذنوب^(٥)
 وكثيراً ما كانوا يشبهون الرماح بحبال البئر في الطول^(٦) أما زهير فيشبه
 الاتن في سرعتها وانقضاضها على عدوها بالدلو إذا انقطع حبلها فيقول^(٧) :
 فشج بها الأماعز وهي تهوي هويّ الدلو أسلمها الرشاء
 وكانوا يسمون من يستقي من الآبار نازلاً فيها عند قلة مأها : المائح ، أما
 المائح فهو الذي يستقي وهو على حافة البئر ورأسه ، ووردت إشارات كثيرة
 إلى الدلاء في مجال تشبيه الدموع بها^(٨) ، أما أعجاز النساء المملئة فقد شبهها
 الأعشى بالعجل المملوء بالماء فقال^(٩) :
 والساحبات ذبول الخز آونة والرافلات على أعجازها العجل

(١) الجرشية . ناقة منسوبة إلى جرش ، وهي أرض من مخاليف اليمن تنسب إليها . وأهل
 جرش يستقون الماء على الإبل ، والجربة : المزرعة ، والديار : جمع دير ، وهي الإشارة من المزرعة ،
 والساقية بين المزارع . (٢) الغرب . الدلو العظيمة . المربوع . الحبل المفتول على أربع قوى
 المود البعير المسن . (٣) بشر ، الديوان/ ١٧ . (٤) بشر . الديوان/ ٢١ . (٥) غر .
 قطع . (٦) انظر ديوان بشر / ٢٣ والمفصليات / ١٢١/١ . (٧) زهير . الديوان / ٦٧ .
 (٨) انظر ديوان عكمة (مختار الأعلام) / ٤٢٥ ، وديوان زهير / ١٤٨ ، وديوان لبيد / ١٢١ .
 (٩) الأعشى . الديوان / ٥٩ .

الحساء

على نحو ما ورد ذكر الآبار والعيون في الشعر ، ورد ذكر الحساء أيضاً ومياه الحساء تجري تحت الحصا على مقدار ذراع ودونه ، وأحياناً على ذراعين وربما أثارته الدواب بحوافرها^(١) . ومواضعها المناطق الرملية التي تكون تحتها صلابة ، فإذا أمطرت السماء على ذلك الرمل ، نزل الماء ، فمنعته الصلابة أن يفيض ومنع الرمل السماّم أن تنشفه ، فإذا بحث ذلك الرمل أصيب الماء^(٢) واستخرج المياه من هذه الأرض لا يحتاج إلى حبال للإدلاء بها ، قال طفيل الغنوي^(٣) :

إذا وردت تسقي بحسي رعاؤها قصير الرشاء قعره غير يجعل
وكانت مناطق الحساء معروفة عندهم ، حتى جعلوها أمكنة ينزلون عندها ، وذكرها الشعراء وهم يستذكرون ديار أحبّتهم^(٤) .
وحّد امرؤ القيس بعض مناطق الحساء^(٥) . وتتميز الحسي بأنها كلما نزح دلو جمّت أخرى . ولهذا شبه امرؤ القيس فرسه بها ، فكلما حرك بالساقين ، واستحثّ بهما كثر جريه^(٦) .
يجم على الساقين بعد كلاله . جموم عيون الحسي بعد المخيض^(٧)

الأحواض

أما الأحواض فقد استعملت في السقي ، فإذا تساقطت الأمطار سالت إلى هذه الحياض للاستفادة منها أيام الجفاف ، فيشربون منها ، ويسقون أنعامهم

(١) عرام بن الأصبح . أسماء جبال تهامة ٤٢١/٤ ، نوادر المخطوطات .
(٢) المبرد . الكامل ١١٤/١ ، وانظر اللسان (حسا) ، وجواد علي ٣٠٩/٨ . (٣) الطفيل الغنوي . الديوان ٣٦ . (٤) انظر ديوان زهير/٥٦ ، وديوان بشر/٢ ، وديوان لبّيد/٢٦٢ .
(٥) انظر ديوان امرؤ القيس/٦٩ . (٦) امرؤ القيس . الديوان/٧٥ . (٧) المخيض .
أي يمحض ويستخرج ماؤه فضرّب مثلاً للفرس .

وكانوا يطرحون في أحواض الإبل حجراً يقدرّون عليه الماء ، ويقتسمونه بينهم وكانوا يحاولون المحافظة على هذه الأحواض بشق الأساليب فيدعمونها ويقوونها بالتراب ، أو يرفعون جدرانها فوق الأرض ، أو ينصبون الأحجار ليسدوا ما بينها من الخصاص بالمدرة المعجونة ^(١) ، وكانوا يعملون فيها الصنابير والمخارج والمسائل لخروج الماء منها ^(٢) .

وفي كتب اللغة ألفاظ عدة أطلقت على الخوض ، شملت اتساعه وعمقه وشكله وبناءه ، وهدمه وتنقيته ، وحددت هذه الأوصاف بدقة إلى جانب ما ذكرته في المصانع ^(٣) والصهاريج ^(٤) والأحباس ^(٥) والقلات ^(٦) ، والمداهن ^(٧) .

ولا بد أن تدل هذه الكثرة من الألفاظ على تعمق القوم بكل ما يدور حول المياه ، باعتبارها أساساً لحياتهم ، وقد ألف كل من الأصمعي وأبي زيد الأنصاري كتاباً في مياه العرب ^(٨) ، ووضع سعدان بن المبارك كتاباً في الأرضين والمياه والجبال ^(٩) ، والف ابن الأعرابي كتاباً في البئر ^(١٠) ، وأبو عبد الله أحمد بن إبراهيم ، نديم المتوكل كتاباً في أسماء الجبال والمياه والأودية .

(١) ابن سيده . المخصص ٤٩/١٠ . (٢) نفس المصدر ٤٩/١٠ . (٣) المصانع جمع مصنع ، وهو الموضع يتحدر ، ويحتفر فيه بركة يجتسب فيها الماء ، وانظر ديوان لبيد/١٦٨ . (٤) الصهاريج . مقردها صهريج ، وهي كالخياض ، يجتمع فيها الماء . (٥) الحبس . حجارة أو خشب ، تبقى في مجرى الماء ، لتحبسه ، كي يشرب القوم ، ويسقوا أموالهم والجمع أحباس . (٦) القلات . جمع قلت ، بإسكان اللام ، وهو النقرة في الجبل ، تمسك الماء وقيل هو النقرة في الجبل ، يستنقع فيها الماء إذا انصب السيل . (٧) المدهن . نقرة في الجبل ، يستنقع فيها الماء ، وقيل هو كل موضع حفره سيل ، وانظر ديوان أوس بن حجر/٦٧ . (٨) انظر فهرست بن النديم/٨١ ، ٨٣ . (٩) نفس المصدر/١٠٥ . (١٠) مخطوط في مكتبة الدراسات الإسلامية ببغداد ، ولم يشر إليه بن النديم في الفهرست ، ومنه نسخة مصورة في مكتبة المجمع العلمي العراقي .

الرياح والأنواء والأمطار

الرياح

وضعت العرب لكل ربح اسماً يختلف باختلاف مناطق هبوبها ، فالسبي تهوى من مطلع الشام هي الشمال ، لأن مهبتها من بلاد العرب فما يلي الشام ، والتي تهوى من مطلع الشمس ، أطلقوا عليها الصبا كما سموها القيول وكانت العرب تجعل بيوتها يلزاء الصبا ومطلع الشمس . وقد أكثر الشعراء من ذكرها ، لهوبها في أوائل الربيع حين يستوي الليل والنهار .

قال امرؤ القيس^(١)

إذا التفتت نحوى تضيوع ربحها نسيم الصبا جاءت برىا القرنفل

وقال عبيد^(٢)

كأن صبا جاءت بربح لطيعه من المسك لا تسطاع بالثمن الغالي
وكانت قريش تطعم ما هبت الصبا ، فإذا سكنت أمسكوا^(٣) ويروى أن
أحيحة بن الجلاح الأنصاري ، وكان ييخل ، كان إذا هبت الصبا طلع من
أطمه فنظر إلى ناحية هبوبها ، ثم يقول لها . هبتي هبوبك ، فقد أعددت لك

(١) امرؤ القيس . الديوان/ ١٥ . (٢) عبيد . الديوان/ ١٤٤ . (٣) محمد بن حبيب
المعبر/ ٢٤١ .

ثلاثمائة وستين صاعاً من عجوة^(١) . وكان لبيد بن ربيعة شريفاً في الجاهلية والإسلام ، وكان قد نذر أن لا تهب الصبا إلا نحر وأطعم حتى تنقضي^(٢) وأكثر ما كان يخيف العرب الرياح الشمالية الشرقية ، وكان هبوبها نذيراً بالقمط والجذب ، لذا فقد وجدوا الكرم عند هبوبها مكربة يفتخرون بها . قال الأسعر الجعفي يفخر بأنه مأوى الضيفان في الليالي الباردة ، ينحر لهم الكرم^(٣) .

باتت شامية الرياح تلفهم حتى أتونا بعدما سقط الندى
فنهضت في البرك المجدود وفي يدي لدن المهزّة ذوكعوب كالنوى^(٤)
أحذيت رحلي غائطاً ممكورة كوماء أطراف العضاة لها حلى
وقال أوس بن حجر يرثي فضالة بن كدلة الأسدي ، وينعت شدة البرد وغلبة الشمال^(٥) .

والحافظ الناس في تحوط إذا لم يرسلوا تحت عائذ ربعا
وعزّت الشمال الرياح وقد أمسى كميع الفتاة ملتفعا^(٦)
وكانت الكاعب الممنعة الحسناء في زاد أهلها سبعا^(٧)
وكانوا يكونون عن الأوقات التي تهب فيها أمثال هذه الرياح ، وما يعقبها من قحط ومحل وجذب بالسنين ، لأن هذه الأوقات تجلب الشدائد ، وفيها يقل الطعام ، ومن أجل ذلك تمادحوا بالقري فيها ، قال عروة بن الورد :^(٨)
هلاّ سألت بني عيلان كلهم عند السنين إذا ما هبت الرياح
وكانوا يتشاءمون بالشمال ، ويعتبرونها مثلاً للشر ، قال زهير^(٩) .

(١) المبرد . الكامل / ٧٨٠٢ . (٢) نفس المصدر ٧٨١/٢ ، والمضه مع اختلاف

في الأغاني وآمال بن الشجري وغزاة الأدب . (٣) الأصمعي . الأصمعيات / ١٥٩ .

(٤) البرك . جماعة الإبل الباركة . (٥) أوس بن حجر . الديوان / ٥٤ - ٥٥ .

(٦) تحوط وقحوط . اسمان للسنة الجدية . (٧) الكميح . الضجيج . (٨) عروة بن الورد . الديوان

/ ١٤٩ . (٩) زهير . الديوان / ٥٩ .

فلما أن تحمل أهل ليلى جرت بيني وبينهم الطباء
جرت سنحاً فقلت لها أجيزي نوى مشمولة فمقى اللقاء
وقد وردت إشارات كثيرة في دواوين الشعراء إلى هذه الرياح وقسوتها
وبرودتها ورطوبتها وشدتها^(١).

أما الجنوب ، فهي الريح اليمانية ، لأن مهبتها من اليمن ، والجنوب ريح
أهل الحجاز ، ولماها يستطيون ، وأما غير أهل الحجاز فليست الجنوب
بموافقة لهم^(٢).

واقترن ذكرها بالأمطار في حديث الشعراء ، فإذا تحدثوا عنها تحدثوا عن
المطر الغزير الذي يعم المرتفعات والمنخفضات ، وحينئذ ينتشر الخصب في
السهول والرياض قال عبيد^(٣).

هبت جنوب بأولاه ومال به أعجاز مزن يسح الماء دلاح
فمن بنجوته كمن بمحلفه والمستكن كمن يمشي بقرواح^(٤)
فأصبح الروض والقيعان ممرعة من بين مرتفق فيه ومن يطاحي
وقال طرفة يذكر ريح الجنوب وهي تستدر السحاب ، لينزل الماء على
ديار حبيته^(٥).

مرت الجنوب ثم هبت له الصبا إذا مس منها مسكناً عدماً^(٦) نزل
ولذا انقضى الربيع ، وحلت أيام الصيف بدأوا بالرحيل والفرق ، وكان
هذا التفرق بعد الألفة يبعث في نفوسهم الألم والحسرة ، وكانوا يذكرون ذلك
في أشعارهم ، ومن هنا وجدنا وصف الارتحال والاطعان والبكاء وراء الراحلين

(١) انظر ديوان بشر/ ٢٨ و ١٢٥ و ١٧٤ و ديوان لبيد/ ١٦ - ١٧ . (٢) ابن الأجدابي .
الأزمنة والأنوار/ ١٣٠ . (٣) عبيد . الديوان/ ٣٦ - ٣٧ . (٤) القرواح . الأرض المستوية
الظاهرة . (٥) طرفة . الديوان/ ١١٣ . (٦) عدل . سحاب عظم كثيف .

صفحات طويلة من أدبنا ، وهي تفيض بالعاطفة الصادقة والإحساس
الذي كان يمتزج بالحنين والغربة في وقت واحد . وكانت الرياح ، تبعث
سهم الألم لأنها تكون قاسية حتى على الاطلاع التي كانت تمثل ذكريات
القديم ، وملاعب صباهم الغالية ، قال بشر^(١)

رُت المنازل من سليمي برمة فالكثيب إلى بطاح
أجزاء اللوى فبراق خبت عفتها المعصفت من الرياح
قال أيضاً^(٢)

تُ أَطْلَالُ مَيْتَةٍ بِالْحَقِيرِ فَهَضْبُ الْوَادِيَيْنِ فَبُرْقُ لَيْرِ
عَبَتِ الرِّيحُ الْهَوَجُ مِنْهَا بَذِي حُرْصٍ مَعَالِمَ الْبَصِيرِ
رَ الرَامِسَاتُ بِهَا ذُيُولًا كَأَنَّ شَمَائِلًا بَعْدَ الدُّبُورِ
سَادٌ بَيْنَ أَظْكَارِ ثَلَاثٍ كَمَا وَثِمَ الرَّوَاهِشُ بِالنُّوُورِ

ما يزيد قسوة الحياة في فترات الجفاف اقترانها في الغالب بريح السموم
يح المهلكة التي تشوي مها الصحراء وتطبخها كما يقول البعيث الحنفي^(٣)
رَة . تشوي مهاها سموها طبختُ بها عيرانة واشتويتها
ال مليح الهللي يصف رواحل أحبته وهي تنقي سموم الضحى ولهب
الهاجرة^(٤) :

تَوَتْ أَحْمَالُهَا وَتَصَدَّقَتْ بِشُمِّ الْمَرَاتِي بَارِدَاتِ الْمَدَاخِلِ
وَلَوَجَ الْبَاقِرُ الْعَيْنَ بَادَرَتْ سَمُومَ الضَّحَى أَعْيَاصُ دَهْمٍ ظَلَالِلِ^(٥)
ال علقمة يذكر الحر :^(٦)

وَتُ قُتُوْدَ الرَّحْلِ يَسْفَعُنِي يَوْمَ تَجِيءُ بِهِ الْجُوزَاءُ مَسْمُومٌ

١ . أبي خازم . الديوان / ٤٣ . (٢) بشر بن أبي خازم . الديوان / ٩٤ .
تمام الحماسة (المرزوقي) ١٨٠٤ / ٤ . (٤) شرح أشعار الهذليين ١٠٢٢ / ٣ .
نت : تعرضت . ثم المراتي : يعني الهودج . ولحن : دخلن ، الباقر : بقر الوحش يريد أن
ن في الموضع الذي لا تصيبهن فيه الشمس ، ودهم : سود يعني الشجر . وأعياص الشجر .
(٦) علقمة : الديوان / ٤٣١ .

أما الدبور فهي الريح التي تقابل الصبا والقبول وهي ريح تهب من الغرب والصبا تقابلها من ناحية الشرق^(١). والعرب تكره الدبور لأنها تجفل السحاب ويقل فيها المطر، ويكون فيها الريح^(٢)، ولا تهب إلا بشدة، فتكاد تقلع البيوت وتأتي على الزروع^(٣). والدبور أقل الرياح هبواً، وهي الريح العقيم^(٤) ولهذا وجدنا ذكرها أقل، والتعرض لها مقصوراً على شدتها وقوتها وإثارتها للغبار، قال الأعشى يمدح هودة بن علي الحنفي ويصف إبله^(٥)

إذا ازدحمت في المكان المضيق حث الزاحم منها القتيرا
لها جرس كحفيف الحصا د صادف بالليل ريحاً دبورا

وذكرها عبد قيس في وصفه لدرعة الذي شبهه بماء الغدير الذي تصفقه ريح الدبور فتكدره^(٦)، وقال عدي بن زيد من قصيدة كتبها لأبي قابوس لما حبسه^(٧)

ثم صاروا كأنهم ورق جفّ فالتوت به الصبا والدبور

أما النكباء، فهي الريح التي تأتي من بين ريحين فتكون بين الشمال والصبا أو الشمال والدبور، أو الجنوب والدبور، أو الجنوب والصبا^(٨) وقيل هي الريح بين الريحين الشديدة الهبوب^(٩) وهي تهلك المال وتجس القطر، والعرب تسميها. نكباء لأنها نكبت عن مهاب الرياح أي عدلت^(١٠) وهبوبها في أيام الشتاء^(١١) وقل ورودها في الشعر الجاهلي، والظاهر أنها كانت غير متميزة لدى الشعراء كغيرها من الرياح التي تعرضوا لها.

(١) اللسان (دبر) - (٢) الريح : الغبار . (٣) المبرد : الكامل/ ٧٨٩ .

(٤) ابن الأجدادي . الأزمنة والأنواء / ١٣٠ . (٥) الأعشى . الديوان / ٩٩ .

(٦) انظر المغفليات ١٨٦/٢ . (٧) عدي بن زيد . الديوان / ٩٠ .

(٨) المبرد . الكامل / ٣٩٦ . (٩) ابن منظور . اللسان (نكب) . (١٠) ابن الأجدادي .

الأزمنة والأنواء / ١٢٦ . (١١) المرزوقي . الأزمنة والأمكنة ٢١٨/١ .

وهناك أنواع أخرى من الرياح عرفها العرب ، منها الجرياء وهي التي تهب بين الجنوب والصبيا ، وقيل هي الشمال ، والهياف وهي ريح حارة بين الجنوب والديبور ، والنافحة ، وهي أول كل ريح تبدأ بشدة ، والهوجاء ، وهي المتدركة المهبوب ، وقيل هي التي تحمل المور^(١) وتجر الديول ، والرخاء . وهي الريح السهلة المهبوب ، الزفافة ، الشديدة التي لها زفزة ، والسهوك والخرجوج والخيفق ، كلها السريعة ، والمتذبذبة ، التي تنجيء من هنا مرة ومن هناك مرة ، وهناك أنواع كثيرة من الرياح عرفها العرب ، وحددوا لها أسماء تتناسب مع اتجاه مهابها ، وشدها أو سهولتها وأصواتها^(٢)

وكما نسبت الرياح إلى الأماكن التي تهوى منها ، نسبت إلى الشهور المقدسة التي تهب منها ، فقد سمووا الرياح التي تهب في رجب ، رجيبة ، والمعروف أن رجباً شهر كان معظماً في الجاهلية ، وكانوا لا يستحلون القتال فيه ، قال عبيد ابن الأبرص يتحسر على تفرق قومه ، ويكي ديارهم :^(٣)

سجماً كأن شنانة رجيبة سبقت إليّ بمائها العينان

وحاول بعض الشعراء أن يجعل الريح طرفاً في المعارك ، فبفضلها ينتصر قوم على قوم ، إلى جانب العوامل الأخرى التي تؤدي إلى الانتصار ، والمتمثلة في كثرة عدد المقاتلين ، وسلامة القيادة وشجاعتها ، فهذا عبيد يصف يوماً وقع بين أسد ونمير ويعلل انتصار بعضهم فيقول^(٤)

كما حميناك يوم النعف من شطب والفضل للقوم من ريح ومن عدد

الأمطار

إن اهتمام العرب بالمياه ، وحرصهم على المحافظة عليها دفعهم إلى الاهتمام بالمطر والسحاب ، وما يتعلق بهما من برق ورعد وصقيع وصواعق ، فعرفوا

(١) المور . الموج . (٢) ابن سيده . المخصص ٨٣/٧ . (٣) عبيد . الديوان/ ١٣٠ وانظر ديوان بشر/ ٨٢ . (٤) عبيد . الديوان/ ٥٩ .

الأنواء ، ونجوم الاهتداء ، حيث لا إمارة ولا هادي ، ولا بد أن تكون صعوبة الحياة ، وشدة العوز ، والحاجة الملحة ، من العوامل التي اضطرت العربي إلى تتبع مواقع المطر ، والتماس ما ينجيه ويؤذيه^(١) . فجابوا بطون الأودية اريثاداً للكلاء ، وطلباً للعشب ، وسعياً وراء الماء ، لأنهم أحوج الناس إليه إذ به حصول معاشهم من السقي والرعي . ومن هنا وجدنا تطلعهم نحو السماء ، وتعلق أبصارهم بمطالع النجوم التي ربطوا بينها وبين المطر ، وفضلوا بعضها على بعض ، لأنها عندهم أحمد وأغزر . وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى السباقي من النجوم ، فإذا سقط فيها نجم ، أو طلع آخر ، قالوا لا بد من أن يكون عند ذلك مطر أو رياح ، فينسبون كل غيث يكون عند ذلك إلى ذلك النجم ، فيقولون مطرنا بنوء: الثريا، والدبران، والسمك، وسمي النوء بذلك ، لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ، ناء الطالع بالشرق أي نهض وطلع ، وأطلقوا على هذا العلم علم الانواء^(٢) .

وكان اهتمامهم بهذا العلم يكثر حين تحقيق بهم سنوات الجذب ، وتشتد عليهم أزمات المحل فامتلات كتبهم بأخبار طويلة ، لكل ما يتعلق بهذه المظاهر وارتبطت حياتهم ارتباطاً وثيقاً بمعرفتها .

ولا شك في أن فرحة البادية بالمطر عظيمة ، وهي فرحة تمثلت في وقفات الشعراء الطويلة ، وهم ينظرون إلى السحاب والمطر والبرق والرعد، فينتابهم الشعور بالنشوة ، وتعلوهم الغبطة بالمنظر الرائع .

لقد اضطرتهم الحاجة إلى تعرف شأن الغيث ، والاستدلال عن كيفيته من أحوال الرياح والسحاب ، وما يتعلق بهما ، فكان علم الأنواء الذي يدل على قدرة العرب الكبيرة فيه ، وتعمقهم في معرفته ، نتيجة ما مروا به من التجارب ، حتى برع قوم بعلمه ، وقد عرفت بعض القبائل بقدرتها على ذلك ، ومن

(١) الحافظ . الحيوان ٦/ ٣٠ . (٢) انظر كتاب الأنواء لابن قتيبة ، وكتاب الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ، وكتاب الأزمنة والأنواء لابن الأجداني ، ومادة (نوء) في اللسان والتاج .

هذه القبائل بنو عامر بن صعصعة ، فقد ذكر ابن دريد^(١) روايتين في ذلك نسبهما الى اعرابي من بني عامر بن لؤي بن صعصعة ، وقال ابن كنانة : اعلم العرب بالنجوم بنو ماريه من كلب ، وبنو مرة بن همام من بني شيبان^(٢) .

وقد احصى ناشرو كتاب الانواء لابن قتيبة ثبثاً باسماء اربعة وعشرين كتاباً في الانواء لم يطبع منها سوى كتابين فقط ، هما كتابا ابن قتيبة وابن الاجداني وقد جمعت هذه الكتب وغيرها احاديث كثيرة واخباراً طويلة عن دلائل المطر وامارات الغيث .

ودفعهم الاهتمام بالمطر الى الاهتمام ببروج السماء ، فورد ذكرها في اشعارهم ، وكانوا ينسبون لكل نجم من المنازل نوعاً يجعلونه علماً ووقتاً له ، كما يجعلون الشتاء وقتاً للمطر ، ومن العرب من ينسب النوء الى الكوكب نفسه ، فيكون هو الذي انشأ السحاب واتى بالمطر^(٣) قال بشر بن أبي خازم^(٤) :

بانت له العقرب الاولى بشرتها ولبته من طلوع الجبهة الاسد

اما الرعد فهو مقدمة الغيث ، وعلامة من علاماته ، ودليل من اقوى دلائله وهو الذي يستنزل المطر ، قال الاعشى^(٥) :

والشعر يستنزل الكريم كما استنزل رعد السحابة السبلا

فاذا صوت الرعد ، وكان صوته شديداً ، استدلوا بذلك الصوت على بعد المطر واذا كان صوته اشد استدلوا به على قربهِ ، وكان صوت الرعد يخفهم ، وقد اقترنت صورته بصورة هدير الابل^(٦) . وورد ذكر الصواعق عند الشعراء الجاهليين لمصاحبتها الرعد في بعض الأحيان النادرة ، واكثر

(١) أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي. السحاب والمطر / ١٤ ، ٤٣ . (٢) المرزوقي الأزمنة والامكنة / ١٩٩/١ . (٣) ابن قتيبة . الأنواء / ٥٠ . (٤) بشر بن أبي خازم . الديوان / ١٥٧ . (٥) الأعشى . الديوان / ٢٣٥ . (٦) انظر ديوان ليبيد / ٩٠ .

ليبد من ذكرها ، لأن اخاه -^(١) كما تذكر الروايات - مات نتيجة سقوط صاعقة عليه ، وكان لهذا الحادث صدی في شعره ، ويقول علقمة :

كانهم ضابت عليهم سحابة صواعقها لطيرهن دبيب

والظاهرة التي تلاحظ في هذا الحديث ان اكثر الشعراء لم يتطرقوا الى ذكر السيول ، وان الذين تحدثوا عنها ، تحدثوا مرة واحدة او مرتين فقط .

وصورة السيل لم تقف عند هذه الصور ، وانما وجدت طريقها للتشبيه عند الشعراء وهي - كما ذكرنا - كانت تجدهى في نفوسهم ، لقوتها ، وشدها ولهذا كان الفارس يشبه نفسه بالسيل لأنه يجرف الاعداء ، وقد حسن تشبيه الجيوش بالسيول لكثرتها قال عنتره^(٢) :

اذا ما مشوا في السابغات حسبتهم سيولا وقد جاشت بهن الاباطح

وقال قيس بن الخطيم^(٣) :

جاءت بنو الاوس عارضا بردا تجلبه الريح مقبلا حلبا
ارعن مثل الانبي اعقبه صوب ملث يسيل الحدبا

وكان انحباس المطر وانقطاعه بسبب الجذب أزمة صعبة ، يمنع الناس من العمل ، والبرد الذي يضطر الناس الى تقرب البيوت الى بعضها ، ليستكنوا من شدته ، قال طرفة^(٤) .

اني من القوم الذين اذا ازم الشتاء ودوخلت حجره

يوما ودونيت البيوت له فثنى قبيل ربيعهم قرره

رفعوا المنيع وكان رزقهم في المنقيات يقيمه يسره^(٥)

(١) ابن هشام . السيرة ٢٣٥/٤ وانظر ديوانه/١٥٨ ، ١٦٧ وانظر اللسان (صق) .

(٢) عنتره . الديوان/٤٠٧ (مختار الأعلام) . (٣) قيس بن الخطيم . الديوان/٥٨ وانظر صفحة ٣٣ من الديوان . وحامسة أبي تمام (المرزوقي) ٤٤٥/١ . (٤) طرفة . الديوان/٣٥٧ .

(٥) أزم . اشتد . المنيع . قبح يؤثر بفوزه . المنقيات . النوق السماء . اليسر . القوم المجتمعون على الميسر .

وفي مثل هذه الاوقات يختبر كرم الرجال ، وتعرف طبائع البشر وخيم النفوس وكان عمل الكرماء هذا يجد له صدى في اذكاء قرائح الشعراء ، فيمدحونهم بتكفّل النساء ، والارامل ، والايتام ، قال بشر بن أبي خازم ، يرثي سميراً اخاه^(١) :

يا سمير من للنساء اذا ما قحط القطر امهات العيال
كنت غيثاً هن في السنة الشهباء ذات الغبار والامحال

وقال زهير يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف^(٢) .

اذا السنة الشهباء بالناس اجحفت ونال كرام المال في السنة الأكل
رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم قطينا لهم حتى اذا انبت البقل

وقال المسيّب بن علس يمدح القعقاع بجوده^(٣) :

واذا تهيج الريح من صرّارها ثلجاً ينبح النيب بالجمعاج
احللت بيتك بالجميع وبعضهم متفرق ليحلّ بالاوزاع

واطلقوا على الابل التي كانت تنحر عند سقوط الثلج (قلاص الثلج)
قال لبيد يصف يوماً بارداً^(٤) :

ذعرت قلاص الثلج تحت ظلاله بمشئ الايادي والمنيع المعقب
وكانوا يعدون الاستيلاء على مناطق الخصب في اوقات الجذب مفخرة ،
قال بشر يفخر بقومه^(٥) :

كفينا من تغيب واستبحنا سنام الارض اذا قحط القطار

اما في مجال الرثاء والعطاء ، فلم يجدوا احسن دعاء وترحماً من استمطار الغيث لانه احسن التعمى ، وافضل السقيا ، فكل ما استمطروه ، يجود وابله

(١) بشر . الديوان / ١٧٤ . (٢) زهير . الديوان / ١١٠ . (٣) المفضل . الحليات ٦ - ٦١
وانظر ديوان طرفة / ٣٥٩ . وديوان عامر بن الطفيل / ٤٧ . (٤) لبيد . الديوان / ١٧ .
(٥) بشر . الديوان / ٧٣ .

عليهم ويستح ماؤه ، وهذا ما كانوا يصبون اليه ، قال النابغة يرثي النعمان^(١) :
سقى الغيث قبراً بين بصري وجاسم بغيث من الوسي قطر ووابل
وقال اوس بن حجر^(٢) :

لا زال ريحان وفغو ناضر يجرى عليك بمسبل هطال
وقال الاعشى يمدح شريح بن حصن بن عمران بن السمؤل بن عاديا^(٣) :
فكان اوفاهم عهداً وامنعهم جاراً ابوك بعرف غير انكار
كالغيث ما استمطروه جاد وابله وعند زمته المستأسد الضاري

وندرة المياه وقتلتها كانت سبية من اسباب خلق الاساطير وكثرتها حول
هذه الندره واسبابها ، ولهذا وجدنا حكاية التضرع والدعاء للمطر ، والروايات
والاخبار التي تتحدث عن سنوات الجذب التي حلت بأرض الحجاز وعروضها
منشورة في مصادرنا القديمة^(٤) وكذلك وجدنا حكاية نار الاستمطار ، وهي
النار التي كانوا يستمطرون بها في الجاهلية ، وما حيك حولها من اساطير فقد
كان العرب يزعمون انه اذا امسكت السماء قطرها ، وتتابعت عليهم الازمات ،
وركند عليهم البلاء ، واشتد الجذب ، واحتاجوا الى الاستمطار ،
اجتمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من البقر ثم عقدوا في اذنانها ،
وبين عراقيبها ، السلع والعشر^(٥) ثم صعدوا بها في جبل ، واشعلوا فيها النيران ،
وضجوا بالدعاء والتضرع ، فكانوا يرون ان ذلك من اسباب السقيا ،
ولذلك قال امية بن ابي الصلت^(٦) ان صح انها له :

سنة ازمة تخيل بالناس ترى للعضاء فيها صريرا

(١) النابغة . الديوان ٩٠ (صادر) . (٢) اوس بن حجر . الديوان ١٠٨ وانظر حساسة أبي
تمام (المزدوقي) ١٦٢٨/٤ . (٣) الاعشى . الديوان ١٧٩ وانظر ديوان بشر ٣٨ ، ٢٢٣ .
(٤) انظر صفة جزيرة العرب للهمداني/ ٢١٤ (لندن - ١٨٨٤) . (٥) السلع بالتحريك
والعشر بضم ففتح . ضربان من الشجر ، كان العرب يأخذون حطبهما للفرس الذي ذكرناه .
(٦) الجاحظ . الحيوان ٤٦٦/٤ .

اذ يسفون بالدقيق وكانوا قبل لا يأكلون شيئاً فطيرا
ويسوقون باقراً يطرد السهل مهازيل خشية أن يبوراً^(١)
عاقدين النيران في شكر الأذئاب عمداً كيما تهيج البحوراً^(٢)
فاشتوت كلها فهاج عليهم ثم هاجت إلى صبير صبيراً^(٣)
فراها الاله ترشم بالقطر وامسى خيامهم مطوراً
فسقاها نشاصه واكف الغيث منه اذ رادعوه الكبيراً^(٤)
سلع ما ومثله عشر ما عائل ما وعالت البيقوراً^(٥)

النجوم

واهتم العرب بالنجوم ، لانها تقودهم الى موضع حاجاتهم ، ولانهم كانوا يحتاجون الانتقال من محاضرهم الى المياه وهم يعلمون ان عملية التنقل هذه تحتاج الى وقت صحيح يوثق فيه ، فالغيث والكلأ ، وهذا ما حملهم الى الاهتمام بمطالعها ومساقطها ، هذا مع الحاجة الى معرفة وقت الطرق ووقت النتائج ، ووقت غور مياه الارض ، وزيادتها ووقت ينغ الثمر ، والحصاد ووقت وباء السنة في الناس وفي الابل وغيرها فالنوء يرتبط في اعتقادهم بالكوكب نفسه ، فهو الذي ينشئ السحاب ويأتي بالمطر ، كما قال بشر بن ابني الخازم^(٦) .

جادت له الدلو والشعري ونؤهما بكل اسحم ذاتي الودق مرتجف
واذا ذكروا الحر نسبوه الى الطلوع كما ذكر علقمة^(٧) :
وقد علوت قتود الرجل يسفني يوم يجيء به الجوزاء مسموم

(١) البقر . البقر . (٢) الشكر . جمع شكر وهو الشعر القصير بين الشعر الطويل .
(٣) الصبير ، السحاب يثبت يوماً وليلة ولا يبرح . (٤) النشاص . السحاب المرتفع .
(٥) البيقور . بمعنى البقر . (وعال الشيء فلاناً . ثقل عليه . يقول أثقلت البقر بما حملته من السلع والثمر) . (٦) بشر الديوان/ ١٥٧ . (٧) علقمة . الديوان/ ٤٣١ (مختار الشعر الجاهلي)

وهذا حملهم على القول: لولا نوء الجبهة ما كان للعرب ابل^(١) وما امتأ^(٢)
واد من نوء الجبهة ماء الا امتأ^(٣) عشباً^(٤) وكما نسب الحر والبرد الى الطلوع
فقد قرنوا اوقات التبدى في طلوع الثريا . قال طفيل الغنوي^(٥) :
على اثر حي لا يرى النجم طالعاً من الليل الا وهو باد منازل^(٦)

اما في احاديثهم عن الكرم ، فكانوا يقرنونه بغياب الثريا ، لان غياب
يصادف في الشتاء البارد ، وهو الوقت الذي تشتد فيه حاجة الفقراء الى الطعام
بسبب المحل الذي يصيبهم ، او القحط الذي تأتي به ريح الشمال ، وعندها
يُجِد الشعراء في الكرم لهذا الفصل مجالاً واسعاً للمدح اذا ارادوا ان يمدحوا ،
قال حاتم الطائي^(٧) :

وعاذلة هبت بليل تلومني وقد غاب عيوق الثريا فعودا
تلوم على اعطائي المال ضلة اذا ضن بالمال البخيل وصردا

اما في احاديثهم عن طول الليل ، فقد كان يرتبط ذلك بصورة النجوم
وقد شددت الى الجبال ، بأمراس وجبال ، فهي ثابتة لا تتحرك ، واقفة لا
تتغير قال الاعشى^(٨) :

كان نجومها ربطت بصخر وامراس تدور وتستريد
اذا ما قلت حان لها افول تصعدت الثريا والسعود
او كما قال امرؤ القيس^(٩) :

فيا لك من ليل كان نجومه بكل مغار القتل شُدت يذبيل
وحاول بشر ان يمنح هذه الصورة لوناً جديداً ، ويضفي عليها جانباً

(١) ابن قتيبة . الأنواء / ٥٨ . (٢) نفس المصدر وانظر ديوان بشر / ٥٦ والأنواء / ٣٨ .

(٣) الطفيل . الديوان / ٤٩ . (٤) يريد أن من تبدى في هذا الوقت لم ير الثريا من أول الليل إلا
وهو نازل بالفقر ، وقد ترك محضه وتبدى . (٥) حاتم . الديوان / ٤٠ وانظر أنواء ابن قتيبة .

(٦) الأعشى . الديوان / ٣٢١ . (٧) امرؤ القيس . الديوان / ١٩ .

غير الجوانب التي وقف عندها الشعراء فقال^(١) :

فبت مسهداً ارقاً كأني تمشت في مفاصلي العُقَارِ
أراقب في السماء بناتِ نَعشٍ وقد دارت كما عطف الصوار
وعاندت الثريا بعد هدوء معاندة لها العيوق جار

ويربط الأسود بن يعفر بين ما يلاقيه في حياته من مصاعب وما يعانيه فيها من مصائب وبين اليوم الذي ولد فيه ، فهو منحوس لأنه ولد بغروب نجم وبطلوع نجم آخر وكلاهما منحوسان . يقول^(٢) :

ولدت بحادي النجم يتلو قرينه وبالقلب قلب العقرب المتوقد
والذي نستطيع قوله في هذا المجال ان العوامل التي دفعتهم الى معرفة النجوم ومعرفة اوقات طلوعها او افولها ، كانت نفس العوامل التي حملتهم على معرفة المطر والسحاب والرياح ، لأنها عوامل ترتبط بحياتهم ، وتحدد استدامة هذه الحياة ، ومن هنا كانت معارفهم بهذه المظاهر تصل الى درجة رفيعة من العمق والدراية .

(١) بشر بن أبي خازم . الديوان/ ٦٥ . (٢) ابن قتيبة . الأنوار/ ٣٨ .

الشجر والنبات

من الطبيعي ان ينال الشجر والنبات والازهار والثمار والاعشاب نصيباً وافراً من حديث الشعراء الجاهليين ، لاتصالها المباشر بحياتهم ، وعلاقتها بحاجاتهم التي يعتمدون عليها في مواجهة الحياة ، ومجابهة عوارضها ، فهي تدخل فيما يأكلونه منها وما يبنون منه بيوتهم وحظائرهم وخيامهم ، وما يصنعون منه قسيهم وسهامهم ورماحهم وقصاعهم وجفانهم وآتيهم وصيغانهم واقداحهم وموائدهم وحيالهم ومنازلهم وامشاطهم ومعظم ما كانوا يستعملونه في حياتهم ، وكانوا ينتفعون ببعضها في دباغتهم وصباغتهم وزيتهم ، ويستوقدون بحطبها ، اضافة الى ما كانت ترعاه ماشيتهم وابلهم ، وكان لشجر التالّب عناقيد ، اذا ادرك وجف ، اعتصر للمصاييح ، وهو اجود لها من الزيت^(١) ، والتنوب كانوا يتخذون منه اجود القطران^(٢) والجلدة لها ثمر ثخين متلبد تحشى به المخاد^(٣) والضرّم له ثمر اشباه البلوط تأكله الغنم والحمر ، وله وريد ابيض صغير ، كثير العسل ، تجرسه النحل ، ولعسله فضل في الجودة ، ويدلك بورقه اجواف التحايا فتألفها النحل^(٤).

(١) ابن سيده . المخصص ١١/١٤٢ . (٢) نفس المصدر ١١/١٤٧ . (٣) نفس المصدر

١٤٥/١١ . (٤) نفس المصدر ١١/١٤٦ .

وقد وصل تعلقهم بالشجر واعتزازهم به حدّ التقديس ، فمما يذكر في ذلك ان ذات الانواط شجرة عظيمة خضراء ، كانت قريش ومن سواهم من المشركين ، يأتونها كل سنة ، فيعلقون عليها اسلحتهم ، ويذبحون عندها ، ويقومون يوماً^(١) ، وكان الرجل اذا خرج في سفر عمد الى شجر الرّثم فعقد بعض اغصانه ببعض ، فاذا رجع من سفره واصابه على تلك الحال . قال . لم تخني امرأتي ، وان اصابه قد انحلّ قال . خانتني . قال الشاعر :

هل ينفعك اليوم ان همت بهم كثرة ما توصي وتعقاد السرتم
واشار القدامى الى اسماء بعض هذه الاشجار والمواضع التي تضمها ، منها نخلة نجران التي كان اهل البلد يتعبدون لها ، ويعلقون عليها كل ثوب حين وجدوه وحلي النساء^(٢) .

وتقدير بعض الاقوام والقبائل لهذه الأشجار ، واتخاذ مواضعها حرماً آمناً مقدساً يتركون بها ، ويتقربون اليها بالنذور والقرايين ، يدل على تصورهم وجود قوى روحية كامنة فيها ، معتقدين ان لهذه القوى اثرًا خطيراً في حياتهم وربما جاء هذا التصور والاعتناء نتيجة ضخامة هذه الاشجار وقوتها ، او ثمرها الكثير ، او نفعها من حيث استعمالها^(٣) ومن هنا جاء تقديسهم لها ، وعنايتهم بها ، فاجتمعوا حولها وهم يقيمون هذه الاحتفالات^(٤) وقد ادرك القدماء اهمية الشجر — وان كان التأليف في كتب النبات والزروع والشجر والنخل والعشب في الحيوان — فوضعوا كتب النبات والزرع والشجر والنخل والعشب والبقل ، وقد جمعت بعض هذه الكتب نوعين من النبات او اكثر .

وقد رأيت ان اجعل النماذج الشعرية التي وجدتها متميزة عند الشعراء اقساماً ، فجعلت للشجر قسماً وللنبات قسماً ، وللأزهار قسماً ، وللثمار

(١) ابن منظور . اللسان مادة (نوط) فانظر التاج في المادة نفسها . (٢) ياقوت . معجم البلدان ٧٥٣/٤ . (٣) انظر جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام ١٦٨/٥ . (٤) نفس المصدر .

قسماً ، مستفيداً من الصور التي شبهوها بها ، والمعاني التي ذهبوا اليها من وراء كل صورة ، وقد وجدت هذا التقييم افضل من غيره لانه اشمل واكمل ، لاتساعه من ناحية ، ووضوح ملامح الاصناف التي تنتمي لكل فصل من ناحية اخرى وحاولت ان اجمع بعض الانواع التي تلتقي في الغرض من استعمالها ، ضمن مجموعة واحدة ، فالاشجار التي تتخذ منها الرماح مثلاً جعلتها مجموعة واحدة والاشجار التي تستخدم في بناء البيوت والحظائر في مجموعة ثانية ، والاشجار التي تشبه بها الطعون والابل والخيل في مجموعة ثالثة ، على الرغم من ان كل هذه الانواع داخلة ضمن مجموعة واحدة .

وهكذا صنعت في باب النبات والازهار .

الأشجار

النخيل

النخيل من أقدم انواع الشجر الذي عرفه الانسان ، وقد وردت اشارات اليه في شريعة حمورابي ، الذي تعد من اقدم الشرائع البشرية^(١) ، واستعملت النخلة في الزخارف الرمزية التي شاع استعمالها في العراق القديم ، خصوصاً في عصر الامبراطورية الآشورية ، وقد عرفت هذه الزخرفة باسم شجرة الحياة^(٢) .

اما في جزيرة العرب ، فقد وجد النخيل في كثير من اماكنها ، وخاصة الاماكن التي يتوفر فيها الماء ، حتى وان كانت كميته قليلة ، لانه يقاوم العطش ، ويكتفي بالماء القليل ، وقد اصبحت النخلة رمزاً شائعاً من رموز الصحراء . وكانت بعض المناطق تشتمل على مزارع ونخل وعيون كثيرة ، مثل خيبر التي كان يحمل منها التمر الى الجهات القصوى ، حتى اصبحت مضرراً للمثل في كثرته ، وفي ذلك يقول خارجة بن ضرار المري^(٣) :

فانك واستبضاعك الشعر نحونا كستبضع تمرنا الى ارض خيبر

(١) شريعة حمورابي . المنشورة في مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد/ ١٩٦١ للدكتور محمود الأمين.
(٢) حسن الباشا . تاريخ الفن في العراق القديم/ ١١٩ . (٣) الألوسي . بلوغ الارب ١/ ١٩٢ .

ومثل خير ، هجر والطائف وفدك والمدينة وغيرها من المناطق في الشمال ولا بد ان يكون شعراء هذه المناطق اعرف في وصف النخل الذي ينبت في ارضهم وقد دفعهم اهتمامهم بالنخل الى تقصي أصناف التمور وانواعها ، للتمييز بين جيدها ورديئها ، فكان الصّفري سيد التمور ، ثم السري ، ثم اللصف ثم القحاحيل ثم المجنّي ثم الحباوى والشماريخ والمشرخ ثم الصرفان وغير ذلك من الأصناف^(١) .

وكانوا يستخلصون من التمر عصيره (الدبس) ليتنفخوا به في الشتاء ، وبه شبه عنّرة العرق السائل من رأس فرسه وعنقها^(٢) :

وكان رُبّاً او كحِلاًّ مُعْقِداً حُشّي القيانُ به جوانبُ قُمُقم

وكانوا يستعملون رضيع النوى المدقوق علفاً للخيول والابل وينسبونهُ الى السواد ، قال المثقّب العبدي ينعت ناقته^(٣) :

كساها تامكاً فرداً عليها سواديّ الرضيع مع اللّجين

وكانوا يحفظون التمر بجلل تصنع من الخوص ، يسمون الواحدة منها الخصف^(٤) حتى يبقى التمر طرياً ، وحتى يتمكنوا من استعماله في الشتاء ، قال الاعشى^(٥) :

قلنا الصلاح فقالوا لا نصالحكم اهل النبوك وعير فوقها الخصفُ

وكانت المواطن المليئة بالنخيل والزروع وعلف الحيوان والدواب مدعاة للفخر لأن هذه الامور تمثل عماد الحياة الاقتصادية التي يستطيعون بواسطتها الاستمرار في البقاء ، وفي هذه الزروع والنخيل يفاخر الاعشى علقمة فيقول^(٦) :

(١) الحمداني . صفة جزيرة العرب / ١٥٥ . (٢) عنّرة . الديوان / ٣٧٤ . (٣) المثقّب

العبدي . الديوان / ٣٥ وانظر ديوان أوس / ١١٢ وديوان الأعشى / ١٨٩ والمفضليات / ٢ / ٩٠ .

(٤) لا زالت هذه اللفظة مستعملة في العراق ولا زال وعاء التمر يسمى خصافة . واحدة خصاف .

(٥) الأعشى . الديوان / ١٥١ . (٦) الأعشى . الديوان / ١٥١ وانظر ديوان أوس / ٤١ .

ألم تر ان العرض أصبح بطنها نخيلاً وزرعاً ثابتاً وفصائصا
اما المحافظة على الفسيل فكانت تشغل جانباً من هذا الاهتمام بالنخيل
وكانوا يحافظون عليه بتغطية عدوقه ، خوفاً من الجراد والدبا والحرق والقر ،
وهذا ما جعل الطفيل الغنوي يشبه اجبته في ظعونهم بالفسيل المكمم^(١) :
اشاقتك اظعان بجفن بينهم نعم بكرةً مثل الفسيل المكمم
ولا بد ان تدفعهم هذه المحافظة عليه ، وهذا الفخر بوجوده في ارضهم
الى الدفاع عنه بسيوفهم ، وحمايته بكل ما يملكون من الشجاعة وحراسته
رغبة في الاستفادة منه^(٢) ..

ولهذا كانت ظاهرة حرق النخل معروفة في العصر الجاهلي لأن فيها ايداء
مباشراً ، وخسارة جسيمة ، فاذا غلب قوم قوماً احرقوا نخيلهم حتى تصبح
كانها نساء قائمات في مآتم ، قد لبسن الحداد ، قال الاعشى مفخرة^(٣) :
وايام حَجَرٍ اذ يُحَرَّقُ نَخْلُهُ تُأَرْنَاكُم يوماً بتحريق ارقم
كأن نخيل الشطرِ غبَّ حريقه مآتم سود سلبت عند مآتم
او تصبح كالنوق الهزيلة العجاف^(٤) .

وتقرن بساتين النخيل في الغالب بعبارة الجنة ، مضافة الى المكان ، فقالوا
جنة يثرب ، وجنة ملهم ، وكانت تشبه الابل لكثرة بساتين النخيل ، قال
بشر يمدح عمرو بن ام اياس ، ويعدد صفاته^(٥) .

والمانح المائة الهجان بأسرها ترجى مطافيلها كجنة يثرب
وقال^(٦) :

وأوهب للكوم الهجان بأسرها تساق جميعاً مثل جنة يثرب

(١) الطفيل الغنوي . الديوان / ٤١ .
(٢) انظر ديوان امرى القيس / ٥٧ .
(٣) الاعشى . الديوان / ١٢٧ .
(٤) انظر ديوان الأعشى / ٢٤٧ ، ٣٠٥ .
(٥) بشر . الديوان / ٣٩ . (٦) بشر . الديوان / ٢٠٠ وانظر ديوان زهير / ٣٧ .

وهم على الرغم من انفتهم من الزراعة ، وهجأهم لمن يعمل في حقلها
 — كما جاء في قول الاعشى في هجاء اياد عندما كانوا مع كسرى في حرب
 بكر يوم ذي قار فقد وردت اشارات كثيرة الى معرفتهم بفنون زراعة
 النخيل ، وشروط التباعد بين غرسه وامتداد جريده ، وتكثير نخوصه ،
 واتصال بعضها ببعض ، بحيث يمتنع الطير من ان يطير من تحتها الى اعلاها
 وقد زعموا ان منادياً كان يصعد الى اطم من آطام المدينة ، حين يدرك البسر ،
 فينادي (التمر في البر) أي من سقى وجد عاقبة سقيه في ثمره . كل هذه
 الامور تدلنا على اهتمامهم بهذا النوع من الشجر ومعرفتهم بدقائق زراعته ،
 والمحافظة عليه ، ورعايته الرعاية الكافية . وكان يحملهم منظر النخلة ، وقد
 تدلت علوقها ، ثقلاً وحملًا على عقد المقارنة بينها وبين ظعون الاحبة ،
 وكانت توحى لهم ألوان النخلة وقد زها ثمرها وتلون رطبها ، واخضر سعتها ،
 بألوان الظعون اللامعة ، وما على الهوادج من ألوان الوشي والعهون ، وهي
 تغطي الاحبة ، لتحفظهم من حرارة الشمس ، وتقيمهم لفح الهجير ، الذي
 يشوي الوجوه والابدان ، قال امرؤ القيس ، يصف هودج احبائه (١) :
 علون بانطاكية فوق عقمة كجرمة نخل او كجنة يثرب (٢)
 وقال عبيد (٣) :

كَأَنّ اطعنهم نخلٌ موسّةٌ سودٌ ذوائبها بالحمل مكومة
 ولا بد ان تذكرهم صورة النخلة ، وهي تشمخ بجذعها وسعتها وعلوقها ،
 بصورة الجمال الضخمة في تمامها وحسنها (٤) ، وقد شبهوا ذنب الناقة ، وهو
 متدل على فخذها بعرجون النخلة المتدلي ، قال بشر يصف ناقته (٥) :

(١) امرؤ القيس . الديوان/ ٤٣ . (٢) العقمة . ضرب من الوشي . (٣) عبيد الديوان/ ١٢٨
 وانظر ديوان عامر بن الطفيل/ ٦٢ وديوان أبي داود / ٣٣٨ وديوان أوس / ٢٢ وديوان ليبد
 / ٥٨ - ٥٩ . (٤) انظر ديوان امرؤ القيس/ ٢٤٧ ، وديوان الاعشى / ٢٩٧ .
 (٥) بشر . الديوان/ ١٩٦ .

كَانَ عَلَى انْسَائِهَا عَذَقَ خَصْبَةٍ تَلْبِيٍّ. مِنَ الْكَافُورِ غَيْرِ مَكْمَمٍ
وَيَصِفُ الْأَعْشَى رَاحِلَتَهُ ، فَيَشْبِهُ ذَنْبَهَا ، وَقَدْ اكْتَنَفَهُ الشَّعْرُ مِنْ نَاحِيَتَيْنِ
بِقُنُو النَّخْلَةِ (١).

وَلَمْ تَكُنِ الْإِبِلَ وَحْدَهَا طَرَفًا فِي تَشْبِيهَاتِهِمْ ، وَهُمْ يَتَأَمَّلُونَ هَذَا الشَّكْلَ
الْمُتَنَاسِقَ مِنَ الشَّجَرِ ، فَالْخَيْلِ الطَّوِيلَةِ ، التَّامَةِ الْخَلْقِ ، الْمُرْتَفِعَةِ هِيَ أَيْضًا نَخِيلٌ ،
طَالَتْ عَلَى الَّذِينَ يَجْنُونَ ثَمَارَهَا ، فَلَا تَنَالُهَا أَيْدِيهِمْ ، وَقَدْ ادْرَكَ عِبِيدَ هَذِهِ الصُّورَةَ
لِلخَيْلِ الَّتِي ظَلَّتْ عَاكِفَةً عَلَى حَجَرٍ ، بَعْدَ قَتْلِ بَنِي أَسَدٍ لَهُ فَخَاطَبَ امْرَأَ الْقَيْسِ
بِذَلِكَ قَائِلًا (٢) :

وَالْخَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ كَأَنَّهَا سَجُجُ النَّخِيلِ نَأَتْ عَنِ الْجُرَّامِ
وَلَمْ يَكُنْ تَشْبِيهِهُمْ لِلْفَرَسِ بِالنَّخْلَةِ مَكْمَلَةً فَحَسَبَ ، وَإِنَّمَا شَبَّهُوا بِكُلِّ
جُزْءٍ مِنْهَا فَشَبَّهُوا بِسَاقِهَا (٣) ، وَبِجَرِيدِهَا الْمَشْدَبِ (٤) وَبِشَوْكِهَا فِي الذَّنَقَةِ (٥) أَمَّا
الْتِمَرُ ، فَقَدْ وَجَدَ الشَّاعِرُ فِي صُورَتِهِ ، وَهُوَ يَنْثُرُ مِنْ جَرَابِ جَامِعِهِ ، صُورَةَ
سَرِيعَةٍ وَمُتَحَرِّكَةٍ وَحَيَّةٍ ، فَقَابَلَهَا بِصُورَةِ الْخَيْلِ وَهِيَ تَخْرُجُ مِنْ خِلَالِ غُبَارِ
الْمَعَارِكِ سَرِيعَةً مُضْطَرِبَةً ، قَالَ ضَمْرَةُ بْنُ ضَمْرَةَ (٦) :

وَالْخَيْلُ مِنْ خِلَالِ الْغُبَارِ خَوَارِجُ كَالْتِمَرِ يَنْثُرُ مِنْ جَرَابِ الْجُرَّامِ
وَكَانُوا إِذَا اسْتَهْلَوْا لِقَاءَ قَوْمٍ قَالُوا : لِقَاءَهُمْ أَحْلَى مِنَ التِّمْرِ (٧) ، وَكَانَ
التِّمَرُ الرَّدِيءُ مَدْعَاةً لِلْهَجْوِ ، فَعِنْدَمَا أَرَادَ طَرَفَةٌ أَنْ يَهْجُو جَمَاعَةً ، وَيَصِفُفَهُمْ
بِالضُّعْفَةِ ، ذَكَرَ أَنَّ الضُّعْفَ وَسُوءَ الْحَالِ قَدْ بَلَغَ بِهِمْ إِلَى أَنْهُمْ كَانُوا يَرْسُلُونَ
الْعَذَارَى - مَبَالِغَةً فِي الذَّمِّ - يَلْقُطْنَ لَهُمْ مَا بَقِيَ مِنَ التِّمْرِ الرَّدِيءِ (٨) وَعِنْدَمَا أَرَادَ
الْأَعْشَى أَنْ يَهْجُو عُلُقَمَةَ شَبَّهَهُ وَقَوْمَهُ بِخَالَةِ التِّمْرِ فَقَالَ (٩) :

(١) انظر ديوان الأعشى / ١٠٥ . عبيد : الديوان / ١٢٣ . (٢) انظر ديوان عامر بن
الطفيل / ١٠٢ . (٣) انظر ديوان عامر بن الطفيل / ٢٧ . (٤) انظر ديوان علقمة / ٧٥ .
(٥) ابن قتيبة . كتاب المعاني / ٥٢ وانظر المصدر نفسه في أبيات لدريد بن الصمة . (٦) المفضل .
المفضليات / ٢ / ١١٠ . (٧) انظر ديوان طرفة / ١٥١ . (٨) الأعشى الديوان / ١٥١ .

فلو كنتم نخلاً لكنتم جُرامَةً^(١) ولو كنتم نبلاً لكنتم معاقصاً ودفع الاهتمام بهذه الشجرة اللغويين الى التأليف فيها ، فقد وضع ابو عمرو الشيباني كتاباً في النخلة^(٢) واعقبه الاصمعي فوضع كتاباً في النخل^(٣) ذكر فيه نعوت سعتها وكربها وقلبها ، ونعوت طولها وحملها واجناسها وعدوقها ونعوتها واموراً اخرى تتعلق بها ، ثم ألف ابن الاعرابي كتاب صفة النخل^(٤) وألف ابو حاتم السجستاني كتاب النخلة^(٥) ثم اعقبه الزبير بن بكار فوضع كتاباً في النخل^(٦) وافرد ابن سيده في المخصص للنخل كتاباً سماه كتاب النخل^(٧) ذكر فيه اغتراس النخل ، وافتساله ، وبدء نهايته واصوله ، ونعوت سعه وكربه وقلبه وعدوق نخله ، ونعوتها وترجيبيها ، وتكميم عدوقها ولقاحها ، كما ذكر نعوتها في اصطفاها ، وبعدها عن الماء وقربها ، فالنخل الجاري هو المستغني عن السقي اما البعل فهو ما شرب بعروقه من عيون الأرض من غير سماء ولا سقي واياه عنى النابغة بقوله يصف نخلاً^(٨) :

من الواردات الماء بالقاع تستقي باعجازها قبل استقاء الحناجر وهو يقول انها تشرب باعجازها ، يريد العروق على الاستعارة .

هذه صور النخل التي وردت في الشعر الجاهلي ، وهي - كما وجدناها - صور تعرض لها الشعراء في احاديثهم ، وعلى ضوءها نستطيع أن نحكم على مدى انتفاعهم بهذه الشجرة . واستفادتهم من ثمرها الذي كان يشكل غذاء رئيسياً لهم ولحيوانهم ، وباستطاعتنا ادراك اهمية هذه الشجرة من الصور التي استمدوها منها في تشبيهاتهم واستعاراتهم .

اما شكلها المتناسق ، وتجمع سعتها ، وقد توسطته العدوق والشماريخ

(١) ابن النديم . الفهرست / ١٠٢ (الرحمانية) .
(٢) الاصمعي النخل بتحقيق هافر .
(٣) ابن النديم . الفهرست / ١٠٣ . (٤) أبو حاتم السجستاني نشره الأستاذ برتليو لوفنيا / ١٨٩١ روما .
(٥) ابن النديم . الفهرست / ١٦١ . (٦) ابن سيده . المخصص / ١١ / ١٠٢ .
(٧) النابغة . الديوان / ١٨٨ .

فكانت مجالاً آخر من مجالات التذكير بالظعون والحوادج - وهي تشق تلك
المفاوز المقفرة ، والفلوات الصحراوية الرهيبة - التي مكنت الشاعر الجاهلي
من التعبير عنها واستغلالها في بسط احساسه المؤلمة ، وذكرياته الجميلة في
آثار هذه الظعون .

شجر الجبال

اما هذا القسم فيمكننا أن نضع فيه اكثر من نوع واحد ، لاشترائه في
صفة واحدة ، وتميزه بميزة واحدة ، واستعمال معظمه في غرض واحد
فبالاضافة الى النبع والشوحط والضال يمكننا ان ندخل شجر الشث والعرعر
(وهو السرو) والطباق والاشكل والقان والشريان والبان في هذا القسم باعتبار
كونها من شجر الجبال ، ولكن اكثرها ذكراً في الشعر هو النبع والشوحط
والعرعر والضال .

وكانوا يتخذون من النبع القسي والسهام ، حتى اصبح مجرد ذكره
يحدد السلاح المقصود منه ، قال عبيد بن الابرص يصف جيش بني اسد^(١) :
فيه الحديد وفيه كل مصونة نبع وكل مثقف وحسام
وقال اوس بن حجر^(٢) :

وصفراء من نبع كأن نذيرها اذا لم تخفضه من الوحش افكل
وكانوا يختلفون الى منابته ، فاذا وجدوا قوساً صغيراً يمكن ان تتخذ
اذا نمت وكبرت ، تعملوها بالرعاية ، حتى تصلح وتستقيم وتكبر ، وعندها
يقطعونها ، ليتخذوها قوساً ، قال اوس بن حجر^(٣) :
تعلمها في غيلها وهي حَظْوَةٌ^(٤) بواد به نبع طوال وحشيل^(٥)

(١) عبيد . الديوان/١٢٣ . (٢) اوس بن حجر . الديوان/٩٦ وانظر المفضليات ٨٢/٢ .
(٣) اوس بن حجر . الديوان/٩٧ . (٤) الخطوة . القضيبي الصغير ينبت في أصل الشجرة
والنيل . الشجر الملتف . والحشيل من أشجار الجبال .

وكما كانوا يصنعون القسيّ من النبع ، كانوا يصنعون منه القداح^(١) ومثل
النبع ، الضال والغرب ، قال أوس بن حجر يصف سهامه التي أعددتها للحرب^(٢)
وحشو جفير من فروع غرائب تنبت في صانع وتنبلا
وكانوا يحرسون على اختيار العود السليم الذي ليس فيه عقد ، لأن ذلك
أقوى لها وأشد ، قال الأعشى يمدح قيس بن معديكرب الكندي يصف
نبلا^(٣) :

سلاجم كالنحل انحى لها قضيب سراء قليل الأبن
وقد استعملوا المعنى المجازي لهذه الأنواع من الشجر في مواضعها
المناسبة فكان استعمالهم لها في مواضع القوة والصلابة والشدة والاحكام
وطبعي ان تحتاج الاشجار الجبلية الى صلابة العود ، وقوة الجذور والاعضان ،
لتنتمكن من مقاومة الظروف النباتية الصعبة التي تحيا تحت وطأتها ، وقد ادرك
الشعراء الجاهليون هذه الحياة ، وعرفوا شدة هذا النبات ، فحاولوا الاستفادة
من ذلك في توضيح معاني الشدة والصلابة التي كانوا يريدون التعبير عنها ،
قال الأعشى مفاخر^(٤) :

ونحن اناس عودنا عود نبعة اذا انتسب الحيان بكر وتغلب
وكانوا يكتنون عن الضعف بشجر السدر لحوره ، وعن القوة بالنبع
لشدته ووزانته ، قال المفضل النكري^(٥) :

وجدنا السدر خوار ضعيفا وكان النبع منبته وثيق
واثارت شدة التناسق الموجودة في هذا الشجر اعجاب الشاعر الجاهلي
فلم يمدح حيواناً اجدر بهذا الانسجام والتناسق من فرسه لدقته وطوله ، قال
عبيد^(٦) :

(١) انظر ديوان علقمة/ ٨٠ . (٢) أوس بن حجر . الديوان/ ٨٩ . (٣) الأعشى . الديوان/ ٢٥ .
(٤) الأعشى . الديوان/ ٢٠٣ . (٥) الأصمعي . الأصمعيات/ ٢٣٣ . (٦) عبيد . الديوان/ ١٠٩ .

فهو كالميزع المريش من الشوحط مالت به شمالُ المغالي
وقال الاعشى يمدح الاسود بن المنذر^(١) :

وجياداً كأنها قصب الشوحط تعدو . بشكة الابطال

الظاهرة التي تطالعنا في هذا الصنف من الأشجار هي ان الشعراء استعملوا نوعاً واحداً - في اغلب الاحيان - في باب الغزل ، وهو شجر الضال وخاصة اذا شبهوا الحبيبة بالمهاة ، والظاهر ان هذا النوع من الشجر كان قصيراً لا يرتفع عن الارض كثيراً ، ولهذا كانت الطباء تتمكن من اسقاط ثمره بقرنها ، فكأنهم بذلك يجمعون بين وداعة هذا الحيوان الوديع ، وبساطة هذه الشجرة ، السهلة التي يستجيب ثمرها لمجرد الحركة الخفيفة ، قال طرفة يصف حبيبته^(٢) :

جأبة المدري لها ذو حدة تنفض الضال وافنان السمر

وقال بشر بن ابي خازم يصف ظعون احبته^(٣) :

كأن على الحدوج مخدرات دُمي صنعاء خُطّ لها مثالُ
او البيض الخلود بذي سُدير اطاع لهنَّ عبريٌّ وضال

اما بالنسبة للحيوانات الاخرى وعلاقتها بهذه الشجرة ، فقد وردت عرضاً في حديث الشعراء عن الصحراء ، وما يلاقونه من صعوبة في قطعها متوصلين من ذلك الى الثناء على نياقهم التي تمكنت من قطع هذه الصحراء المقفرة^(٤) .

وورد ذكر انواع اخرى من شجر الجبال في حديث الشعراء الهذليين عن النحل والعسل والوعول مثل القان والنشم . الظأن والتالب^(٥) وكما استعملوا النبع والشوحط في صنع الاقواس ، اتخذوا من شجر الوشيع الرماح حتى

(١) الاعشى . الديوان / ٩ . (٢) طرفة . الديوان / ٧٠ . (٣) بشر . الديوان / ١٦٧
وانظر ١٤٣ / من الديوان نفسه ، والمفضليات ٤٤ / ٢ . (٤) انظر ديوان امرى القيس / ٤٥
وديوان بشر / ١٩٧ وديوان ليلى / ٧٧ . (٥) انظر شرح أشعار الهذليين ٣ / ١١٢٥ .

غلب اسم الوشيج على الرماح نفسها ، قال الاعشى ^(١) :
وترى الجلياد الجرد حول بيوتنا موقوفة وترى الوشيج مُستنداً

وكانوا يستعملون بعض اصناف الشجر في بناء الحظائر ، تزد الرياح عنهم كما كانوا يعملون من خشب هذه الاشجار حظائر لابلهم وغنمهم ، يحبسونها فيها وكانوا يطلقون على هذه الحظائر العنن ، قال لبيد يذكر بني جعفر حين ارتحلت فنزلت بلاد بني الحارث بن كعب ^(٢)

هلكت عامرٌ فلم يبق منها برياض الاعراف الا الديارُ
غير آلٍ وعُتَّةٍ وعريشٍ ذعدتها الرياح والامطار
اما الشث والصرائم ، فمن الاخشاب التي كانت تستخدم في اقامة البيوت ، قال ساعدة بن جؤية ^(٣) :

إن يكُّ يبي قشعةً قد تحذمت وغصناً كأن الشوك فيه المواشم
فذلك ما كنا بسهلٍ ومسرّةٍ إذا ما رفعنا شتّةً وصرائم ^(٤)
وكانوا يتخذون من الاسحل المساويك ، فاذا عظم وغلظ وصلب ، عند ذاك تتخذ منه الرحال ، لأن خشبه يصبح اصب من خشب الاراك قال الطفيل ^(٥) :

إذا هي لم تستك بعود اراكّة تبخل فاستاكت به عودُ أسحل
وقد شبه امرؤ القيس اصابع صاحبه ونعمتها وبياضها بالاسحل فقال ^(٦) :
وتعطوا برخص غير شثن كأنه اساريعٌ ظبي او مساويكُ اسحل
وكانوا يستعملون شجر المرخ في اقامة الخيام ، فينصبونه بالمرتبع ، ثم

(١) الاعشى الديوان / ٢٣٣ وانظر ديوان عبيد / ٣ ، وديوان عامر بن الطفيل / ١١٨ ، ١٢٩ .

(٢) لبيد . الديوان / ٤٤ - ٤٥ . (٣) ساعدة بن جؤية . شرح أشعار الهذليين / ٣ / ١١٨٤ .

(٤) قد تحذمت قد تقطعت . المواشم . الابر . (٥) الطفيل النوني / الديوان / ٣٧ وانظر

ديوان امرؤ القيس / ١٧ . (٦) امرؤ القيس . الديوان / ٧٨ .

يظل بالثمام ، وهم يفعلون ذلك لأن ظل الثمام ابرد من ظل الابنية^(١) . وكذلك الميس الذي كانوا يصنعون منه الرحال والموائد الواسعة ورحاله مشهورة ، حتى اصبح معنى الميس الرحل ، لغلبة استعماله قال الاعشى^(٢) :
زيّافة بالرحل خطّارة تُلوى بشرخي ميسّة قاتر^(٣)

ومن اشجار الجبال العرعر والبان والشث ، وكانت تذكر مع بعضها وتقرن في كثير من الشواهد بأعمال البطولة والجرأة والغارة ، قال بشر في رجل^(٤) :

وصعب يزل الغفر عن قذافته بحافاته بان طوال وعرعر
وقال عامر بن الطفيل^(٥) :

وافراسنا بالسهل بدّلن مذحجا ذرى شعف شثاً وباناً وعرعرا
وقال عروة بن الورد يصف غارات جماعته^(٦) :

فيوماً على نجد وغارات اهلها ويوماً بأرض ذات شث وعرعر
ولا بد ان يكون الشعراء قد استمدوا هذه المعاني من صعوبة الوصول الى منابت هذه الاشجار لوعورة المسلك .

ولصلابة هذا الشجر شبهت ضلوع الناقة بسقائمه . قال علقمة^(٧) :
ورفعت راحلة كأن ضلوعها من نص راكبيها سقائف عرعر

ومن الاشجار التي تسمو وتطول باستواء البان ، ولاستواء نباته ، ونبات افاناه وطوله ، شبه الشعراء الجوارى الحسان والغانيات به ، قال الاعشى يشبه امرأة طويلة^(٨) :

(١) انظر ديوان امرئ القيس/ ١٥٤ . (٢) الأعشى . الديوان / ١٤٧ ، وانظر المفضليات ٢٣٢/٢ . (٣) قتر الشيء . ضم بعضه إلى بعض . (٤) بشر بن أبي خازم . الديوان / ٨١ . (٥) عامر بن الطفيل . الديوان / ٧٠ . (٦) عروة بن الورد . الديوان / ٨٤ . (٧) علقمة . الديوان / ١١٩ . (٨) الأعشى . الديوان / ٣٥٣ .

نِيف كَفَصَن البان نَرَج ان مَشَت وبيت قَطَا البطحاء في كل منهل
واذا شبه به الرجل ، فهو هجاء له ، لان التثني في المشي من صنعة
النساء ، وقد هجا طرفة عمرو بن بشر بذلك^(١) ووردت اشارات الى استعمال
شجرة البان والعشب في الكتابة^(٢) .

وكانت اشارات الشعراء الى الاشجار التي يصيغ بها كثيرة ، فكانوا
يذكرون العندم ، والفرصاد ، والبقم ، والعنم ، والعُرس^(٣) وهناك انواع
من الشجر ، استعملوها في مجال التشبيه بالغبار ، كالغرقد ، والتنضب
والعندى ، لان هذه الاشجار كثيرة الدخان اذا احترقت ، حتى اوشكت
صورتها ان تتضح لهم ، وترسم ملامحها في اذهانهم ، عند اثاره الخيل لهذا
الغبار لسرعتها ، وقوة ضربها الارض ضرباً تثير به غباراً يماثل دخان هذه
الاشجار وهي تحترق وكثر التشبيه بها في مثل هذه الاحوال^(٤) .

وللائل اكثر من ذكر في حديث الشعراء لمناقفه الكثيرة ، فخشبه جيد
يُحْمَل الى القُرَى فتنبى عليه بيوت المدر ، ومنه تصنع القصاع ، والجفان ،
والآنية والمكايل والصيعان والاقداح^(٥) وخضرته التي تدوم دفعت الشعراء
الى تشبيه حمولة الطعائن وما عليهن من الالوان الخضر ، بهذه الخضرة اللامعة^(٦)
ولهب ناره المتقد جعلهم يستشهدون به عند حديثهم عن البرق وشدة وميضه^(٧)
ووعورة منابته هيأت لهم مجال الاستشهاد به عند تعرضهم للذكر الغزرو
والغارات . قال عروة بن الورد عندما اراد ان يحث جماعته على الغزو^(٨) :
فانكم لن تبغوا كل همسي ولا اربتي حتى تروا منبت الاثل

(١) طرفة . الديوان/١٤٢ . (٢) انظر ديوان لبيد/١٣٨ . (٣) انظر ديوان امرئ القيس
١٠٣ ، وديوان عبيد / ٤٩ وديوان عنتره / ٣٧٥ (الأعلام) وديوان الأعشى / ٢٩٣ ، ٣٥٣ ،
والمفضليات ٣٨/٢ . (٤) انظر ديوان الطفيل الغنوي/٩ وديوان بشر/٣٧ وديوان لبيد/١٦ .
(٥) أبو حنيفة . النبات/١٣ . (٦) امرؤ القيس . الديوان/٦٢ . (٧) انظر ديوان الطفيل
الغنوي/٤٣ . (٨) عروة بن الورد . الديوان / ١٠٦ .

وعرفت انواع من الشجر بشوكها كالسيال والعضاء^(١) والمهراس واكثر ورودها في الشعركان في حديث الشعراء عن الالم والقلق والحذر والانتظار ، فالاعشى عندما اراد ان يصور حالة مضطربة ، عبر عنها بمداعبة النوم للجفون وشبه امتناع الجفون عن الغمض بجريانه خلال شوك السيل المعروف بكثرة شوكه ولا بد لنا ان نتصور البراعة الفنية في هذه الصورة . وفي مكان حساس كالعين ، حتى ندرك دلالة ذلك المعنى ، قال الاعشى^(٢) :

باكرتها الاغراب في سنة النوم فتجري خلال شوك السيل

وتأخذ صورة الألم عند اوس شكلاً آخر فعندما صرعت ناقةه واندقت فخذيه ، واخذته الالم ، كانت هذه الآلام تشبه في حداثها وقوتها طعنة من شوك السيل^(٣) :

كأن اطاول شوك السيل تشك بها مضجعي شاجره

والنابغة الذبياني . الذي وشي به عند النعمان . فبات ليلته قللاً مضطرباً يتقلب على مضجعه الذي بسط له الزائرات عليه هراساً . قد أحسن رسم صورة القلق والانتظار بهذه الصورة الشعرية : فأبرز لنا مقدار ما يعانيه من خلال هذه اللوحة^(٤) :

فبت كأن العائدات فرشني هراساً به يُعلَى فراشي ويُنشَبُ

وتتخذ الزناد من شجر العفار والمرخ : وهما شجرتان سريعتا الوري ، وذكرهما يرد في مجال الكتابة على نحو ما نجد عند علباء بن أرقم في اعتذاره للنعمان إذ يقول^(٥) .

وزنّدي عفارٍ في السلاح وقادح إذا شئت أوري قبل ان يبلغ السأم

(١) ذكر الأصمعي في كتاب النبات والشجر/ ٣٣ : أن العضاء كل شوك يعظم ، يريد ان العضاء يطلق على كل شجر طويل ذي شوك . (٢) الاعشى . الديوان/ ٥ . (٣) أوس . الديوان/ ٣٤ . (٤) النابغة . الديوان/ ١٧٥ . (٥) الأصمعي . الأسمعيات/ ١٧٩ .

وحينما مدح الأعشى قيس بن معديكرب قال له في تضاعيف قصيدته (١)
زنادك خيرُ زناد الملسو لك خالط منهنّ مَرَحٌ عقارا

وأما الصاب والألاء والشبرم والحنظل والسليح والقار فهي من الأشجار التي
تجمعها صفة المارة ، ويتميز بعضها بحرارته التي تدمع منها العين ، وقد شبه
امروء القيس ما جرى من دمه لفقد أهل الدار بما يسيل من عين ناقف الحنظل (٢)
كأنّي غداة البين يوم تحملوا لدى سَمُرَات الحِي ناقف حنظل

ويشبه الشاعر الجاهلي ما اجتمع من الماء ، والتغير الذي يصيبه نتيجة
التجمع هذا ، ولبعد عهده بالوراد ، بالصيب لمرارته ، وورود هذا النوع من
الماء كان من المفآخر التي يفاخر بها الفرسان ، لتوغلهم في هذه الأماكن التي
لم تقطع من قبل ، ولم تطأها أقدام أحد ، فظل ماؤها راكدا ، قال علقمة يصف
راجلته والمشقة التي صادفتها ، والطريق الذي سلكه (٣) :

فأوردتها ماءً كأن جمامه من الأجن حنّاء معاً وصيبُ
أما الألاء - وهو المعروف بالدفل - فشجره حسن المنظر ، ولكنه مر
الطعم وقد وجد الشاعر الجاهلي في هذا النبات صورة للمناق الذي يظهر للناس
وجهاً لطيفاً ، ويخفي باطناً مرّاً ، قال بشر يهجو قومه (٤) :

فانكم ومدحتكم بُحَيِّرا ابا لجأ كما امتدح الألاء
يراه الناس اخضر من بعيد وتمنعه المارة والاباء

ومن الأشجار ما استعمل في المثل لارتباطه بحوادث معينة كالقرظ ، وهو
أجود ما تدبغ به الذهب في أرض العرب ، وكانت تدبغ بورقه وثمره ، وقد
نسب إلى هذا الشجر رجلان سميّا بالقارظين ، وضرب بهما المثل في طول
الغيبة (٥) واستشهد به بشر بن أبي خازم عندما أصابه سهم الغلام الوائلي وهو

(١) الأعشى . الديوان/ ٥٣ . (٢) امرؤ القيس . الديوان/ ٩ . (٣) علقمة . الديوان/ ٢٨ .

(٤) بشر . الديوان/ ٣ . (٥) ولها حديث في طبقات ابن سلام / ١٥٠ والمعارف / ٢٦٩ =

يجود بنفسه ويخاطب ابنته ^(١) .

وان الوائي . اصاب قلبي بسهم لم يكن يكسى لغبا
فرجتي الخير وانتظري ابائي اذا ما القارظ العنزي آبا ^(٢)
وهذا ما لا يكون أبداً ، لأن القارظ العنزي مات ، ولا أمل في عودته ،
فكان يضرب به المثل في استحالة العودة والرجوع .

وعرف شجر الغضا بجزالة ناره ، وشدة جمرته ، وبقاء هذا الجمر متقددا
مدة أطول من غيره من الشجر ^(٣) وأثار توقد الحلي على صدور الأحبة ،
وأعراف الفرس ولبائنه صورة حسية تتكرر كلما وقعت أبصارهم عليها ،
فعدلوا المشابهة بينها وبين صورة النيران المتأججة من الغضا والعرج ، لتوافق
الألوان وتشابه الهيئات التي ترسم فيها الصور ، قال امرؤ القيس ^(٤) :
كأن على لبائنه جمر مصطل اصاب غضى جزلا وكف بأجذال ^(٥)
وقال الطفيل الغنوي ينعت فرسه ^(٦) :

كان على أعرافه ولجامه سنا ضرم من عرج متلهب
وجاء ذكر الطلح والكنهبل والعضاة والدوم في وصف الشعراء للظعون
والابل والخيل ، لعظمة هذه الأشجار ، وضخامة هذه الموصوفات في نفوسهم
فلم يجدوا صورة أوقع في التشبيه من صورة هذه الأشجار الكبيرة التي كانت
تمدّ بظلالها مسافة يجدون تحتها الظل الوارف الجميل ، قال المرقش يصف
ابلاً ^(٧) :

تزلن عن دوم تهف متؤنّه مزينّة اكتافها بالزخارف

= والكامل ١/ ١٤٥ / والاشتقاق ٩٠ / والأغاني ١١/ ١٤٥ / واللاقي ٩٩ / وفصل المقال ١٩ / والميداني
١ / ٧٥ / واللسان والتاج (قرظ) . (١) بشر بن أبي خازم . الديوان / ٢٥ - ٢٦ .
(٢) اللغاب . الريش الرديء . (٣) انظر ديوان امرؤ القيس / ٢٠٥ . (٤) امرؤ القيس .
الديوان / ٢٩ . (٥) الأجذال . أصول الشجر . (٦) الطفيل الغنوي . الديوان / ١٠ .
(٧) المفضل . المفضليات ٢ / ٣٢ / وانظر ديوان امرؤ القيس / ٥٧ / وديوان طرفة / ١٦٩ .

وشبه بالعضاة نبات الأرومة ، فقال معاوية بن مالك^(١) :

اني امرؤ من عصبة مشهورة حُشد لهم مجدٌ اشمٌ تلبد
الفوا اباهم سيداً واعانهم كَرَّم وأعمام لهم وجسود
اذ كل حيّ نابت بأرومة نبت العضاه فماجد وكسيد

وعرفت بعض النباتات بزهرها الأبيض الذي شبهوا به الشيب ، كشجر الثغام ، فإذا يس ابيض بياضاً شديداً ، وإذا أقحل كان أشد ما يكون بياضاً وهذه الصورة الناصعة حملتهم على المقارنة بين الحالتين ، قال الأعشى يذكر كبره^(٢) :

فأن تلك لمي يا قتل اضحت كأنّ على مفارقها ثغماً
فإن دوائر الايام يفني وقعها الذكر الحُساما

وكما عرفت بعض أنواع الشجر بقوتها ، عرف بعضها الآخر بخورها وضعفها ، كالبروق والخلاف والنشم ، فكانت مضرباً للمثل بالضعف^(٣) وعرف البعض الآخر منها باشتداد صوت الريح فيه ، كشجر الثأب والعشيق^(٤) ووجدوا في شجر الاستن صوراً منكراً ، لسواد أسافله ، فعرضوا له في أوصافهم ، وشبهوه بما رسمه لهم خيالهم من الصور التي كانوا يعدونها منكراً^(٥) وهناك أنواع أخرى من الشجر ، استعملها الشعراء في أحاديثهم ، وقرنوها بالصور التي كانت تتناسب مع كل نوع منها ، وما كانوا يجدونه في هذه الأنواع من الصفات .

أما النبات فكان وروده في الشعر أقل لضعفه ولأن حاجاتهم اليه قليلة ، واستعمالهم له محدود ، وأكثر النبات وروداً في الشعر ، البردي وبه شبهت العرب

(١) الفضل . الفضليات ١٥٥/٢ . (٢) الأعشى . الديوان ١٩٥ وانظر ديوان عامر بن الطفيل/٤٨١ وديوان بشر/٢١٠ . (٣) انظر ديوان بشر/١٤٦ ، وديوان زهير/٢٥١ . (٤) انظر ديوان امرئ القيس/٤٩ ، وديوان الأعشى ٥٥ . (٥) انظر ديوان النابغة/١٧١ (مختار الأعلام) .

السيقان ، قال عبيد : (١)

خودٌ مبتلةٌ العظام كأنها برديةٌ نبتت خلال غروس
والثمام الذي تتخذ منه المكائس ، ويظل به المزاد . فيبرد الماء . أو تسد
به الفتحات والثقوب كما قال الأعشى في مدح إياس بن قبيصة (٢) .
وهل يشناق مثلك من رسوم عفت الا الاياصر والثماما

وقد ورد ذكره في حديث الشعراء الهذليين في أحاديثهم عن الربايا لأنهم
كانوا يطرحون عليها شيئاً من الثمام . ليستظل بها الربيثة (٣) وضرب به للمثل
في تسهيل الحاجة ، وقرب النجاح ، فقالوا . هو على طرف الثمام (٤) وذلك
أن الثمام نبت ضعيف سهل التناول ، وقيل أنه ينبت على قدر قامة المرء . فهو
لا يطول ، فيشق تناوله ، وإن درس اتخذته بعض الطيور في وضع أعشاشها
لضعفه وخفته وسهولة نقله . قال عبيد (٥)

بَرِمَتْ بنو اسد كما بَرِمَتْ ببيضتها الحمامة
جعلت لها عودين من نَشْمٍ وآخر من ثمامة

والنبات الذي كانت تقنات عليه الحيوانات كثير ، منه العضيد ، والخرجار
والقت والتعليق : والخلة والصفار . وجاء ذكر معظمها في حديث الشعراء
عن علف حيواناتهم ومدح الناس الذين يأمرون باطعام حيواناتهم بأمثال هذه
النباتات ، قال الأعشى يمدح المحلق بن خنم لرعايته لفرسه اليعحوم (٦) .
ويأمر لليحوموم كل عشية بقت وتعليق وقد كاد يستق (٧)

وقال أبو ذؤاد (٨) :

فتبتا عراة لدى مهننا ننزع من شفتيه الصقارا

(١) عبيد . الديوان / ٦٨ . (٢) الأعشى . الديوان / ١٩٥ . (٣) انظر شرح أشعار الهذليين
١٠٧٧/٣ ، ١١٥٩ وكتاب النبات لأبي حنيفة / ٧٨ . (٤) انظر فصل المقال / ٢٧٦ ،
وأمثال الميداني / ٢٦١ . (٥) عبيد . الديوان / ١٢٦ . (٦) الأعشى . الديوان / ٢١٩ .
(٧) السنن للحيوان كالنخمة للإنسان . (٨) أبو ذؤاد الديوان / ٣٥٢ .

وقال النابغة يمدح خيل بني دودان من بني أسد^(١)

يتحلب اليعضيد من اشداقها صفراً مناخرها من الجرجار
وكانوا يستعملون الخضاب والعظم والورس والشيان في خضاب الرأس
وصبغها وكانت النساء تظلي بالورس وجوههن للزينة^(٢) قال بشر بن أبي خازم^(٣)
لم تر عيني ولم تسمع بمثلهم حياً كحي لقيناهم ببيساننا
العاطفين على ما كان من الم كأنما خضبوا ورسا وشياننا
وكانوا يطلقون على الحناء البرناء^(٤) ووردت إشارات إلى استعمال الصمغ
في تثبيت الشعر ، وخاصة عند الشعراء الصعاليك ، قال ساعدة بن جوية ينعت
منازل قومه^(٥) .

ولكنما اهلي بواد أنيسه سباع تبغي النامل مثنى وموحد
لمن بما بن الاصابي ومنصح تعا وكما عجّ الحجيج الملبّد^(٦)
أما الخطمي فهو نبات له رغبة تغسل به الثياب ، ويشبه به ما يخرج من
الزبد من قم الناقة ويتطاير على خدها ولحييها من الجهد والسرعة ، قال علقمة^(٧) .
كأن غسلة خطمي بمشفرها في الخلد منها وفي اللحين تلغيم
وقال الافوه الاودي^(٨)
وجاعوا بماء بارد وبغسلة فيا لك من غسل سيتبعه عبر
= وشبه زبد لغام الناقة بمحلوج القطن الذي تبعثره النوادف ، كما جاء في
قول أوس بن حجر^(٩)

-
- (١) النابغة . الديوان/ ١٦٨ وانظر ديوان امرئ القيس/ ٨٧ وديوان عروة / ١٧٥ والمغضليات
٢١٥/٢ . (٢) أنظر ديوان عترة / ٣٧٧ ، ٣٩٠ ، ٣٩٦ وديوان الأعشى / ١٢٧ .
(٣) بشر . الديوان/ ٢١٨ ، وانظر ديوان امرئ القيس . ٥٥ ، ٢٤٦ ، وديوان الأعشى / ١٩١ ،
٣٢٣ . (٤) انظر ديوان المزرد/ ٣٢ . (٥) شرح أشعار الهذليين ٣/ ١١٦٦ .
(٦) الملبّد . الذي يلبّد رأسه بالصمغ لئلا يتطاير شعره ولا يشعث . (٧) علقمة . الديوان / ٤٨ .
(٨) الافوه الاودي . الطرائف الأدبية / ١٥ . (٩) أوس بن حجر . الديوان/ ٦٦ .

علا رأسها بعد الهباب وساحت كمحلوج قطن ترتيمه النوافد
وهي صورة نادرة في الشعر .

✓ ودخلت بعض النباتات في التقاليد الاجتماعية التي مارسها العرب آماداً ،
فكانوا إذا أرادوا الحرب جعلوا معهم الحنوط ، واستبسوا في القتال وكان
الحنوط خليطاً من الغسل والمسك ، ويتكون الغسل من الخطمي وورق السدر^(١)
وشبهت هامات الرجال بالحنظل في سرعة قطع السيوف لها ، وتساقطها .
قال قيس بن الخطيم^(٢)

كأن رؤوس الخرجين اذ بدت كثنائنا تبرى مع الصبح - حنظل
✓ وكذلك يضرب المثل به في التراص في الحرب ، فيقولون حتى لو وقع
حنظل على رؤوسهم - على املاسه واستوائه - لم ينزل إلى الأرض^(٣)

✓ واستعملوا الحرمل (النبات المر) في الهجاء ، فإذا أرادوا هجاء شخص
أو جماعة شبهوهم بالحرمل المر الوبيل الذي لا يستمرىء أكله أحد^(٤) واستعملوا
العلقم في حديثهم عن إذلال الخصم واروائه الكأس الذي طعمها كطعم
الحنظل^(٥) .

ووردت اشارات إلى العنصل (البصل البري) ولكنها محدودة . وكان
يقترن ذكره بالسيل في هذه الاشارات ، والظاهر أنه كان ينبت قريباً من
مسائل المياه وكان شكله أشبه بالكرة ، وهذا ما كان يستهوي الصبيان إلى جمعه
وبعد انتهائهم منه كانوا يرمونه في السيل فيجرفه . قال الطفيل الغنوي^(٦)
ووحف يغادي بالدهان كأنه مديد غداه السيل من نبت عنه ل

(١) انظر ديوان عبيد / ٧ . (٢) قيس بن الخطيم الديوان / ٤٩ وانظر ديوان عنترة / ٣٩١ .
(٣) انظر ديوان قيس بن الخطيم / ٤٠ . (٤) انظر ديوان طرفة / ٣٥٢ (الأعلم) .
(٥) انظر ديوان عنترة / ٣٧٥ والمفضليات / ١٤٩ / ٢ . (٦) الطفيل الغنوي . الديوان / ٣٦ .

وقال امرؤ القيس^(١)

كأن سباعاً فيه غرقتي غُدِيَّةٌ بأرجائه القصوى انابيش عنصل

وهناك أصناف أخرى من النبات كالطحماء ، والسحم والثمام ، والذبيح والحوذان والنقل والعلجان والراء والغمير ، وعشرات غير هذه الأنواع وقد وردت في الشعر في حديث الشعراء مبشرين ومادحين وواصفين وهاجين ولكنها لم تتميز حتى نفردها قسماً كما فعلنا في هذه الأصناف .

أما الأزهار ، فهي أقل ذكراً في الشعر من الشجر والنبات ، لقلتها في أرض الجزيرة ، وقصر موسمها الذي تعيش فيه بسبب العوارض الطبيعية القاسية التي تمر بها ، ولهذا كانت صورها غير واضحة في أذهان الشعراء ، كما أن طبيعة الحياة لم تترك لهم الوقت الكافي حتى يتفرغوا لاستقصاء وصفها ، إضافة إلى كونها غير متعلقة بحياتهم المعاشية ، ولهذا كان ذكرها في مواضع الغزل والتشبيب أغلب وهذا ما تؤكد أكثر النصوص التي عثرنا عليها ، ويعدّ الاقحوان الذي شبهت به الثغور لبياضه اعمها ذكراً ، وقد اقترن وصفهم للثغور ، وتعرضهم للاقحاح بصورة الضحك والابتسام ، لأنهم وجدوا في صورته صورة الثغر ، فأوراقه صغيرة ومفلجة ، وفي إدراك هذه الصورة حسّ دقيق ، وتفكير يحمل نضجاً عقلياً ، وكثيراً ما كانت تختلط أوصاف الثغر والأسنان والبياض في تشبيهاتهم ، قال طرفة يصف ثغر صاحبه^(٢)

تضحك من مثل الاقاحي حوى من ديمة سكب سماء دلوح

وقال الأعشى^(٣)

وتضحك عن غرّ الثنايا كأنه ذرى أقحوانٍ نبتُهُ مُتَناعِمٌ

(١) امرؤ القيس . الديوان/ ٢٦ . (٢) طرفة . الديوان/ ١٦٩ وانظر/ ٣٢٦ من الديوان أيضاً.

(٣) الأعشى . الديوان/ ٧٧ وانظر من الديوان الصفحات / ٢٠٩ ، ٣٥٣ وانظر ديوان عبيد / ٥٣

وديوان النابغة / ١٨٥ .

واستشهد ابو هلال العسكري في ديوان المعاني^(١) بيت بشر بن أبي خازم^(٢)
 بفلجنّ الشفاه عن اقحوان جلاه غبّ سارية قطار
 من جملة ما جاء به من الأمثلة على أجود ما قيل في الثغرن شعر المتقدمين ،
 وقال المرتضى^(٣) . « قال الاصمعي » ما وصف أحد الثغر إلا احتاج إلى قول
 بشر بن أبي خازم » .

واثار زهر الاقحوان الابيض في نفوس بعض الشعراء ، صورة الشيب ،
 فحملهم على التشبيه به^(٤)

أما الخزامى فهو نبت زهره من أطيب الأزهار ، وريحه من أنعش الرياح
 وكانوا يأتون على ذكره في حديثهم عن الرياض والمياه المناسبة ، ثم يقرنون
 ذلك بريح الخزامى ، لأنها من مستلزمات هذا الحديث ، قال عبيد^(٥)
 وريح الخزامى في مدانِبِ رَوْضَةٍ جلا دمنها سارٍ من المُرْن هَطَّالٍ
 وكذلك العرار ، المعروف بطيب رائحته ، قال الأعشى ، يصف امرأة
 ناصعة البياض^(٦)

بيضاء ضحوتها وصفراء العشية كالعرارة

وقد استعملت بعض أنواع الأزهار ، الطيبة الرائحة كالنفغو ، والريحان
 والحوذان في الرثاء ، وهم يذكرونها مصحوبة بالغيث المسيل ، ليمتلئ بأريجها
 وعطرها وغيثها . مكان المرثي ، وهذا أقصى ما يبتغونه للميت ، قال أوس بن
 حجر^(٧)

لا زال ريحانٌ وفغوٌ ناضرٌ يسجري عليك بمسيل هطّال

(١) أبو هلال العسكري . ديوان المعاني / ٢٣٨ / ١ . (٢) بشر . الديوان / ٦٣ . (٣) المرتضى .
 الأمالي / ٥١١ / ١ . (٤) انظر أبيات المرتضى الأكبر في المفضليات ٣٦ / ٢ . (٥) عبيد .
 الديوان / ١١٤ . وانظر ديوان امرئ القيس / ١٥٧ . (٦) الأعشى . الديوان / ١٥٣ .
 (٧) أوس بن حجر . الديوان / ١٠٨ .

وقال النابغة يرثي النعمان بن الحارث^(١)

سقى الغيث قبراً بين بصري وجاسم
ولا زال ريحان ومسك وعنبر
على منتهاه ديمة ثم هاطل
وينبت حوذاناً وعوناً منورا
سأبعه من خير ما قال قائل

وأشار الشنفرى إلى الريحان وطيب ريحه وتوجهه وتفرقه في كل جانب
واستطابة نسيمه عند العشاء ، لأنه أبرد للريح عند مغيب الشمس فقال^(٢)

فبتنا كأن البيت حُجِرَ فوقنا
بريحانة ريحت عشاء وطُلَّتْ
بريحانة من بطن حلية نورت
لها أرج ما حولها غير مُسْتِ^(٣)

وقف الأعشى كذلك عند الريحان في حديثه عن الخمر وانتشار قضبانه
بين شاربيه وهم يتناقلون الكؤوس التي لا تجف^(٤) .

ومن الأزهار الشقر (شقائق النعمان) وبشماره الحمراء شبهوا الدماء^(٥)
وقد عرفوا غير هذه الأنواع من الأزهار كالرند^(٦) والكافور والزنبق^(٧)
والقرنفل^(٨) والياسمين^(٩) .

وإلى جانب هذه الأزهار عرف الشعر الجاهلي مجموعة من الفواكه كالعنب
والانرج والتفاح والتين ، ولكن العنب أغلبها ذكراً ، وذكر الهمداني الرمان
والسفرجل والاجاص، والشمش والخوخ والكمثرى^(١٠) .

وأحصى الاصمعي ستة عشر نوعاً من العنب الطائفي في كتاب النخل

-
- (١) النابغة الذبياني . الديوان / ١٩٨ وانظر حماسة أبي تمام (المرزوقي) / ٤ / ١٦٢٨ .
 - (٢) المفضل . المفضليات / ١٠٨ / ١ . (٣) حجر . أحيط . طلت . أصابها الطل وهو الندى .
 - حلية . واد بهامة . أعلاه هذيل وأسفله لكثانة ، وبطن حلية في حرن أي أرض غليظة ، ونبت
الحرن أطيب من غيره ريحاً . المست . المجذب . (٤) انظر ديوان الأعشى / ٥٩ ، ٢١٧ .
 - (٥) انظر ديوان طرفة / ١٩٦ ، ٣٢٩ (الأعلم) . (٦) انظر ديوان امرئ القيس / ٦٠ .
 - (٧) انظر ديوان الأعشى / ١١٩ ، ٣١٧ ، ٣٦٥ . (٨) انظر ديوان قيس بن الخطيم / ٨٠ .
 - (٩) انظر ديوان الأعشى / ١٧٣ . (١٠) الهمداني . صفة جزيرة العرب / ٦٩ .

والكرم^(١) بأوصافها وأحجامها وألوانها ، وما صغر حبه منها ، وعظم ، وذكر أبو حنيفة صنفاً من العنب أسود كأنه البلوط في طوله ، كانت تشبه به أصابع العدارى المخضبة ، وكان عنقوده نحو الذراع ، متداحس الحب وله زبيب جيد ومنايته السراة^(٢) وكانت بعض المناطق تعرف بأعنايبها التي تتخذ منها الحُمور وقد أشار إلى بعضها الأعشى بقوله^(٣)

أحب اثافت وقت القطاف ووقت عصارة أعنايبها
وكانوا يحففون العنب، ويدخرونه زبيباً ، ويأكلونه في أوقات الشتاء^(٤)
وذكر الأصمعي طرق العصر والتجفيف^(٥) . أما عصيره ، فكان يذكر في حديث الشعراء عن ثغور الأجمة ووصفهم لرضابهن ، قال عروة بن الورد^(٦)
بأنسة الحديث رضاب فيها بعيد النوم كالعنب العصير
وذكر أبو حنيفة أجناس التين ، فقال . إنها كثيرة ، سهلة وجبلية ، وهو كثير بارض العرب ، ويأكله الناس رطباً وتزببه متدخرة^(٧) .
قال أمية بن أبي الصلت^(٨)

فأنبتنا خضارم ناضرات يكون نتاجها عنباً وتينا
وتتضح لنا من خلال هذه النماذج الشعرية بعض الحقائق التي يمكن أن
تقرر في هذا المجال ، إذ استوحوا من هذه الأشجار والنباتات والأزهار صوراً
لما يريدون أن يصفوه أو يمدحوه أو يتغزلوا فيه . بلواء أكان ما لفت نظرهم فيها
الهيئة أو اللون أو التكوين ، ويظهر ذلك جلياً في النماذج الشعرية التي استعملوا
فيها هذه الأصناف بصورة مباشرة ، وبصورة غير مباشرة ، ولا بد للشعراء
أن يتعرضوا بعد ذلك إلى صور قد تبدو نادرة في حديثهم عنها ، ولكنها لم
تشكل اتجاهًا معيناً .

-
- (١) الأصمعي . النخل والكرم / ٧٥ (تحقيق هافر) . (٢) أبو حنيفة . النبات / ٤٥ .
(٣) الأعشى . الديوان / ١٧٣ . (٤) انظر الوحشيات / ١٣٤ (غفاء بن الحارث) وديوان
الأعشى / ٢٥٦ ، ٢٣٥ . (٥) الأصمعي . النخل والكرم / ٧٩ . (٦) عروة بن الورد .
الديوان / ٤٦ وانظر شرح أشعار الهذليين / ١١٠٧/٣ . (٧) أبو حنيفة . النبات / ٦٩ - ٧٠ .
(٨) أمية بن أبي الصلت . جبهة أشعار العرب / ١٨٨ .

الفَصْلُ الثَّانِي

الطَّبِيعَةُ الْمُتَحَرِّكَةُ

- ١ - الحيوان الأليف .
- ٢ - الحيوان الوحشي .
- ٣ - الطيور .
- ٤ - الزواحف والحشرات .

الحيوان

كان موقف الإنسان من الحيوان - من أقدم العصور - غريباً فهو يستأنسها مرة ، ويفتك بها للتغذي مرة أخرى ، ويستعملها وسيلة لنقله تارة ، ويقدس بعضها أخرى ، وكانت آثار تلك الغرابة تلوح جلية في آدابه وحكاياته وأساطيره .

وتاريخ البشرية ، لا يخلو من النفوس الكريمة ، التي عاشت متعلقة بالحيوان أشدّ التعلق ، وآداب الأمم حافلة بغرر النظم والنثر ، لصور الحيوانات التي أعانت الإنسان على تذليل كثير من مصاعب الحياة ، ومنحته القدرة الفائقة على وصفها بالأوصاف التي خلّدتها في آثاره وبقاياها .

والعرب كغيرهم من الأقوام الذين تعلقوا بحب هذه الحيوانات فقرّبوها وأعزّوها ومنحوها رعايتهم وعطفهم ، ولم تكن ظروفهم في جزيرتهم قادرة على أن يعيشوا بمعزل عنها ، فندرة النبات كانت الدافع الحقيقي الذي دفع القبائل إلى عدم الاعتماد في حياتهم على ما تنتجه الأرض فقط ، ودفعها إلى استغلال كافة الموارد على أية طريقة كانت فاضطروا إلى أن يجعلوا الحيوان عماد حياتهم ، متنقلين وراء ماشيتهم من مرعى إلى مرعى يقيمون أودها ، ويحفظون حياتها ، ويقون بها أنفسهم من هلاك محقق .

والأدب الجاهلي زاهر بوصف الحيوان على اختلاف أصنافه والوانه ،

والقصائد العربية المخصوصة بالحيوانات تعد من أجمل الشعر وأظهره ، جدّة وطرافة وحياة ، وسوف نعرض في دراستنا إلى أحاديث الشعراء عن هذه الحيوانات ، بما نجده ملائماً لطبيعة البحث ، محاولين إبراز الخصائص الفنية التي توصل إليها الشعراء من خلال أوصافهم .

ويتميز الأدب العربي ولا سيما الجاهلي منه ، عن سائر الآداب العالمية الأخرى ، بأنه عني بوصف الإبل والخيّل عناية عمجية ، واننا نستطيع أن نقول أنه ليس في آداب العالم أدب وصف هذين الحيوانين ، واهتم بدقائقيهما وخصائصهما ، واستقصى حركاتهما ووصف أعضائهما مثل الأدب العربي . وطبيعي أن تكون تلك العناية منبعثة من منافع هذه الحيوانات للعربي في صحرائه فهو يعد بعضها للحرب والغزو والصيد ، ويستعين ببعضها لتفريج همّه ، وتخفيف أحزانه ، ويستخدم البعض الآخر في التنقل والترحال والغذاء ، وكانت الأبل والخيّل أولى تلك الحيوانات باهتمامه لأنها أوثق بحياته ، وأشدّها صلة بمستقبله .

الحیوان الألیف

الإبل

اهتم الشعراء الجاهليون بوصف الإبل ، واستأثرت بحبهم لأنها الحيوان المناسب للحياة في الصحراء ، لتحملها وعورتها ، ومقاومتها ظروفها ، ومن هنا كثر تردد ذكرها في الشعر حتى لا تكاد تخلو قصيدة من ذلك ، ولم يكن حديثهم عنها مثقلاً أو مملاً ، وإن طالت الأبيات وكثرت الأوصاف وتعددت التشبيهات والصور ، فالإبل في واقع حياة هذه المجموعة من الشعراء ، لا تعينهم إلا باعتبارها وسيلة من وسائل النقل التي تتحمل ما يفرضه السفر عليها من الجهد والمشقة لتبلغ بهم أماكن لم يكونوا بالغيا إلا بشق الأنفس^(١) ، وأداة للتسلية التي يفرجون فيها عن أحزانهم ، فالإبل تصر آذانها إذا حدا في أثارها الحادي ، وتزداد نشاطاً وتزيد في مشيها^(٢) ، فكانوا بها يسلمون همومهم ، فتذهب عن نفوسهم بواعث الألم والضيق . وبسرعتها ومشيتها تثار نوازعهم للوصف ، وهي جسر ينتقلون بواسطته من حديث النسيب الحزين الذي يشتد فيه الألم ، حتى يؤثر في النفس . فيكاد يبلغ اليأس والجزع ، وبها يقطع الصحراء المخيفة ، فيدعر الأطباء ، وهي مع كل ذلك لا تمل ولا تشكو ولا تضجر . تحملهم إلى

(١) انظر : سورة النحل/٧ . (٢) الجاحظ . الحيوان ٤/١٩٣ .

مدوحهم ، وتنقلهم إلى ديار أحبهم : فلا عجب إذا سمي العربي الابل المال أو النعم^(١) ولا عجب أن تشغل الناقة المكان الكبير عند شعراء الجاهلية . فتستأثر بعناية العرب . وتستحوذ على جزء كبير من شعرهم ، فهي قرى ضيفانهم . قال طرفة^(٢) :

وبرك هجود قد أثارت مخافتي بواديها امشي بعصب مجرد
فمرت كهامة ذات خيف جلالة عقيلة شيخ كالوبيل يلندد
يقول وقد ترّ الوظيفُ وساقها ألسنُ ترى أنْ قد اتيتَ بمؤيد
وكانت البلم الذي يشفي الجروح ، ويزيل لب النار المتأجج من النفوس^(٣) .

تغنى الكلوم بالثين فأصبحت يُنجمها من ليس فيها بمجرم
يُنجمها قومٌ لقومٍ غرامةٌ ولم يهريقوا بينهم ملء محجم
وربما يكون عدم اقتصار شيوخها على فئة معينة ، لكثرتها ولصبرها على التعب وقلة حاجتها إلى الماء والعلف ، من الأسباب التي ربطت بين العربي وهذا الحيوان مما أدى إلى هذا الاستغراق في الوصف .

ولم يكن هذا الاهتمام بالابل اهتماماً عابراً ، وإنما جاء نتيجة الفائدة التي كان ينتفع بها البدوي ، فاستخدم الابل لحمل المتاع والماء وأدوات الحرب وعدتها ، ودفعته إلى تقدير ذلك الجهد الكبير الذي يقع عليه ، لو لم تكن هذه الحيوانات موجودة ، قال زهير يذكر الابل التي يحمل عليها المتاع^(٤)

يسبرون حتى حبسوا عند بابه ثقال الروايا والهجان التاليا
وقال الأعشى يمدح الأسود بن المنذر . ويشير إلى الدروع التي كانت تحمل أكداساً فوق الجمال^(٥)

(١) انظر ديوان امرئ القيس / ١٣٦ وديوان بشر بن أبي خازم / ١٧٤ وديوان الأعشى / ٢٣٩
وغزاة الأدب / ١٦٥ . (٢) طرفة . الديوان / ٣٢١ (الأعلم) . (٣) زهير . الديوان / ١٧
(٤) زهير . الديوان / ٢٩١ . (٥) الأعشى . الديوان / ١١ .

ودروع من نسج داود في الحر ب وشوقٌ يُحملنَ فوق الجمال
أما الاعتزاز بها فقد بلغ حداً كبيراً، فالربّاء ناقة أبي دؤاد الايادي، كانوا
يتفاءلون بها ^(١)، وكان بعض الشعراء ينعت ناقته بعبارة صاحبي، كما عودنا
الفرسان إطلاق هذه اللفظة على خيلهم، لاعتزازهم بها، ومشاركتها لهم في
الحرب، قال امرؤ القيس ^(٢) :

قد أقطع الأرض وهي قَصْرٌ وصاحبي بازلٌ شملال
وكان التجارب العميق في نفوس الشعراء تجاه هذا الحيوان والاحساس الذي
يشعر به هذا الحيوان تجاه الانسان متبادلا، والمشاركة الوجدانية لما يقع عليه
واضحة في الصور التي قدمها لنا الشعراء، فعندما شعر امرؤ القيس بالموت،
تصور ابله قائمة لم تذق شيئاً من الطعام، مشاركة لياه في مصابه. قال ^(٣) :

على قلص تظلل مقلدات ازمتهنّ ما يعدفن عودا ^(٤)

ولا غرابة بعد هذا إذا وجدنا الشعراء يساوون في الفداء بين أنفسهم ونوقهم،
فعندما أراد بشر بن أبي خازم أن يمدح أوس بن حارثة، قال له ^(٥) :

فدى لك نفسي يا بن شعدي وناقتي إذا بدت البيض الحذام الضوائع
وعظم بعض الشعراء الابل. فحلف النابغة بما كانوا ينذرونه لأهنتهم
منها عندما أراد أن يعتذر للنعمان ^(٦) :

حلفت فلم أترك لنفسك رية وهل يأتمن ذوامة وهو طائع
بمصطحبات من لصاص وثيرة يزرن الا لا سيرهن التدافع
ويقسم ساعدة بن جؤية بها ^(٧) :

(١) الأصفهاني. الأغاني ٩٧/١٥، وثمار القلوب في مثل كجار أبي دؤاد. (٢) امرؤ القيس.
الديوان/١٨٩. (٣) امرؤ القيس. الديوان/٢١٣. (٤) ما يعدفن. ما يأكلن وما يذفن.
(٥) بشر بن أبي خازم. الديوان/١١٦. (٦) النابغة. الديوان/١٥٧. (٧) ساعدة بن جؤية.
شرح أشعار الهذليين ١١٠١/٣ - ١١٠٢.

إني وأيديها وكل هدية مما تتيح لها ترائب تنعب
حلف امرئ برّ سرفت يمينه ولكل ما تبدي النفوس محرب
وحرّم العرب على أنفسهم الحامي والسائبة^(١) والمفقأ والمعمي^(٢) .

إن إعجاب العربي بالابل وتركيبها، كان يشكل عاملاً نفسياً آخر من عوامل
الاعجاب بهذا المخلوق ، فحاول أن يصور وقائعها وهيتها وأعضاءها ، لأنه
يرى فيها نواحي الجمال ، وعبقريّة الكون ، التي لا يحيط بها وصف ولا عد ،
وفي القرآن الكريم دلالات على ذلك .

ففيها الدفء بما يعملونه من لباس ، وما يأكلون من لحوم ، وفيها زينة
بيوتهم لأن الرعيان إذا رَوَّحوها بالعشي وسرحوها بالغداة زينت باراحتها
وتسريحها الافنية ، وتجاوب الرغاء فآتست أهلها ، وفرحت أربابها وأحلتهم في
عيون الناظرين إليها ، وأكسبتهم الجاه عند الناس^(٣) وكأنها خلقت للنهوض
بالاثقال ، وسخرت منقادة لكل من اقتادها ، ولا تمنع صغيراً ، ولا تقاوي
ضعيفاً ، ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز ، فجاء ذكرها مع السماء
والجبال والأرض فكانت مساوية لها في القدر ، مجانسة لأشكالها في العظمة .

وقد حملهم هذا الاهتمام والاعجاب على اكرام فحول الابل ،
والاحتفاظ بأنسابها ، فكان اكرم فحل للعرب يسمى عصفوراً ، وتسمى

(١) الجاحظ . الحيوان ٥ / ٥١٠ . الحامي : الفحل من الإبل يضرب الضراب المدودة قبل عشرة
أبطن فإذا بلغ ذلك قالوا : هذا حام ، أي حمى ظهره فيترك ، فلا ينتفع منه شيء ، ولا يمنع من
ماء ولا مرعى . والسائبة : كان الرجل في الجاهلية إذا قدم من سفر بعيد ، أو برى من علة ، أو نجته
دابة من مشقة أو حرب قال : ناقي سائبة أي تسبب ، فلا ينتفع بظهرها ولا تماء عن ماء ولا تمنع
من كلاً وتركب . (٢) انظر سورة الفاشية : « أفلا ينظرون إلى الإبل ... » المفقأ : وهو
البعير الذي تقفأ عينه ويسرح حتى لا ينتفع به . وكانت العرب في الجاهلية تصنع ذلك في إبل
الرجل إذا بلغت الفأ وإذا آتمت ألفين عماء وأعماء . (٣) انظر سورة النحل : « والآنعام خلقها
لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل
أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤف رحيم » .

اولاده عصافير النعمان ، وكان عصفور وداعر وشاعر وذو الكبلين من فحولة الابل المعروفة^(١) .

على ان الشعراء الجاهليين لم يبقوا منها موقفاً واحداً في وصفهم لها ، فهناك طائفة وقفت عند اعضائها واجزائها ، كما هو الحال عند طرفة ، فقد قدم مجموعة من الصور ، والح في تأكيدها الخاحاً لم نجده عند غيره من الشعراء .

فجاءت اوصافه لها مغايرة لما عهدنا عند غيره ، فهو يحدق في اعضائها ، ثم يرسم هذه الاعضاء ويصورها تصويراً دقيقاً ، وقد كان لا يترك فيها عضواً ولا جزءاً بلا وصف او تصوير وتشبيه ..

وفي هذه الصور والتشبيهات والاجزاء ، ينسى طرفة مهمة هذه الناقاة ، وكونها اداة للتسليّة ، تنسيه همه ، وتفرج كربه ، ووسيلة للتغلب على أهوال الصحراء . ووقفت طائفة اخرى عندما تمدح به من القوة والصلابة والسرعة والقدرة على اجتياز المفاوز ، ثم الارقال الذي يقرب المسافة التي يحتاجها الشاعر ليصل الى مبتغاه ، أما القسم الثالث من الشعراء ، فوقف عند صفاتها الداخلية ، وسوف اعرض لنماذج من هؤلاء الشعراء لاوضح قدرتهم المتكاملة على تصوير هذا الحيوان .

فاكتناز اللحم وعظمه ، والصلابة والشدة ، والقوة ، والغلظة ، والجرأة كلها من الصفات التي وقف عندها الشعراء ، وكانت عبارات (مقذوفة)^(٢) و (عذافرة)^(٣) ، و (الوجناء)^(٤) ، و (جمالية)^(٥) ، و (عرمس)^(٦) ،

(١) انظر حيوان الجاحظ ٢٣٣/٥ والسان (عصفور) و (دعر) و (شتر) و (كبل) .
(٢) المقذوفة . الكثيرة اللحم . (٣) العذافرة . الناقاة الشديدة . (٤) الوجناء من النوق . ذات الوجنة الضخمة . (٥) الجمالية . الناقاة الوثيقة التي تشبه بالجمال في خلقتها وشدها وعظمتها . (٦) العرمس . الناقاة الصلبة الشديدة ، شبهت بالصخرة .

و (غلباء) ^(١) ، و (عجنس) ^(٢) ، و (علنداة) ^(٣) ، و (مذكرة) ^(٤) ،
و (عرنلسة) ^(٥) ، و (عنتريس) ^(٦) ، و (دوسرة) ^(٧) ، و (عاقر) ^(٨) ،
من أكثر الأوصاف التي دارت على السن الشعراء ، ولابد للشعراء من ان
يضعوا على رواجلهم هذه الأوصاف وينعتوها بهذه النعوت ، لتتمكن من
مقاومة ظروف الحياة القاسية ، وتقدر على اداء ما كان يطلب منها ان تؤديه ،
في هذه المفاوز الرهيبة ، فبشر بن ابي خازم عندما أراد ان يصف ناقته
اضفى عليها مجموعة من النعوت ، كلها تشعر بالقوة ، وتعبّر عن معاني
الصلابة ^(٩) :

فَقَمْتُ الى مَقْدُوفَةٍ بِجَنِّيهِهَا عُدَّافِرَةٌ كَالْفَحْلِ وَجَنَاءِ عَرْمِيسٍ
جُمَالِيَّةٍ غَلْبَاءِ مَضْمُورَةِ الْقَرَى أُمُونٍ ذَمُولٍ كَالْفَنِيْقِ الْعَجْنَسِ
وعبيد يقطع المفاوز الصعبة ، الخالية من كل علامة تدل على الطريق ،
يهتدي بوساطتها ، فيخترقها بناقة غليظة شديدة ، يقول : ^(١٠)
وَمَهْمُهُ مُقْفِرُ الْأَعْلَامِ مُنْجَرِدٍ نَائِي الْمَنَاهِلِ جَدْبِ الْقَاعِ مَسْحٍ
أَجَزَّتُهُ بَعْلَنَادَةٌ مَذْكُورَةٌ كَالْعَيْرِ مَوَارَةِ الضُّبْحَيْنِ مِصْرَاحٍ ^(١١)
أما النابغة ، فعندما أراد ان يرثي النعمان بن الحارث ، وقف على آثار
الديار وكُم يجد تسلية لهم سوى هذه الناقة الشديدة الصلبة ^(١٢) .
فَسَلَكْتُ مَا عِنْدِي بِرُوحَةٍ عَرْمِيسٍ تَخْبُ بِرَحْطِي تَارَةً وَتُنَاقِلِ
والمثنق العبدى يجمع في بيت واحد خمسة أوصاف من أوصاف الشدة
والصلابة لناقته التي يقطع بها ساعة القيلولة ، ورمضاء الصحراء تلهب في

(١) الغلباء . الغليظة الرقبة . (٢) العجنس . الحمل الشديد الفخم . (٣) العلنداة . الناقة
الضخمة الطويلة . (٤) المذكرة . الشديدة . (٥) العرنلسة . الناقة الشديدة .
(٦) العنتريس . الصلبة ، الوثيقة الشديدة ، الكثيرة اللحم . (٧) الدوسرة . الضخمة ، الشديدة .
(٨) العاقر . القوية . (٩) بشر الديوان / ١٠٠ . عبيد . الديوان / ٣٩ .
(١٠) الضبح ! المضد أو الابط . (١٢) النابغة . الديوان / ١٩٥ (الأعلم) .

كل شبر منها فيقول :^(١)

عرفاء وجناء جمالية مكرية ارساها جلمسد

ومثل هؤلاء الشعراء ، بشامة بن الغدير ، الذي ينتقل الى وصف ناقته بعد وقوفه على ديار الاحبة ، فيذكر رحيله على ناقة عيرانة : شديدة ، ضخمة ، قوية ، متينة محكمة الجسم ، مجموعة الخلق ، يقول :^(٢)

فقربت للرحل عيرانة عذافرة عنتريسا ذمولا
مداخلة الخلق مضبورة اذا اخذ الحاققات المقيلا^(٣)

ولم يكتف الشعراء بهذه الاوصاف اذ حاولوا ان يقابلوا بينها وبين الحيوانات الاخرى القوية والسريعة . كالثور الوحشي ، والحمار الوحشي ، ليصفوا عليها طابع الشدة ، ويؤكدوا صفة السرعة التي كانوا يسعون الى تصويرها . فعمرو بن قميثة يصف ناقته التي قطع بها الصحراء فيقول^(٤) :

وبيداء يلعب فيها السرا بٌ يُخشى بها المبلحون الضلالا
تجاوبتها راغباً راهباً اذا ما الظباء اعتنقن الظلالا
بضامرة كأتان الثميل عيرانة ما تشكى الكلالا

وعبيد بن الابرص ، لا يجد واسطة لقطع المفاوز والقلوات ، الا على نوق صيعرية خفيفة صعبة ، تشبه الثور الوحشي ، الموشى بالسواد والبياض . فيقول^(٥) :

ولقد أقطع السباسب والشهب على صيعرية الشمال
عنتريس كأنها ذووشوم اخرجته بالجو لحدى الليالي

وامروء القيس يشبه ناقته بحمار الوحش المسن الشديد ، الذي يطوي

(١) المثقب . الديوان/ ٧ . (٢) المفضل . المفضليات ١/ ٥٤ . (٣) الحاققات . الظباء تكون في الأحقاف ، والحقف ما اعوج من الرمل . (٤) لويس شيخو . شعراء النصرانية ١/ ٢٩٦ . (٥) عبيد . الديوان/ ١١٠ - ١١١ .

البلاد نشاطاً وقوة^(١) :

كأنني ورحلي فوق أحقب قارحٍ بشريّة أو طاو بعرنان مٌوجس^(٢)
أما بشر فيشبه ناقته بجمار الوحش الذي يريد اتانا ليلقحها ، فهو يعدو
خلفها ، يقول :^(٣)

كأن قتودي على أحقبٍ يُريدُ نَحوصاً تَوُمُّ السَّلاما
شَتمٍ ، تَرَبِّعُ في عانةٍ حَيالُ يَكاَدُمُ فيها كداما^(٤)

ويشبه الاعشى راحلته بالجمار الوحشي المخطط القارح الذي يتابع
اتنا موفورة النشاط ، مكتنزة اللحم فيقول^(٥) :

وشمّلةٌ حرف كأن قتودها حَلَّتْهُ حَوْنُ السَّراةِ خَفِيددا
وكانها ذوحدّةٍ غِيبَ السَّرى او قارحٌ يتلو نحائِصَ جَدُداً

ويشبهها بقر الوحش في نشاطه فيقول^(٦) :

عرنلدةٍ لا يَنْقُصُ السَّيرُ غَرَضُها كأحقب بالوفراء جأب مكدّم^(٧)
ويقدم المثقب العبدى صورة غير الصور التي عرفناها فهو يشبه ناقته
بالثور الاسفع ، الملمع الخلدن الذي أردفت اكرعه بالشعر^(٨) .

كانها اسفعٌ ذوحدّةٍ يَمُدُّهُ الوَبَلُ وليلٌ سدٍ
ملمع الخلدن قد اردفت اكرعه بالزمع الاسود^(٩)

ومن هنا نجد الشعراء يجمعون على وصف رواحلهم ونوقهم بالشدة

(١) امرؤ القيس. الديوان/ ١٠١ . (٢) شرية وعرنان. موزعان . (٣) بشر. الديوان/ ١٨٧ .
(٤) قتودي : جمع قند ، وهو خشب الرحل ، يريد أدوات رحله . النحوص : الأتان ليس في بطنها ولد . والسلام : اسم ماء . الشتم : حمار الوحش الكريه الوجه . تربيع : أكل الربيع ، وهو الكلاء فسمن ونشط ، والحبال : جمع حائل ، وهي الأتان التي لن تلحق . (٥) الأعشى . الديوان/ ٢١٩ .
(٦) الأعشى . الديوان/ ١١٩ . (٧) الغرض . حزام الرحل . جأب . غليظ . الوفراء . الأرض التي لم ينتقص من نباتها شيء . (٨) المثقب العبدى . الديوان/ ١٠ . (٩) الزمع . الشعر الذي خلف الظلف .

والصلابة والجسارة والضخامة ، واحكام البنية ، والعقم لأن ذلك اصلب لها .
وكما وصفوا الناقة بهذه الصفات الدالة على الصلابة ، وصفوها بالسرعة
وكل المعاني الدالة عليها فقالوا: (ناجية)^(١) ، و (ذعلبة)^(٢) و (خطارة)^(٣)
(عوجاء مرقال)^(٤) ، و (مجدة)^(٥) و (امون)^(٦) و (ذمول)^(٧) و (مذعورة)^(٨)
و (جفول)^(٩) ، و (مزودة)^(١٠) ، و (هلواع)^(١١) وغيرها من الصفات
التي تدور حول معاني السرعة والارقال والذعر والنشاط ، واوشك الشعراء
ان يجمعوا على ان نوقهم نشيطة لم يكسرهما السير وقت الكلال ، يزلّ عن
سنامها الرحل للملاسته ، وهي تسير في يوم مايسار في أيام . وهي كالنعامة
المذعورة .

والشعراء في كل هذه الاوصاف يريدون وصفها بالشدّة والصلابة
والقوة والسرعة ، والانطلاق على الرغم من اختلاف الوسيلة التي كانت
تدفع الناقة الى هذه السرعة ، لان قسماً من الشعراء اشاروا اشارات بسيطة
الى السياط ، باعتبارها وسيلة من وسائل الزجر التي كانوا يستعملونها لأكراه
هذا الحيوان على السير .

ولو حاولنا استقصاء كل ما قالوه في الناقة لطال بنا القول ، فهم عاجزوا
كل جانب من جوانبها ، وتحذثوا عن كل عضو من اعضائها مستخدمين
في سبيل ذلك كل ما وقع تحت ابصارهم ، لعقد مقارناتهم ، وقد دلّت
صورهم التي قدموها على قدرة تصويرية ناضجة ، ولا نغالي اذا قلنا ان

-
- (١) الناقة الناجية . السريعة . (٢) الذعلبة . وهي السريعة ، شبت لسرعتها بالذعلبة وهي النعامة .
(٣) الخطارة . التي تحظر بذنبها في السير ، أي تضرب به يمينا وشمالا من النشاط . (٤) عوجاء .
ضامرة لحق بطنها بظهرها ، ومارقال . صيغة مبالغة من الإرقال ، وهوان تسرع وتنفض رأسها ،
وهو بين السير والعدو . (٥) المجدة . المجدة في السير ، المجتهد فيه . (٦) الأمون . التي
يؤمن عثارها . (٧) الذمول . الناقة التي تسير الذميل ، وهو ضرب من سير الإبل ، فيه سرعة ولين .
(٨) المذعورة . الخائفة . (٩) الجفول . الخائفة . (١٠) مزودة . مذعورة .
(١١) هلواع . سريعة مذعانة .

صورة طرفة التي قدمها لنا . تعد اكمل الصور واشملها لاحتوائها على الشكل العام لهذا الحيوان العجيب . الذي وقف امامه الشاعر الجاهلي وقفة التأمل والحيرة والاعجاب .

أما اللغويون ، فكانت عنايتهم بالابل تضاهي العناية التي لقيتها عند الشعراء انفسهم ، فألف الاصمعي كتاباً في الابل . عرض فيه لحمها ونتائجها . وما يذكر من اسمائها وادوائها وسيرها والوانها واسماء اظلماتها^(١) وافرد ابن سيده اكثر من مائة وثلاثين صفحة من السفر السابع من مخصصه للابل ، عني فيه بحملها ونتائجها وصفاتها ، واسنانها وفطامها ، ونعوتها في الوله . واشتداد الخنين ونعوتها في ضروعها ، وفي كثرة البانها ، والوانها ، ونعوتها في حسنها ، وتمام خلقها ، وفي دمايتها ، ونعوتها في اسمنتها وفي سمنها ، وقلة لحومها واوبارها وصوت انيابها وتركها واهمالها وعلفها واجترارها وازيادها ورعيها وبروكها واناختها ، وسيرها في اللين والرفق والسرعة^(٢) .

الخيل

أحب العرب الخيل في العصر الجاهلي . لما ادته لهم من نفع كثير . لذلك كانت عنايتهم بها ، واهتمامهم بتربيتها . عناية تفوق كل شيء . وقد اشتهر الجاهليون بالمحافظة على انسابها . وعدم الخلط بين سلالاتها . فزاهم يخلدون ذكرها وصفاتها في قصائدهم ، ومقطعاتهم ، وقد عكف فريق من العلماء ، كالأصمعي وابي عبيدة وغيرهما على تدوينها تدوينا منظماً ، ووضعوا في ذلك رسائلهم التي لم يصل الينا منها الا النزر اليسير .

(١) الأصمعي . الإبل ضمن مجموعة الكنز الفوي / ٦٨ وهناك كتب أخرى الفت في الإبل ولم تصل الينا منها ، كتاب الإبل للنضر بن شميل (١٢٢-٢٠٣) وكتاب لأبي عبيد (١١٠-٢٠٩) ولأبي زياد الكلاعي ، ولأبي حاتم الجستاني (٢٤٨) انظر فهرست ابن النديم ٥٩٤٤ ، ٥٣٥٣ ، ٥٩٤٤ .
(٢) ابن سيده . المخصص ١/٧ - ١٣٨ .

وكان اطلاق الاسماء على الخيل عادة مألوفة ومعروفة ليتمكنوا من تمييزها ، وليعرفوا الأصيل منها من غيره ، وقد ذكر ابن الكلبي طائفة من فحولها وجيادها ، والمعروف المنسوب منها في الجاهلية ، وما شهر باسم أو نسب من ذكورها واناثها ، ومما ذكره : زاد الراكب ، واعوج ، وسيل ، والنعام ، والمطال ، والعرادة ، والوجيه ، ولاحق ، وقرزل ، والجون ، وداحس ، والغبراء ، والورد ، وجروة ، والشموس .

وحفلت قصص الفروسية العربية بذكر كثير من أسماء الخيل التي كانت تمثل الأصحاب الحقيقيين لها ، والتي كانت لا تقل بطولاتها عن بطولات فرسانها ، فاستحقت بذلك الاعجاب والتقدير ، وقد ذكر صاحب انساب الخيل أكثر من مائة فرس من افراس الجاهلية والاسلام مع نسبتها إلى أصحابها^(١)

ومن هنا نستطيع القول انه ليس في مملكة الحيوان نوع يتداخل تاريخه مع تاريخ الانسان كالخيل ، ولسنا نخشى الاتهام بالمغالاة اذا قلنا : إن ظهورها وترويضها لخدمة الانسان كان من العوامل الحاسمة في سير التاريخ ، لأن قيام كثير من الممالك القديمة كان رهنا بمدى اقتناء الخيول السريعة ، او بمدى معرفتها لوسائل استخدامها .

ولم تكن العرب في الجاهلية تصون شيئاً من أموالها ، وتكرمه صيانتها الخيل واکرامها لها ، فكانوا بها يدافعون عما يملكونه ، ويحمون دمارهم ، ويطلبون ثاراتهم وينالون بها الغنائم ، ويتخذونها معاقل تقيهم غارة خصومهم ، فقل ذكرها يتردد على شفاههم^(٢) .

وكان لهم فيها من التباهي والتفاخر والتنافس ما يدعو إلى التأمل ؛ ففي اكرامها اكرام للمرء نفسه ، لأنها وقاية للنفس ، وفي ذلك يحث أحد بني عامر بن صعصعة قومه فيقول :^(٣)

(٢) انظر ديوان أبي ذؤاد/ ٣١٧ .

(١) ابن الكلبي . أنساب الخيل/ ١٢٩ .

(٣) أبو صبيدة . الخيل/ ١٢ .

بني عامر ما لي أرى الخيل أصبحت بطائنا وبعض الضمر للخيل افضل
 بني عامر ان الخيول وقاية لانفسكم ، والموت وقت مؤجل
 اهينوا لها ما تكرمون وباشروا صيانتها ، والصون للخيل اجمل
 متى تكرموها يكرم المرء نفسه وكل امرئ من قومه حيث ينزل
 وكان العربي يبيت طاويا ، ويشبع فرسه ، ويؤثره على نفسه واهله وولده ،
 فيسقيه المحض ، ويشرب الماء القراح ، ويأكل التمر ، ويعلفه الشعير في
 الصيف ، ويجلله بالاكسية التي تصونه ، وتمنع عنه اذى الرياح في الشتاء ،
 وقد افرد ابن قتيبة بابا في القيام عليها وسقيها اللبن^(١) واصبح يعير بعضهم
 بعضا باذالة الخيول وهزالها ، وسوء صيانتها^(٢) ، واعتبرت الخيل العتاق من اسرة
 الفارس ، فهو يحبها اشد الحب ويرعاها احسن الرعاية ، ويديم النظر اليها
 من كل ناحية وفي كل حركة .

وقد لا يكتفي باوصافه هذه ، وانما يحاول ان يكون دقيقاً في الوصف ،
 ويطل من مناخه ، فيتناول اعضاءها وقوتها وقد دارت اوصافها في شعرهم ،
 فلم يتركوا عضوا من اعضاءها الا وصفوه ، وقد ارتسم في صورهم التي
 صوروها مدى الاهتمام والاعزاز الذي كان يساورهم تجاه هذا الحيوان .

ولم تزل العرب على ذلك من تسمين الخيل ، والرغبة في اتخاذها وصيانتها
 والصبر على مقاساة مؤوتنها مع جدوبة بلادهم ، وشدة حارهم في معيشتهم^(٣)
 الى درجة أنهم سموها الخير ، كما ذكر الطفيل الغنوي^(٤) :
 وللخيل أيام فمن يصطبر لها ويعرف لها ايامها الخير تعقب
 وليس ادل على اعزاز الخيل وكرامتها على اهلها ، ورفعتها في نظرهم
 من قول امرئ القيس في معلقته^(٥) :

(١) ابن قتيبة . المعاني الكبير / ٨٣ . (٢) أبو عبيدة . الخيل / ٢ . (٣) المصدر نفسه / ٣ .

(٤) الطفيل الغنوي . الديوان / ١٦ . (٥) امرؤ القيس . الديوان / ٢١ .

وبات عليه سرجه ولجامه وبات بعيني قائما غير مرسل
واضيف لفظ الخيل إلى بعض الاسماء ، فقليل زيد الخيل ، لشغفه بها
وكثرة ما اجتمع لديه منها ، فقد عرفت له ستة أفراس باسمائها^(١) .

والفرس عدة للفراس في الحروب ، لغيرتها على صاحبها وهذا ما حملهم
على تقريبها من بيوتهم ، اكراما لها ، وتعظيما لقدرها واعتزا بها ، حتى
سميت بالمقربات^(٢) .

وبلغ من تعظيم الخيل أنهم كانوا لا يهتثون الا بغلام يولد . او شاعر
ينبغ ، او فرس تنتج^(٣) ، وكما كان لفظ الخيل يضاف الى بعض الاسماء ،
كان يضاف لقب الفارس الى فرسه ، تعظيما واکراما ، فيقال فارس اليعموم^(٤)
وفارس الجون^(٥) ، وفارس العرادة^(٦) وفارس المزنوق^(٧) ، وهكذا ، وكان
اشراف العرب يخدمون الخيل بانفسهم ، وكانوا يفتخرون بذلك ، حتى
عدّ ذلك مأثرة من المآثر التي يعتزون بها ، فكانوا يمرنونها على اكل قديد
اللحم ، فإذا أجذبوا ، وقُلّ اللبن اطعموها منه ، ويسقونها الماء الدافئ في
الشتاء^(٨) ويصنعون لها النعال لتقي حوافرها ضد الصخور والأرض الصلبة كما
ذكر زهير^(٩) :

تهوي على ربذاتٍ غير فائرةٍ تحذي وتُعقد في ارساغها الخدَمُ
ويلبسونها غطاء الرأس لعزتها^(١٠) ، وافتتح فريق من الشعراء قصائدهم

(١) الأصفهاني . الأغاني ١٦ / ٤٦ (سامي) . (٢) انظر ديوان عبيد/ ١١٨ وديوان عنتره/ ٤١٠
وديوان عامر بن الطفيل / ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، وديوان الصمة في شعراء النصرانية / ٧٧٨ ، وديوان
المزدد/ ٤١ . (٣) ابن رشيقي العمدة ٢٩ / ١ . (٤) فارس اليعموم . النعمان بن المنذر .
(٥) فارس الجون . الحارث بن النعمان ، والجون . الحصان الأسود . (٦) فارس العرادة .
أبو دؤاد الايادي . (٧) فارس المزنوق . عامر بن الطفيل . (٨) الجزائر . نخبة عقد
الأجياد/ ٢٢٣ . (٩) زهير . الديوان/ ١٥٦ . (١٠) انظر ديوان الطفيل الفنوي/ ٣٠
وديوان عنتره/ ٧٨ والمفضليات ٥٠ / ١ وكتاب الخيل لأبي عبيدة/ ١١ .

بذكرها ^(١) ، وكان السهر على العناية بها مثار إعجاب الشعراء الذين كانوا يتخلون من ذلك موضعاً للمدح ^(٢) .

وطبيعي - بعد كل ما ذكرنا - ان نجد العربي يتغنى بامتلاكه الفرس ، ويفخر باهتمامه بها ، وولعه بركوبها . ولم يمنعه الإقتار من الحصول عليها . لأنها مكسبه في كل رهان وجصن يتحصن به تجاه كل معتمد ووسيلة يستعملها في الحرب والصيد . وقد جمع أبو دؤاد من منافعها ما برر له الاحتفاظ بها ، فقال ^(٣) .

عَلَيْكَ الْخَيْلَ حُبُّ قَلْبِي وَلَيْدًا وَإِذَا ثَابَ عِنْدِي الْاِكْثَارُ
عَلَقْتُ هِمِّي بَيْنَ يَدَيْهِ نَعُ مَنِي الْاِعْنَةُ الْاِقْتَارُ
جُنَّةٌ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ رَهَانٍ جُمِعَتْ فِي رَهَانِهَا الْأَعْشَارُ
وَالنَّجَارِيُّ بَيْنَ نَحْوِ عَدَوِي وَارْتَحَالِي الْبِلَادَ وَالْتِسَارُ

وصور القرآن الكريم أهميتها ، فأقسم بها . وهي تصبح بأصواتها اللاهثة . فنوري الشرر بخوافرها القادحة ، فتثير النقع . وتتوسط الجمع في اندفاع وقوة . : « والعاديات ضبحا . فالمؤريات قدحا . فالمغيرات صبحا . فأثرن به نقعا . فوسطن به جمعا ^(٤) » .

وكان من تقاليد العربي الأبيع فرسه مهما ضاقت به المسالك . لأن في بيعها مثلبة لا تدانيها مثلبة . وهذا ما يوحى بالثقة الأكيدة التي تغمر قلب العربي . والاعتقاد للراسخ بحبه لهذا الحيوان الاصيل العريق .

ولا بد ان نعطي هذه أهمية لهذا الحيوان . المكان البارز في الادب العربي ، لأنه مألأ جوانب كثيرة من حياة العرب . فلا غرابة اذا وجدنا فريفاً

(١) انظر ديوان عامر بن الطفيل / ١٢١ والأصمعيات / ٦٧ والمفضليات / ٢ / ٩٦ و ٩٧ .

(٢) انظر ديوان الأعشى / ٩٩ . (٣) أبو دؤاد . الديوان / ٣١٧ . (٤) سورة العاديات .

الآيات ١-٥ .

من الشعراء قد تخصصوا في اوصافه ، فذكر الاصمعي ان ثلاثة من العرب لا يقاربهم احد في وصف الخيل ، ابو دؤاد الايادي ، والطفيل الغنوي ، والنابعة الجعدي ، فأما ابو دؤاد ، فكان على خيل النعمان بن المنذر ، والطفيل كان يركبها وهو اعزل الى ان كبر . والجعدي سمع اوصافها من اشعار اهلها فأخذها عنهم^(١) .

وقال ابو عبيدة ، ان ابا دؤاد اوصف الناس للفرس في الجاهلية والاسلام ، وبعده الطفيل الغنوي ، والنابعة الجعدي ، وكان ابو عبيدة عالماً بأوصاف الخيل ، وكان يقول : ما التقى فرسان في جاهلية ولا اسلام الا عرفتهما وعرفت فارسهما ، وقال ابن الاعرابي : لم يصف احد قط الخيل الا احتاج الى ابي دؤاد ، وقد لقب بنعات الخيل ، لانه احسن نعتها^(٢) .

وطبيعة الحياة العربية ، وقسوة الظروف الطبيعية في جزيرة العرب جعلت العربي يستحب في خيله الصلابة والضحامة والامتلاء ، لتكون قادرة على تلبية كل مطلب^(٣) وهذا ما حمل امرأ القيس على تشبيه فرسه بالهراوة لانها لا تتخذ الا من اصلب العود واشده^(٤) .

بمعجزة قد أترز الجري لحمها كيت كأنها هراوة منوال
وكذلك صنع لبيد حينما شبه فرسه بعضا الرعاء الذين يبعدون بلبلهم وهي لا تفارقهم ، لانهم يتخذونها سلاحاً ، يدفعون بها عنهم السباع وهوام الليل فقال^(٥) :

تهدى اوائلهن كل طمرة جرداء مثل هراوة الأعزاب
اما ضخامتها وعلوها ، فقد اكثر الشعراء من ذكرهما ، فشيخوا الفرس

(١) ابن قتيبة . الشعر والشعراء / ١٦٢ (بيروت) ١٩٦٤ . (٢) الجزائر . نخبة عقد الأجياد في الصافنات الجياد / ١٠٠ . (٣) انظر ديوان أبي دؤاد / ٣٢٨ ، ٢٩١ وديوان بشر / ٧٧ . (٤) امرؤ القيس . الديوان / ٣٧ . (٥) لبيد . الديوان / ٢١ وانظر ديوان الأعشى والمفضليات . ٧٧ / ٢٠١٠٢ / ١ .

الضخم بالبناء العالي الذي يتعبد فيه^(١) وشبهها أبو دؤاد بالثور الوحشي النشيط بالقوة^(٢) ، وشبه امرؤ القيس فرسه لقوته ونشاطه بتيس الربل فقال^(٣) :

وراح كتيس الربل ينفض رأسه اذا به من صائك متحلب

وتتمثل أكثر من صفة من صفات الشدة والصلابة والسرعة في بيت امرؤ القيس حينما يشبهها بالجلمود : ويجعل الجلمود منحطاً من فوق الجبل لان ذلك اصلب له ، واسرع لوقوعه : يقول^(٤) :

مكر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل

وتكاد الصورة تبرز عند أبي دؤاد . حينما جمع في فرسه من صفات الشدة ما احكم قوة فرسه ومنحه القدرة على هذه الشدة فقال^(٥) :

ولقد اغتدى يدافع ركني أجولي ذو مية اضريح
مخاط مزيل معن مفن مطرح مضرخ جموح خروج^(٦)

ولابد ان تكون السرعة ذات اثر بالنسبة للفرسان في صحرائهم الفسيحة . ولا بد أن تكون هذه السرعة أيضاً مثار إعجاب الشعراء الذين وجدوا فيها متنفساً لابرار صفات هذه الخيول التي تحملهم الى أعدائهم بهذه السرعة . فيطاردون من أنهزم من خصومهم . ويفرون بها من المعركة . اذا شعروا بأن بقاءهم في المعركة لا يجدي ، ويقيدون بها الاوابد ، ويصطادون ما يعن لهم في هذه المفاوز المقفرة ليتخذوه طعاماً يسدّون به غائلة الجوع ، كل هذه المنافع التي شعروا بها ، وأحسوا بأن هذا الحيوان يؤديها . اثارت إعجابهم به . فوصفوه بما تمكنوا من اوصاف ، فهو سبوح طويل — واكثر الشعراء من هذه الصفة

(١) انظر ديوان عنترة/ ٣٩١ . (٢) انظر ديوان أبي دؤاد/ ٣١٧ وديوان الأعشى/ ٢١ .

(٣) امرؤ القيس . الديوان/ ٥٤ وانظر/ ٨٧ وديوان الطفيل/ ١٢ وديوان الأعشى/ ٣٣٥ والمفضليات

٢/ ١٦٧، ٩٧ . (٤) امرؤ القيس . الديوان/ ١٩ . (٥) أبو دؤاد . الديوان/ ٢٩٩ .

(٦) الأجولي . الفرس الجوال السريع . الأنصريح . الجواد الكثير العرق أو الشديد العدو .

في احاديثهم عن سرعة خيلهم^(١) - . سريع رفع القوائم ووضعها ، سريع الركض والجري^(٢) واكثروا من اوصاف السرعة وهم يتحدثون عنها فقالوا : (المسح)^(٣) و (المشرحف)^(٤) والسبوح ، وكأنهم وجدوا في الطول عاملاً مساعداً لهذه السرعة ، فكان تأكيدهم لهذه الصفة كثيراً فقالوا : (السلهب)^(٥) و (الشرجب)^(٦) و (السلجم)^(٧) و (الطمرة)^(٨) و (الشقاء)^(٩) و (الشيطم) و (الصلهب) و (الشوقب) و (الشوذب) وغير ذلك من الاوصاف التي تدل على السرعة ، وتحمل الجري بقوة ، وتساعد على قطع المسافات الطويلة^(١٠) .

وكما كان الشعراء يسلون همهم على نوق سريعة ، كان الفرسان يستأنسون بخيول سريعة ، ذوات أعراف طويلة ، وأحساب كريمة قال ابو دؤاد^(١١) :
أرعى اجمته وحدي ويؤنسي نهد المراكل صلت الخلد منشوب
يعلو بفارسه منه الى سند عال وفيه اذا ما جدّ تصويب

وتتوالى صور المشبه به الذي يقرنون به صور خيلهم وافراسهم ، فهي الذئب في السرعة والحفة والنشاط والاندفاع ، قال ابو دؤاد ينعت فرسه^(١٢) :
كالسيد ما استقبلته واذا وليّ تقول ململم ضرب

(١) انظر ديوان عبيد/ ١١٧ وديوان امرئ القيس/ ١٨٧ وديوان عنترة / ٣٧٦ و ٤٠٨ (الأعلم) وديوان الطليل الغنوي/ ٢٩ وديوان الأعشى / ١٣٣ و ١٤٧ و ١٥٩ وديوان عامر بن الطفيل / ٨٢، ٥٧ . (٢) انظر ديوان امرئ القيس/ ٨٦ . (٣) المسح . المنصب في جريه . (٤) المشرحف . السريع . (٥) السلهب . العظام الطول من الخيل . (٦) الشرجب . الطويل القوائم . (٧) السلجم . الطويل . (٨) الطمرة . الطويلة المشرفة . (٩) كل هذه الصفات تعني الطويلة . (١٠) انظر ديوان امرئ القيس/ ١٨٧ وديوان عبيد/ ١١٧ وديوان علقمة/ ٤٢٢ (الأعلم) وديوان أبي دؤاد/ ٢٨٨، ٢٩٩ و ٣٣٥ ، وساعدة بن جؤبة في شرح أشعار الهذليين ٣/ ١١١٦ ، وديوان الطليل الغنوي/ ١٢، ٢٩٤، ٢٩٥، ٤٦٠ ، وديوان عامر بن الطفيل/ ٤٠، ٥٧، وديوان ليبي/ ٢١ . (١١) أبو دؤاد . الديوان/ ٢٩٥ . (١٢) أبو دؤاد . الديوان/ ٢٨٤ ، وانظر ديوان امرئ القيس/ ٦٧ وديوان عبيد/ ٥ ، وديوان الطليل الغنوي/ ٥، ٢١، ٢٣، ٣٣ وديوان طرفة/ ٥١ والأصمعيات/ ١١٥ .

وكانوا يشبهون خيلهم بالجرادة^(١) . والعقاب والباز والصقر والحدأ^(٢) والنعام^(٣) وكان الشاعر الجاهلي يلح على ذكر لون الفرس التي يصفها^(٤) ، ويتحدث عن لمعان جلدها ، وبريقه وصفائه ونصاعته^(٥) ، وهو يشرق بالعرق المتصبب من جوانبه^(٦) ، ويتلون بألوان الدماء القانئة التي تشبه شقائق النعمان^(٧) ، او الدماء الغزيرة التي تبدو كالشيب الرجل بالحناء^(٨) او الصرغ^(٩) . او السندس الأخضر^(١٠) ، وكانت الخيل الشقر هي المفضلة عندهم^(١١) .

وكانوا يحرصون على إبراز الصورة الكاملة الدقيقة لهذا الحيوان ليظهروا عظمة فائدته ، وشدة حاجتهم اليه ، ولم يقفوا عند هذه الأوصاف الخاصة ، وانما حاولوا أن يصوروا لنا الجوانب الداخلية لهذا الحيوان ، لأنها كانت وثيقة الصلة بالحاجة التي يريدونها منه ، فكانت السرعة تقتضي عملاً آخر ، او عملين آخرين تلازمهما وتقرن بهما ، فنبضات القلب سريعة . والقلب لا يكاد يسكن من خفته^(١٢) . أما ارتفاع نفسه بعد الجري ، فكان يستوقف الشاعر الجاهلي ايضاً^(١٣) .

وشبه نفسه من منخره عندما يشتد عدوه ، فشبه بكير حداد ، استعاره

-
- (١) انظر ديوان امرئ القيس/١٢١، ١٦٣، ١٦٦، ١٩٣ ، وديوان الطفيل الغنوي/٢٢، ٣٣ ، وديوان بشر/٧٤ ، وديوان طرفة/٨٥ ، وديوان النابغة/١٥٢ . (٢) انظر ديوان امرئ القيس/٣٨ ، ١٧٣ ، وديوان بشر/١٨٩ ، وديوان الأعشى/٢٩ ، وديوان لبيد/١٨٨ ، والمفضليات ١ / ٣٥ ، ٢ / ٥٦ ، والاصمعيات / ١٥٨ ، والأغاني ١٠ / ٣٩ (دار الكتب) . (٣) انظر ديوان امرئ القيس/٢٣٣ ، وديوان أبي ذؤاد/٢٨٤ ، ٣٢٢ ، ٣٤٢ ، والأعشى / ٣٤٩ ، والمفضليات/٢٠٧ « وانظر الدراسة الفنية في الرسالة » . (٤) ديوان امرئ القيس / ٢٠ ، وديوان الطفيل/٢٢ ، وديوان الأعشى/١٨٧، ٢٨٥ ، والمفضليات ٢ / ٢١٤ . (٥) انظر ديوان أبي ذؤاد/٢٨٩ ، والمفضليات ١ / ٣٨، ٤٢ . (٦) انظر ديوان امرئ القيس / ٦٧ ، وديوان الطفيل/٨ . (٧) انظر ديوان طرفة/٧٨ . (٨) انظر ديوان امرئ القيس/٢٣ . (٩) انظر المفضليات ٢ / ٤٣ . (١٠) انظر المفضليات ٢ / ٩٧ . (١١) الجاحظ . القول في البغال/ ١٠٨ . (١٢) انظر ديوان أبي ذؤاد/ ٣٤٣ . (١٣) انظر ديوان أبي ذؤاد/ ٢٩٣ ، والمفضليات ٢ / ٢١٤ .

مستعير، لأنّ الذي يستعير الكبير يحرص على رده الى صاحبه فور انتهائه منه ،
ولهذا فهو ينفخ فيه بشدة ، نقضي حاجته قبل إرجاعه الى صاحبه ، وهي
صورة طريفة حرص الشاعر . هلي على اظهارها ، قال بشر بن أبي خازم (١) :
كأنّ حفيف منخره اذا ما : تمن الربو كبير مستعار

أما في مجال الصيد فقد تحدّثوا عنها ، لأنهم كانوا يغدون بها اليه ، فهي
صافية اللون (٢) ، ضامرة البطن ، ملساء الجسم ناعمة جميلة الخلق ، ليس
فيها ما يعاب ، وكان الشاعر يحرص على وصف فرسه بهذه الصفات حتى
يتمكن من اصطياد أشق انواع الحيوان ، ويقيد بها الأغوابد (٣) ، ويدرك
براسطتها ما يبتغي ، لا يخاتل الصيد ، ولكن يجاهر به ، ثقة منهم بهـذه
الأفراس ، قال زهير (٤) :

اذا ما غلونا نبتغي الصيد مرة متى نره فانا لا نخاتله .
وقال علقمة (٥) :

اذا ما اقتنصنا لم نخاتل بجنة ولكن ننادي من بعيد الا اركب
وكانوا يشبهونها ، وهي تهوي على صيدها بالعقاب ، او الصقر وتنقض
على فريستها انقضاضاً لا يترك لها مجالاً للهرب (٦) وكثيراً ما كانوا يقرنون
بين ذهابها للصيد ، وبين الدم الذي يعلو صدرها ، ويشبهون ذلك بالمداك ،
قال سلامة بن جندل (٧) :

يرقى الدّسيع الى هاد له بتع في جؤجؤ كداك الطيب مخضوب (٨)
وقال عبيد بن الابصر (٩) :

(١) بشر بن أبي خازم . الديوان/ ٧٨ . (٢) انظر ديوان زهير / ٢٥٥ ، والمفضليات ١/ ٣٨ ،
١٠٤ . (٣) انظر ديوان امرئ القيس / ١٩ والمفضليات ٢/ ١٩ . (٤) زهير . الديوان/ ١٣٠ .
(٥) علقمة . الديوان/ ٤٣٨ . (٦) انظر هامش تشبيه الفرس هذه الحيوانات في الدراسة الفنية .
(٧) المفضل . المفضليات ١/ ١٢١ . (٨) الدسيع . مفرز العنق في الكاهل . الهادي . العنق .
البتح . الطويل . (٩) عبيد . الديوان/ ٧٠ .

واذا اقتنصنا لا يحف خضابها وكأن بركتها مذاك عروس^(١)
او يشبهونه بحمرة الخضاب في الشيب^(٢) واذا علا الدم اعناقها شبهوها
بالحجارة التي كانوا يذبحون عليها . قال سلامة بن جندل^(٣) :
والعاديات أسابي الدماء بها كأن اعناقها أنصاب ترجيب
وكان الفرس اذا استخدموه في الصيد خضبوه بدمه . ليعلم انه قد
صادوا به .

ومن خلال هذا العرض نجد اهمية هذا الحيوان بالنسبة للحياة العربية
وندرك الحاجة القصوى التي كانت تلح على العربي للاهتمام به حتى بلغت
مظاهر الاعتزاز به . وتقريبه والاعتناء بتربيته درجة لم نجد لها عند غير
العرب من الأمم . فهو يريد وسيلة للحرب . يطارد به خصومه . ويريده
حصناً يتحصن به . وسبيلاً إلى الصيد والقنص ليقع على الحيوان الذي يسد
بلحمه حاجة تلح عليه ، او فسحة رغب في قضائها مع اصحابه . وهو بالتالي
زينة لـو وفروسية . واداة للطلب والمهرب^(٤) .

الكلاب

يشغل ذكر الكلب في الادب الجاهلي والعربي صفحات عدة . فهو الحيوان
الذي اعتمدوه في صيدهم . ولقبوه القاباً مشهورة^(٥) . وشغلوا انفسهم في
تدريبه . للانتفاع به في الحراسة . ومرافقة قطعان الماشية لحمايتها من الذئاب
والضواري^(٦) الى جانب مهمة هدايته بنباحه للضيوف التائبين في القلوات ،
والتي اغتبرها العرب مفخرة من مفاخرهم . وكانوا يستعملونها في اقتفاء
آثار اعدائهم . فعند ما قتل الشنقري من بني سلامان بن مفرج تسعة وتسعين

(١) البركة . المصدر . (٢) انظر ديوان امرئ القيس/ ٢٣ ، وديوان أبي ذؤاد/ ٣٥٢ ، ٣٥٥ .

(٣) المفضل . المفضليات ١١٩/١ (٤) الجاحظ . القول في البغال/ ٢٠ . (٥) الجاحظ .

الحيوان ١٧/٢ . (٦) الجاحظ . الحيوان ٣٠٢/١ و ٣٧٧ و ١٧٨/٢ .

رجلاً في غاراته عليهم ، وأقعدت بنو سلامان له رجلاً من بني الرمد من غامد ، يرصدونه ، جاءهم للغارة فطليوه ، فأفلتهم فأغروا به كلباً^(١) .

وكان اهتمامهم بها يدفعهم الى سقاها اللبن^(٢) ووضع الدية لها^(٣) وزعمت العلماء ان ايام هراميت انما سببه كلب^(٤) كل هذه الامور دفعتهم الى الاعزاز بها فوسموها وصنفوها ونسبوا وسموها ، كما كان اعتزازهم بخيلهم وابلهم واسلحتهم .

والكلاب — كما يقول الجاحظ^(٥) — اصناف ، واشهر اصنافها السلوقية^(٦) ومن طباعها انها اذا عاينت الظباء قريية كانت او بعيدة عرفت المقبل من المدبر ، ومشي الذكر من مشي الانثى ، والميت من الناس من المتماوت ، حتى قيل ان الروم كانت لا تدفن ميتاً حتى تعرضه على الكلاب^(٧) .

ويعد مجال الصيد من اوسع المجالات التي ورد فيها ذكر الكلب في الشعر الجاهلي ، لانهم كانوا يذكرونها في حديثهم عن الرواحل بعد تشبيهها بالثيران الوحشية ، او البقر الوحشي ، حتى اصبح من عادة الشعراء ان يذكروها في مجال المراثي والمواظع والمدائح ، ولكن الصور كانت تختلف بالنسبة لكل غرض ، كما يذكر الجاحظ وابن قتيبة^(٨) .

ويعد الاعمشى من ابرز الشعراء الذين حفلت دواوينهم بهذه الصور المتحركة ، ففي مدحه لأياس بن قبيصة الطائي^(٩) يبدأ بوصف ناقته السريعة الجريئة التي تراقب السوط ، ثم يشبهها بالثور الذي اكب على

(١) محمد بن حبيب . أسماء المغتالين/ ٢٣١ . (٢) طرفة الديوان/ ١٩٥ . (٣) الجاحظ . الحيوان/ ٢١٧/١ ، ٢٩٣ . (٤) الجاحظ الحيوان/ ٣١٦/١ . (٥) الجاحظ . الحيوان/ ٣١١/١ (٦) سلوق . أرض الين وقيل قرية باليمن ، والكلاب السلوقية منسوبة اليها وكذلك الدروع ، وقيل السيوف أيضاً . والسلوقي من الكلاب والدروع أجودها . (٧) الصيد والطرد/ ٧٣ . (٨) الجاحظ . الحيوان/ ٢٠/٢ وابن قتيبة . المعاني الكبير/ ٢٢٤/١ . (٩) الأعشى . الديوان . ٢٩٣ .

اصل شجرة بقرنيه يحفر فيهما بيتاً يؤويه ، فصبحته كلاب (عوف بن ارقم) ، الصائد المعروف عند شروق الشمس ، فانبعثت تتبعه ، وظلت تطارده منذ الصباح المبكر ، حتى اقبل الليل ، فلم يجد بداً من الثبات والاعتماد على يده اليسرى ، فراح يذودها عن نفسه بقرن محدّد ، واقبل عليها يهز قرنه حين يدفعه في صدرها ، كما يشك الجراد صائده ، وقد نظمه في العود فانقلب بعد ان قتلها ، وقد اشرق وجهه فكأنه الكوكب المضيء^(١) .

كأنني ورحلي والفتان ونمرقي على ظهر طاو اسفع الخلد اخشما
يلوذ الى أرطاة حقف تلفته خريق شمال ترك الوجه اقتما
مكباً على روقية يحفر عرقها على ظهر عريان الطريقة أهيم
فصبحته عند الشروق غدبة كلاب الفقى البكري عوف بن أرقما
فأطلق عن مجنوبها فأتبعنه كما هيج الشاري المعسل خشرما
لدن غدوة حتى اتى الليل دونه وجشتم صبراً روقه فتجشما
وانحى على شؤمي يديه فذاها باظماً من فرع الذؤابة أسحما
وانحى لها اذ هز في الصدر روقه كما شك ذو العود الجراد المخزما
فشك لها صفحاتها صدر روقه كما شك ذو العود الجراد المنظما
وادبر كالشعري وضوحاً ونقبة يواعن من وحش الصريمة معظما
فذلك بعد الجهد شبهت ناقسي اذا الشاة يوماً في الكناس تجرماً^(٢)

١ وتكاد صورة لبيد التي قدمها - وهو يتحدث عن راحلته - تكون مشابهة لهذه الصورة ، فهو يشبهها بالثور الذي بات الى احدى شجر الأرطى بعد أن بعد ان الجأته الريح الشامية التي تسوق المطر اليها ، وكا همه ان يحصل على

(١) الأعشى . الديوان / ٢٩٥ - ٢٩٧ . (٢) الفتان . غشاء للرجل من الجلد . الخثم . عرض الأنف وغلظه . أهيم . منهار لا يتماسك . السامي . الذي يسمو في الجبل . المعسل الذي يجمع العسل . الخشرم . جماعة النحل والزناير . يواعن . يدخل في الوعان (بكسر الواو) وهي الأرض الصلبة . أو يياض في الأرض الصلبة أو يياض لا ينبت شيئاً . الصريمة . الأرض السوداء لا تنبت شيئاً .

ملجأ يقضي فيه الليلة ، فما طلع عليه الصبح ، وتشتت الغيوم حتى اثاره الصائد من موطنه ، بكلاب كالنشاب في اندفاعها واصابتها الهدف ، فكانت المعركة الفاصلة التي بدأت فيها الكلاب تهاجم الثور من حيث لا يستطيع ان يدفع عن نفسه ، فيواجهها بقرنيه ، ويضربها في لباتها ، ويختم الصورة بقوله^(١) :
 قتال كئي غاب انصارُ ظهره ولاقى الوجوه المنكراتِ البواسلا
 يسُرْنَ الى عوراته فكأنما للباتها ينحى سنانا وعاملا
 فغادرها صرعى لدى كل مزحفٍ ترى القدَّ في اعناقِهين قوافلا
 ومثلهما التابعة^(٢) ، وتكرر هذه الصورة عند الاعشى كما اسلفنا^(٣) ، وبصورة اوجز عند بشر بن ابي خازم^(٤) ، واوس بن حجر^(٥) ، وامرئ القيس^(٦) .

وكان الصائد يغري الكلاب بالثور الوحشي فتطارده ، وتنبعث نحوه مهاجمة وهو مجد في العدو ، مسرع كالشهاب ، يحادها وهي تلاحقه ، ولا تقصر في طلبه ، حتى اذا نال منه التعب ، وادركه الكلال ، ثاب إلى نفسه ، وجمع قواه ، وصمم على الصمود للقتال ، سدّد الطعن بقرنيه فلا يخطيء هدفه ، وبالتالي يترك الكلاب صرعى او مكلومة او منهزمة . وفي كل هذه الصور تبرز اسماء الكلاب التي كانوا يستعملونها للصيد ، والاشخاص الذين كانوا يشرفون على تدريبها ، والصائدون المشهورون في قبائلهم ، والقبائل المعروفة بالصيد ، فهكذا صياد من بني ثعل يغري كلابه الخمسة (عطافا) و (مجدولا) و (سلبية) و (محصوفا) و (كسابا) وخلف وراءه صبية صغارا حالفوا الفقر والفتنك زمانا ، فهم ينتظرون ما يعود به من صيد فيقول^(٧) :

-
- (١) انظر القصيدة في ديوان لبید / ٢٣٨ - ٢٤١ . (٢) انظر ديوان النابغة / ١٥٠ .
 (٣) انظر ديوان الأعشى / ١٤ - ٢٨ - ٧٣ - ٢٤٥ - ٢٩٧ - ٣٦٣ . (٤) انظر ديوان بشر / ٥١ / ٥٦ .
 (٥) انظر ديوان أوس / ٤٣ . (٦) امرؤ القيس. الديوان / ١٠١ . (٧) الأعشى. الديوان / ٣٦٣ .

حتى اذا ذَرَّ قَرْنُ الشمسِ أَوْ كَرَبَتْ أَحَسَّ من ثُعَلٍ بالفجرِ كَلَابًا
يُشْلِي عِطَافًا ومجدولًا وسلهبةً . وذا القِلَادَةِ محصوفًا وكسابًا
وقال لبيد (١) :

فتقصدت منها كساب فضرجت بدم وغودر في المكر سخامها (٢)
وقال (٣) :

فأصبحَ وانشقَّ الضبابُ وهاجهُ أَخُو قَفَرَةٍ يُشْلِي رِكَاحًا وسائلا (٤)
وقال المزرد . يذكر صيادا من بني صباح ، ويعدد أسماء كلابه (٥) :

لنعتِ صُبَاحِيَّ طويل شقاؤه له رَقَمِيَّاتٍ وصفراء ذألل
بقين له مما يبرى وأكْلُبُ تَقْلُقَل في اعناقهن السلاسل
سحام ومقلّاء القنيص وسلهب وجدلاء والسرْحان والمتناول
بنات سلوقيين كانا حياته فماتا فأودى شخصه فهو خسامل

وقال امرؤ القيس يذكر صائدين من طي ، معروفين بالصيد (٦) :
فصبّحه عند الشروق غدية كلاب ابن مر أو كلاب ابن سنيس
ووردت اشارات لأسماء صيادين آخرين وأسماء كلاب اخرى مشهورة
يمكن الرجوع اليها (٧) .

والذي يبدو ان الصائدين كانوا يرسلون الكلاب بعد يأسهم من الرمي
قال لبيد يصف يأس الرّواة من اصابة بقرة وحشية بالنبال (٨) :
حتى اذا يش الزّامة وأرسلوا غصفاً دواجن قافلا اعصامها

(١) لبيد . الديوان/٣١٢ . (٢) كساب وسخام : اسمان لكلبين . (٣) لبيد . الديوان/٢٣٩ .
(٤) يشلي : يؤسد ويغري . وركاح وسائل : اسمان لكلبين . (٥) المزرد : الديوان/٤٧ وانظر
حيوان الجاحظ ٢/٢٠ - ٢١ . (٦) امرؤ القيس . الديوان/١٠٣ . (٧) انظر ديوان بشر
ابن أبي خازم/٥١ وديوان النابغة/١٥١ وديوان الأعشى/٢١٣ و ٢٩٥ وانظر حيوان الجاحظ
١٧/٢ و ٢١ والمخصص ٨/٨٣ . (٨) لبيد . الديوان/٣١١ .

فلحقن وأعتكرت لها مدرية كالسمهرية حدها وتماها

وكان الشعراء يعرضون لأوصاف هذه الكلاب ، وهي ترصد وترقب وتنطلق ، فشبهوا عيونها وهي تحمز من شدة الغضب والترقب بالعضرس^(١) والافواه بالمانشير^(٢) . وانطلاقها بالنشاب^(٣) وهجومها وهي تحيط بفريستها بالنحل^(٤) . واستجباؤها فيها استرخاء الآذان ، ودقة الرؤوس ، وقلة اللحم ، وضمور البطن^(٥) . وتكاد تكون الاوصاف المستحسنة في الكلاب مشابهة لها في الخيل^(٦) وكانت لهم فيها اوصاف ، يستبدلون بها على فرائضها وشياتها وسياستها^(٧) وكزماها وصبرها واحتمالها ، اما وفاؤها فكانت لهم فيه احاديث كثيرة^(٨) . الى جانب هذا فقد كانت للكلاب خبرة عجيبة ، ومهارة حاذقة في الصيد وطرقه والاحتيايل له^(٩) . وكانت لهم معرفة دقيقة بغذائها ، فكانوا يجيعونها ، لتحرص على الصيد ، وتضرى عليه^(١٠) .

واذكر العرب دلالة اصواته — كما يذكر الجاحظ^(١١) — لأن فيها ضروبا من النغم ، واشكالاً من الاصوات ، وله نوح وتقريب ، ودعاء وخوار ، وهرير وعواء وبصبصة ، وشيء يصنعه عند الفرح ، وله صوت شبيه بالأنين اذا كان يغشى الصيد ، وله اذا لاعب اشكاله في عدوات الصيف شيء بين العواء والأنين .

اما الناحية التي استأثرت بذكر الكلب في الشعر الجاهلي ، فهي اقترانه بذكر الدلالة على الكرم ، والفخر بجبنه ، قال حاتم^(١٢) :

-
- (١) انظر ديوان امرئ القيس ١٠٣ وحيوان الجاحظ ٢٠١/٢ . (٢) انظر ديوان النابغة / ٢١٩ وديوان أوس / ٤٣ . (٣) انظر ديوان الأعشى / ٣٦٣ وديوان لبيد / ٢٤٠ . (٤) انظر ديوان أوس / ٤٣ وديوان الأعشى / ٢٨٣ و ٢٩٥ . (٥) انظر ديوان بشر / ٥١ و ٥٦ وديوان أوس / ٤٣ وديوان الأعشى / ٢١٣ و ٢٧٩ . (٦) الجاحظ الحيوان ٣٦٣/٢ . (٧) الجاحظ . الحيوان ٢ / ٤٥ . (٨) الجاحظ . الحيوان ٢ / ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٢٣ ، ١٧٥ . (٩) الجاحظ . الحيوان ٢ / ١١٧ - ١١٨ . (١٠) نفس المصدر ٢ / ٤٨ - ٤٩ . (١١) الجاحظ . الحيوان ٢ / ١٩٤ . (١٢) حاتم الطائي . الديوان ٦٢ (صادر) .

إذا ما يُجِيلُ الناسَ هَرَّتْ كلابه وشقَّ على الضيف الضعيف عقورُها
فأني جبانُ الكلبِ يَبْسِي موطأً أجودُ إذا ما النفس شح ضميرها
وإنَّ كلابي قد أهرت وعودت قليل على من يعتريني هريرها
وقال جابر بن حني^(١) :

وكان مُعادِنَا تهرُّ كلابه مخافةَ جيشٍ ذي زُهاءٍ عرمرم
وكان حجره في الشتاء مجالاً للحديث عن القحط ، فيه يجد الكرماء مجالاً
لاظهار كرمهم ، قال أمية بن أبي الصلت ان صح أن هذا له^(٢) :

تبارى الريح مكرمة ومجدا إذا ما الكلب اجحره الشتاء
وقال اعشى باهلة^(٣) :

وأجحر الكلبُ موضوعُ الصقيع به وألجأ الحَيَّ من تَنفَاحِه الحُجَرُ^(٤)
عليه أولُ زادِ القومِ إن نزلوا ثم المِطِيُّ إذا ما أرمَلوا جَزَرُوا
وكان اسكات الكلب مدعاة للذم ، لأن منعه من النباح يعني خوف صاحبه من الضيف وهذا ما كان يُحْشاه العربي ، فمالك بن جريم الهمداني عندما اراد ان يفخر بأبائه وكرمه وتعداد مناقبه يقول^(٥) :

فواحدةُ ألا أبیت بغيرَةٍ إذا ما سَوَّام الحَيِّ حَوَلي تَضَوَّعا
وثانيةُ ألا أُصمِتَ كَلْبِنَا إذا نزل الأضيافُ حِرْصاً لنودعا
ومن عادات العرب ان الرجل منهم كان اذا ضل ليلاً ، وكان باغياً ، أو زائراً ، أو بمن يلمس القرى ، ولم يرَ بالليل ناراً ، عوى ونبح ، لتجبيه الكلاب ، فيهتدي بذلك الى موضع الناس ، يقول عمرو بن الأهيم^(٦) :

ومُسْتَجِرٌ بعدَ الهدوءِ دعوتهُ وقد خان من نجم الشتاء خُفوقُ

(١) المفضل . المفضليات ١٢/٢ .
(٢) لويس شيخو . شعراء النصرانية ٢٢/١ .
(٣) الأصمعي . الأصمعيات/٩٠ . (٤) تنفاحه : من النفح وهوشدة الدفع ، ويريد من تنفاح الصقيع . (٥) الأصمعي : الأصمعيات/٥٨ . (٦) المفضل : المفضليات ١٢٤/١ .

ويقول المزرد^(١) :

نشأت غلاماً أتقي الذمَّ بالقرى اذا خاف صنف من قرارة راغب
فان آب سارِ اسمع الكلب صوته اتى دون نبح الكلب والكلب دائب
وكان الشعراء يأتون على ذكر نباح الكلب في احاديثهم عن الحرب ،
ولبسهم عدتها من الدرع والمغفر والبيضة ، لأنهم اذا تكفروا بالسلاح انكروهم
الكلاب . وفي هذه الحالة ، تنبح اربابها كما تنبح سرعان الخيل اليهم ، لأنها
لا تعرفهم من عدوهم^(٢) ، قال الطفيل الغنوي^(٣) :

اناس اذا ما انكر الكلبُ أهلهُ حموا جارهم من كل شنعاء مضلع
وقال الآخر^(٤) :

فلا ترقي صوتاً وكوني قصية اذا صوت الداعي وانكرني كلي
وكان يهجو بالكلاب الملتوية الأذنان للؤمها ، والتي في اعتاقها الاطواق
لاذلالها ، قال الاعشى يهجو بني قميصة^(٥) :

إن بَنِي قَمِيصَةٍ بنِ سَعْدٍ
كلهم لِمَلَصَقٍ وَعَبْدٍ
ادنى لشي من كلابٍ عَقْدٍ
وهم أَذَلُّ من كلابٍ عَقْدٍ

وهجى بكلاب الصيد التي لا تصلح ، ان الصيادين يشتمونها ويقبحونها^(٦)
وشبه من يعامل الناس بالسوء ، ويعتدي عليهم ، ويتعمد أذاهم بالكلاب
التي تهر^(٧) . فعندما اراد عبد الله بن عبد المدان ان يجيب دريد بن الصمة
على تهديده ، ويسخر من وعيده ، شبهه بالكلب الذي يعوي في بيساء

(١) المزرد . الديوان/ ٧٥ . (٢) الجاحظ . الحيوان ٧٠/٢ - ٧١ . (٣) الطفيل الغنوي .
الديوان/ ٢٨ . (٤) الجاحظ . الحيوان ٧٠/٢ . (٥) الاعشى . الديوان/ ٢٧٣ .
(٦) ثعلب . المجالس ٤٨٤/٢ . (٧) طرفة . الديوان/ ١٨٣ .

مقفرة^(١) :

نبئت أن دريداً ظل معترضاً يهدي الوعيد إلى نجران من حضن
كالكلب يعوي لدى بيدا مقفرة من ذا يواعدنا بالحرب لم يحن
والظاهر أن كثيراً من هجاء الكلب لا يراد به الكلب ، وإنما يراد به هجاء
الرجل ، فيجعل الكلب وصلة في الكلام ، ليلغ ما يريد من شتمه^(٢) .

والكلب إذا الحت عليه السحاب بالأمطار في أيام الشتاء ، لقي جنة .
فمقي بصر غيماً نبهته لأنه قد عرف ما يلقي من مثله ، وما قيل في ذلك
أن كلباً الحت عليه السماء بالمطر أياماً ، ثم طلعت الشمس ، فذهب يتشرق .
فلم يشعر إلا بسحابة قد اظلمت ففزع . ورفع رأسه وجعل ينبج^(٣) . وقد
انعكست هذه الصور في الشعر الجاهلي ، وأشار إليها الشعراء . قال الأفوه
الأودي^(٤) :

له هيدبُ دان ورعد ولحمة وبرقُ تراه ساطعاً يتبلَّجُ
فبانت كلابُ الحي ينبحن مزنةً واضحت بناتُ الماء فيها تمعَّجُ
وكانت تنتشر بينهم كثير من الخرافات . منها إيمانهم بأن دماء الملوك
شفاء من داء الكلب ، وشفاء من الجنون أيضاً^(٥) . واكثر العرب من ذلك
في اشعارها^(٦) .

قال عاصم بن القرية وهو جاهلي^(٧) :

وداوبته مما به من مجنة دم ابن كهال والنطاسي واقف
وقلدته دهرأ تيممة جده وليس لشيء كاده الله صارف

(١) ابن السجري . الحماسة / ١٤ . (٢) انظر حيوان الجاحظ ١ / ٣٨٣ . (٣) انظر حيوان
الجاحظ ٢ / ٧٣ والمعاني الكبير لابن قتيبة ١ / ٢٣٢ . (٤) الأفوه الأودي . الديوان (الطرائف
الأدبية) / ٩ . (٥) الجاحظ . الحيوان ٢ / ٧ . (٦) انظر ديوان زهير / ١٠٢ وديوان
الأعشى / ١١٧ والأصمعيات / ٦٠ وحيوان الجاحظ ٢ / ٥-٩ و ٣١٠ والمعاني الكبير ١ / ٢٤٣ .
(٧) الجاحظ . الحيوان ٢ / ٧ .

وعرف العرب داء الكلب ، وتحدثوا عن اعراضه^(١) ، وكانت بعض الأسر تتوارث علاجه^(٢) ، وكانوا يوقدون نار السليم للملدوغ والمجروح ، ومن عضه الكلب ، حتى لا يتاموا فيشتد بهم الألم ، ويدب السم فيهم ، ولهذا كانوا يجعلون الحلي والخلاخل في يد الملدوغ^(٣) .

وقد حفل حيوان الجاحظ بشتى صور هذا الحيوان ، اما بالنسبة لنماذج الشعراء التي عرضوا فيها له ، فكانت تبرز قدرتهم في مواضع الصيد التي حاولوا فيها ابراز صورته وهو يخوض المعارك الحاسمة .

الغنم (الضأن والماعز)

قل تعرض الشعراء الجاهليين للغنم الا انهم تحدثوا عن حكايتها وتقليدها^(٤) والقها^(٥) . وتخاذلها^(٦) ، وعجزها وجبنها^(٧) ، وهي تبدو في معظم هذه النماذج ضعيفة تستحق الرحمة . اما ذكرها في الأمثال فهي نماذج اخرى لهذا الضعف والهوان والذل . فقالوا : اذل من البليج^(٨) ، واذل من النقد^(٩) وقد انعكست هذه الصورة في الشعر الجاهلي فكانت النماذج الشعرية التي وجدناها عند الجاهليين تحمل امثال هذه الدلالات ، فطرفة بن العبد عندما اراد أن يهجو عمرو بن هند لم يجد صورة احط من صورة النعجة ، فتمنى ان لو كان لهم مكان الملك عمرو نعجة تصيح بجوار قبتهم ، وتدر عليهم اللبن ، لكان اجدى لهم من هذا الملك^(١٠) :

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوثاً حول قبتنا نخور

(١) الجاحظ . الحيوان ١٣/٢ . (٢) نفس المصدر ١٠/٢ . (٣) النابغة . الديوان ١٥٦ (٤) مختار الأعلام . (٥) انظر حيوان الجاحظ ١٧٩/٢ و ٢٨٧/٥ و ٣١٦/٦ و ١٠٤/٧ . (٦) الجاحظ الحيوان ٣٣٠/٢ . (٧) الجاحظ . الحيوان ٣٧٧/٦ . (٨) الميداني مجمع الأمثال ٢٨٥/١ والبليج : الحمل . (٩) الميداني . مجمع الأمثال ٢٨٤/١ والنقد : جنس من الغنم قصار الأرجل ، قباح الوجوه . (١٠) طرفة . الديوان ٩٢ والرخلاخ : واحدهما رخل : الأثني من أولاد الضأن . تنور : تنفر .

من الزمرات اسبل قادمها وضرتها مركنة درور
 يشاركنا لنا رخلان فيها وتعلوها الكباش فما تنور
 وكانوا يشيرون اليها في احاديثهم عن الكرم ، مقللين من قيمة من يملكها^(١)
 وكان الخصوم يشبهون بالغنم التي عاث بها الذئب ، يقول عامر بن الطفيل^(٢) :
 لقينا جمعهم صباحاً فكانوا كمثل الضأن عاداهن سسيد
 وقد وجدت احاديث الشاة والغنم مجالاً عند الشعراء ، فقد رثى اعرابي
 شاة له تسمى وردة ، وكنيتها ام الورد بقوله^(٣) :
 أودى بوردة أم الورد ذو غسل من الذئب اذا ما راح او بكرا
 لولا ابنا وسليلا لها غرر ما انفكت العين تدرى دمعها دررا
 كأنما الذئب اذ يلدو على غنمي في الصبح طالب وتركان فاتأرا
 اعتماما اعتمامه شن برائه من الضواري اللواتي تقصم القصرأ
 ويقال ان أكثر ما يعرض الذئب للغنم مع الصبح ، عند فتور الكلب
 عن النباح وكلاله ، لأنه يبيت ليلته كلها دائماً يقظان ، يحرس^(٤) ..
 واذا عض الذئب شاة فأفلتت منه بضرب من الضروب ، فإن عادة
 الغنم اذا وجدت ريح الدم ، ان تثم موضع انياب الذئب ، وليس عندها
 بعد ذلك الا ان ينضم بعضها الى بعض^(٥) .
 وقد وردت في الغنم احاديث كثيرة . تدعو الى الاعتناء بها ، وتوصي
 بتتقية مرايضها من الحجارة والشوك ، وغسل رعامها^(٦) ، وتصف اهلها
 بالسكينة والمهدوء ، وتنتع قلوب رعاثها واربابها بالرقعة وبعدها عن القفاظة
 والغلظة^(٧) .

(١) انظر المفصليات ٦٠/٢ . (٢) عامر بن الطفيل . الديوان / ٥٠ . (٣) الجاحظ . الحيوان
 ٢٠٣/٢ و ٢٧٧ . (٤) الجاحظ . الحيوان ٢/٢٠٣ و ٢٧٧ . (٥) نفس المصدر ٦٣/٧ .
 (٦) الرعام ما يسيل من أنوفها . (٧) الجاحظ . الحيوان ٥/٥٠٣ وما بعدها .

وفضل العرب الضأن على المعز لأن صوفه أغلى وأمن وأكثر قدراً من الشعر ولبنه أطيب وأخضر وادسم^(١) ، واحمل للبرد والحمد وللريح والمطر^(٢) وقيل إذا ارتعت الضائنة (الشاة من الغنم) والماعزة في قصيل ، نبت ما تأكله الضائنة ، ولا ينبت ما تأكله الماعزة ، لأن الضائنة تقرض بأسنانها وتقطع ، والماعزة تقبض عليه فتثيره وتجذبه^(٣) .

ومع فضل الضأن على المعز فقد وردت في المعز أشعار كثيرة في صفائها وحوها ، وفي تيوسها وفي عنوقها وجدائها^(٤) قال أوس بن حجر يمدح الحو من المعز^(٥) :

وجاءت خلعة دبس صفايا يصور عنوقها أحوى زنيم
يفرق بينها صدع رباع له ظأب كما ظأب الغريم

وقال مخارق بن شهاب المازني يصف تيس غنمه^(٦) :

وراحت أصيلاً كأن ضروعها دلاء وفيها واتد القرن ليلب
له رعشات كالشئوف وغرة شديخ ولون كالوذيلة مذهب
وعينا أحم المقتلين وعصمة ثنى وأصلها دان من الظلف مكثب
إذا دوحة من مخلف الظال أرسلت

عطاهما كما يعطو ذرى الظال قره ب
تلاد رقيق الخلد إن عد تجره فصردان نعم النجر منه واشعب
أبو الغر والحو اللواتي كأنها من الحسن في الأعناق جزع مثقب
إذا طاف فيها الحالبان تقابل عقائل في الأعناق منها تحلب
تري ضيفها فيها يبيت بغبطة وضيف ابن قيس جائع يتحوب

(١) الجاحظ . الحيوان ٤٥٦/٥ - ٤٥٧ . (٢) نفس المصدر ٤٧٢/٥ . (٣) نفس المصدر ٤٧٠/٥ . (٤) نفس المصدر ٤٨٩/٥ . (٥) أوس بن حجر . ملحق الديوان/ ١٤٠ (٦) الجاحظ . الحيوان ٤٨٩/٥ . (صادر) ، وروي البيتان روايات مختلفة .

وقال جبيهاء الاشجعي في عزز كان منحها رجلاً من بني تيم بن معاوية ابن سليم والعز تسمى صعدة ويقال غمرة^(١) :

أمولي بني تيم ألت مؤدياً منيحتنا فيما تؤدّي المنائح^(٢)
فلأنك ان ادّيت غمرة لم تزل بعلياء عندي مابغى الرمح رابع^(٣)
لها شعر ضاف وجيد مقلّص وجسم زخاري وضرس مجالخ^(٤)
ولو أثلّيت في ليلة رجبيّة بأرواقها هطل من الماء سافح^(٥)
بلحأت أمام الخالين وضرعها أمام صفاقها مبد مكاح^(٦)
وويلمها كانت غبوقه طارق ترامى بيد الأكام القراوح^(٧)
بلحأت كأن القسور الجون بجها عساليجه والثامر المتناوح^(٨)
تري تحتها عسّ النصار منيفاً سما فوقه من بارد الغزر طامح^(٩)
سديساً من الشّعر العراب كأنها موكرة من دهم حوران صافح^(١٠)
رعت عشب الجولان ثم تصيّفت وضبعة جكس فهي بداء راجح^(١١)

(١) المفضل . المفضليات ١/١٦٥ . (٢) أصل المنيحة : الناقة يمنحها الرجل صاحبه ليحتليها ثم يردّها ، ثم كثر ذلك حتى قيل الهبة منيحة (٣) غمرة : اسم الشاة التي يمنحها إياه . العلياء الرقة ، أي لا تزال على رقة مني وإكرام لأدائك الأمانة . (٤) الضافي : الطويل . المقاص : المرتفع . الزخارف : الكثير اللحم . والمجالخ : الذي يحتلج الشجر ، أي يمتشه وإذا فعل ذلك البعير أو الشاة كان أكثر لبنه في الشتاء . (٥) ثلّيت : دعيت . الإشلاء : الدعاء : أي دعيت هذه الشاة لتحلّب . ولية رجبية : أي ليلة من ليالي الشتاء ذات مطر . الأرواق : السحاب لأن الألبان تقل فيه فأراد ان لبنها مما يبقى على شدة البرد وإنها غزيرته . (٦) المبد : الواسع ما بين الرجلين . قوله بلحأت أمام الخالين يريد سرعة إجابتها . والصفافان : ما اكتنف الضرع عن يمين وشمال إلى السرة . المكاح : وهو أن تدفع فخذيها . (٧) وويلمها : العرب تقول للرجل ويلمه تمدحه بذلك أي ما أشجعه . والغبوق : التي تصلح لشرب العشي وما ولاء من الليل . القراوح جمع قرواح وهو منبسط من الأرض لا يستتر منه شيء ولا فيه شيء . (٨) عساليجه : نعمه . القسور شجر من شجر الخلة له غوص تغزر عليه الإبل والشاة وكل الممال . الثامر : ماله تمر من الثب والشجر . المتناوح : المقابل بعضه بعضاً . (٩) النصار : من أكرم الشجر وأصلبه ، يضرب به المثل في الصلابة وتتخذ منه الأقداح . المنيف : الممتلئ . (١٠) موكرة ممتلئة . الدم : السود . حوران : كورة من أعمال دمشق . الصافح : التي فقدت ولدها فذهب لبنها وسمنت . (١١) الجولان : =

وقد عرفت الحجاز بكثرة المعز ، قال الأخنس بن شهاب يصف خيل قومه وهي تسرح حول بيوتهم ، ويشبهها بمعزى الحجاز التي لا تتخذ لها محابس ولا تقدر على زرب فهي ترعى حول البيوت^(١) :
تَرَى رَائِدَاتِ الْخَيْلِ حَوْلَ بَيْوتِنَا كَمِعْزَى الْحِجَازِ أَعْجَزَتْهَا الزَّرَائِبُ
ولا بد ان يأتي هذا الاهتمام بالماعر نتيجة للفائدة التي كانوا يفيدونها منها فمن جلودها تكون القرب والزقاق وآلة المشاعل ، وكل نحي^(٢) . وسعن^(٣) . ووطب وشكية^(٤) . وسقاء . ومزادة . ومنها يكون الخون والبطائن ، ومن الماعزة تكون انطاع البسط^(٥) وجلال الأنقال في الاسفار^(٦) وجلال قباب الملوك . وبقباب الأدم تنفاخر العرب^(٧) ، قال عبيد بن الأبرص^(٨) :

أذهب اليك فأني من بني اسد أهل القباب وأهل الجرد والنسادي
وللقباب الحمر قالوا : مضر الحمراء^(٩) . ويدل قول امرئ القيس^(١٠) :
لنا غنم نسوقها غزار كأن قُروُنَ جَلَّتْهَا الْعَصِي
فتوسّع أهلها أقيطاً وسَمَنًا وحَسَبُك من غنَى شَبَعٍ وِري
على ان الأقط^(١١) يكون من المعز ، وكذلك كانوا ينتفعون

= من نواحي دمشق . تصيفت رعت في الصيف . الوضعية : نبت . المجلس : الغليظ من الأرض .
البداء : البعيدة ما بين الرجلين لسمها . راجع : ثميعة مملثة . (١) المفضل . المفضليات ٦/٢ .
(٢) النحي : الرق . وقيل ما كان للسن خاصة . (٣) السعن : بالضم والفتح : قرية تقطع من أسفلها ويشد عنقها وتعلق إلى خشبة أو جذع نخلة ثم ينبذ فيها ، وهو شبه بدلو السقائين يصبون فيه بالمزاييد . (٤) الشكية تصغير الشكوة ، وهي بالفتح وعاء كالدلو أو القرية الصغيرة .
(٥) النفع . بالكسر والفتح وبالتحريك : بسط من الأديم . (٦) جلال كل شيء غطاؤه .
(٧) الجاحظ . الحيوان ٤٨٥/٥ - ٤٨٦ . (٨) عبيد . الديوان/ ٤٩ . (٩) انظر حديث الوصية في بلوغ الأرب ٣ / ٢٦٤ - ٢٦٦ والمفضليات ، القصيدة / ٩٦ (طبع المعارف) .
(١٠) امرؤ القيس . الديوان / ١٣٦ (ويروى على غير هذه الرواية في بعض مصادر الأدب) .
(١١) الأقط : تني ، يتخذ من اللبن المخيض ، يطبخ ثم يترك حتى يصل .

بقرونها^(١) ويتخذون النعال من جلودها^(٢) .

وكان الشعراء يشبهون خيولهم بالجلال ، لضمورها وقوتها وسرعتها ،
قال الاعشى يمدح هوذة الحنفي^(٣) :

جِيَادُكَ فِي الصَّيْفِ فِي نِعْمَةٍ تُصَانُ الْجِلَالُ وَتُعْطَى الشَّعِيرَا
سَوَاهِيمُ جُدْعَانُهَا كَالْجِلَالِ مَ أَقْرَحَ مِنْهَا الْقِيَادُ النَّسُورَا
اما الأمثال التي جاء فيها ذكر الماعز فهي امثال تدل على شدة الخلق
والخزم والشهامة والمنعة . فقالوا : (فلان ماعز من الرجال) و (فلان امعز
من فلان) و (العناق معز الخيل والبراذين ضأنها)^(٤) .

وترد اشارات الى الشياه والنعاج في مجال الكناية عن النساء^(٥) . وكانوا
يطلقون على البقر الوحشي أو المهاة او الضبايع لفظة النعاج ويتردد هذا اللفظ
كثيراً في الشعر الجاهلي ، قاصدين بذلك المرأة أيضاً^(٦) .

(١) الجاحظ . الحيوان ٤٨١/٥ . (٢) الجاحظ . الحيوان ٤٧٧/٥ . (٣) الأعشى . الديوان ٩٩/٩
وانظر ديوان أبي دؤاد/ ٣٤٠ وديوان بشر ٢١١/٥ . (٤) الجاحظ الحيوان ٤٧٩/٥ .
(٥) انظر ديوان عنتره/ ٣٧٨ (الأعلم) . وديوان الأعشى/ ٢٧ وديوان لبيد/ ٣٠٠ والمفصليات
٢٠٩/٢ . (٦) انظر ديوان امرئ القيس/ ٥٠ وديوان بشر/ ١٩٣ وديوان عنتره/ ٣٧٨
والمفصليات ١٧٣/٢ .

الحيوان الوحشي

١ الثور : ردد الشعراء الجاهليون في أشعارهم وصف الثيران الوحشية . والبقر الوحشي . والحمر الوحشية . والذي يبدو من خلال أوصافهم لهذه الحيوانات أن أكثر الصور التي ورد فيها ذكرها . جاء من خلال أوصافهم لرواحلهم . وهم في طريقهم الى ممدوحيه . أو أحببتهم الذين تجشموا من أجلهم هول هذه الرحلة المتعبة . على رواحل نشيطة . تقطع الفلاة المقفرة ، وكذلك ذكروها في غزلهم الذي صوروا فيه مشاعرهم . وهم يرقبون آثار ديارهم ، وما حل فيها من صنوف هذه الحيوانات . وأغراض أخرى كانوا يلجأون إلى إقحامها فيها إقحاماً . كما أسلفنا في حديثنا عن الكلاب . والنهاية التي ينتهي إليها مصيرها ، وهذا يعني أن وصفهم لها لم يكن غاية مباشرة ، بل كانوا يستطردون إليها استطراداً ، ليظهروا من خلال ذلك قوة هذه الرواحل وسرعتها . وكان الشعراء يقدمون - وهم يعرضون هذه الأوصاف - سلسلة من الصور الحية المتحركة ، فالثور تفزعه السحابة الحمراء المظلمة ، الغزيرة المطر . فتقصفه رعوها ، وينهل مقدمها بالماء . ويزيد بعضهم التماص البرق في السماء . ليكشف ضوءه اللامع عن هذا الثور الضامر . ويظل طول الليل ساهراً . يعاني المتاعب والآلام^(١) حتى إذا اشرق الصباح - وكان بعض الشعراء

(١) انظر ديوان بشر / ٨٢ و ٢٠٥ .

يحرص على استمرارية برودة الليل ، فيشبه ما يتساقط من الندى المتجمد باللؤلؤ^(١) — فاجأه الصيد الذي اقترنت صورته بالعوس^(٢) ، وافنى كلابه الضارية كثرة الملاحقة للصيد ، وطول الطراد ، فظل طول نهاره يتفادها ، متواريا بالرمال العريضة وبصغار الكتبان ، تطارده الكلاب ولا هم لها الا اقتناصه ، وقد عضها الجوع ، وهذه الصورة مكررة ومعادة في الشعر الجاهلي كلما يتغير فيها الخيال او الالفاظ^(٣) .

والظاهرة التي تبدو في أوصاف هذا الحيوان هي أن الشعراء كانوا يكثر من استعمال اللون الابيض او ما يوصف بالبياض في أوصافهم . قال امرؤ القيس^(٤) :

فأدبرَ يكسوها الرِّغامَ كأنه على الصَّمَد والآكام جذوة مُقبسٍ
ويشبهه لبيد بالثوب الابيض الذي لم يلبس فيقول^(٥) :

فأجتاز متقطع الكتيب كأنه نصع جلته الشمس بعد صوان
أو السيف الابيض الصقيل^(٦) . او الصحيفة البيضاء^(٧) : أو الكفن^(٨)
وصور أخرى تقرب من ذلك^(٩) .

اما وصف اعضائه فكانت تأتي من خلال أوصاف الشعراء العامة عنه .
ووردت اشارات الى ذكر الثور وجلده في حديث الشعراء عن الترس وصفته وقوته ومقاومته وصنعتة^(١٠) .

(١) انظر ديوان بشر/ ٨٣ . (٢) انظر ديوان بشر/ ٨٤ وديوان الأعشى/ ٢١٣ .
(٣) انظر ديوان امرؤ القيس/ ١٠١ وديوان بشر/ ٨٢ و ١٠١ و ٢٠٢ و ديوان النابغة/ ١٥٠ - ١٥١ و ٢١٩ و ديوان الأعشى/ ٣٢٥ و ٣٦١ و ديوان لبيد/ ٧٦-٧٩ . (٤) امرؤ القيس الديوان/ ١٠٣ و انظر ديوان بشر/ ١٠٤ . (٥) لبيد . الديوان/ ١٤٦ . (٦) انظر ديوان النابغة/ ١٥٠ و ١٧٢ . (٧) انظر ديوان امرؤ القيس/ ٥٢ . (٨) انظر ديوان عبيد/ ٣٤ . (٩) انظر ديوان بشر/ ٤٦ و ٥١ و ديوان زهير/ ٣٧٩ والمفضليات/ ١٩٤ و ١٠ (١٠) انظر شرح أشعار الهذليين/ ٢/ ٥٦٩ .

البقر الوحشي : كان تعرض الشعراء للبقر من خلال اوصافهم لرواحلهم ، وربما جاء ذكرها في مواضع الغزل ، وعند تشبيه الشعراء لأحبّتهم وفي حديثهم عن الديار وإقفارها وخلوها من الأحبة . وهي تنعم بالحياة والحرية في ديار كان ينعم فيها قوم احبهم الشاعر واحبوه .

وتعد صورتها في الصيد من أكثر الصور معالجة عند الشعراء وتعتبر قصائد لبيد والاعشى وزهير وطرفة والنابعة من ابرز القصائد التي قيلت فيها واطولها وان كانت الملامح متشابهة . فلبيد في وصفه يثير قصة تملؤها الحياة والعاطفة والصراع . فالبقرة عنده بائسة ، عدت على طفلها العوادي ، فأكله السبع وهي تحاول البحث عنه ، وتلتمس الطريق اليه ، وتجذ في البحث ، وتلج في الالتماس وتصيح بأعلى ما تستطيع ، وتظل حالها طول النهار ، ولكن الليل يدنو فيحمل معه الظلام والمطر والبرد والعاصفة ، ولم يجد اليأس الى قلبها سبيلا فهي تلتمس لنفسها مأمناً ومأوى في أصول الشجر ، حتى اذا انجلي الليل وذهب الظلام . وهدأت العاصفة والمطر ، واسفر الصبح ، اندفعت تصيح وتنادى وتدعو ابنها ، ولكن الجواب على ذلك كان اشلاء قد طرحت على رمل الصحراء ، وانها لذلك مرتاعة وملتاعة في هيام وصباح ، وإذا هي تحس من ظهر الغيب نبأة لا تبين اصلها ، وصوتا خفيفاً لا تعرف مصدره ، واذا غريزة الدفاع عن النفس تغلب غريزة الأمومة ، والحرص على الحياة تنتصر على عاطفة الإحساس بالطفل الفقيد ، واذا هذه الأم الحزينة صيد يطلبه القناص . ومن اجل هذا تحاول النجاة ، فهي تعدو لا تلوي على شيء قد ملأها الخوف وملكها الرعب ، تنتظر الخطر من امام ، وتنتظر الخطر من وراء ، وهي تسلم نفسها لقوائمها النحاف ، كأهن القداح ، حتى أياست الرماة ، وفانت النبل ، ولكن العجز والقصور لم يؤمنا هذه البائسة ، فكلاب الصيد حاضرة . وما اسرع ما ارسلها القناص ، فأخذت تعدو ، وأخذت البقرة تعدو ايضاً ، فلما استيأست من العدو ، وعرفت الانجاة لها الا باستقبال الخطب ، عطفت على هذه الكلاب

فكانت بينها وبينهن حرب اسفرت عن قتيلين^(١) :

أفنتلك أم وحشية مسبوعة غنساء ضيعت الفريز^(٢) فلم يرم لمعقر قهقري تنازع شلوه صادف منها غرة فأصببها بابت وأسبل واكف من ديمة يعلو طريقة متنها متواتر^(٣) تجتاف أصلاً قالصاً متنبذا وتضيء في وجه الظلام منيرة حتى اذا انحسر الظلام واسفرت عليها تردد في نهاء صعاثد حتى اذا يشت واسحق حالق وتوجست رز الأيس فراعاها فغلدت كلا الفرجين تحسب أنه حتى اذا يش الرماة وارسلوا فلحقن واعتكرت لها مدرية لتذودهن وأيقنت ان لم تذود فتقصدت منها كساب فضرتجت

خذلت وهادية الصوار قوامها غرض الشقائق طوفها وبغامها غببس كواسب لا يمين طعامها^(٣) إن المنايا لا تطيش سهامها يروى الحمائل دائماً تسجامها في ليلة كفر النجوم غمامها بعجوب أنقاء يميل هيامها^(٤) كجمانة البحري سل نظامها بكسرت نزل عن الثرى أزلامها^(٥) سباعاً توما كاملاً أيامها^(٦) لم يبله لإرضاعها وفطامها^(٧) عن ظهر غيب والأنيس سقامها^(٨) مولى المخافة خلفها وأمامها^(٩) غصفاً دواجن قافلاً اعصامها^(١٠) كالسهمرية حدها وتامها أن قد أحم من الحثوف حمامها بدم وغودر في المكر سخامها

(١) طه حسين . حديث الأربعاء ٢٣/١-٢٤ . (٢) انظر ديوان لبيد/٣٠٧-٣١٢ . والفريز : ولد البقرة . الشقائق : الأرض الغليظة بين رملتين . (٣) قهقري : أبيض . الغبس : الذئب أو الكلاب ذات اللون الأغبر . (٤) تجتاف : تدخل في جوفه . قالص : مرتفع الصروع ، أو انتهى ناحية . العجوب : أطراف الرمال . الهيام : الرمل اللين الذي يتناثر بسهولة . (٥) أزلماها : قوامها ، شبهها بالقنداح . أي لم تمتد تثبت قوامها على الثرى ، لأن الطين زلق . (٦) علقت : جزعت . (٧) اسحق : أخلق وذبح ما فيه من اللبن . حالق : الصرع الذي كاد يعلو . (٨) الرز : الصوت الخفي . (٩) الفرج : الواسع من الأرض أو الثغر . (١٠) الدواجن : المودة للصيد . قافل : يابس . أعصامها قلائدها .

ونجد الصورة نفسها عند زهير ، فهي خنساء سفعاء ، كريمة عتيقة مذعورة تنقي العدو بقرنين يؤمنان خوفها ، ويخفان من توقد الفزع الذي اعتراها ، لها اذانان ، حادتا السمع ، تميز فيهما الاصوات ، وعينان قويتا النظر ، كأنهما من حسنهما وسوادهما مكحولتان ، وهذه البقرة المرتاعة المحزونة الهائمة تركت ولدها وغفلت عنه في موضع عهده فيه حتى اذا عادت اليه لم تجده فيه ، وانما وجدت بقية الجسد الذي اكل الذئب منه مأكل ، وبقي شيء تحجل الطير حوله ، فجالت ونظرت في كل موضع ، وكانت تحشى الرماة حتى وقع نظرها عليهم وقد قعدوا ليرموها فلما ادركوا رؤيتها لهم ثاروا بها من كل جانب ، فاستدارت حتى رأتهم مقبلين عليها وكانت تسبق الكلاب اللواتي يأتيها من ورائها ، فتصيبهن بقرنيها ، حتى تتمكن من الفرار من نبل الرماة فتثير غباراً يحجبها عن انظار هذه الكلاب ، تساعدنا في ذلك قوائم سريعة وقوية ، وصدر مرتفع ، مسند الى ظهر قوي ، وكانت طرائق الدم بنحرها مثل السيور المصبوغة في الجلد الأبيض^(١)

أما طرفه ، فكانت ناقلته في رواحها وبكورها بقرة وحشية ، خنساء لها ولد صغير ، امضى ليلة ممطرة ، تصب الماء صبا ، فاضطرت الى ان تستكن الى ظل شجرة ، وتأوي لأصولها . وقد فاجأها قانص مشهور ، فأرسل عليها كلاب صيده ، هذه البقرة الخائفة الهاربة بين يدي القناص ، العاطفة على الكلاب للحرب ، تعلم انها ان لم تصدها الكلاب اول مرة ، فسوف تصاد اذا كرت عليها ثانية^(٢) .

من هذه الصور الثلاث ندرك الخطوط العامة ، التي اتفق عليها الشعراء في اوصافهم لهذا الحيوان ، وتكاد صورتها تكون متقاربة عند لبيد وزهير ، أو كأن لبيدا هو الذي حاكي زهيراً ، وتكاد المراحل التي حدودها لأوصافهم تكون متشابهة ، حتى في الغفلة التي صادفتها الكلاب لاختطاف الابن ، وحاول

(١) انظر ديوان زهير/ ٢٥٥-٢٣١ . (٢) انظر ديوان طرفه/ ١٨٥ .

ليبد ان يظهر القلق الذي أصابها والفرع الذي انتابها بصورة ادق ، وحاول ان ييسط في تصويرها عاطفة لم نجد لها عند غيره من الشعراء . والذي يبدو من النماذج ان البقرة تبدي من الشجاعة إذا كانت بحضرة ولدها ، ضروبا مستميتة ، حتى لا تضيع ولدها ، وتمنع السباع عنه فهي تقاتل دونه بقرونها اشد القتال لتنجيه او تعطب^(١) . ولعل النماذج التي اشرنا اليها تغنيننا عن التفاصيل .

اما الموضوع الآخر الذي وجد فيه الشعراء مجالا لذكر البقر الوحشي ، فهو الديار التي اقفرت من اهلها . فصارت مألفا لها ، ولغيرها من الحيوان قال زهير^(٢) :

بها العين والأرامُ يشين خِلْفَةً واطلاؤها ينهضنَ من كلِّ مَجْثَمٍ
وقال الحارث بن حلزة الشكري ، يصف ديار احبته ، وما سكنها من وحش بعد عفاها^(٣) :

لمن الديارُ عفونٌ بالحبس آياتُها كمهارقِ الفُرسِ
لا شيء فيها غيرُ صورةٍ سُفْعِ الخدودِ يلحنُ كالشمسِ

اما النساء ، فقد جعلهن الشعراء شبيهات بقطيع من بقر الوحش ، قال طفيل الغنوي يصف سبايا قومه^(٤) :

عدارى يسحبن الذبول كأنها مع القوم ينصفن العضاريط ربرب
وقال ليبد^(٥) :

زُجَلٌ ورفَعٌ في ظلالِ حُدُوجِها بيضُ الخُدودِ جديثُهُنَّ رَخمِ
بقرٌ مساكنُها مساربٌ عازب وارْتَبَهُنَّ شقائقِ وصرِمِ

(١) الجاحظ . الحيوان ١٩٩/٢ . (٢) زهير . الديوان ٥ . (٣) المفضل . المفضليات ١٣٠ / ١ وانظر ديوان امرئ القيس / ٨ وديوان بشر / ١٥٣ والمفضليات ٢ / ٢٠٥ . (٤) الطفيل الغنوي . الديوان / ٢٤ . (٥) ليبد . الديوان / ١٢١ وانظر ديوان الأعمش / ١٧١ .

وكما شبه الشعراء النساء ببقر الوحش فقد شبه امرؤ القيس بقر الوحش في مشيتها وبياضها وبريقها بالعدارى، وهن يرقلن في الملاحف الطويلة،^(١) : فعنّ لنا سربٌ كأن نعاجه عذارى دوار في الملاء المُدبّل فأدبرن كالجزع المُفصّل بينه بجيدٍ مُعمٍ في العشرة مُخَوّل ووقف الشعراء عند عيون هذا الحيوان وكشحه وقرونه ، وقلما وقف الشعراء عند الاعضاء الاخرى له ، وربما يجمع الشعراء في تأكيدهم على اللون الابيض او البياض المشوب بالسواد في حديثهم عنه .

الحمار الوحشي : وتكاد صورة الحمار الوحشي تكون مشابهة لصورة الثور الوحشي ، أو البقرة الوحشية ، من حيث تعرض الشعراء لأوصافه ، لأنها تخضع في هذه الأوصاف الى العوامل التي خضع لها الثور الوحشي أو البقرة الوحشية ، فالشعراء تحدثوا عن هذا الحيوان في مجال اوصافهم لنياقهم وغلظتها وصلابتها ، وقوة عدوها وشدته ، الا ان ادخال بعض العناصر الجديدة على الصورة ، جعل الاطار العام للوحة التي اعتبرنا رؤيتها مغايرة بعض الشيء لما وجدناه في صورة الحمار الوحشي . فقد حاول لبيد ان يطمع في تشبيهات اخرى ابلغ من التشبيهات التي وقف عندها غيره من الشعراء ، لما فيها من جوانب الحياة القرية ، والتي تجعلها اكثر وضوحا وتجسيدا ، وكأنه وجد في قصة البقرة الوحشية التي تملؤها الحياة والعاطفة والصراع مجالا لإظهار قصة اخرى ، تتابع فيها المناظر ، وتتنوع فيها الأحداث ، وتثار العواطف المتمثلة في الغيرة والحرص والمنافسة .

فناقة لبيد تعودت الاسفار ، واحتملت منها غير قليل ، ولذلك فهي متعبة براها الجهد . والح عليها الهزال ولكن ذلك لم يقعد بها عن السرعة ، فكأنها اتان تنافست فيها الفحول ، وازدحمت عليها ، ثم استطاع واحد منها ان

(١) امرؤ القيس . الديوان / ٢٢ .

يستأثر بها من دون اصحابه ، وملكت عليه الغيرة امره ، ففضل حياة العزلة ، وزاده حرصاً على هذه العزلة ، وتأثراً بالغيرة ، ما كان يراه من تمتع صاحبه وتجنُّبها ، وهذا ما حمله على ان يدفعها امامه ، وحملها على ان تمضي بسرعة وكانت تود لو تفوته ، وتتمنى لو كانت قادرة على الهروب منه ، ولكنه يعدو في اثرها فلا يزيد هذا العدو الا الحاحاً في الاسراع ، وما تزال مسرعة وما يزال هو عادياً في أثرها ، حتى تمّ لهما العزلة في مكان كثر فيه النبات وغطاه العشب . ثم يقبل الحر ويحفّ النبات ، ويشدّ الظمأ ، فهما بحاجة الى الماء ، واخيراً يصممان على ورود الماء ، ويقرران السير نحوه ، وما يزالان يعدوان في طلبه حتى يبلغاه^(١) يصور لبيد كل ذلك فيقول^(٢) :

فلها هباب في الزمام كأنها	صهبا خف مع الجنوب جهامها
أو ملمع وسقت لأحقب لاحه	طرد الفحول وضربها وكدامها
يلعبها حذب الأكام مسحج	قد رابه عصيانها ووحامها
بأحزة الثلبوت يربأ فوقها	قفر المراقب خوفها آرامها
حتى اذا سلخا جمادى ستة	جزءاً فطال صيامه وصيامها
رجعا بأمرهما إلى ذي مرة	حصد ونجح صريمة ابرامها
ورمى دوابرها السفا وهيجت	ريح المصايف سوّمها وسهامها
فتنازعا سبطا يطير ظلّاله	كدخان مشعلة يشبّ ضرامها
مشمولة غلّت بنابت عرّيج	كدخان نار ساطع اسنامها
فمضى وقدمها وكانت عادة	منه إذا هي عرّدت اقدامها
فنوسطا عرّض السري وصّدا	مسجورة متجاوزاً قلاّمها
محفوفة وسط إلراع يظّلها	منه مُصرّع غابة وقيامها ^(٣)

(١) طه حسين . حديث الأربعاء / ١ / ٢١ - ٢٢ . (٢) لبيد . الديوان / ٣٠٤ - ٣٠٧ . وانظر الصفحات / ١٢٥ و ٢٣٥ و ٢٣٧ من الديوان نفسه . (٣) المرة : القوة ، وذو مرة يعني رأياً وعزماً . حصد : محكم . الصريمة : العزيمة . الدوابر : متأخير الحوافر . السفا : شوك . السهام : الرياح الحارة . سبطا : غباراً ممتداً ، مشمولة : أصابتها الشمال . غلّت : خلط حطها . اسنامها : أعاليها . عرّدت : حادت عن الطريق . السري : نهر صغير . القلام : نبت وقيل هو القصب .

ويقدم الاعشى صورة لناقته^(١) ، وصورته شبيهة بصورة لبيد ، تملؤها الحركة ، وتكثر فيها الاحداث ، وتتوالى فيها الصور ، وتختلف المناظر ، فالحمار يتبع اثنائه ويدفعها الى عين غزيرة بالمياه ، وحولها اوكار يكمن فيها الصيادون ، بناها رجل ماهر ، واعد لها لقتل هذه الوحوش ، وفرح الصياد عند مشاهدته لهذا الصيد ، فهياً له سهماً محمداً ، يدفعه وتر قوي ، يمضي مصوتاً مترنماً فيمر تحت صدر الحمار فيبثني على جنبه ، ويمضي في غير ابطاء ، ويظل يجري ، والجحش تجري معه ، والتراب يثار تحتها ، وقد انتشر في الفضاء أغبر قائماً . ويكرر الاعشى هذه الصورة في قصيدة أخرى مع تغيير بسيط^(٢) .

ومثل ما وصف لبيد والأعشى الحمار الوحشي وأثنائه ، وصفه امرؤ القيس^(٣) ، وأوس بن حجر^(٤) ، وبشر بن أبي خازم^(٥) ، والناطقة^(٦) وزهير^(٧) . ويتفق الشعراء في أغلب هذه الصور على اقتران الحمار بالأنان ، ومحاولة التودد إليها ، والتعشق لها ، وتكاد تكون الصورة من الصور الرئيسية التي بدأ بها الشعراء اوصافهم قال بشر^(٨) :

ينوي وسيفتها وقد وسقت له ماء الوسيقة في وعاء معجب
فصنك محجرة اذا ما استافها وجبينه بحوافر لم تنكب
وقال لبيد^(٩) :

ظلت تخالجه وظلَّ يحوطُها طوراً ويربأ فوقها ويحوم
يُوفى ويرتقب النجاد كأنه ذو إربة كل المرام يروم
حتى تهجر في الرواح وهاجته طلبُ المعقب حقه المظلوم

(١) انظر ديوان الأعشى / ١١٩-١٢١ . (٢) انظر ديوان الأعشى / ٣٢٥ . (٣) انظر ديوان امرئ القيس / ١٨٠ و ٣٠٤ . (٤) انظر ديوان أوس / ٦٧ . (٥) انظر ديوان بشر / ٣٦ و ١٨٧ . (٦) انظر ديوان الناطقة / ١٩٦ . (٧) انظر ديوان زهير / ١٣٢ . (٨) بشر . الديوان / ٣٦ وانظر ١٨٧ من الديوان نفسه . (٩) لبيد . الديوان / ١٢٧ - ١٢٨ وانظر / ٢٣٧ من الديوان نفسه وانظر ديوان امرئ القيس / ٣٠٥ .

وكان الشعراء يلحون في اوصافهم للحمار على صفات الغلظة والقسوة والفظاظة وقبح الوجه^(١) ويبرزون آثار العض والندوب التي تترك على وجهه ، مثلين تلك الآثار بما جلوه ملاماً مما يقع امامهم ، قال اوس بن حجر^(٢) :
يُصْرَفُ للأصوات والريح هادياً تتمم النضيّ كدَحْتِه المناسفُ
وقال النابغة^(٣) :

اقبُّ كعقد الاندريِّ مُسَحَّجٍ حُزَابِيَّةٍ قد كدَمْتُهُ المساحِلُ
وكان الشعراء يعقبون سوق الحمار لهذه الأذن ، بعد الجهد الطويل ، والعناء المضني بالانعطاف بها نحو المورد العذب ، والمنهل الصافي قال اوس بن حجر^(٤) :

تذكر عيناً من غَمَازَةٍ ماؤها له حَبَبٌ تَسْنُ في الرخارفِ
وقال امرؤ القيس^(٥) :

جأبُ اضرَّ به التعداء صيفتُهُ حتى دعتِه عيُونُ ماؤها شَعَبُ
وعند هذا الموضوع يظهر الصياد الماهر الذي يحمل القوس المعمولة من النبع والسهم ذوات النصال المحددة ، وعلى الرغم من كل هذه المقسرة والرصد والترقب فان الصياد يفشل في اصابة هذا الحمار . قال أوس^(٦) :
فأرسله مستيقن الظن أنه مُخَالِطٌ ما تحت الشراسيف جائف
فمر النضي للذراع ونحره وللحين احياناً عن النفس صارف
فعضّ بإبهام اليمين ندامة ولهف سراً امه وهو لاهف^(٧)

(١) انظر ديوان امرؤ القيس / ٣٠٤ وديوان بشر / ٣٥ و ١٧٩ و ١٨٧ وديوان زهير / ٦٥ وديوان ليبيد / ٢٣٥ و ٢٦٩ . (٢) أوس بن حجر / ٧٣ . (٣) النابغة . الديوان / ٨٨ وانظر ديوان زهير / ٣٧٣ وديوان الأعشى / ١١٩ و ٢١٣ وديوان ليبيد / ١٢٥ . (٤) أوس . الديوان / ٦٩ . (٥) امرؤ القيس . الديوان / ٣٠٤ وانظر ديوان الأعشى / ٧ و ١٢١ وديوان ليبيد / ١٣٠ و ٢٣٦ . (٦) أوس بن حجر . الديوان / ٧٢ . (٧) جائف : يصير السهم إلى الحوف . الشراسيف : أطراف الأضلاع . لهف : أي قال يا لهف أماء .

وقال امرؤ القيس^(١) :

وأدعج العين فيها لاطيء طمر ما ان له غير ما يصطاد مكتسب
في كفه نبعة صفراء صافية ومرهفات على اسناخها العقب
أهوى لها حين ولآء مياسره سهماً فأخطأه في مشيه الذنب^(٢)

ومما يلاحظ في حديث الشعراء عن الصيد ، أنهم كانوا يذكرون استعمال
النبال والسهام بالنسبة للحمر ، ويتجنبون ذكر الكلاب في هذا الوصف .

وهناك صور أخرى حاول الشعراء ادخالها في اطار صورة الصيد والمطاردة
هذه ، منها مباراة الحمار لأثناه ، ورفسها له حين يدنو منها ، وتساقط شعره
وارتفاع منته وطوله وضميره وتشبيه الخط الذي على ظهره بالجعاب المذمبة .
قال امرؤ القيس^(٣) :

أذلك أم جَوْن يُطارِدُ أَتُنَّا حملن فأرني حملهن درُوص
طواه اضطمار الشد والبطن شازب معالى على المتنين فهو خميص
بما حبه كدح من الضرب جالبٌ وحاركهُ من الكدام حصيص
كأن سراته وجدةٌ ظهره كناننُ يجري بينهن دليص^(٤)
وقال أوس^(٥) :

كأنني كسوت الرحل احقب قارباً له بجنوب الشيطان مساوف
يقلّب قيدوداً كأن سراتها صفا مُدهُنٌ قد زحلفته الزحالف
يُقلّب حقباء العجيزة سمحجا بها ندبٌ من زَرّه وهناسف
ومن هذه الصور شدته وصلابته التي تكسر الصفيح ، قال لبيد^(٦) :

(١) امرؤ القيس . الديوان/ ٣٠٥ وانظر ديوان الأعشى / ١٢١ . (٢) اسناخها : نصولها .
(٣) امرؤ القيس . الديوان/ ١٨٠ . (٤) الدروص : الصغار . الشد : المدر . الكدح : الأثر .
الحارك : المنسج وأكثر ما يقال للبير . الحصيص أي الذي قد انحس شعره أي ذهب . الدليص :
الذهب اللقي له بريق . (٥) أوس . الديوان/ ٦٧ وانظر ديوان زهير/ ٦٥ وديوان النابغة/ ١٩٦ .
(٦) لبيد . الديوان/ ٢٣٨ وانظر صفحة/ ٢٩ من الديوان نفسه .

يفل الصفيح الصم تحت ظلاله من الوقع لا ضحلا ولا متضائلا
وكبر رأسه الذي يشبه بالذن^(١) ، وصوته الذي نعتوه بالتغريد والتطريب
والدهاء^(٢) .

ومن هذه الصور نستطيع ان نؤكد ان الشعراء كانوا يقلدون في اوصافهم
نماذج شعرية سابقة ، ويسلكون في تتبعهم لحركات هذه الصورة والوانها
طرقاً عرفوها وسمعوها ، وحاولوا ان يرسموا خطوات من سبقهم من
الشعراء في هذا المضمار ، ولم يستطيعوا ان يخرجوا عن هذه الحدود ، الا
بما سمحت لهم قدرتهم على التعبير ، ومهارتهم في استخدام الصور التي اهتموا
الى رسمها ، وحذقهم في اختيار الالفاظ والمعاني الملائمة للجو الشعري الذي
يريدون التعبير عنه . فكانت هذه الاختلافات المتباينة التي تبدو لنا في كل
صورة من الصور ، ولكنها لم تبدل من هيكلها العام الذي قامت عليه الوحدة
الموضوعية للقصيدة .

الظباء : اكثر الجاهليون من ذكر الظباء^(٣) ، واوصافها ، والتشبيه
بها في طول العنق ، ونساعة اللون ، وراقهم فيها تناسق الاعضاء ورشاقتها ،
فشبهوا بها كل ما وجدوه رائعاً في نظرهم ، جميلاً في نفوسهم . ورددوا
في تشبيهاتهم هذه جوانب معينة من هذا الحيوان . اما ذكرها مقرونة بالاطلال
فقد وقف الشعراء عنده وقفات طويلة ، وهم يستذكرون ايام طوهم وصباهم ،
لوداعتها وجمال صورتها ، وتناسبها مع ما يحملون لهذه الديار من مكانة

(١) انظر ديوان اوس / ٧٣ . (٢) انظر ديوان زهير / ٦٩ و ٧٠ وانظر ديوان ليبي / ٩٦ .

(٣) يقال للذكر الظبي واليتيس واليعفور ، وللأنثى ظبية ، ومن الظباء العفر ، وهي البيض التي
تتلو بياضها حمرة ، والادم ، وهي التي يخالف لون ظهرها لون بطنها ، والآرام : الخالصة
البيضاء ، ومن الظباء المشدن ، وهي التي معها ولد قد (شدن) أي قوي وتحرك . والمفزول : هي
التي معها غزال . ومن أسماء أولادها الخشف والفزال والشادن ، ويقال لولد الظبي : الرشا .

رفيعة ، قال امرؤ القيس^(١) :
 ترى بحر الآرام في عَرَصاتها وقيعانها كأنه حَبُّ فلفل
 وقال المرقش الأكبر^(٢) :

هل تعرف الدار عفا رسمها الا الاثافي ومبنى الخميم
 أمست خللاء بعد سكانها مُقْفَرَةٌ ما إن بها من أرم
 الا من العين ترعى بها كالفارسيين مشوا في الكمم
 وعرض لها شعراء آخرون ، ولكنهم لم يخرجوا عما وجدناه في هذه
 الصور ، ووجد الشعراء في الظبي نموذجاً محبباً لتشبيه المرأة به . قال طرفة^(٣) :
 وفي الحى احوى ينفذ المرد شادن مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد
 وقال الأعشى يصف صاحبتة^(٤) :

ظبية من ظباء وجرة أداما تَسْفُ الكبات تحت المَدَال
 وكان الشعراء يعملون الى تصويرها ، وهي متأخرة عن الأصحاب
 لتكون منزلة وفي هذه الحالة تتبين محاسنها ، لأنها لو كانت في القطيع لم
 يستبن ذلك منها وكانوا يطلقون عليها الخلدول^(٥) :

وما مُنْزَل ادماء اصبح خشفها بأسفل واد سيلُهُ متصوَّبُ
 خلدول من البيض الخلدود دنا لها اراك بروضات الخزامى وحُلْب
 وقال طرفة^(٦) :

خلدول تراعي ربرباً بخميلة تناول اطراف البرير وترتدي

(١) امرؤ القيس . الديوان/ ٨ . (٢) المفضل . المفضليات ٢/ ٢٩ وانظر ديوان عبيد/ ٢٢
 وامرى القيس/ ٢٨ و ١١٤ وديوان بشر/ ٨ وديوان أوس/ ٦٣ والمفضليات ٢/ ٤١ و ٢٠٥ .
 (٣) طرفة . الديوان/ ٣١ . (٤) الأعشى . الديوان/ ٣ وانظر/ ٣٧٣ من الديوان نفسه .
 (٥) بشر الديوان/ ٨ . (٦) طرفة . الديوان/ ٣٢ ، وانظر ديوان بشر/ ٢٠٣ وديوان
 الأعشى/ ٢٠٩ .

وحاولوا ان يشبهوها بالطيبة التي صيد غزالها ، لأن ذلك اشد لشوقها ،
وأمد لعنتها ، وهذا ما كانوا يرغبون في وصفه منها ، قال طرفة ^(١) :

واذ هي مثل الرثم صيد غزالها لها نظر ساج اليك توأغله

ولم تبعد عن اذهانهم صورة النساء اللاتي صغرت عنهن هواجهن
فوصفوهن بالطباء التي صغرت عنها مكانسها ، فخرج بعض اجسادهن منها .
قال بشر يصف ظعان احبته ^(٢) :

كأن طباء اسنمة عليها كوانس قالصاً عنها المغارُ

وشبهت النساء اللواتي تطلع من بين الهوادج بالطباء الموشقات ^(٣) ،
واستحسنوا فيها طول العنق ، فشبهوا به عنق المرأة ^(٤) ، وراقهم فيها صفاء
اللون ونصاعته وبياضه ، فأضفوه على النساء اللواتي اعجبوا بهن ، وتغزلوا
بمفاتنهن قال عبيد ^(٥) :

وسبتك ناعمة صفي نواغم بيض غرائر كالطباء العيس

وقال بشر ^(٦) :

كأن الأتمحية قام فيها لحسن دلالها رشاً موافى
من البيض الحدود بلدى سدير ينشّن الغصن من ضال قضا
أو الأدم الموشحة العواطي بأيلدين من سكم التعاف

ولسوا فيها السرعة ، فشبهوا بها خيلهم ، قال المزرد ^(٧) :

إذا ضمرت صارت جداية حلب أمر أعاليها وخف الأسافل

(١) طرفة . الديوان/١٢٣ . (٢) بشر . الديوان/٦٣ . (٣) انظر ديوان أبي ذؤاد/٣٣٨
وديوان بشر/١١٩ وديوان الأعشى/٣٢٣ . (٤) انظر ديوان امرئ القيس/١٦ و ٢٨
وديوان الأعشى/١٥٣، ٣٥٣، ٣٦١، ٣٦٧ . (٥) عبيد . الديوان/٦٨ وانظر/٢٦ و ٤٣ من
الديوان نفسه . (٦) بشر . الديوان/١٤٣ . (٧) المزرد . الديوان/٤٢ .

وقال سلامة بن جندل (١) :

ومستوعب في الجري فضل عنانه كمرّ الغزال الشادن المُنطلق
ووجدوا في ذكورها (التيوس) السرعة والضمور ، وكانوا يضيفونها
الى نبات الربل والحلب الذي يرعاه هذا التيس ، لأنه يضر البطن ويشدها (٢)
وهذا ما دعاهم الى تشبيه خيولهم وافراسهم بهذا الحيوان الذي رعى هذه
النباتات قال معاوية بن مالك (٣) :

بكل مُقلّص عبل شَنَواه اذا وُضعتْ أعنتهنّ ثابسا
ودافعة الخزام بمرفقيها كشاة الربل آتست الكلابا
وقال ابو دؤاد (٤) :

ولقد اغتدى يدافع ركني تيسُ ربل مُحنّب طيارُ
وجاء ذكر الظباء في حديث الشعراء الصعاليك العدائين ، وسرعة عدوهم
التي تفوق سرعة الظبي الهارب من مطاردة طائر جارح ، أو حين يخرج
الصيادون لصيده ، وقد بثوا حبالهم في مسارحه ، ليعلق فيها . ولكنه ينجو
منها ، فلا يجد الصيادون مفرأ من رميه بساهمهم ، واطلاق كلابهم خلفه ،
وما يصاب به هذا الظبي من دعر ، فينطلق كالسهم ، قال ابو خراش : (٥)
فوالله ما ربداءُ أو عليج عانة أقبُ وما أن تيسُ ربل مصممُ
وبثت حبال في مرآد يروده فأخطأه منها كفاف مخزم
بأجود مني يوم كفت عادياً وأخطأني خلف النثية أسهم (٦)

(١) الأسمعي . الأصمعيات ١٥٠ وانظر ديوان زهير / ٢٠٤ والمفضليات ٨٢/٢ . (٢) تتفطر
هذه النباتات في آخر الصيف فتصبح صالحة لترعهاها هذه الحيوانات فيتصل لها الريح والصيف ،
وعند ذلك يكون أنشط من غيره ، لما اتصل له من المرعى . (٣) المفضل . المفضليات ١٥٩/٢ .
(٤) أبو دؤاد . الديوان ٣١٧ وانظر ديوان الطفيل / ١٢ وديوان الأعشى / ٣٣٥ والمفضليات
٩٧/٢ والأغاني ٣٩/١٠ (دار الكتب) . (٥) أبو خراش . شرح أشعار المهذلين ١٢١٨/٣ .
(٦) الملج : الحمار الغليظ . الألب : الخميص البطن . كفاف : يعني كفت الحابل ، وهي شيء =

ودخل حديث الظباء في معتقدات الجاهليين ، وكانت لهم احاديث كثيرة في السائح والبارح ^(١) ، قال زهير يصف بعد الأجرة عنه ^(٢) :

فلما أن تحمل أهل ليلى جرت بيني وبينهم الظباء
جرت سُنْحًا فقلت لها اجيزي نوى مشمولة فمقى اللقاء

وقال عبيد يصف قوماً جرى لهم التيس الأعضب - وكانوا يتشامون منه - فلم يتشاموا ^(٣) :

ولقد جرى لهم فلم يتعيفوا تيس قعيد كالولية اعضب

من هذه الأمثلة التي مرت نجد الشعراء يرددون ذكر جمال هذا الحيوان ، او جمال بعض اعضائه بصورة خاصة ، وكأنهم وجلوا في هذا الجمال والتناسق مجالاً خصباً للتعبير عن رغباتهم تجاه احبتهم ، فكانت هذه الصور اللطيفة التي ابرزوها في حديثهم عن احبتهم ، وفي حديثهم عن فراقهم وتطلعهم من المواقف وفي كل صورة من هذه الصور كان الشاعر الجاهلي يظهر قدرة جديدة من قدراته التي يحاول فيها تغيير الصورة المألوفة . ويبدو لفظة بارعة تدفع القارئ الى الوقوف والتأمل . كما وجدنا في تشبيه طرفة لحبيبتة بالظبية التي فقدت ابنها فتتطلع الى مكانه حائرة .

اما نباح الظبي ، فقد ذكروا انه اذا اسن ونبت لقرونه شعب نبح ^(٤) قال ابو دؤاد ينعت فرسه ^(٥) :

وقُصِّرَى شَنِجَ الأُنْسَا ۝ نَبَّاحٌ مِنَ الشَّعْبِ ^(٦)

= يميل مثل غلاف القارورة ثم يجعل فيه غرق ثم يجعل عليها خيط بأنشطة ويغطي بالتراب فإذا دخلت يد الظبي فيها نفخها فنشبت . الكفت : الانقباض والسرعة . (١) اختلف في السائح والبارح ، واختلف في الجهات التي يأتي منها ، فقالوا في البارح يجيء من شمالك الى يمينك . والسائح يجيء من يمينك الى شمالك . وقيل غير هذا . (٢) زهير . الديوان/ ٥٩ . (٣) عبيد . الديوان/ ٣ وانظر ديوان الأعشى/ ٢٣٧ . (٤) الجاحظ . الحيوان ١ / ٣٤٩ و ٤ / ٢٧٠ . (٥) أبو دؤاد : الديوان/ ٢٨٨ . (٦) القصرى : أسفل الأضلاع . شج : =

وذكروا بيانه اذا هزل^(١) ، اما عن طرق صيده ، فكانوا يستعملون النار التي كانوا يوقدون لها لصيده ، ويطلقون على هذه النار اسم نار الصيد والبيض لأن الطباء تعشى اذا ادامت النظر إليها^(٢) . قال طفيل الغنوي^(٣) :

عواذب لم تسمع نبوح مقامه ولم تر نارا تم حول مجرم
سوى نار بيض أو غزال بقفرة أغن من الخنس المناخر تسوأم

وحاول الشعراء اظهار الالوان ونصاعتها مما يشعر بتمكن دلالتها في نفوسهم واذهانهم ، واخيراً السرعة التي امتاز بها هذا الحيوان ، والتي وجدت عند الشعراء الصعاليك تجاوباً - وهم المعروفون بعلوهم وفرارهم - فشبهوا به انفسهم ، مؤكدين صفة الذعر والهلع ، حتى يمتحوا الصورة تعبيراً أدق ، وشكلاً أوضح ، وباعثاً محفزاً من بواعث السرعة واستنارتها .

النعام : يحتل النعام مكاناً واسعاً في الأدب الجاهلي ، لأن الشعراء كانوا يستقصون في اوصافه ، ويقفون عند بعض عاداته وقوفاً طويلاً . وكانوا يزعمون في خلقه مزاعم غريبة^(٤) واعاجيب مذهلة ، فمن اعاجيب النعام انها مع عظيم عظامها ، وشدة عدوها لا مخ فيها^(٥) ، وفي ذلك يقول الأعمى^(٦) :

كان مُلاعني على هيزف يعن مع العشيّة للربال
على حتّ البراية زغخري السواعد ظلّ في شرى طوال^(٧)

وقد وجد الشعراء في هذا الحيوان مجالاً واسعاً لتشبيه مراكبههم اذا

= متقبض . الشعب : الطباء التي طالت قرونها وتشعبت ، أي لحصانه قصرى ظلي سمن ، متقبض النسا وهو ينبع إذا أسن . (١) الجاحظ . الحيوان ٣٤٩/١ . (٢) الجاحظ . الحيوان ٤٨٤/٤ . (٣) الطفيل الغنوي . الديوان ٤٥ . (٤) انظر حيوان الجاحظ ١٤٢/١ و ٣٢١/٤ و ٢٠٣/٧ . (٥) الجاحظ . الحيوان ٣٢٦/٤ . (٦) الأعمى الهذلي . شرح أشعار الهذليين ٣١٩/١ - ٣٢٠ . (٧) الحزف : الجاني . الحت : السريع . الزغخري : أجوف مجاري المخ . الشرى : شجر تتخذ منه القسي .

ارادوا ان يمتوها بالسرعة والنجاء . الى جانب ذلك فقد ضربوا به المثل فقالوا : اجبن من نعمة^(١) واحمق من نعمة^(٢) وأموق من نعمة^(٣) وأعدى من ظليم^(٤) ، واستعملت بعض هذه الأمثال في الشعر ، فقال أوس بن غلفاء ، يهجر خضومه^(٥) :

وهم تركوك اسلح من حبارى رأت صقرا وأشرد من نعام

وهم في كل هذه الأمثال يؤكدون معاني الخوف والذعر والهزيمة والموق والحمق والخدر والسرعة . وقد استمدوا هذه الأوصاف من طبيعة هذا الحيوان ، فهو اذا عدا مد جناحيه ، فكأنه بذلك يجمع بين العدو والطيوان . ولا سيما اذا نفر من شيء فخافه ، ومن خفته وسرعة هربه وطيرانه على وجهه وذهابه ، قالوا في المثل : شالت نعامتهم ، مكنين بذلك عن تفرق الأمر والكلمة واختلافها ، وذهاب العز . واستعمل الشعراء هذه الكناية في اشعارهم قال ذو الأصبع العدواني يصف ما وقع من بأس بين قومه فتفانوا^(٦) :

أزرى بنا اننا شالت نعامتنا فخالني دونه وخلته دوني

وقال امية بن أبي الصلت يمدح سيف بن ذي يزن لما استنجد بكسرى^(٧) :

اتي هرقلا وقد شالت نعامتهم فلم يجد عنده بعض الذي سألا

ولا بد ان تتبادر الى اذهان الشعراء صور الذين ينهزمون من المعركة ، أو يفرون منها وعندها يجد الشعراء الصورة صالحة للمقارنة بين هؤلاء القارين ، وبين النعام الذي عرف بينهم بالجن والهزيمة ، واغلب ما كانت تأتي هذه

(١) الميداني . الأمثال / ١٩٥ وانظر المستقصى للزحاشي ٣٩٧/١ . (٢) الميداني . الأمثال / ٢٣٤

وانظر المستقصى ٨٥/١ . (٣) الميداني . الأمثال / ٢٨٠ . (٤) الميداني . الأمثال / ٥٠٦

وانظر المستقصى ٢٣٨/١ . (٥) المفضل . المفضليات ١٨٨/٢ . (٦) المفضل . المفضليات

١٥٨/١ . (٧) شيخو . شعراء النصرانية ٢٣١/١ .

المقارنات في حالات الهجو : فبشر بن أبي خازم يشبه خصوم قومه بالنعام النافر حين يهربون مسرعين يقول ^(١) :

واما بنو عامر بالنسار غداةً لَتَقُونَا فكَانُوا نَعَامًا
نَعَامًا بِمُخْطَمَةِ صُعُرٍ الْخُلُودِ د لَا تَطْعُمُ الْمَاءَ إِلَّا صَيَامًا ^(٢)

وقال عامر بن الطفيل يفخر بانتصارات قومه ^(٣) :

قَتَلْنَا كِبَشَهُمْ فَهَجُوا شَلَالًا كَمَا نَقَرَّتْ بِالطَّرْدِ النَعَامَا
وشبه الحارث بن وعلة نفسه - وهو يفر من المعركة - بنعام يخاف
فارساً يتبعه فقال ^(٤) :

كَأَنَّا وَقَدْ حَالَتْ حُدْنَتُهُ دُونَنَا نَعَامٌ تَلَاهُ فَارِسٌ مُتَوَاتِرٌ

ووردت اشارات لذكر الظلم عند الشعراء الصعاليك ، فعرضوا له في مجال السرعة كما عرضوا للظباء ، وكانوا يقارنون عدوهم بعده ، بعد ان يمنحوا هذا الحيوان صفات الذعر والخوف ، لأنها من دواعي السرعة - وتكاد تكون الصورة مشابهة لصورة الظبي عندما يصفوه بالذعر ، وقارنوا انفسهم به - أو كانوا يشبهون انفسهم بالنعام حين يريدون مقارنة انفسهم بالخيول السريعة . قال تأبط شرا ^(٥) :

وحشحت مشعوف النجاء كأنني
من الحص هزروف كأن عفاة
أزج زلوج هدرني زفازف
هيجف رأى قصرأ سملا دواخنا
إذا استدريج الفيفا ومد المغابنا
هزف يبد الناجيات الصوافنا ^(٦)

(١) بشر . الديوان / ١٩٠ . (٢) صياماً : قياماً ، وأحدهم صائم ، وهو الفرس القائم على قوائمه الأربع من غير علف ، والنعام كلها - كما يعتقدون - لا تسمع ولا تشرب ، وأراد بشر بهذا أنها لا تشرب الماء ولكنها قائمة . (٣) عامر بن الطفيل . الديوان / ١١٠ وانظر ديوان الأأنوه الأودي / ٨ وديوان النابعة / ٢٠٠ وديوان عثرة / ٤٠١ وديوان أوس / ٤٥ . (٤) المفضل . المفضليات / ١٦٤ / ١ . (٥) الأصفهاني . الأغاني / ٢١٣ / ١٨ . (٦) الهيجف : الطويل الشعر من الظلمان . الهزروف : السريع الخفيف . الأزج : الأسرع . الزلوج : السرعة =

ويحرص الشاعر على ذكر هذه الألفاظ المترادفة التي تدل على السرعة ،
وتوحي بالحركة والصوت ، وكأن الشعراء وجدوا في بعض هذه الألفاظ
تعبيراً موفقاً لاستعمالها في حديثهم عن النعام . والحارث بن حلزة يستعين
على أهم بناقة مسرعة خفيفة ، يقول (١) :

بزفوف كأنها هِقْلَةٌ أمٌ رِثَالٍ دَوِيَّةٌ سَقَفَاءُ

ويشبه الأعلام الهذلي نفسه ، وهو يتحدث عن شدة عدوه ، بالظلم
المذعور الذي اشتاق للريثال وخشي على بيضه ان يبادره برد الشمال ، فانطلق
بأقصى سرعته ، فكان جناحيه خفقان ريح جنوبية ، بثياب جديدة غير
ممزقة (٢) .

فالسرعة هي الظاهرة العامة التي عرف بها هذا الحيوان ، وقد علمنا
فائدة هذه السرعة بالنسبة للعربي في باديته مما جعل الصورة تنعقد في ذهنه ،
وجعل التشبيه يلتزم في تصويره ، ووجد الطرف الثاني من الصورة كاملاً
في هذا الحيوان ، فشبه به راحلته ، وسرعة سيرها في الأرض الصلبة ،
وكانوا يذكرون الظلم او النعام الذي احمر ساقاه واطراف ريشه ، لأنه
يكون اسرع في هذه الحالة وانشط ، فلا تتمكن الخيل من طلبه قال بشر
يصف راحلته (٣) :

هوجاء ناجية كأن جدّيلها في جيد خاضبة اذا ما اوجفوا
وقال قيس بن الخطيم (٤) :

كأن تتودي على نقتق أزجّ يبارى بجوّ نعاما

= في المني . التزايف : من التزييف ، وهو سرعة المشي أو هو الحيوان السريع الذي يحرك جناحيه ،
ويقترب بالصوت في أغلب الأحيان ، الهزف : مثل الهجف . (١) ابن الأنباري . شرح القصائد
السيح الطوال/ ٤٤١ وانظر شرح أشعار الهذليين ٣/ ١١٥٥ . (٢) الأعلام الهذلي . شرح أشعار
الهذليين ١/ ٣٢١-٣٢١ . (٣) بشر . الديوان/ ١٥٤ وانظر ديوان زهير/ ٣١٦ .
(٤) قيس بن الخطيم الديوان/ ٦٩ وانظر ديوان عبيد/ ٢٧ وديوان علقمة/ ٢٧ وديوان عنترة/ ٣٧٣ .

وحاول الشعراء ان يجلدوا المبررات الموجبة لهذه السرعة ، لتكون الصورة اكمل ، واوضح في الذهن ، وليكون التشبيه اتم ، فقالوا انه يعدو ليلرك بيضه ، وافراخه ، ولا يسأم الزفيف^(١) . وهو يزج برجليه زجاً شديداً ويخفض عنقه ويمدها في عدوه فيكاد ظفره يصيب مقلته فيشقها ، باذلاً في سبيل ذلك اقصى جهده ، معتمداً في هذه السرعة على جناحين قوين يشبهان بيتاً من الشعر هبت عليه الريح من كل جانب^(٢) ، والريش يتساقط منهما كالليف^(٣) أو يتساقط على هيئة خلجان خرق تنثر على الأغصان^(٤) .

ان تعداد مثل هذه الصفات وتصويرها بهذا الشكل ، وابرازها على هذه الهيئة تدل على الأثر الذي كانت تركه سرعة هذا الحيوان في نفوس الشعراء . حتى اصفوا عليه هذه الصفات ، ونعتوه بهذه النعوت وصوروا هيئته وهو يشق هذه القفار ، في الصور التي وجدوا فيها تعبيراً مجسداً لما كانت تثيره هذه القدرة في نفوسهم .

وشأن النعام ، شأن الحيوانات الوديدة التي عرض الشعراء لذكرها في حديثهم عن ديار الأحبة ، وخلوها من اهلها ، عندما تزهو فيها النباتات وتنتشر في جوانبها الوحوش ، ولا بد ان تكثر هذه الحيوانات في مثل هذه الاماكن ، لتوفر الأمن والاطمئنان الذي تنشده ، ولم يجد الشعراء حيوانات اكثر وداعة من الطباء والآرام والنعام ، ترود مثل هذه الاماكن التي يحفظون لها احسن الذكريات لتكون متناسبة مع عظم منزلة الديار في نفوسهم قال عبيد^(٥) :

تحاول رسماً من سليمى دكادكاً خلاء تعفّيه الرياح سواهكا

(١) انظر ديوان علقمة/٤٢٧ (الأعلم) . (٢) نفس المصدر/٤٢٧-٤٢٨ . (٣) انظر ثعلب بن سميح في المفضليات ١٢٧/١ . (٤) انظر ديوان ليبيد/١٤٧ . (٥) عبيد/٩١ وانظر ديوان بشر/١٣٨ وديوان ليبيد/٢٩٨ والمفضليات ٤/٢ و ٧٤ .

تبدّل بعدي من سليمي واهلها نعاماً ترعاه وأدماً تراثكا
ولم يترك الشعراء الالوان التي ميزوا بها هذا الحيوان ، وهم يعرضون
للحديث عنه ، فكان اللون الأسود او الرمادي هما اللونين اللذين لون بهما
الشعراء صورة هذا النعام ، واهدا ب ريشه ، وهذا ما حملهم على تشبيهه
برجال الهند لسواده ، قال ليبد^(١) :

ورقاقٍ عَصَبٍ ظلماتُه كخريق الحبشين الزَّجَل^(٢)
ويشبه بشر بن ابي خازم الظلم واهدا ب ريشه المتدلية على جوانبه برجل
اسود عليه كساء من قطيفة فيقول^(٣) :

اكمال تنوم النقا كانه حَبَشِي حازقة عليه القَرَطَف
وشبه طريقة الحوامل من الابل ، المطلية بالقطران ، بالظلمان فيقول^(٤) :
وبلادٍ زَعِيلٍ ظلماتُها كالمخاض الحُرْب في اليوم الحَدَر^(٥)
وكان اللون الأحمر يتردد في حديث الشعراء عن النعام الخاضب من
اجل الحمرة التي تعترى ساقيه في الربيع ، ووجدوا في حوصلة الرأل صورة
لها قال الأعشى^(٥) :

كحوصلة الرأل في دنها اذا صُوِّبَت بعد اقعادها
اما اللون الابيض (وهو لون البيضة) فاقتصروا على تشبيه المرأة بها ،
ليؤكدوا هذا اللون فيها^(٦) ، والتزم الشعراء في حديثهم عن النعام النواحي
العاطفية وهي ظاهرة جديدة ، فهياجه وحنينه عندما يتذكر بيضاته وهو في

(١) ليبد . الديوان/ ١٧٤ وانظر ديوان عترة/ ٣٧٣ وديوان طرقة/ ٣٤ وديوان زهير/ ٦٣
و ديوان الأعشى/ ٢٢٩ . (٢) الرقاق : الصحراء المتسعة اللينة . والزجل : جمع زجلة وهي
الجماعة من الناس . الحزق : الجماعة أيضاً من الناس والطير والنحل . (٣) بشر . الديوان/ ١٥٤
(٤) طرقة الديوان/ ٧٥ . (٥) الأعشى . الديوان/ ٧١ وانظر ديوان علقمة/ ٤٢٧ (الأعلم) .
(٦) انظر ديوان امرئ القيس/ ١٦ وديوان الأعشى/ ١٣٩ .

مرعاه ، فينسيه كل ما يخطر بباله ، فيرجع قافلاً ، لا يلوي على شيء حتى يصل اليه فيحتضنه في يوم البرد لئلا يفسد ويتغير^(١) . ووصفوا سرعته في عدوه الى هذه الافراخ التي لا زيش لقوادمها ، وارتباطه بالاماكن التي باض فيها^(٢) . وهذه الصورة مغايرة للصورة التي رسمها لنا المثل القائل : (أموق من نعامة) والمثل الآخر (احمق من نعامة) لما فسروا به هذه الأمثال من تركها ليبيضا واحتضانها بيضاً آخر .

ومن الأعاجيب التي ذكرها الشعراء في احاديثهم عن بيض النعام انها مع عظم بيضها تكثر عدد البيض ثم تضع بيضها طولاً وفي وصفها هذا قال الشعراء شعراً كثيراً^(٣) :

وكانوا يقرنون البيض بالنعام في كثير من احاديثهم ، فليد عندما يتحدث عن ظليم ونعامة ، يتحدث عنهما وهما يكران على بيض باضاه في اول الربيع ، فقدم عهده وغيرته الامطار ، يقول^(٤) :

حتى اذا افد العشي تروحا لمبيت ربيعي التاج هجان
طالت اقامته وغير عهده رهم الربيع ببرقة الكبوان
وقال امرؤ القيس^(٥) :

كأني ورجلي والقرباب ونمريقي اذا شُبَّ للمرو الصغار ويص
على تقنق هيق له ولعرسه بمنعرج الوعاء بيض رصيص
اذا راح للأدحي أوباً يفنها تحاذر من ادراكه وتحيص^(٦)

وشبه جناحيه وهو يحتضن البيض بالخباء ، قال ثعلبة بن صعيبر ناعماً راحلته

(١) انظر ديوان حلقة / ٤٢٧ . (٢) انظر ديوان حلقة / ٤٢٧ وديوان زهير / ٢٤٩ .
(٣) الجاحظ . الحيوان / ٤-٣٢٨-٣٢٩ . (٤) ليبد . الديوان / ١٤٩ . (٥) امرؤ القيس .
الديوان / ١٧٩ . وانظر المفضليات / ٣٧ . (٦) المرو : الحجارة . والوبيص : البريق . النقنق
الذكر من النعام والبيق من أسمائه . والوصاء : أرض ذات رمل . الأدحي : الموضع الذي فيه بيض
النعام .

بعد ان شبهها بالنعامة التي جمعت على البيض^(١) :

فبت عليه مع الظلام نجباءها كالأحمسية في النصف الحاسر^(٢)

واضفى علقمة على الظليم صفة الانسان وجعله يتكلم ، فهو يكلم نعامته بما لا يفهمه غيرهما كما تتكلم العجم بما لا يفهمه عنها العرب قال^(٣) :

يوشي اليها بأنقاض ونقطة كما تَراطنَ في افدانيها الروم^(٤)

وجعل اجابة النعامة لهذا الظليم اجابة فيها تطريب وتنغيم فقال^(٥) :

تحفة هيلة سطعاء خاضعة تجيبه بزمار فيه ترنيم

وكان صوت هذا الحيوان يلفت انتباه الشعراء ، وهم يسمعون في هذه القفار الشاسعة^(٦) .

اما اوصافه ، فقد عرض لها الشعراء في حديثهم عنه فكانوا يشبهون القدر الضخمة التي تكون بمنزل العظيم واشباهه من الأجواد بالنعامة^(٧) ، واكثروا من وصف رأسه ، فنتوه بالصغر ، وقرنوا ذلك بدقة العنق واطلقوا عليه في هذه الحالة (الصعل) قال زهير^(٨) :

صعل يعود بذني العشرة بيضه كالعبد ذي القرو الطويل الأصلم

ووصفوا فمه بالصغر والضيق والدقة ، وشبهه بشق العصا ووصفوه بصغر الاذنين حتى كأنه لا آذان له ، قال علقمة^(٩) :

فوه كشق العصا لأياً تبيته اسلك ما يسمع الأصوات مصلوم

(١) المفضل . المفصليات ١/ ١٢٨ . (٢) الأحمسية : المرأة من الحمس ، وهم قریش وخزاعة وبنو عامر وكثافة . والحاسر التي تكشف رأسها ووجهها لإدلالاً بحسنها . (٣) علقمة . الديوان / ٤٢٨ . (٤) الأقدان جمع قدن . وهو القصر المالي . (٥) علقمة . الديوان / ٤٢٨ . (٦) انظر ديوان لبيد / ١٨ و ٧٢ . (٧) الجاحظ الحيوان / ٤ / ٣٣١ . (٨) زهير . الديوان / ٦٣ و انظر / ٢٥٦ من الديوان نفسه وديوان لبيد / ١٣٤ و ١٤٧ و ١٤٨ . (٩) علقمة . الديوان / ٤٢٧ .

وقال بشر^(١) :

يبرى لها خرب المشاش مصلّم صعل هيل ذو مناسف اسقف^(٢)

وقال زهير^(٣) :

أصك مصلّم الأذنين أجى له بالسي تنوم وآه

وتزعم العرب ان الظليم اصلم ، وانه عوض عن السمع بالشّم فهو يعرف بأنفه ما لا يحتاج معه الى سماع ، فهو يشم ريح القانصين من أكثر من غلوة^(٤) ، ويبعد عن رثاله فيشم ريحها من مكان بعيد^(٥) . واعتد من ادعى للنعام الصمم بقول علقمة^(٦) :

فوه كشق العصا لأيا تبيته اسك ما يسمع الأصوات مصلوم واحتج من زعم انها تسمع بقول لبيد^(٧) :

وصحّم صيام بين صمد ورجلة وبيض تؤام بين ميث ومذب متى ما أشأ اسمع عراراً بقفرة نجيب زماراً كاليراع المثقب وقول الحارث بن حلزة^(٨) :

آنت نبأه وافزعها القنّاص عَصراً وقد دنا الأمساء فترى خلفها من الرجّع والوقع منينا كأنه الأهباء^(٩)

وقال طرفة^(١٠) :

(١) بشر . الديوان/ ١٥٤ . (٢) يبرى لها : يعرض لها . خرب المشاش : يقصد بذلك ظليما وهو ذكر النعام . والخرب : الذي لا يخ له . والمشاش : عظام المفصل ويقال : ان النعام جوف العظام ، لا يخ بها . الأسقف الطويل . (٣) زهير . الديوان/ ٦٤ . (٤) غلوة : المراهنة في السباق مقدار مضي السهم عند الرمي . (٥) الجاحظ . الحيوان ١٣٣/٤ . (٦) علقمة . الديوان/ ٤٢٧ . (٧) لبيد . الديوان ١٨/١٢ . (٨) ابن الانباري . شرح القصائد السبع الطوال/ ٤٢٢-٤٤٣ . (٩) المنين : الغبار الدقيق الذي تثيره بقواهمها . والاهباء : اثارها الهباء وهو الغبار الذي كأنه الدخان . (١٠) انظر حيوان الجاحظ ١١١/٤ (والأبيات لم تذكر في ديوان طرفة) .

هل بالديار الغداة من خَرَس
سوى مهاة تقرو اسرته وجوءذر يرتعي على كنس
أو خاضب يرتعي بهقتسه متى ترعُه الأصوات يهتجس

وذكروا اخباراً اخرى في اعاجيب هذا الحيوان^(١) : ومثلما شبهوا
الحيان بالنعام في فراره ، فقد شبهوا رباطة الجأش - حين يفزع الناس -
وثبات القوم في اماكنهم بأن نعام الصحراء المجفل النفور قد باض عليهم .
قال سلامة بن جندل^(٢) :

من الخمس اذ جاؤوا البنا بجمعهم غداة لقيناهم بجأواء فيلسق
كأن النعام باض فوق رؤوسهم بنهى القذاف او بنهى غنقق
وقال الاعشى يمدح المنذر ويصف ثبات جيشه^(٣) :

بلمومة لا ينفض الطرف عرضها وخيل وارماح وجند مؤيد
كأن نعام الدو باض عليهم اذا ريع شئ للصريح المندد
من هذه النماذج ندرك توفيق الشاعر الجاهلي الى الصور التي تتفق مع
الانفعال الذي يحس به وتصلح لأن يستمد منها التشبيهات والصور المجازية
التي اراد ان يخلعها على ما يتحدث عنه . الى جانب قدرته على نقل هذه
الصور نقلاً أميناً وصادقاً الى الحد الذي تمكن منه .

الوعول : يبدو من خلال احاديث الشعراء عن الوعل انهم اتخذوه
مثالاً للعجز عن ادراك الخلود في هذه الحياة ، والبقاء فيها ، قَامَنُوا - بعد
ان لمسوا حقيقة الموت - بأن الانسان لا بد ان يقع في قبضته مهما كانت
قوته وقدرته وكان هذا التعليل - كما يبدو - كافياً لتخفيف هول الصدمة
التي كانت تنتاب الشعراء عند وقوع مصيبة الموت . وكانوا يذكرون الوعل

(٢) الأصمعي . الأصمعيات/ ١٤٩ .

(١) انظر حيوان الجاحظ ٤/ ٣٨٩-٤٢٠ .

(٣) الأعشى . الديوان/ ١٩١ .

في حديثهم عن المطر ، وكيف يضطرها للنزول قال لبيد^(١) :

فحذر العصم من عماية للسبل وقضى بصاحبة الأربا
فالماء يجلو متوئهن كما يجلو التلاميذ لؤلؤاً قشيبا

وهي صورة قريبة من الصور الأولى ، لأنها مستمدة من معنى القوة فالسبل كان يخيفهم ، ويبحث في نفوسهم الرعب والفرع ، لما يحمل لهم من الخراب والدمار . وكان خرابه غير مقتصر على الناس وحدهم ، وإنما هو يخيف حتى هذه العوالم المستوطنة في الجبال . والتي كانت اقل تعرضاً للموت منهم حسبما كانوا يعتقدون ، فينزلها من أماكنها . وحتى المصائب التي كانت تنزل على البشر وتصيب الناس على حد سواء ، فلأنها تنزل هذا الأعصم القوي من حماه الذي احتفى فيه ، وكأنه آخر من تدركه هذه المصائب ، ويقع تحت قدرتها . وإلى ذلك اشار الأعشى بقوله^(٢) :

قد يترك الدهر في حلقاء راسية وهيا وينزل منها الأعصم الصلدا

ووجد الشنفرى في انثى الوعل الفأ ، لطول تشرده ، وانيساً يسكن
إليه ، فهي تذهب ونجىء حوله كالعذارى لا تنفر منه ولم تعد تنكره لكثرة
ما خالطها حتى أصبح واحداً منها . قال^(٣) :

ترود الأراوى الصحم حولي كأنها عذارى عليهن الملاء المذليل^٤
ويركدن بالآصال حولي كأنني من العُصم ادفى يتحي الكيسح اعقل^(٥)

وعرف هذا الحديث عند الشعراء الصعاليك ، فتحدثوا عن تشردهم
في أرجاء الصحراء الموحشة ، ووديانها المخيفة ، وافتخروا باهتمامهم فيها

(١) لبيد . الديوان/ ٣١ وانظر صفحة ٩١ من الديوان أيضاً . (٢) الأعشى . الديوان / ١٠١ .

(٣) الزمخشري . أعجب العجب/ ٦٧-٦٩ . (٤) الصحم : الوعل السود التي يضرب لونها إلى

الصفرة . الملاء : ضرب من الثياب . الادفى من الوعل : الذي طال قرنه وذهب قبل أذنيه . الكيسح :

عرض الجبل وسنده .

دون دليل واتخذوا من هذا مادة للفخر بأنفسهم^(١) .

ويعكس لنا اختيار الشنفري لهذا الحيوان صورة التشرد التي ارتبطت بها حياة هؤلاء الصعاليك ، وحياة هذا الحيوان ، والقسوة التي يلاقيها كل منهما ، والتعود على حياة الشعاب والجبال . ووجدوا في مشية الوعول مجالاً لتشبيه مشية الخيل بها في السرعة قال الجُميح^(٢) :

ينعون فضلة بالرماح على جرد تكلس مشية العصم
وقال المهلهل^(٣) :

وخيل تكرس بالدارعين كشي وعول على الظاهرة
ووصف النايغة منزلته ، ورفعته بين قومه ، بساكن الجبل الشامخ
الذي تزل عنه الوعول على الرغم من قدرتها وقابليتها على سكتها^(٤) :

تزل الوعول العصم عن قذفاته وتضحي ذراه بالسحاب كوافرا
ومن الأمور الغريبة التي ذكرها الجاحظ عن هذا الحيوان ما يتعلق
بنصول قرنه فقال^(٥) : وليس شيء من ذوات القرون ينصل قرنه في كل
عام إلا الوعل ، فاذا علم انه غير ذي قرن ، وانه عديم السلاح ، لم يظهر
من مخافة السباع . فاذا اطال مكثه في موضعه سمن ، فاذا سمن علم ان
حركته تفقد وتبطيء فزاد ذلك في استخفائه وقلة تعرضه واحتمال بالاً يكون
ابداً على علاوة الريح فاذا نجم قرنه لم يجد بداً من ان يمظعه^(٦) ، ويعرضه
للشمس والريح حتى اذا ايقن انه قد اشتد اكثر المجيء والذهاب التماساً
ان يذهب شحمه ، ويشتد لحمه وعند ذلك يحتمل في البعد من السباع ، حتى
اذا امكنه استعمال قرنيه في النزال والاعتماد عليهما ، والثوب من جهتهما

(١) يوسف خليف . الشعراء الصعاليك / ٢٣٨ .
(٢) المفضل . المفضليات ٢ / ١٦٧ .
(٣) الجاحظ . الحيوان ٦ / ٣٠٠ . (٤) النايغة . الديوان ١٧٤ (الأعلم) . (٥) الجاحظ .
الحيوان ٧ / ٣٠-٣١ . (٦) نفس المصدر .

رجع الى حاله من مراعيه وعادته .

ويتضح لنا من الأمثلة المتقدمة ان القوة والخلود هما الرمان اللذان ميزا هذا الحيوان ومنهما استمدت الصور الشعرية .

الذئب : من الصور البارزة التي تطالعا في اوصاف الشعراء للخييل تشبيها بالذئب ، وقد استحسن العرب هذا التشبيه واعتبروا امرأ القيس اول من عمد الى ذلك من الشعراء ، وعده العلماء مثلاً يقاس عليه ، ويحتكم إليه في السبق والتخلف حيث قال^(١) :

له ايطلا ظلي وساقا نعاماً وارخاء سرحان وتقريب تنفل
واعقبه الشعراء فقال طفيل الغنوي^(٢) :

كأنه بعد ما صدّرن من عرق سيد بمطرّ جنح الليل مبلول^٣
وقال الأسعر الجعفي يصف فرسه^(٤) :

واذا هو استعرضته ممتطرا فتقول هذا مثل سرحان الغضا
وشبه عبد المسيح بن عسلة اعتدال فرسه ، وانتصابه من النشاط بالذئب
قال^(٥) :

صحبته صاحباً كالسيد معتدلاً كأن جوء جؤه مداك اصداً
ويطرق الشعراء المعنى الذي اولعوا به ، وهو المبالغة في كرم الضيافة ،
وكانوا يجعلون من الذئب الجائع ضيفاً يقرونه ويأمنون به ، وتجاوز البعض
ذلك الى الزعم بأن الذئب كلمه ، وما قصة ذئب اهبان بن أوس إلا دليل
من أدلة ذلك^(٥) .

(١) امرؤ القيس . الديوان/ ٢١ . (٢) الطفيل الغنوي . الديوان/ ٣٣ وانظر/ ٥ من الديوان .
(٣) الأصمعي . الأصميات / ١٥٨ وانظر ديوان عبيد / ٥ وديوان طرفة / ٥١ وديوان زهير / ٢٥٥
و ديوان عامر بن الطفيل / ١٣٠ وشعره النصرانية / ١٧٤ . (٤) المفضل المفضليات / ٨٠/٢ .
(٥) الجاحظ . الحيوان / ١/ ٢٩٨ و ٣/ ٥١٣ و ٤/ ٨٠ و ٧/ ٥٠١٧ و ٢١٧ .

وتعد الصورة التي قدمها الشنفرى من اروع الصور التي رسمها لنا الشعراء الجاهليون لما جاء به من اوصاف دقيقة وتصوير موفق لعادات هذا الحيوان ، ومن الطبيعي ان نجد هذه الصورة واضحة عند الشنفرى وهو من الصعاليك الذين حفلت حياتهم بالتشرد ، ولم يعرف الشعر العربى قصيدة تماثلها في وصف الذئب ^(١) :

واغدو على القوت الزهيد كما غدا	ازلُ تهاده التنائف اطحل
غدا طاويا يعارضُ الريح هافيا	يخوت بأدئاب الشعاب يُعسلُ
فلما لواه القوتُ من حيث امه	دعا فأجابته نظائرُ نُحل
مهلهلة شيب الوجوه كأنها	قِداح بكفي ياسر تتقلقل
أو الخشرمُ المبعوث حثث دبره	محايضُ إرداهن سام مُعسلُ
مُهرّثة فوه كأن شدوقها	شقوق العصي كالخات وبسلُ
فضج وضجت بالبراح كأنها	واياه نوح فوق علباء ثكل
واغضى واغضت واتسى واتست به	مراميل عزاه وعزته مرمل

شكا وشكت ثم ارعوى بعدُ وارعوت

وللصبر ان لم ينفع الشكو اجمل

فالشاعر في هذه الصورة يلج على صفات الجوع ، ويؤكدها اكثر من مرة ويحاول رسمها بما كان يحسه هو ليمنح الصورة قدرة اكثر على التعبير فصور الجوع بصور مختلفة توحى بشدة التلهف الى الطعام والسرعة للانقضاض ولم يقتصر على ذئب واحد في رسم هذه الصورة ، وانما جعل الصفة عامة في الذئاب ، وهذا انعكاس لما يحسه بقية الصعاليك من الجوع فهو يطلب القوت عند غيره بعد ان عز ولكنه يجد حاله كحالها في الهزال ، فهي قليلة اللحم ، تمشي مضطربة ومهلهلة واسعة الاشداق مفتوحة الافواه ، تكشر

(١) الزنجشري . أعجب العجب / ٣٧-٥٠ .

في عبوس ، كريمة الوجه ، تسمع لها جلبة من الجوع ، وعندما اقتربت من بعضها وعلمت ان الحالة واحدة ، وان الزاد قد نفذ ، شكا هذا الذئب حاله ثم ارعوى بعد الشكوى - لاقتناعه بالحال التي هم عليها - فكف وصبر ، لأن الصبر اجمل ، وهو يقدم لنا بهذه الالوان الصورة المشتركة التي يحسها هذا الشاعر ، والصورة التي كان يعانيتها اصحابه .

وَنَ الطَّبِيعِيَّ اَنْ يَكُونَ حَدِيثُ الصَّعَالِيكَ عَنِ الذَّئْبِ حَدِيثَ الْمُطْلَعِ الْعَارِفِ بِكُلِّ مَا يَحِيطُ بِهِ ، لِتَقَارِبِ السَّبِيلِ الَّذِي يَسْلُكُهُ كُلُّ مَنِهْمَا فِي الْبَقَاءِ وَالِاسْتِمْرَارِ . وَلَا غَرَابَةَ بَعْدَ ذَلِكَ اِذَا سَمِعْنَا عَنِ الشَّنْفَرِيِّ بِأَنَّهُ يُوَثِّرُ صَدَاقَةَ الذَّئْبِ ، وَغَيْرِهِ مِنَ الْحَيَوَانِ ، لِأَنَّهَا أَحْرَصَ عَلَى الْقِيَمِ ، وَارْهَفَ احْسَاساً يَقُولُ (١) :

لعمرك ما في الارض ضيق على امرئ سرى راغباً او راهباً وهو يعقل
ولي دونكم اهلون سيد علس وارقط زهلول وعرفاء جبال
هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا البخاني بما جر يخذل
ويقدم المرقش الأكبر صورة أخرى للذئب الذي عراه مستضيفاً فأكرمه
كما يكرم الضيف ويصور لنا فكرة الكرم الاصيل ، الذي يقدم للضيف
مهما كان شكله ، لا يفرق بين تقديمه بين انسان وحيوان (٢) :

ولما أضأنا النار عند شوائنا عَرَانَا عليها اطلسُ اللون بائس
نبلت اليه حُرَّةٌ من شوائنسا حياةٌ وما مُحْشِي على من اجالس
فأص بها جدلان ينفض رأسه كما آب بالنهب الكمي المحالس (٣)
والصورة كما وجدناها تختلف عن الصورة التي قدمها الشنفرى ، فهي
تعرض لموضوع الجوع ، والحالة التي كان عليها الذئب ، ولكنها لم تصل

(١) الزنجشري . أعجب العجب / ١٦-١٨ . (٢) المفضل . المفضليات / ٢٠٦ .

(٣) الحزرة : القطعة . المحالس : الشديد الذي لا يبرح مكانه في الحرب .

الى ما وصلت اليه قصيدة الشنفرى من حيث استكمال الالوان والخطوط .
ويتعرض امرؤ القيس للذئب فيصور لنا مقابلته له وقد اضر به الجوع ،
فبدأ يعوي ثم يرسم لنا بعض الصور العاطفية المتبادلة بينه وبين هذا الذئب^(١) .
وتعد قصيدتنا المرقش الاكبر وامرؤ القيس من اوائل القصائد التي
وصلت الينا وقد ذكر فيهما الذئب في مجال المقابلة ، وان كان الخيال يشوب
هاتين القصيدتين الى حد ما .

ويشارك الذئب الضباع والنسور في نهش لحوم القتلى . واعتبر الشعراء
ترك قتلى الخصور طعاماً لطلاب الرزق من هذه الحيوانات ، مفخرة بفخرون
بها ، قال عبد المسيح يفخر بقومه ويصف بلاءهم^(٢) :

لعمري لأشبعنا ضباع عنيزة الى الحول منها والنسور القشاعما
ومستلب من درعه وسلاحه تركنا عليه الذئب ينهش قائما
وقال بشر بن أبي خازم يشير الى يوم النصار^(٣) :

وهم تركوا غداة بني نمير شريحا بين ضبعانٍ وذيب

واستعمل الشعراء لفظ الذئب على سبيل المجاز ، وقصدوا به السفهاء
من الناس^(٤) او العدو المتمكن^(٥) ، وشبه امرؤ القيس الريء - الذي يربأ
للقوم - بتستره وتخفيه بذئب الغضا ، لأنه اخبث الذئاب فقال^(٦) :

بعثنا ريباً قبل ذلك مُخملاً كذئب الغضا يمشي الضراء ويتقي
وهجي بجلسة الذئب ، فهذا ساعدة بن جؤية يهجو امرأة من بني الدليل

(١) انظر ديوان امرؤ القيس/ ٣٦٣-٣٦٤ . (٢) المفضل . المفضليات ١٠٤/٢ .

(٣) بشر . الديوان ٢٢/ وانظر الأصمعيات/ ١١٩ وأغاني دار الكتب ٢٧/١٠ . (٤) انظر

ديوان الطفيل النحوي/ ٥٤ . (٥) انظر المفضليات ١٦٥/٢ . (٦) امرؤ القيس . الديوان/ ١٧٢ .

ابن بكر يقول^(١) :

إذا جلست في الدار يوماً تأبضت ـــ تأبض ذئب القلعة المتصوب
وكان لصوت الذئب وقع في نفوس الشعراء ، فإذا أرادوا ان يذكروا
الفرع والرعب ، ذكروا عواءه ، قال الاعشى^(٢) :

وعين وحشية اغفت فأرقها صوت الذئب فأوفت نحوه دأباً

وإذا أراد الرجل ان يدلل على شجاعته ، دلى بعدم فزعه من الذئب
وصوته لأن الذئب لا يصوت ـــ في أغلب الاحيان ـــ الا في حالات الجوع^(٣) .
وتعد ذئاب الحمر من اخبت الذئب^(٤) . وكذلك ذئاب الغضا التي ضرب بها
المثل في الخبث .

ومما كانوا يعتقدونه ، انهم كانوا يتداوون ويتعوزون بكعب الأرنب
حذر الموت والعطب ، وكانوا يشدون في اوساطهم عظام الضبع والذئب^(٥) .
هذه هي الصور التي صور فيها الشعراء الذئب ، وهي كما تبدو لم تكن
اوصافاً دقيقة لأعضائه ، او صفاته الداخلية ، وانما هي اوصاف عامة تتعلق
بالمظهر الخارجي .

الضباع : يعد الشعراء الهذليون والصعاليك من اكثر الشعراء حديثاً
عن الضبع للتقارب بين الطرق التي سلكها كل منهما ، والتشرد الذي اصبح
طابعاً لهما ، ولأن اكثر الصعاليك والهذليين ، كانوا يموتون في العراء فتصبح

(١) ساعدة بن جؤية . شرح أشعار الهذليين ٣/ ١١٥٠ . (٢) الاعشى الديوان/ ٣٦١ .
(٣) انظر ديوان امرئ القيس/ ٣٩٣-٣٦٤ وحيوان الجاحظ ١/ ٣٧٨ . (٤) انظر حيوان
الجاحظ ١/ ٢٢٠ و ١٣٣/ ٤ و ١٣٤ و ١٢٣/ ٦ و ١٧١ و ١٤٣/ ٧ . (٥) الف الحسن
ابن محمد بن الحسن الصغاني كتاباً في أسامي الذئب وكناه ، ومما قاله في مقدمته : أن الذي حملته على
جمعه تذاذب بعض أهل زمانه ، ومن بمصميات رواشقه رماه ، ويقع في أربع صفحات وقد طبع
ضمن كتاب مقامات الحنفي وابن ناظبا وغيرهما في استانبول/ ١٣٣٠ .

جثثهم نهياً لهذا الحيوان ولغيره من الحيوانات التي اعتادت اكل الأشلاء،
والضبع من الحيوانات التي عرفت بولعها بجيف الموتى ، واشتهرت برغبتها
بنش القبور . ولهذا أقرنت صورة هذا الحيوان بصورة الفزع من الموت
الذي لا يعرف مصير الجسد بعده . وقد صور الاعلم وهو يصف فراره
مع صاحب له من مغامرة يطاردونه وما ستفعل الضباع بجسده (١) :

وخشيت وقع ضريبة قد جربت كل التجارب
فأكون صيدهم بها للذئب والضبع السواغب
جزراً وللطير المربّة والذئب وللثعالب
وتجر مجرية لها لحمي الى أجر حواشب
سود سحالي كآن جلودهن كتاب راهب
اذ آمن اذا احتضرن فريسة مثل المذائب
ينزعن جلد المرء نز ع القين اخلاق المذاهب

وقال ساعدة بن جؤية يصف ضبعاً وقد زار قبر شخص مات (٢) :

وغودر ثاوياً وتأوتبه مذرعة أمم لها فليل
لها خفّان قد ثلّبا ورأس كراس العور شهرة نؤول
تببت الليل لا يخفى عليها حمار حيث جرّ ولا قتيل
كمشى الاقبل الساري عليها عفاء كالعباءة عفليل
فذاقت بالوتائر ثم بدّت يديها عند جانبه تهيل (٣)

وقال تأبط شرا وقد خرج غازياً ، واحاط به القوم ، وضيقوا عليه وعلى

(١) شرح أشعار الهذليين ٣١٤/١ وانظر ٤٦٤ . (٢) ساعدة بن جؤية . شرح أشعار
الهذليين ١١٤٦/٣ . (٣) مذرعة : يعني ضبعاً بذراعيها آثار . الفليل : الشعر والوبر . الشهرة
الكبيرة المستة . النؤول : ان تمشى كأنها منقلة . الأقبل : الذي في عينه قبل وهو شبه بالحول .
العفليل : الثقيل . ذاحت مرت مرا سريعاً سهلا . الوتائر : طرائق مرتفعة من الأرض

صاحبه الخناق فقال لصاحبه: اشتد فاني سأمنعك ما دام في يدي سهم ، فاشتد الرجل^(١) ولقيهم تأبط شرا ، وجعل يرميهم حتى نفذت نبله ، ثم انه اشتد فمر بصاحبه ، فلم يطق شده^(٢) ، فقتل صاحبه فيروي لنا الشاعر صورة الموت من خلال وصفه للمعركة ، وكأنه كان يستمد الشجاعة والمقاومة من صورة الضبع ، التي توحى له بالموت ، وهي تمكن انيابها وبرائنها في جسده قال^(٣) :

فرحزحت عنهم او تحبني منيتي بغبراء او عرفاء تفري الدفائنسا
كأني اراها الموت لادر درها اذا امكنت انيابها والبرائنا

ويبدو أن الخوف كان يلازمهم من الضباع ، لعبثها بحث الموتى ، ولهذا كانت وقفة الشعراء عندها طويلة ، وكان لها النصيب الأوفى من الكلام ، حتى أصبح مصير الفتى ومرجه - في اعتقادهم - لا يخرج عن ثلاثة امور ، اولها نبش الضباع لجسده ، وهي احساس عميق يتتاب تفكير هذه الفئة من الشعراء بالميتة المفزعة التي ينتهي اليها الناس قال الأعلام^(٤) :

هل ألحق الطعن والضربة الخلدباء بالمطرد المقتل
مما أقضت ومحار الفتى للضبع والشيبة والمقتل

وتنعكس صورة التمرد الكامنة في نفس الشنفرى ، على ميته التي اختارها ، فهو يفضل ان يقتل ويترك في العراء ، لا يبكي عليه شقيق ولا يرثيه صاحب ، فتأتيه عوافي السباع والطيور ، لتأكل لحمه ، وتبشر ام عاهر (كنية الضبع) بهذا الصيد ويوصي اتباعه بعدم دفنه لأن ذلك محرم عليهم ، وكأنه يريد ان يقول بأنه مستغن عنهم حياً وميتاً ، وهي صورة تحمل مرارة اليأس التي

(١) اشتد الرجل : عدا وأسرع . (٢) لم يطق شده : لم يطق نجاته . (٣) الأصمهاني . الأغاني ٢١٣/١٨ (ساسي) وانظر ، شرح أشعار الهذليين ١/٤٦٨ . (٤) الأعلام . شرح أشعار الهذليين ٣/١٢٦١ .

انتهى اليها هذا الشاعر^(١) :

ولا تقبروني ان قبري محرمٌ عليكم ولكن ابشري ام عامر
اذا احتملوا رأسي وفي الرأس اكثري وغودر عند الملتقى ثم سائري
هناك لا ارجو حياة تسرني سجيى الليالي مبسلاً بالجرائر

ومن الطبيعي ان يجد هذا المعنى قبولاً لدى الشعراء الآخرين الذين يريدون
ان يشبعوا الضباع بحث الاعداء ويتركوهم نهياً لهذه العوافي من الحيوانات
وهي في الوقت نفسه مفخرة لهم ومجال للذكر بطولاتهم ، قال عامر بن الطفيل^(٢) :

وقتلنا سراتهم جهاراً واشبعنا الضباع خصى عظاما

وقال الاعشى يذكر قيس بن مسعود بالقتلى الذين بعثت جثثهم في
الصحراء فبعثت فيها الضباع والذئاب^(٣) :

كانك لم تشهد فرايين جمّة تعيث ضباع فيهم وعواسلُ

وقال عنزة يفخر ببلائه بالحرب^(٤) :

وعمرأ وحيانا تركنا بقفرة تعودها منها الضباع الكوالحُ
يُجرّون هاماً فلقتها رماحنا تزيّل نهن اللحى والمسائح

واتخذ بعض الشعراء من فكرة الموت وعبث الضبع بحسده بعده اساساً
لمبادئ آمن بها فأخذ يحث نفسه على اغتنام متاع الدنيا قبل فواته ، ويبيح لها
لذات الحياة قال رجل من بني عامر يقال له مشعث^(٥) :

بأصر يتركني الحي يوماً رهينة دارهم وهم سراع

(١) الشنفرى . الطرائف الأدبية / ٣٦ . (٢) عامر بن الطفيل . الديوان / ١١٠ .

(٣) الاعشى . الديوان / ١٨٣ . (٤) عنزة . الديوان ٤٠٧ وانظر ديوان أبي ذؤاد / ٣٢٣ وديوان عروة / ١٧٨ وديوان بشر / ١١١ والأصمعيات / ٢٣٤ والمفضليات / ٢٢ و ٥٢ والأغاني / ١٠ / ١٠ (دار الكتب) . (٥) الأصمى . الأصمعيات / ١٦٥ .

تمتع يا مشعث ان شيئاً سقتَ به الوفاةَ هو المتاع
وجاءت جيالٌ وابو بنيتها احمُ المأقنين به خُماع
فضلاً ينشأن الرب عني وما انا وب غيرك والسباع^(١)

وكانوا يكونون عن الاعداء بالثعالب او الضباع قال عدي بن زيد^(٢) :
ألا تلك الثعالب قد توالى علي وحالفت عرجاً ضباعاً
لتمضغني العداة فمر لحمي وافرق من حذارى او اتاعا

اما الاعلم الهذلي فعندما اراد ان يهجو شخصاً هدده ووعدته بالموت
ونعته بالضبع^(٣) . وللضبع الى جانب هذه العادة عادة اخرى عرض لها الشعراء
في مجال فخرهم وبها ضرب المثل في الفساد والى ذلك يشير دريد بن الصمة
بعد غارته على غطفان^(٤) :

تجر الضباع بأوصالهم ويلقحن منهم ولم يقبروا

الثعلب : يشترك الثعلب مع غيره من الحيوانات في نبش القبور ، ولعله
بالقتلى ولهذا جاء اقترانه بهذه الحيوانات في احاديث الشعراء ، ووجدنا في
احديث الاعلم عنه صورة واضحة شأنها في ذلك شأن الضباع والذئب
والجوارح . وقد ضربوا المثل به في الدناءة والخبث والمكر ، كما ضربوا به
المثل في الروغان والميل عن الحق ، والابتعاد عن جادة الصواب . قال طرفة
لعمرؤ بن هند ويلوم اصحابه لخذلانهم اياه^(٥) :

(١) بأمر . أصل الأصغر العهد الثقيل وهذه الصيغة من صيغ القسم . المأقي : لغة في الموق وهو
طرف العين مما يلي الأنف والأحم : الأسود . الخُماع العرج . الريب : الويل والهلاك . (٢) عدي بن
زيد الديوان/ ٣٥ . (٣) انظر شرح أشعار الهذليين ١/ ٣٢٢ . (٤) الأصمغاني الأغاني
١٢/ ١٠ (دار الكتب) وحيوان الجاحظ ٥/ ١١٧ و ٤٦/ ٦ و ٤٥٠ . (٥) طرفة . الديوان/ ٢٦ .

كل خليل كنت خالته لا ترك الله له واضحة
كلهم اروغ من ثعلب ما اشبه الليلة بالبارحة
وقال دريد بن الصمة ^(١) :

ولست بثعلب ان كان كون يئس برأسه في كل حُجر
ووصف عروة قومه عند اشتداد الحرب بالثعلب في مراوغتها حتى
اذا انطفأت نارها اصبحوا كالاسود . قال ^(٢) :

ثعلب في الحرب العوان فان تبخج وتنفرج الجلي فأنهم الاسد
اما قرواش بن حوط فعندما اراد ان يعدد مخازي خصومه لم يجد وصفاً
يصفهم به الا ان يقول انهم عند المكاشفة والملافة يخبثون ويحمقون خبث
الضبع وحماقته ويراوغون الناس مراوغة الثعلب ^(٣) .

واذا ارادوا ان يصفوا الفلاة ، وانخرق الرياح فيها ، عرضوا للذكر
الثعلب والاصداء والبوم ، ليدلوا على خلوها من الانسان ومن ثم جرأتهم
في اقتحامها وقدرتهم على السير فيها ، قال الاسود بن يعفر يفخر بنفسه
وهو يقطع الفيافي المجاهيل التي لا أنيس بها الا الثعلب والبوم ^(٤) :

وسمحة المشي شلال قطعت بها أرضاً يحار بها الهادون ديموما
مهامها وخروفاً لا أنيس بها الا الضوايح والاصداء والبوما

وعندما اراد زهير ان يصف نفسه بالجرأة ، لم يجد دليلاً لذلك غير
الارض التي يسمع فيها عذيف الجن ، تصيح الثعلب في اطرافها من الخوف
قال ^(٥) :

(١) الجاحظ . الحيوان ٣٠٣/٦ و ٣٠٤ والاصمعيات ١٨٨ . (٢) عروة . الديوان ١٥٧ .
(٣) انظر حساسة أبي تمام (المرزوقي) ١٤٦٠/٣ وانظر حيوان الجاحظ ٢١٣/١ و ٢٩٠/٢
و ٢٩٥ و ٣٥٤ . (٤) المغفل . المغفليات ٢١٩/٢ . (٥) زهير . الديوان ٢٦٥ .

وبيلدة لا تُرامُ خائفة زوراء مُبيرة جوانبها
تسمع للجن عازفين بها تضح من رهبة ثعالبها
كلفتها عيرماً عذافرة ذات هباب فعماً مناكبها
اما الاعشى فقد جاء على ذكرها في حديثه عن الخرائب ، والديار
التي يهجرها اهلها ولم تعد الا ملجأ لهذه الحيوانات تعيث فيها فساداً^(١) :
يا من يرى ريمان امسى خاوياً خرباً كعابه
امسى الثعالب اهلـه بعد الدين همـو مآبـه
وكذلك فعل عدي بن زيد في حديثه عن مدينة الحضر وراثته لها^(٢) .
وكنى بها وبالضباع عن الاعداء^(٣) .

ومن خلال الصور التي استعمل الشعراء فيها هذا الحيوان نجد صورته
تقرن بالموث والخبث والروغان والفرع والدمار ، وكلها صور غير محبة
توحي بالرعب والخوف ولهذا كان حديثهم عن هذا الحيوان وغيره من
الحيوانات التي اقتصرنا على نعتها بهذه النعت قليلاً ، وقصيراً ، ولم
تصل الينا قصيدة كاملة تتعرض لوصافه وتقف عند مظاهره ، كما
شاهدنا ذلك في حديثنا عن الحيوانات الاخرى التي مرت .

الضب : اما حديث الشعراء عن الضب فقليل ، فهم يعرضون له في
بعض مواضع الهجاء كما ذكر علقمة^(٤) :

ترى الشر قد افنى دوائر وجهه كضب الكدى افنى انامله الحفسر
وكان ذكر الاظفار والبرائن يقرن بأوصاف الشعراء لهذا الحيوان ،
لأن الذي عرف به هو انه لا يحتقر الا في مكان صلب حتى لا ينهدم عليه^(٥)

(١) الأعشى . الديوان / ٢٨٩ وانظر / ٢٥١ . (٢) انظر ديوان عدي بن زيد / ٤٨ .
(٣) نفس المصدر / ٣٥ . (٤) علقمة . الديوان / ٤٤٤ . (٥) انظر حيوان الجاحظ
١٥٠ / ٤ و ١٧٢ و ٦ / ٢٩ و ٤٢ و ٥٦ و ٥٧ .

ويعمق حفرة ، ويطيل فيها ، حتى تفتى برائته ، ويتوخى به الارتفاع عن مجاري السيل وللبياه ، وعن مدق الخوافر ، لكيلا ينهار عليه ، ولذلك كانت برائته ناقصة قليلة وهذه الصورة هي التي اوحى اليهم بأغلب المعاني التي استشهدوا بها في احاديثهم قال دريد بن الصمة ^(١) :

وجدنا ابا الجبار ضباً مورشاً له في الصفاة برثنٌ ومعاول
له كُديةٌ أعيت على كل قانصٍ ولو كان منهم حارشان وحابل
ظلت اراعي الشمس لولا ملائي ترلج جلدي عنده وهو قائل ^(٢)
وقال اوس بن حجر ينعت أكل الصخور لأظفار ضب من كثرة حفرة ^(٣) :
فأشروط فيها نفسه وهو معصم والقي بأسباب له وتوكل
وقد اكلت اظفاره الصخر كلما تعايا عليه طول مرقى توصلاً
ووجد الشعراء في مكمنه الذي يجهد نفسه في حفرة ، ويحرص على اتخاذ
في المواضع المرتفعة ، صورة لرسم السيل الكبير الذي يعم الارض ويغمرها
فيضطر هذا الحيوان الى الخروج . قال امرؤ القيس يصف غيثاً ^(٤) :

وترى الضب خفيفاً ماهراً ثانياً برثنه ما ينعفر
واشار الشعراء الى عقوبه ، لأنه يأكل حسوله ولذلك قيل في المثل :
اعق من ضب ^(٥) . قال خلداس بن زهير ^(٦) :

فأن سمعت بجيش سالكا سرفسا أو بطن قوفاً خفوا الجرس واكتنموا

(١) الجاحظ . الحيوان ٦/٤٠ و ٤١ . (٢) المورث : بصيغة المفعول : من التوريش وهو التحريش والإغراء . والصفاة : الصخرة المساء وعن بالمعاول الأظفار . الحارشان الذي يحرش الضب ، وحرشه أن يحك المكان الذي هو فيه فإذا أحس الضب حبه ثعباناً فأخرج اليه ذنبه فيصايد حيثن والحابل الذي يصاد بالخبالاة . ترلج : تشقق . والقائل : الذي يسكن في بيته عند القائلة (الظهيرة) . (٣) أوس . الديوان / ٨٧ . (٤) امرؤ القيس . الديوان ١٤٥/١ وانظر ديوان طرفة / ٢٨ . (٥) انظر أمثال الميداني ٥٠٩/١ والمستقصى للزنجشري ١/٢٥٠ . (٦) الجاحظ . الحيوان ٦/٥٠ .

ثم ارجعوا فأكبوا في بيوتكم كما اكب على ذي بطنه المهرم
وجهه أكل الضب لأولاده على شدة البغض لها ، وليس ينجو منه شيء
منها الا بشغله بأكل اخوته عنه^(١) .

وضربوا المثل به في سوء الهداية ، فقالوا : أضل من ضب^(٢) . وقيل :
ان سوء هدايته حمله على حفر وجاره عند الآكام او الصخور او الاشجار
ليكون متى تباعد من جحره لطلب الطعام ، او لبعض الخوف فالتفت ورآه
احسن الهداية الى جحره^(٣) ، وقيل فيه امثال كثيرة^(٤) .

وذكر الجاحظ من اعاجيب هذا الحيوان اموراً غريبة ، منها طول
عمره ، وانه لا يموت حتف افقه ، وانه يعيش حتى وان قطع من ثلث
جسمه^(٥) ، واذا هرم تنسم النسيم فاكتفى به^(٦) ، وانه لا يحتاج الى شرب
الماء ، وتقول العرب في ذلك اروي من ضب^(٧) . واستطاب بعض الناس
لحمه^(٨) .

الأسد : من الحيوانات التي تحدث عنها الشعراء كثيراً الأسد^(٩) ، وكان
حديثهم عنه في مجالات عدة . وحفلت مصادر الادب والتاريخ والجغرافية
باسماء كثير من المناطق التي كانت تنتشر فيها الأسود في جزيرة العرب ،
وأضيفت الى الأسد فقالوا : أسد خفان وأسد الشرى من بلاد لحم وأسد
عثر وأسد حاملة وأسد الملاحيط وأسد المقيضا وأسد الكطا وأسد تعشر

(١) الجاحظ . الحيوان/ ١٩٧ وانظر ١٧٢/٤ و ٣٢٨/٥ و ٤٩/٦ و ٥٢ و ٥٨ و ٦٨/٧ .
(٢) الجاحظ . الحيوان/ ١٣٥/٦ . (٣) الجاحظ . الحيوان/ ٤٢/٦ . (٤) انظر حيوان
الجاحظ ١٣٦/٦-١٣٧ . (٥) انظر حيوان الجاحظ ٥٤/٦ و ١١٦ و ١٨٤/٧ . (٦) الجاحظ .
الحيوان/ ١٢٨/٤ و ١٧٢ . (٧) الجاحظ . الحيوان/ ١٢٨ و ٢٨٢ . (٨) الجاحظ .
الحيوان/ ٤٤/٤ و ٩٦ و ٢٥٣/٥ و ٧٧/٦ و ١٤٣ و ٣٨٥ . (٩) لم يصف أحد من الشعراء
الجاهليين الأسد وصف أبي زيد الطائي ولكن السني حملني على عدم الاستشهاد بشعره هو أن
الشاعر محضرم ، ولذلك فهو يخرج عن نطاق هذه الرسالة المقصورة على الشعر الجاهلي وحده .

وأسد ليه وأسد حلية وأسد السحول وأسد تباله وأسد ترج وبيشة وأسد
عتود^(١) .

وعلى الرغم من هذه الكثرة الا انني لم اعثر على نص يذكر الأسد
او يتحدث عن رؤيا حقيقية له ، الا ابيات عروة بن الورد التي وصفه فيها
فكان وصفاً مباشراً ومغابراً لكل الأوصاف والنعوت التي وجدناها عند غيره
من الشعراء والتي كانت تذكر في اغلب الأحيان في حالات تشبيه الفتيان
او الفرسان الشجعان او في احاديث الشعراء عن مفاخرهم ، ومفاخر قبائلهم ،
وانتصاراتها أو في ذكر مناقبهم ، ومناقب ممدوحهم ، او في مراثيهم التي
اطلقوا فيها على قتلاهم وموتاهم نعوت الأسد ، قال عروة^(٢) :

تبغاني الاعداء إسا الى دم واما عراض الساعدين مصدرا
يظل الالباء ساقطاً فوق منته له العدة الأولى اذا القرن اصحرا
كأن خوات الرعد زرُّ زثيره من اللاء يسكن الغريف بعثراً

وكان الشعراء من خلال صورهم التي يرسمونها للأسد ، يشبهون انفسهم
او من يريدون مدحه من اعزة قومهم بالليث او الضيغم أو ابي الأشبال او
غير ذلك وتكاد صورة تشبيه الفتيان او الفرسان او الشجعان بالاسد تكون
من اكثر الصور استعمالاً في قصائد الشعراء لأنهم كانوا يتفنون من خلالها
الى الفخر والشجاعة والاشادة بالماضي المتمثل في صورة هؤلاء ، فأبو داود
يفخر بقومه يقول^(٣) :

وشباب كأنهم اسدٌ غيل خالطت فَرَطَ حدهم احلام
وكذلك يفعل زهير في حديثه عن فتيان قومه^(٤) :

(١) انظر صفة جزيرة العرب للهمداني (لیدن/ ١٨٨٤) / ١٢٧ والعمدة ٢/ ٢٣٠ و (بيشة) و (ترج)
و (حلية) و (خفان) و (خفية) و (عتود) في معجم ما استعجم للبكري ومعجم البلدان لياقوت
(٢) عروة بن الورد . الديوان ٥٥-٥٦ . (٣) أبو داود . الديوان ٣٣٩ . (٤) زهير . الديوان ١٠٣ .

عليها اسود ضاربات لبوسهم سوايغ بيض لا يُخرقها النبيل
ومثلهما يسلك الشعراء الآخرون^(١) وغالباً ما يأتون على ذكرها في بيان
المفاخرة في المعركة والتباهي في البطولة وترك الأعداء جزر السباع . قال
عنتر^(٢) :

فركته جزر السباع ينشئه ما بين قلة رأسه والمعصم
اما في المديح فحاول الشعراء اسباغ صفة الأسد المخدر او الليث او
الأغلب على ممدوحهم ليضيفوا عليهم طابع القوة والهيبة . قال المسيب بن
علس يمدح القعقاع^(٣) :

ولأنت اشجع في الاعادي كلها من مخير لث معيد وقاع
وقال بشر يمدح عمرو بن ام أبياس^(٤) :
ولأنت احيا من فتاة غالها حذر وأشجع من هموس اغلب
وكذلك فعلوا في الرثاء فكان المراثي اسداً بين اشبال أوليفاً تساقط عليه
البردي قال أوس يرثي فضال بن كلدة^(٥) :

يوماً بأجود منه حين تسأله ولا مغب بترح بين اشبال
ليث عليه من البردي هبرية كالمرزبان عيال بأصال

(١) انظر ديوان عبيد/ ٨٢ و ١٣١ وديوان امرئ القيس / ١١٩ وديوان طرفة/ ٧٧ وديوان
الشتري (الطرائف الأدبية) / ٣٤ وديوان النابغة/ ٢٠١ وديوان عامر بن الطفيل/ ١٢٠ وديوان
قيس بن الخطيم/ ١٦ و ٣٩ و ٣٥ و ٤٩ و ٥٠ و ٦٣ والأصمعيات / ٧٩ والمفضليات / ٢٥٧٧ / ١٢ /
و ٨٥ و ٢١ وحماسة أبي تمام(المرزوقي) / ١ / ٣٦ و ١٧١ و ٣٦ و ٤ / ١٦٣٤ وحماسة بن الشجري/ ١٤ .
(٢) عنتر . الديوان / ٣٧٧ وانظر ديوان عبيد / ١٣٨ وديوان عامر بن الطفيل / ١٦ .
(٣) المفضل . المفضليات / ٦١ / ١ . (٤) بشر . الديوان / ٣٨ وانظر ديوان زهير/ ٥٤
و ٩٤ و ٢٣٢ وديوان طرفة/ ١٣٧ وديوان النابغة/ ١٥٤ و ١٧٦ وديوان أوس/ ٦ وديوان
الأعشى / ٦٧ و ١٠٧ وشرح أشعار الهذليين / ١ / ٢٧٣ والأغاني / ١٠ / ٣٤ (دار الكتب) وحماسة
أبي تمام / ٢ / ٨٣٢ . (٥) أوس الديوان/ ١٠٥ .

وقال بشر يرثي اخاه سميراً^(١) :

ارمحي امضى على الهول من ليث هموس السرى ابي اشبال
وجاء ذكر الاسد مجازاً في اقوال الشعراء فعندما اراد زهير ان يصف
مملوحه بالشجاعة نعته بأسد شاكي السلاح ، غليظ اللحم ، لم تقلم اظفاره
فقال^(٢) :

لدى اسد شاكي السلاح مقذف له لبد اظفاره لم تقلم^(٣)
وعندما اراد الاعشى ان يذم الحارث بن وعله ويذم بخله ليتخذ منه
وسيلة لمقارنته بكرم هوذة ومن ضيافته ، وصفه بأنه اذا رأى ضيفاً في بيته فكأنه
يرى اسداً او ثعباناً ، وهي صورة غريبة قال^(٤) :

اذا زاره يوماً صديق كأنما يرى اسداً في بيته واساودا
وشبه الملقب العبدى من يغتب الناس ويتحدث عنهم بما يكرهون بالسبع
الذي ينهش لحمهم فقال^(٥) :

لا تراني راتعاً في مجلس في لحوم الناس كالسبع الضرم

النمر : ووقف بعض الشعراء عند النمر ، ونعتوا به من تخلق بأخلاقه ،
لأن فيه حدة فقس ، وتجهم وجه ، وشدة غيظ ، ولهذا قالوا في الرجل اذا
اشتد غضبه ، وكثر غيظه على عدوه ، لبس جلد النمر ، والى ذلك اشار
عوف بن عطية حين فخر بشدة بأس قومه في الحروب حين قال^(٦) :

(١) بشر . الديوان/ ١٧٢ . (٢) زهير . الديوان/ ٢٣ . (٣) شاكي السلاح : أي
سلاحه ذو شوكة ، يريد شائك . والمقذف : الغليظ اللحم . وأظفاره لم تقلم : أي هو تام السلاح
حديده . (٤) الاعشى . الديوان/ ٦٥ . (٥) الملقب . الديوان/ ٤٦ . (٦) المفضل .
المفضليات ١/ ١٢٨ .

ونلبس للعدو جلود اسد اذا نلقاهم وجلود نمـر
وقال ابو جندب الهذلي^(١) :

وتقطع بيننا رحم اذا ما لبسنا للكـمأة جلود نمـر
وشبه قيس بن الخطيم رجال قبيلته بالنمور^(٢) ، وكذلك خدّاش بن زهير^(٣)
وزعم البعض مرافقة النمـر ، وانه كان يطاعمه ويؤاكله^(٤) .

اما الشنـفري فقد وجد في النمـر الاملـس اهلاً له ، يستعيض به عن أهله
من البشر ، لأنه يجد عنده الأمن والطمأنينة . قال^(٥) :

ولي دونكم اهلون سيد عملـس وارقط زهلـول وعرفاء جيـال

هذه بعض الصور التي عرض لها الشعراء هـذين الحيوانين اللذين اقترن
ذكرهما في احاديث الشعراء وتلازماً في اوصافهم ، وكما يبدو من النماذج
ان الاسد اكثر ذكراً في الشعر الجاهلي ولا بد ان تدل هذه الكثرة على كثرة
انتشاره في الجزيرة ، وكثرة الاماكن التي كان يعيش فيها فأصبحت مأسد .
ولكن الذي يبدو لنا من هذه الصور انها لا تصف لنا اعضاء هذا الحيوان
ولا تتعرض للذكر جزئياتها ولهذا اقتصر الشعراء على التشبيه به ، والوصف
بشجاعته وشدته حتى ذكر انهم كانوا يوقدون من اجله ناراً يسمونها نار
التحويل لأن الأسد — كما يعتقدون — اذا عاين النار خدق اليها ، وتأملها
وهذا ما يشغله عن السابـلة .

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٣٦٩ . (٢) انظر ديوان قيس بن الخطيم . (٣) انظر حيوان
الجاحظ ٢/٢٥٢ . . (٤) انظر الأغاني ١٩/٧٨ . (٥) انظر لامية الشنـفري في مختار
الشعر الجاهلي ٢/٥٩٨ .

الطيور

تتمثل الصور التي رسمها شعراء للعرب للطيور في كثير من جوانب الأدب العربي ، لأن بعضها ألهم الشعراء مشاعر القوة والسيطرة ، وأثار بعضها الآخر فيهم الحنين والعطف ، وحرك البعض الثالث فيهم هواجس التشاؤم والقلق فعبروا عن هذه المعاني بما وجدوه في بيئتهم .

والحق ان هذه الصلة المثينة التي بين الشعراء وهذه الحيوانات تدل على أكثر من مجرد مشاعر واحاسيس وعواطف ، لأنهم استخدموها في مجالات حياتهم ، ووصفوها في المواضع التي وجدوها مناسبة لها ، مستفيدين من بعض مظاهرها التي عرفت بها ، لإبراز صورهم التي أرادوا التعبير عنها ، ولا بد لي من ان اميز بين اقسامها وانواعها ، لأنها كثيرة الانواع ، مختلفة الطباع والعادات ، لكل فصيلة طابع يميزها ، واسلوب من اساليب كسب الرزق الذي تقتات عليه ، وقد وجدت ان تقسيمها الى فصيلتين يمكنني من وضع حدود مميزة لها ، فأقسمت التقسيم على الطيور الجارحة والطيور غير الجوارح .

الطيور الجارحة

العقاب : تعد العقاب من جوارح الطير ، والمعمرة منها ، ان شاءت كانت فوق كل شيء ، وان شاءت تقرب كل شيء ، وريشها الذي عليها هو فروها في الشتاء ، وخيشها^(١) في الصيف^(٢) ، وهي اسمع الحيوانات ، لذلك قالوا في المثل ، اسمع من عقاب^(٣) . وليس بعد النسر طائر اعظم منها ، وهي تستعمل كفها اليمنى اذا أصعدت بالارانب والثعالب في الهواء واذا اضربت بمخالبها في بطون الظباء والذئاب ، فاذا اشتكت كبدها احست بذلك ، فلا تزال اذا اصطادت شيئاً تأكل من كبده حتى تبرأ . وان لم تعان فريسة ، فرمما جلست^(٤) على الحمار الوحشي ، فتنقض عليه انقضاض الصخرة فتقعد بدابرتها^(٥) ما بين عجب ذنبه الى منسجه^(٦) ، وهذا ما حمل الطيور على الخوف منها ، فاذا ابصرتها في اوكارها ، بلغها حنقها ، فتبیس قلوبها الرطبة ، لكثرة ما تصيد منها ، وهذا ما حمل الشعراء على تضمين هذا

(١) الخيش : ثياب رقاق النسيج غلاظ الخيوط . (٢) الجواظ . الحيوان ٣٧/٧ . (٣) الجواظ . الحيوان ٥٣٥/٥ و ٤٣٩/٦ . (٤) جل بيمره تجلية : أغمض عينيه ثم فتحها ليكون أبصر له . (٥) الدابة : الأصبع التي من وراء رجله وبها يضرب الصيد . (٦) المنسج : ما شخص من فروع الكتفين إلى أصل العنق وانظر حيوان الجواظ ٥١٢/٥ .

المعنى في اشعارهم قال امرؤ القيس (١) :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي
والعقاب تتبع العساكر طمعاً في لحوم القتلى (٢) وقد يعترها من الثقل عند
شبعها من لحم الصيد ما يمنعها عن الطيران (٣) . اما طريقة الصيد التي تسلكها
فلا تعاني فيها جهداً ولا تراوغ صيداً لأنها لا تزال تكون على المرقب العالي .
فاذا اصطاد بعض سباع الطير شيئاً انقضت عليه ، فإذا ابصرها ذلك الطير
لم يكن همه إلا الهرب وترك صيده في يدها . ولكنها اذا جاعت فلم تجد
كافياً لم يمتنع عليها الذئب فما دونه (٤) .

وشأن الشعراء في اوصافهم لها شأنهم في اوصاف غيرها من الحيوانات
فهم يذكرونها في اغلب اوصافهم من خلال حديثهم عن خيولهم ، ثم
ينتقلون الى وصفها وتصوير ما يريدون تصويره منها ، ملوئين الصورة
بالوانهم الخاصة ، ومميزين قدرة هذا الحيوان وقوته وشدة بطشه : مطابقين
هذه الصورة مع صورتها المرسومة في اذهانهم . قال عبيد (٥) :

كَأَنَّهَا لِقَوَّةٌ طَلُوبٌ	تَحْنُ فِي وَكْرِهَا الْقُلُوبُ
بَاتَتْ عَلَى لَرَمٍ رَابِثَةٌ	كَأَنَّهَا شَيْخَةٌ رَقُوبٌ
فَأَصْبَحَتْ فِي غَدَاةٍ قِصْرَةٌ	يَسْقُطُ عَنْ رِيشِهَا الضَّرِبُ
فَأَبْصَرَتْ ثَعْلَبًا مِنْ سَاعَةٍ	وَدُونَهُ سَبَسَبٌ جَدِيدٌ
فَنَفَضَتْ رِيشَهَا وَانْتَفَضَتْ	وَهِيَ مِنْ نَهْضَةٍ قَرِيبٍ
فَاشْتَالَ وَارْتَاعَ مِنْ حَسِيْسَهَا	وَفَعَلَهُ يَفْعَلُ الْمَذْذُوبُ
فَنَهَضَتْ نَحْوَهُ حَثِيثَةٌ	وَحَرَدَتْ حَرْدَةً تَسِيْبُ

(١) امرؤ القيس . الديوان / ٣٨ . (٢) الجاحظ . الحيوان ٦ / ٣٢٢ . (٣) الجاحظ .
الحيوان ٦ / ٣٣٨ . (٤) الجاحظ . الحيوان ٥ / ٤٠٧ وانظره / ٥٥٠ .
(٥) عبيد . الديوان / ١٨ - ٢٠ .

والعينُ حملاتها مقلوب	فدبَّ من رأبها ديباً
والصيدُ من تحتها مكروب	فأدركتَه فطرحتهُ
فكدحتُ وجههُ الجبُوبُ	فرتحتَه ووضعتَه
فأرسلته وهو مكروب	فعاودته فرفعتَه
لا بدَّ حيزومه منقوب	يَضغو ومِخلَبُها في دَقَه

وقال امرؤ القيس ينعث فرسه^(١) :

صقعاء لاح لها بالسرحة الذيب	كانتها حين فاض الماء واحتفكت
ودونَ موقعها منه شناخيبُ	فأبصرت شخصه من رأس مرقبة
ان الشقاء على الأشقين مصبوبُ	صبت عليه وما تنصب من أمم
وخانتها وذم منها وتكريب	كالدلو بئت عراها وهي مثقلة
ولا كهذا الذي في الأرض مطلوب	ويلمسها من هواء الجوّ طالبة
ما في اجتهد عن الإسراع تغيب	كالبرق والريح شدّا منهما عجبا
فانسلّ من تحتها والدفع منقوب	فأدركتَه فثالثه مخالبيها
منها ومنه على العقب الشائب	يلوذ بالصخر منها بعد ما فترت
وباللسان وبالشدقين تريبُ	ثم استغاث بدخل وهي تعفره
ولا تحرز الا وهو مكروب	ما أخطأته المنايا قيس أنملة
ويرقب العيش ان العيش محبوب	فظل منججراً منها يراقبها

وفي الصورتين المتقدمتين نجد التشابه الواضح والتقارب البين في الملامح وحق في روى القصيدة وبعض كلماتها التي ينتهي إليها هذا الروى . فالشاعران يتحدثان عن الفرس ثم ينتقلان الى تشبيهها بالعقاب التي رأت ثعلباً عند عبيد وذئباً عند امرئ القيس فانقضت على فريستها تعمل فيها ما تعمل وتنشب فيها اظفارها ثم تتمكن هذه الفريسة من الهرب بعد ان تركت مغالبها ثقوباً في جسد الفريسة .

(١) امرؤ القيس : الديوان / ٢٢٦ - ٢٢٩ .

والصورتان تنتهيان هذه النهاية . ولم نجد أثراً للحديث عن الفرس بعد ذلك ، وكان الشاعر نسي الحديث الذي بدأ به او هكذا كانت القاعدة المتبعة في الوصف على اقل تقدير ، وبالتالي فان كلا النموذجين يختمان القصيدة . ومثل هذه الملاحظات التي تتشابه بها القصيدتان كثيرة ، يمكن استخلاصها منهما . والأرجح انهما كانا يعيشان معاً في ديار بني اسد . وانهما كانا يسلكان منهجاً واحداً في النظم لخضوعهما لعوامل واحدة . ولدريد بن الصمة ستة أبيات يسلك فيها مسلك عبيد الا ان النهاية تختلف لأن العقاب تقتل الثعلب^(١) ثم يأتي الشعراء الآخرون فيسلكون هذا الطريق ولكن بصورة موجزة فيشبهون خيولهم بالعقاب ، محاولين اضافة بعض الألوان على صورهم لتبدو مغايرة لما هو معهود عند غيرهم وكل منهم يحاول ان يثبت مهارته وقدرته . فسلمة بن الخرشب يشبه فرسه وهي تطلب الصيد بالعقاب في قصدها الارنب . يقول^(٢) :

ونمكننا اذا نحن اقتنصنا من الشحاج اسعله الجميم
هوى عقاب عردة اشأزتها بندي الضمران عكرشة دروم^(٣)

ويصف سلمة فرس خصومه الذين هربوا فيشبهها بالعقاب التي في جناحها استرخاء لأن ذلك اسرع لطيرانها ، ليعظم شأنها ، فيكون ذلك اعذر لخياله اذا لم تلحقها ، مانحاً الصورة بعض الدوافع لهذه السرعة . فالعقاب اصابتها المطر وهذا داع آخر من دواعي السرعة لأنها في هذه الحالة تبذل أقصى ما تستطيع لتبادر الى وكرها . يقول^(٤) :

فلوانها تجري على الأرض أدركت ولكنّها تهفُو بتمثال طائر
خُدّارية فتخاء التّق ريشها سحابة يوم ذي اهاضيب ماطر

(١) الجاحظ . الحيوان ٣٨٨/٦ (٢) الفضل . المفضليات ٣٨/١ . (٣) الشحاج : الحمار الوحشي يشجع بصوته لا يفصح به . اسعله : انشطه وصيره كالسعاة . عردة : اسم هضبة ، نسب العقاب اليها . اشأزتها : اقلقتها واستخفتها (٤) الفضل . المفضليات ٣٥/١ وانظر ديوان بشر/٢٣ و٤٧ و١١٠

ويشبه الحارث بن وعله فراره من المعركة بالعقاب التي لبد ريشها المطر
العظيم قال^(١) :

نَجَوْتُ نَجَاةً لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ كَأَنِّي عِقَابٌ عِنْدَ تَيْمَنٍ كَاسِرُ
خُدَّارِيَّةٍ سَفَعَاءُ لِبَدِّ رِيَشِهَا مِنْ الطَّلِّ يَوْمٌ ذُو آهَاضِيبٍ مَاطِرُ
ويستعمل لفظ العقاب بمعنى الراية . ويقرنون ذلك بظل الطائر الذي
يتقلب في الجو قال عنتره^(٢) :

كَنَائِبُ تَرْجِي فَوْقَ كُلِّ كَتِيبَةٍ لَوَاءٌ كَظَلِّ الطَّائِرِ الْمُتَقَلِّبِ
وقال عبيد يصف جيش قومه^(٣) :

بِمَعْضَلٍ لَجِبَ كَانَ عِقَابِيهِ فِي رَأْسِ خُرُصٍ طَائِرٌ يَتَقَلِّبُ
وشبهت الكتيبة بالعقبان التي تحفّق اجنحتها^(٤) وكذلك شبهوا بها الفرسان^(٥)
ويقال للعقاب صومعة لأنها ابدأ مرتفعة على أشرف مكان تقدر عليه ولا
تراها ابدأ الا منتصبة ولا تكاد تراوغ صيداً ولا تزال على مرقب عال فاذا
رأت بعض سباع الطير صاد شيئاً انقضت عليه فحين يبصرها يهرب ويغلي
ها الصيد فان جاعت لم يمتنع عليها الذئب^(٦) ولهذا كان مسكنها مضرباً للمثل
في العلو والاشراف قال امرؤ القيس^(٧) :

وَمَرْقَبٌ تَسْكُنُ الْعُقْبَانُ قَلْتَهُ أَشْرَفْتَهُ مَسْفِرًا وَالنَّفْسُ مَهْتَابَهُ
عَمْدًا لَا رَقَبَ مَا بِالْجَوِّ مِنْ نَعَمٍ فَنَظَرُ رَائِحًا مِنْهُ وَعَزَابُهُ
وكان مدعاة للفخر ان يترك الفرسان جثث اعدائهم في ميدان المعركة

(١) المفضل . المفضليات ١٦٣/١ (٢) عنتره . الديوان ٣٩٨ . (٣) عبيد . الديوان
٦/ وانظر ديوان الاعشى ٢٥٩ و ٢٦١ . (٤) انظر ديوان المثقب ٢٤/ (٥) انظر
ديوان الطفيل ٤ . (٦) كشاجم . المصايد والمطارد ٩٦ - ٩٧ وانظر ابيات امرؤ القيس
في ديوانه ٢٢٦ (٧) امرؤ القيس . الديوان ٣٤٦

غذاء تغتذي عليه الوحوش وتحمل حوله الطير وتعكف عليه السباع قال
طرفة^(١) :

تذر الابطال صرعى بينها تعكف العقبان فيها والرخم
اما معتقدهم في العقاب فالظاهر انهم كانوا يتشامون منها ولكن طرفه
عندما رآها لم يتشام منها لانها - كما يعتقد - لا تستطيع ان تمنع الرزق
عن انسان يطلبه ولن يكون التشاؤم سبباً للموت^(٢) واكد الشعراء لونها في
حديثهم عنها .

النسر : يعد النسر من سباع الطير^(٣) التي اشار اليها الشعراء كثيراً وليس
من جوارحها ، فهو لا يصيد الا في الندر ، ولا محالب له بل له اظفار ولا
يقوى على جمع اظفاره وحمل فريسته كما تفعل العقاب بمخالبها^(٤) وليس
له سلاح سوى مناقيره واطفاره . وانما يقوى بقوة بدنه^(٥) . وألحق دريد بن
الصمة النسر بأحرار الطير وكرامها فقال^(٦) :

فاني على رغم العَدُول لنازل يحيث التقى عيط وبيض بني بدر
ايا حكم السوء لا تهج واضطجع فهل انت ان هاجيت الا من الحُصِر
وهل انت الا بيضة مات فرخها ثوت في سلوخ الطير في بلد قفر
حوأها بغاث : شر طير علمتها وسلاء ليست من عقاب ولا نسر
وتكاد تكون صورة تعقبه للجيش وتتبعه للعساكر بانتظار القتلى ليقع
عليهم من ابرز هذه الاشارات . واعتقد البعض ان الجيش الذي لم تحم
عليه السور لا يدخل معركة ولا يشترك في قتال . على ان هذا التتبع لم يقتصر
على النسر وحده وانما يشاركه العقبان والرخم . وغير ذلك من الجوارح التي

(١) طرفة . الديوان/ ١٣٨ . (٢) انظر ديوان طرفة/ ١٤ (٣) الجاحظ .
الحيوان/ ٢٩١/ ٢٣١ (٤) انظر حيوان الجاحظ ٣٣٤/ ٦ ومبجم الملووف/ ٢٦٠
(٥) الجاحظ . الحيوان/ ٣٣٤ و ٤٠٢ (٦) الجاحظ . الحيوان/ ٤٠٨

اعتادت على مثل هذا الرزق .

وتعد ابيات النابغة التي مدح فيها عمرو بن الحارث الغساني ووصف جيشه من اكثر الابيات شيوعاً في المعنى الذي ذكرناه . لأنه فصل الصورة وكشف عن جوانبها كشفاً دقيقاً . فالنسور تسير خلف جيش الممدوح ، موقنة بأنها لا بد ان تجد زادها من اعدائهم وانها على وشك الوقوع على ما تريد من هذا الزاد (١) :

إذا ما غزوا في الجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب
يصاحبهم حتى يُغرّن مغارهم من الضاريات بالدمار الدواب
تراهن خلف القوم خُزراً عيونها جلّوس الشيوخ في ثياب المرائب
جوانح قد ايقنّ أن قبيلةً اذا ما التقى الجمعان اول غالب
لهن عليهم عادة قد عرفنها اذا عُرّضَ الخطي فوق الكواكب

وذكر وقوع الذئاب وغيرها والنسور وما سواها من الطير على القتلى معنى متداول ومعروف . عرفه العرب وذكره في اشعارهم وكانوا يطلقون على النسور عافيات الطير ، قال النابغة يصف وقعة عمرو بن الحارث الأصغر الغساني ببني مرة بن عوف (٢) :

ترى عافيات الطير قد ونّقت لها بشبع من السخل العتاق الأكائل
وقال عنترة ينعت بطولته وبلاءه في الحرب (٣) :

و قرن قد تركت لدى مكبرٍ عليه سيائب كالارجوان
تركت الطير عاكفة عليه كما تردى الى العُرس البواني
ولا تقترّب هذه الحيوانات من القتلى حتى تتوقف اعضاؤهم كلها عن الحركة قال عنترة (٤) :

(١) النابغة . الديوان/ ١٦٠ (٢) النابغة . الديوان/ ٢١١ (٣) عنترة/ ٤٠٥ وانظر المفصليات/ ٢٦١ والاصمعيات/ ١٧٤ وديوان عامر بن الطفيل/ ١٦ (٤) عنترة . الديوان/ ٤٠٥

وَيَمْنَعُهُنَّ أَنْ يَأْكُلْنَ مِنْهُ حَيَاةُ يَدَيْهِ وَرَجُلُ تَرْكُضَانٍ
والنسر طير ثقیل عظیم ، شره رغب نهم ، فإذا سقط على الجيفة وتملأ
لم يستطع الطيران حتى يشب وثبات ثم يدور حول مسقطه مراراً ويسقط
في ذلك ، فلا يزال يرفع نفسه طبقة طبقة في الهواء حتى يدخل تحته الريح
فكل من صادفه وقد بطن وتملأ ضربه ان شاء بعضا وان شاء بجحر ، حتى
ربما اصطاده الضعيف من الناس^(١) . ويوصف النسر بشدة الارتفاع حتى الحقوه
بالأنوق قال عدي بن زيد^(٢) :

فوق علياء ما يُرام ذُرَاهَا يَلْغُبُ النسرُ فوقها والأنوقُ
وكان الشعراء يؤكدون عكوفها على القتلى كما مر^(٣) ووجدوا في الضباع
رفيقاً للنسر تشاركه في هذه الجثث وتتقاسم معه هذه الغنائم قال عبد المسيح
ابن عسلة يمدح قومه ويفخر بانتصارهم^(٤) :

غدونا اليهم والسيوف عصيْنَا بأيماننا نَقَلِي بِهِنَّ الْجماجِما
لعمرى لأشبعنا ضباعَ عَنِيزَةٍ إلى الحول منها والنسور القشاعا
وقال بشر بن أبي خازم يهجو اوس بن حارثة ويعدد مفاخر قومه^(٥) :

فلو عايتنا وبني كِلاَب سمعت لنا بعقوتهم زُمِيرا
وكم من جمع قوم قد تركنا ضباعَ الجو فيهم والنسورا
ولم تقتصر النسور في افتراسها على الرجال وحدهم وانما تأتي على
البادن من الدواب فتأكل لحمها^(٦) . وضربوا المثل في طول العمر بالنسور
واكثر ذلك قالوا في لبد^(٧) .

(١) الجاحظ . الحيوان ٣٣٣/٦ (٢) عدي بن زيد . الديوان ٧٩ (٣) انظر ديوان
امرى القيس ٢٠٠ (٤) المفضل . المفضليات ١٠٤/٢ (٥) بشر . الديوان ٩٣ وانظر
ديوان عنترة ٣٨٠ والاغانى ٤٠/١٠ (دار الكتب) (٦) انظر ديوان امرى القيس ٩٣
(٧) انظر حيوان الجاحظ ٤٢٣/٣ و ٥٣٢ و ١٥٧/٤ و ٣٢٥/٦ و ٣٣٣ و ٥١/٧ و ١٨٤ =

قال النابغة^(١) :

أمتت خلاء وامسى اهلهما احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لُبْد
فضربه مثلاً في طول السلامة ، وقال طرفة يصف شخصاً تمنى خلود
العمر^(٢) :

الم ترَ لقمان بن عادٍ تتابعت عليه النور ثم غابت كواكبه
وقال ليبيد^(٣) :

ولقد جرى لبْد فأدرك جَرِيَهُ رَيَّبُ الزمان وكان غيرُ مُثَقِّل
لما رأى لبسَد النور تطايرت رفع القوادم كالفقير الاعزل
من تحته لقمان يرجو نهضة ولقد رأى لقمان ان لا يأتي

وشبهوا صبياح الخيل بصباح النسر^(٤) وارتبط سنان الرمح في حدثه
بمقار النسر في اذهانهم وانتفعوا من ريشه لاستعماله في سهامهم . ولم اجد
مجالات اخرى استعملوا فيها هذا الحيوان بالكثرة التي تستحق الإشارة^(٥) .

الصقور : واما الصقر فهو النوع الثالث من الجوارح ، وعده الجاحظ
من جوارح الملوكة ، وهو من الحيوان الذي يدرب فيستجيب^(٦) . وتسمي
العرب كل طائر يصيد صقراً خلا النسر والعقاب وتسميه الأكدر والأجدل :

= وترتبط هذه الحكاية بمعتقد الجاهليين في حكاية لقمان بن عاد وهو غير لقمان الحكيم
الذي ذكر في القرآن الكريم ، والذي كان على عهد داود عليه السلام ، ولقمان هذا من قوم
عاد وقد طال عمره حتى بلغ سبعة تسور كلها هلك نسر خلف يمه نسر وكان آخر هذه التسور
نسرا يسمى لبدا ، وانظر قصته وما قيل فيه من الشعر في كتاب التيجان في ملوك حمير/ ٧٥
وما بعدها و ٣٥٦ - ٣٦٧ (١) النابغة . الديوان/ ١٤٩ (٢) طرفة . الديوان/ ١٦٤
(٣) ليبيد . الديوان/ ٢٧٤ (٤) شرح اشعار المهديين ١١٣٦/ ٣ وحماسة ابي تمام
(المرزوقي) ٧٧٤/ ٢ (٥) انظر ديوان الشنفرى في الطرائف/ ٣٤ والمفضليات/ ٦٩ .
(٦) الجاحظ . الحيوان/ ٤٧٨/ ٦

ولهذا كثر تشبيه الفرسان به لأنهم يصطادون خصومهم قال المتنخل يشكري
ينعت فوارس قومه^(١) :

وعلى الجياد المضمرا ت فوارس" مثل الصقور
وقال عنزة يصف انقضاضه على اعدائه^(٢) :

فعليه اقتحم الهياج تقحماً فيها وانقض انقضاض الأجلد
ووجد الشعراء في الاجدل صورة موفقة في تشبيه خيولهم وهي تكرر
على الخصوم وتبوي على الفارين منهم قال عامر بن الطفيل يشبه سرعة فرس
عنزة بسرعة انقضاض النسر^(٣) :

ونجا بعنزة الأغر من الردى يهوي على عجل هوي الأجلد
وشبه المثقب العبدى ناقتة بالصقر فقال^(٤) :

كالأجلد الطالب رهو القطا مستشطاً في العنق الأصيد
يجمع في الوكر وزيماً كما يجمع ذو الوفضة في المزود^(٥)

اما استعماله في الصيد وإشارة الشعراء لذلك فسوف نعرض له في حديثنا
عن الصيد . وتعد الصورة التي قدمها زهير من القصائد الطوال التي عرضت
لذكر الصقر ومطاردته لقطة كانت آمنة مطمئنة ولكنها تتمكن من النجاة .
وفي هذه الصورة يعرض زهير لبعض أوصاف الصقر^(٦) .

الرخم والخباري : الرخم والنسور والعقبان — كما اسلفنا — تتبع
الجحوش لتوقع القتال وما يكون لها من الجيف وتبغ أيضاً الجحوش والحجاج

(١) الاصمعي . الاصمعيات/ ٥٤ (٢) عنزة . الديوان / ٣٩٢ وانظر المفضليات ٣٩/٢
وشرح اشعار المذللين ١٠٧٤/٣ (٣) عامر بن الطفيل . الديوان / ٩٣ وانظر ديوان
الاعشى ٢١ والاصمعيات/ ١٥٨ والمفضليات ٥٦/٢ (٤) المثقب العبدى . الديوان / ١٤
(٥) الرهو : السير السهل . الصيد : المرتفع . الوزيم : قطع اللحم . الوفضة : الكثافة للنبيل
مثل الجعبة للشباب . (٦) زهير . الديوان/ ١٧١ وما بعدها .

لما يسقط من كسير الدواب^(١) وتبعها ايضاً في الازمنة التي تكون فيها الانعام والحجور حوامل ، لما تؤمل من الاجهاض والاختلاج^(٢) وقد اشار النابغة الى ذلك في بائيته^(٣) وكذلك اشار زهير في قوله^(٤) :

قد عوليت فهي مرفوع جواشنها . على قوائم عوج لحمها زيسم
تنبذ افلاءها في كل منزلة تنقر اعينها العقبان والسرخم
فهي تبلى الاعناق يتبعها خلك الاعنة في اشدائها ضخم
وقال طرفه يصف فرسان قومه ، وهم يقتلون الابطال من الاعداء ،
ويتركون جثثهم في ميدان المعركة غذاء للوحوش^(٥) :

تذر الابطال صرعى بينها . تعكف العقبان فيها والسرخم
وقال دريد بعد غاراته على بني ثعلب ، مخاطباً عياضاً الثعلب بعد افلاته
وهو جريح^(٦) :

فان تشج يدمي عارضاك فاننا تركنا بريك للضبايع وللرخم
والرخم لا ترضى من الجبال إلا بالوحشي منها ، ومن البعيد الا في
اسحقها^(٧) . وابعدها عن مواضع اعدائها ثم من الجبال الا في رؤوس هضابها ،
ثم من الهضاب الا في صدوع صخورها ، ولذلك يضرب بامتناع يبضها
المثل^(٨) وتختار من المساكن ما لا يطوره سبع طائر^(٩) ، ولا ذو أربع^(١٠) ،
لتضع البيض فيها وهذا ما حمل ابا دؤاد على ربط هذه الصورة بصورة
ركوبه جواده الذي اسرع به ، فتطايرت ثيابه ، حتى كأنها معلقة حيث تبيض
الرخمة في الاعالي فقال^(١١) :

(١) الكسير : المكسور (٢) الجاحظ . الحيوان ٢١/٧ . الاختلاج : ان تجيء بولدها ناقص الخلق . (٣) انظر ديوان النابغة/ ١٦٠ (٤) زهير الديوان/ ١٥٤ (٥) طرفه . الديوان/ ١٣٨ (٦) الاصفهاني الاغانى ٢٠/١٠ (دار الكتب) (٧) اسحقها : اخذها بعدا (٨) الجاحظ . الحيوان ٦٦/٧ وانظر ٣٤٢/٦ (٩) يطوره : يقرب ويدنو منه (١٠) الجاحظ . الحيوان ١٩/٧ (١١) أبو دؤاد . الديوان/ ٣٢٨ .

كأنّي اذا عاليت جوزة متنه تعلق يزى عند بيض انسوق
 وكانت تعرف بلؤمها وقذارتها وموقها ولذلك هجي بها^(١) وذكر الجاحظ
 سبب تسميتها بالانوق فقال : وهم يسمون بالانوق كل شيء يقتات النجو^(٢)
 والزبل وكذلك هجي بالخبارى التي عرفت بسلحها ، لأنها متى ما ألح عليها
 الصقر سلحت عليه وذلك من احد سلاحها^(٣) . وقد ضرب المثل بها في
 الموق^(٤) . وقالوا مات فلان كمد الخبارى ، لأنها اذا نتفت او تحسرت ابطأ
 نبات ريشها ، فاذا طار صويجباتها ماتت كمد^(٥) . واغلت النماذج الشعرية
 التي وردت على لسان الشعراء اشارت اليها في مواضع المهجاء حيث يشبهون
 المهجوع بها في الحرب والسلح . فزهير بن أبي سلمى عندما اراد ان يهجو
 رجلاً من بني عبد الله بن غطفان شبهه بالخبارى فقال^(٦) :

متى تتحرّمْ بالمناطق ظالمساً لتجري الى شأو بعيد وتسبح
 تكن كالخبارى ان اصيبت فمثلها اصيب وان تفلت من الصقر تسبح

وكذلك فعل اوس بن غلفاء عندما هجا ابن الصق^(٧) :

وهم تركوك اسلح من خبارى رأيت صقراً واشرد من نعام
 والخبارى من اشد الطير طيراناً وابعدها مستقطاً واطولها شوطاً واقلها
 عرجة^(٨) .

ووقف الشعراء عند الحدأ وشبهوا بها الخيل وهي تعدو راجمة الأرض
 بحوافرها ، تحمل الكماة الشجعان ، قال عامر بن الطفيل^(٩) :

والخيل تردى بالكماة كأنها حدأ تتابع في الطريق الاقصد

-
- (١) انظر ديوان الاعشى/ ٢٦٥ (٢) النجو : العذرة . انظر حيوان الجاحظ ٥٠٤/٣ .
 (٣) الجاحظ . الحيوان ١/ ٢٩٠٢٤٨٠٣٠٦٥/ ٥٤٤٥/ ٦٤٤٥٠/ ٣١٢/ ٦٠/ ٧٤٣٧٣٠٣١٢ .
 (٤) الجاحظ الحيوان ٥/ ٤٤٦ (٥) الجاحظ . الحيوان ٥/ ٤٤٦ . (٦) زهير . الديوان
 ٣٤٤/ (٧) المفضل . المفضليات ٢/ ١٨٨ والاغانى ١٠/ ٢١ (دار الكتب) . (٨) الجاحظ
 الحيوان ٥/ ٥٢٢ . (٩) عامر بن الطفيل . الديوان ٥٦/ ٥ وانظر ديوان النابغة/ ٢٠٤ .

وبين الحدأة والغداف قتال ، لأن الحدأة تخطف بيض الغداف لشدة
مغالبها وسرعة طيرانها^(١) .

الطيور غير الجارحة : وكما شغلت الطيور الجارحة مجالاً في الشعر الجاهلي
شغلت الطيور غير الجارحة مجالاً آخر في هذا الشعر ، فعرض لها الشعراء
في كثير من اوصافهم ، وعاداتهم وتقاليدهم ، ولأن بعضها كان يثير في
نفوسهم احساس ومشاعر معينة كالبحر والغراب ، وبعضها الآخر اكتسب
جانبا عاطفيا خاصا كالحمام الذي هام به الشعراء وابدعوا في تصوير غنائه .
والحق ان هذه الصلة المتينة التي شددت الشعراء بهذا الحيوان لها اكثر
من دلالة ، فهي لم تكن مجرد عاطفة خاصة يبدىها الشاعر تجاه حيوان وديع
وضعيف . فنحن نعلم ان قسما من هذه الحيوانات لها رحلات تقوم بها
في مواسم معينة ، وتشهد فيها الرحال من وقت الى وقت . وهي تعاني من
اجل ذلك الم الرحلة ، ومرارة الغربة ، وصعوبة الانتقال ، وتقاسي من
اجل هذا ما تقاسيه ولا بد ان تقترن هذه الصورة بصورة الحياة التي يعيشها
الشاعر نفسه ، وهو يقوم برحلته الطويلة . ليتحمل المشاق نفسها ، ويتجرع
المرارة عينها . ومن البديهي ان يحصل التعاطف الذي تثيره هذه الحيوانات
في نفسه ، ويكون التجاوب الذي عبر عنه ببعض ما يستطيعه فكان هذا
العناء الذي تمثل في نوح الحمام وبكائه وسوف نعرض في حديثنا لبعض
اصناف هذه الحيوانات التي وقف عندها الشعراء لتبين الصور التي رسموها
لها ، والاغراض التي كانت ترمز اليها . والمواضع التي استخدموها فيها ،
موضحين ما فصل اليه من نتائج من خلال النصوص التي تمكنا من جمعها .

الغراب : الحديث عن الغراب في الشعر الجاهلي حديث طويل اشار
اليه الشعراء كثيراً ، واستخدموه في مواضع عدة ولكن معظم الحديث عنه في

(١) الجاحظ . الحيوان ٥١/٢ .

باب التشاؤم ، لأنه أشأم الطيور عند الجاهليين . وليس في الأرض شيء
يتشاءم به الا والغراب أشأم منه وانكد . حتى اصبحوا يذكرونه مصاحباً
لكل ما يتطيرون منه ، فهو المقدم في الشؤم ، ومن اجل هذا أصبح كل جزء
منه مدعاة للتطير ، فاشتقوا من اسمه الغربية والاعتراب والغريب ، وتشاءموا
من صياحه واعتبروا هذا الصباح نذير البعد ، ودليل الفرقة قال عنتره^(١) :

ظعن الذين فراقهم اتوقع وجرى بينهم الغراب الابقع
خرق الجناح كأن لحبي رأسه جكمان بالاخبار هشّ مولع
وقال عبيد^(٢) :

زعم الاحبة أنّ رحلتنا غدا وبذاك خبّرنا الغداف الأسود
وسموه حاتماً ، لأنه - فيما يعتقدون - يؤذن بالفراق المحتم اذا نعب^(٣)
ولأنه لا يوجد في موضع خيامهم يتقسم ، الا عند مبايتهم لمساكنهم ومزايتهم
لدورهم^(٤) . وظلت هذه الصورة مرتسمة للغراب في اشعارهم ، ومن هذه
المعاني ارتسمت صورة الغراب القائمة في الشعر وبرزت ألوانه المعتمة في
معاني الشعراء^(٥) . وهو عندهم عار لافراط بغضهم له ، يتعايرون بأكل
لحمه قال وعلة الجرمي^(٦) :

لأن العام ما عيرتمونا شواء الناهضات مع الخبيص
فما لحم الغراب لنا يزداد ولا سرطان أنهار البريص
ولا بد لنا ونحن نتحدث عن التشاؤم ، ومدى وضوحه في جوانب الحياة
الجاهلية ان نقول : ان هذا الايماء قد تولد بسبب اعمال معينة أوحتها طبيعة

(١) عنتره . الديوان/٣٩٢ (٢) عبيد . الديوان/٤٣ ، ولنايفة بيت بمائله/١٨٣ وانظر
ديوان بشر/٤٩ (٣) انظر الاصمعيات/١٩٣ . (٤) الجاحظ . الحيوان/٣٨٨ -
٤٣٩ (٥) انظر ديوان عنتره/٣٩٣ و ديوان أبي دؤاد/٣٠١ وديوان عامر بن الطفيل
/٢١ وديوان الاعشى/٢٥٣ وشرح اشعار المهذلين ٢٤٨/١ (٦) ابن قتيبة . المعاني الكبير
٢٦٧/١

البشر وقررتها في نفوسهم حتى أصبحت عادة يسلكها الناس في بقاعهم واصقاعهم ، والانسان قادر على تغيير هذه المعتقدات وتبديلها اذا حاول النظر الى هذه الامور بمنظار آخر ، تتخلله البهجة والغبطة والسعادة ، وعندها تكون الصورة التي رسمها في مخيلته قد تبدلت وتكون المفاهيم التي رسختها بعض الأعمال قد تغيرت . وليس من السهل ان تتبدل هذه المقاييس بمثل هذه السرعة التي نتصورها ، لأن هذه الأحكام عمقتها المعتقدات القديمة ، وزادت في رسوخها بعض المصادقات التي وجدت في خيال الناس صدى وقبولاً . على ان ذلك لم يمنع بعض الناس من مخالفة هؤلاء فيما يعتقدون^(١) ووجدت احاديث الغراب مجالا آخر في الأمثال فقالوا : ابصر من غراب وابكر من غراب واحذر من غراب وابطأ من غراب نوح واغرب من غراب^(٢) واصفى من عين الغراب ، يريدون حديثها ونفاذ البصر^(٣) واصفى عيناً من غراب^(٤) واصبح بدنأ من غراب . وقالوا : ارض لا يطير غرابها ، للأرض التي تبلغ من خصبها انه اذا دخلها الغراب لا يخرج منها ، لأن كل شيء يريد فيها^(٥) قال النابغة^(٦) :

ولرھط حَرَابٍ وَقَدَّ سَوَادٌ فِي الْمَجْدِ لَيْسَ غَرَابُهُمْ بِمَطَارٍ^(٧)
وقالوا اشد سواداً من غراب^(٨) .

ولا بد ان تعكس هذه الكثرة من الامثال معرفة العرب الدقيقة بهذا الحيوان ومتابعتهم لعاداته وطبائعه . والى جانب تشاؤمهم من الغراب نراهم يذكرونه وهو يريغ في سواد عيون الموتى ويعكف عليها شأنه في

(١) علقمة . الديوان/٢٩٩ (٢) انظر حيوان الماحظ ٢٣/٣ و ٥٩ و امثال الميداني / ١٢١ و ١٢٥ و ١٤٢ و ٢٣٦ (٣) الماحظ . الحيوان ٢/٣٤٩ (٤) الماحظ . الحيوان ٣/٢١٤ (٥) الماحظ . الحيوان ٣/٢٢٤ (٦) النابغة . الديوان/ ١٦٦ (الاعلم) (٧) حراب وقد : رجلا من بني اسد . السورة : المنزلة الرقمية . وليس غرابهم بمطار : كناية عن خصب عيشتهم وكثرة خيرهم لأن الغراب اذا وقع في مكان يجد فيه ما يشبعه لا يحتاج ان يتحول عنه . (٨) الماحظ . الحيوان ٣/٢٢٥

ذلك شأن بقية الحيوانات التي اعتادت الرزق على امثال هذه الفضلات قال
عبيد يرد على امرئ القيس^(١) :

اتوعد اسرتي وتركت حجراً يُرِغ سواد عينيه الغرابُ
وقال المفضل النكري^(٢) :

تركنا العرج عاكفة عليهم وللغربان من شيع نغيق
واذا كان العرب قد تشاءموا من الغراب حقيقة وجدوا في نعيه دليلاً
من ادلة الفرقة والبين ، فان ذلك لم يمنعهم من الاستعانة بسواده في باب
المجاز ليدلوا على الشباب ويكنوا عن سواد الشعر بجناح الغراب الاسود
او بالغراب نفسه قال المرقش الأكبر^(٣) :

فان يُظعن الشيب الشباب فقد تُرى به لَمِي لم يُرمَ عنها غرابها
وقال الأعشى^(٤) :

واذ لَمِي كجناح الغداف ترنو الكعاب لإعجابها
ومدحوا سواد الغراب قال عنزة^(٥) :

فيها اثنتان واربعون حلوبة سوداً كحافية الغراب الاسحم
وقال ابو دؤاد^(٦) :

تنفي الحصى صُعداً شرقي منسما فني الغراب بأعلى نفسه الغردا
وضربوا المثل بمشيه في استحالة الاشياء التي لا تكون ابداً قال النابغة
يهجو عامر بن الطفيل^(٧) :

فانك سوف تحلم او تنساهي اذا ما شبت أو شاب الغراب

(١) حيد . الديوان/ ١ (٢) الاصمعي . الأصمعيات/ ٢٣٤ . (٣) المفضل .
المفضليات ٣٦/٢ (٤) الاعشى . الديوان/ ١٧١ وانظر ١٠١ من الديوان نفسه .
(٥) عنزة . الديوان/ ٣٧١ (٦) ابو دؤاد . الديوان/ ٢٠٨ (٧) النابغة . الديوان/ ١٩٢

وقال ساعدة بن جؤبة^(١) :

شاب الغرابُ ولا فؤادك تاركٌ ذِكرَ الغُصْب ولا عتابك يعتبُ
ومنقار الغراب معول وهو شديد النقر وانه ليصل الى الكمأة المندفنة
في الأرض بنقرة واحدة حتى يشخصها ، وهو ابصر بمواضع الكمأة من
اعرابي يطلبها في منبت الاجرد والقصيص^(٢) ، وان الاعرابي ليجتاح الى
ان يرى ما فوقها من الارض فيه بعض الانتفاخ والانصداع وما يحتاج الغراب
الى دليل^(٣) . ويقترن ذكر الغراب بحوادث دينية واسطورية قديمة تعرضت
لذكرها الكتب السماوية والملاحم واقترن حديثه فيها باخبار الحياطة والغدر
والشؤم .

البوم : والبوم من الحيوانات التي يتشام منها بعض الناس لأنهم
يعتقدون ان رؤيتها تجلب المصائب وتجر النوايب ، ولعل ذلك بسبب منظرها
الكثيب وصوتها الحزين ، ولظهورها في الليل او بسبب اماكن السكن التي
تختارها لأنها تتراد الأماكن المهجورة وتنزل المنازل الخربة .

والبوم من الطيور التي لا تلتمس ارزاقها الا بالليل^(٤) لأنها ذليلة بالنهار
ردية النظر واذا كان الليل ، لم يقوَ عليها شيء من الطير^(٥) والطير كلها تعرف
البومة بذلك وصنيعها بالليل فهي تطير حول البومة وتضربها وتتنف ريشها
ومن اجل ذلك صار الصيادون ينصبونها للطير^(٦) .

واعتقد العرب بأنها من جنس الصدى والهامة وهما من ادلة الموت ولهذا
كان يأتي ذكرها في الحديث عن الصحاري الموحشة التي يخاف الرحالة

(١) ساعدة بن جؤبة . شرح اشعار الهذليين ١٠٩٨/٣ (٢) الاجرد : ثبت يدل أصل
الكمأة . والقصيص شجر ينبت في أصل الكمأة قالوا : سي بذلك لدلالته على الكمأة كما
يقصص الاثر (٣) الملاحظ . الحيوان ٤٠٤/٣ وانظر ديوان أبي دواد/ ٣٠٨ .
(٤) الملاحظ . الحيوان ٤٠٢/٥ (٥) الملاحظ . الحيوان ٥٠/٢ (٦) نفس المصدر .

السير فيها فيجعلون البوم وما شاكله من الحيوانات انيساً لسالكها ، وقد اتخذ البعض الآخر من الشعراء ذلك دليلاً من ادلة الفخر والبطولة لقدرته على ارتياد هذه الاماكن التي يخشاها كثير من الناس ، قال المرقش يصف رحلته وهو يقطع هذه القلاة وحده لا يؤنس الا الوحش^(١) :

وتسمع تزقاء من البوم حولنا كما ضربت بعد الهدوء النواقيس
وقال الاسود بن يعفر^(٢) :

وسمحة المشي شمال قطعت بها ارضاً يحار بها الهادون ديموما
مهامها وخروفاً لا انيس بها الا الضوايح والاصداء والبوما
وضربوا المثل بها للرجل الذي لا خير فيه ولا عقل له^(٣) .

الحمام : يقترن ذكر الحمام في الشعر الجاهلي - في كثير من الاحيان - بحديث البكاء والنواح ، فهي تنير في بكائها او نواحها شجونهم وتبهج فيهم لوعة البعد والفراق ، وربما كانت هذه الاثارة بسبب ما اسلفناه من ذكر التعاطف الذي كان يحس به الشاعر تجاه هذا الحيوان الذي كتبت عليه الرحلة فتحملها كما كتب على هذا الشاعر الذي ارتبط بالغيث والكلأ فكان يتعقبه في كل موقع ، ويسعى اليه بكل مكان ، ووجدوا في وقوفهم على الاطلال سبباً من اسباب البكاء ، ووجدوا في هذا الحيوان النائح اثارة للواعجبهم ، قال عنترة^(٤) :

طال النواء على رسوم المنزل بين التلكيك وبين ذات الحرم
افمن بكاء حمامة في ايكية ذرفت دموعك فوق ظهر المحمل

(١) المفضل . المفضليات ٢٥/٢ (٢) المفضل . المفضليات ٢١٩/٢ وانظر ديوان بشر
٢٢١/ ديوان الاعشى ٧٣ و ١٠٣ و شعراء النصرانية ٥٠٨/٤ (٣) انظر ديوان امرئ
القيس ١٢٨ . (٤) عنترة . الديوان ٣٨٧ (الاعلم)

وقال عبيد^(١) :

تَبَدَّلْ بَعْدِي مِنْ سُلَيْمَى وَأَهْلِهَا نَعَاماً تَرَعَاهُ وَادِمَا تَرَاكَا
وَقَفْتُ بِهِ ابْكِي بِكَاءِ حَمَامَةٍ أَرَاكِيَّةً تَدْعُو الْحَمَامَ الْآوَارِكَا
إِذَا ذَكَرْتَ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ شَجَوَهَا عَلَى فِرْعَ سَاقٍ أَذْرَتْ الدَّمْعَ سَافِكَا

وقال صخر الغي يرثي ابنه تليدا^(٢) :

وَذَكَرْنِي بُكَايَ عَلَى تَلِيدٍ حَمَامَةٍ مَرَّ جَاوِبَتِ الْحَمَامَا
تَرْجَعُ مَنْطَقًا عَجَبًا وَآوَفَتْ كَنَائِحَةً أَتَتْ نُوحًا قِيَامَا
تَنَادَى سَاقٍ حَرٍّ وَظَلَّتْ أَدْعُو تَلِيدًا لَا تُبَيِّنُ بِهِ الْكَلَامَا

ومن مناقب الحمام حبه للناس وانس الناس به^(٣) . وقد استمد الشعراء من وقوفهم على الاطلاع صور هذه الحمام التي تبعث في النفس الحزن ، فوصفوا الاثافي بها ، وان الريح تكشف عن هذه الاثافي فتظهرها سوداء كلون هذا الحمام ، قال امية بن ابى الصلت ، ان صبح هذا له^(٤) :

وَسَافَرْتُ الرِّيحَ بَيْنَ عَصْرَا بِأَذْيَالٍ يَرْحَنُ وَيَغْتَدِينَا
فَأَبْقَيْنَ الطُّلُولَ مَخْبِيَّاتٍ ثَلَاثًا كَالْحَمَائِمِ قَدْ بَلِينَا

وقال عدي بن زيد^(٥) :

وِثْلَاثَ كَالْحَمَامَاتِ بِهَا بَيْنَ مَجْنَاهُنِ تَوْشِيمِ الْحَمَمِ
وَهُمْ يَصِفُونَ الرَّمَادَ الَّذِي بَيْنَ الْإِثَافِيِّ بِالْحَمَامَةِ ، وَيَجْعَلُونَ الْإِثَافِي أَظْلَارًا لَهَا لِلْإِثْنَاءِ الَّذِي فِي أَعَالِي تِلْكَ الْأَخْجَارِ وَلَئِنْهَا كَانَتْ مَعْطَفَاتٍ عَلَيْهَا ، وَحَانِيَاتٍ

(١) عبيد . الديوان/٩٢ وانظر ديوان النابغة/١٩٩ (٢) صخر الغي . شرح اشعار
المهلهل/٢٩٢/١ وانظر الاغانى/٢١٨/١٨ (سامي) (٣) الجاحظ . الحيوان/٣/١٤٧ .
(٤) ابو زيد القرشي . جمهرة اشعار العرب/١٨٥ (صادر) (٥) عدي بن زيد .
الديوان/٧٣ وانظر ديوان ابى دؤاد/٣٠٩ وشرح اشعار المهلهل/٣/١١٥٧ .

على اولادها^(١) . وربما تكون دواعي التشبيه التعاطف الذي يجمع هذه الحجارة وهي قريبة من بعضها . فأثار في نفوسهم هذا المنظر منظر الحمام وهو قريب من بعضه يلتقط من الأرض ما يسد به جوعه .

ووقف بعض الشعراء عند ذكره مباشرة او بصورة غير مباشرة^(٢) . وكان للحمام نصيب في الامثال فقالوا : تقلدها طوق الحمامة ، مكنين بذلك عن الخصلة القبيحة التي لا تزايل صاحبها ولا تفارقه حتى يفارق طوق الحمامة الحمامة^(٣) وقيل : تقلدها طوق الحمامة أي تقلد النعمة تقلدا لازما باقيا^(٤) ، قال بشر ابن أبي خازم^(٥) :

حباك بها مولاك عن ظهر بعوضةٍ وقلّدها طوقَ الحمامة جعفر

وقالوا : اخرق من حمامة^(٦) معللين ذلك بأنها لا تحكم بناء عشها فهي ربما جاءت الى الغصن البارز للريح من الشجرة فبنت عليه عشها فيتكسر من بيضها اكثر مما يسلم ، وورد ما يشابه هذا المعنى في حديث عبيد عن بني اسد ، مستعطفاً بذلك حجرا ومعتذرا له . وهي صورة تدل على تتبع واستقصاء مستفيض لسلوك هذا الحيوان^(٧) .

بَرَمَتْ بنو اسد كما بَرَمَتْ ببيضتها الحمامة
حفلت لها عودين من نشم وآخر من ثمامة

ويبدو ان الحمام وغيره من الحيوانات الوديدة الأليفة كانت تكثر في المناطق الخصبة التي يكثر فيها الزرع والتخيل ، قال الأعشى^(٨) :

(١) الحيوان . الجاحظ ٢٣٩/٣ (٢) انظر ديوان عدي بن زيد/ ٦٥ و ٨٨ وديوان الاعشى ١٢٩/ و ١٥٣ و ١٩٥ وديوان عامر بن الطفيل/ ٣٦ (٣) الميداني . مجمع الامثال/ ١٥٣ (٤) الزغشري . المستقصى ٣٠/٢ . (٥) بشر . الديوان/ ٨٩ (٦) الميداني . مجمع الامثال/ ٢٦٥ (٧) عبيد . الديوان/ ١٢٦ (٨) الأعشى . الديوان/ ١٥١

الم تر ان العرضَ اصبح بطنها نخيلاً وزرعنا نابتا وفصائصا
وذا شرفات يقصر الطير دونه ترى للحمام الورق فيه قرامصا
واشار عدي بن زيد اليها ايضا^(١) ، ووجد الحمام في الاماكن المقدسة
مواضع يأمن اليها ويلوذ بها^(٢)

والناس يقولون آمن من حمام مكة وهذا شائع على جميع اللسان لا يرد
ذلك احد ممن يعرف الامثال والشواهد^(٣) وربما سكن الحمام اجواف الركابا
ولا يكون ذلك الا للوحشي منها وفي البر التي لا تورد قال الشاعر^(٤) :
بدلو غير مكربةٍ أصابت حماماً في مساكنه فطارا

وعرفت بعض الجبال بكثرة حمامها^(٥) ، وللحمام من حسن الاهتداء
وجودة الاستدلال ما جعله مضرباً للمثل . والحمام اشد طيراناً من جميع سباع
الطير الا في انقضااض وانحدار فلن تلك تنحط انحطاط الصخور^(٦) . ولن
ترى جماعة طير اكثر طيراناً اذا كثرن من الحمام فلنهن كلما التففن وضاق
موضعهن كان اشد لطيرانهن وقد ذكر ذلك النابغة في قوله^(٧) :

واحكم كحكم فتاة الحي اذ نظرت الى حمام شراع واردي التمسد
يحفه جانباً نيتق وتتبعه مثل الزجاجة لم تكحل من الرمد
قالت الا ليتما هذا الحمام لنا الى حمامتنا ونصفه فقد
فحسبوه فألفوه كما حسبت تسعا وتسعين لم تنقص ولم تزد
فكملت مثله فيها حمامتها وأسرت حسبة في ذلك العدد^(٨)

(١) انظر ديوان علي بن زيد / ٨٨ (٢) انظر ديوان النابغة / ١٥٣ .
(٣) الجاحظ . الحيوان ١٩٢/٣ وما بعدها (٤) الجاحظ . الحيوان ٢٤١/٣ .
(٥) انظر معجم ما استعجم ٨٨٩/٣ و ٩٤٦ (٦) الجاحظ . الحيوان ٢٢٠/٣ .
(٧) النابغة . الديوان / ١٥٣ (٨) فتاة الحي : قيل هي زرقاء اليمامة . شراع : مجتمع . التمسد :
الماء القليل الذي يكون في الشتاء . انيق . الجبل . مثل الزجاجة : اي عينا صافية . قد : اي حسب .
الحسبة : الحساب والمعنى انها اسرعت في اخذ حساب الطير في تلك الناحية .

والحمام يضرب بجناحه الحمام ويقاتله به ويدفع به عن نفسه، فقواده
هي اصابعه وجناحه هو يده ورجله كالكدم وهي رجل وان سموها كفا حين
وجدوها تكف به كما يصنع الانسان بكفه^(١). الى جانب كل هذا فقد
دخل الحمام في الاساطير والمعتقدات وكانت له حكايات طويلة شأنه في ذلك
شأن الغراب والديك.

القطا: ورد ذكر القطا في الشعر الجاهلي بكثرة وقد ذكر الجاحظ^(٢): أن القطا
من الحيوان الذي اشتق له هذا الاسم من صوته، لأنهم كانوا يشتقون لساير
الحيوان الذي يصوت ويصبح اسم الناطق به اذا قرنوه في الذكر الى الصامت،
ولهذا الفرق اعطوه هذه المشاكلة وهذا الاشتقاق. فاذا تهيأ من لسان بعضها
من الحروف مقدار يفضل به على مقادير الاصناف الباقية، كان اولي بهذا
الاسم عندهم، فلما تهيأ للقطاة ثلاثة احرف. قاف وطاء والف وكان ذلك
هو صوتها، سموها بصوتها، ثم زعموا انها صادقة في تسميتها نفسها قطا.
واكثر ذكرها ورودا في الشعر تشبيه الخيل بها، وكان صور التشبيه متباينة
عند الشعراء فهو قطا ظامئ يسعى الى الماء، ويسرع نحو المورد بعد الاعياء
عند عبيد اذ يقول^(٣):

القائدُ الخيلَ تَرْدِي في أَعْتَمِها وَرَدَ القطا هَجَرَتْ ظَمًا الى التَّمَدِّ
وربما يكون المنخل يشكركى قصد هذا المعنى في قوله^(٤):

فَدَفَعْتَهَا فَتَسَدَّافَعَتْ مَشِي القطاة الى الغدير

وهو قطا متسرب عند الطفيل^(٥). وقطا متبدد عند قيس بن الخطيم^(٦).

(١) الجاحظ الحيوان ٢٢١/٥. (٢) الجاحظ. الحيوان ٢٨٦/٥ و ٥٧٩ و ١٦٣/٥

(٣) عبيد. الديوان ٥٩/ وانظر صفحة ١١٧ من الديوان نفسه (٤) الاصمعي.

الاصمعيات/ ٥٥. (٥) انظر ديوان الطفيل الغنوي/ ٩ (٦) انظر ديوان قيس بن

الخطيم/ ٤٥

اما امرؤ القيس ، فيشبه فرق الخليل بالقطا في سرعتها ، وشدة طيرانها
وربما يريد أن يقول : انها ترد القتال كما ترد العطاش الماء (١) :

اذْ هُنَّ اقْساطُ كَرِجْلٍ الدَّبْيِ او كَقَطَا كَانِظِمَةِ النَّاهِلِ
وعرض الشنفرى للقطا وصور عطشها بابلغ وصف ، وادق تصوير ،
وقارن بين سرعته وسرعتها ومن خلال ذلك صور جوفها ، والاصوات التي
كانت تتجاوب فيه بسبب هذا العطش . الى جانب تصويره للجلبة التي تحدها
اسراب هذا القطا وهي تنحدر الى موارد المياه ، ولعله اراد ان يمانس بين
هذه الاصوات وتلك فقال (٢) :

وَتَشْرَبُ اَسَارَى الْقَطَا الْكُدْرُ بَعْدَمَا
سَرَتْ قَرِيباً اَحْناؤُهَا يتصلصل
هَمَّتْ وَهَمَّتْ وابتَدَرْنَا واسدلت
وَشَمَّرَ مِنِّي فَارِطٌ مُتَمَهِّلٌ
فَوَلَّيْتُ عَنْهَا وَهِيَ تَكْبُو لِعَقْرِهِ
يُبْأِثِرُهُ مِنْهَا دُقُونٌ وَحَوْصَلٌ
كَأَنَّ وَغَاها حَجَرْتِيهِ وَحَوْلَهُ
أَصْصَامِمْ من سَفَرِ الْقَبَائِلِ نَزَلُ
تَوَافَيْنِ مِنْ شَتَّى إِلَها فَضَمَّها
كَمَا ضَمَّ اذْ وَاَدَّ الاَصَارِمْ مِنْهَلِ
فَعَبَّتْ غَشاشاً ثُمَّ مَرَّتْ كَأَنَّها
مَعَ الصَّبْحِ رَكْبٌ مِنْ أَحَاظَةِ غُبَلِ (٣)

(١) امرؤ القيس . الديوان/ ١٢١ (٢) الزنجشري . اعجب العجب / ٥٠ - ٥٢
(٣) الجنو : واحد الاحناء ، وهي الجوانب . المقر : مقام الساتي من الحوض . وغاما :
اصواتها . الاصاميم جمع اصمامة وهم القوم ينغم بعضهم الى بعض .

وكذلك يصور زهير فرسه ، فهي قطة انقضت عليها صقر وبدأت المطاردة ، وحينما تركت طيراتها ، اهوت اليها كف غلام ، يحاول ان يقتنصها ولكنها تتمكن من الفرار ويبقى في يده قطع من ريشها . يقول^(١) :
 أهوى لها أسفعُ الخدين مطَّرقُ ريشَ القوادِمِ لم تُنصَبْ لها الشَّرْك
 دونَ السماءِ وفوق الارضِ قدرهما عند الذَّنابى فلا قَوْتُ ولا درك
 عند الذَّنابى لها صوت وأزملة يكادُ يَخْطِفُهَا طورا وتهلك
 حتى اذا ما هَوَتْ كف الغلام لها طارت وفي كفه من ريشها بَيْتَكَ^(٢)
 ويشبه مشي المرأة اذا كانت سميئة بمشي القطاة في القرمطة والدل^(٣) .
 وتقول العرب في الامثال : اصدق من قطاة^(٤) ، لأن لها صوتا واحدا لا
 تغيره ، واهدى من قطاة^(٥) ، لأنها تهتدي في المجاهل ، وتعرف مواضع الماء .
 وانسب من قطاة^(٦) لأنها اذا صوتت عرفت .

ولا بد أن يعرض الشعراء للقطاة في حديثهم عن الناقة ، فاذا ارادوا ان
 يصفوها وهي تسرع الى الممدوح ، جعلوا المفازة واسعة يحار بها القطا ، ويضل
 مع انه اهدى الطير^(٧) . او عند وصفهم للأبل وهي تشق هذه الصحراء وقت
 الهجرة ، وعندما يكون القطا جائعا او نائما على الارض اتقاء لحرارة الشمس
 اللافحة مؤكدين نشاط رواحلهم في هذا الوقت الذي يصعب فيه السير^(٨) .

(١) زهير . الديوان / ١٧٢ - ١٧٥ (٢) عند الذنابي : أى قاربها الصقر فصار عند
 ذنبها . فلا فوت ولا درك : لا تفوته القطاة ، ولا هو يدركها فهو اشد لطيراتها . الازملة : اختلاط
 الصوت . بتك : قطع (٣) الجاحظ . الحيوان ٥/٧٦ وانظر ٢١٧ من الجزء نفسه
 (٤) انظر حيوان الجاحظ ٥/٧٣ وثمار القلوب ٣٨١/١ وأشبال الميداني ١٢/١
 (٥) انظر حيوان الجاحظ ٥/٧٣ وثمار القلوب ٣٨٢/٢ وأشبال الميداني ٢/٤٠٩ (٦) انظر
 اشبال الميداني ٢/٣٤٧ وثمار القلوب ٣٨٢ (٧) انظر ديوان بشر ٢٢١ وديوان النابغة
 ٢٤/ (٨) انظر ديوان عبيد ١٠١ وديوان الاعشى ٦٧ و ٣٥٣ و ٣٧٣

وتحدث عبيد عن القطا في معرض حديثه عن تبكيره في الخروج فقال انه يخرج قبل القطاة لأنها تبكير في غدوها ^(١).

الديك : واما الديك فمن بهائم الطير وبغائها وليس من احرارها ولا من عتاقها وجوارحها ^(٢) وهو طائر لا يطير ^(٣) ، وقد وقف الشعراء عند الديك وكانوا يكونون به عن الفجر ، لأن صوته ينغص على الندامي مجلسهم ، قال الأعشى ^(٤) :

أَرَحْنَا نَبَاكَرَ جِدِّ الصَّبْوِ حَ قَبْلَ النفوسِ وَحَسَادِهَا
فَقَمْنَا وَلَمَّا يَصْبِحْ دِيكُنَا إِلَى جَوْنَةٍ عِنْدَ حَدَادِهَا
وقال : ^(٥)

وَلَمْ يَنْطِقِ الدِيكَ حَتَّى مَلَأْتُ كُوبَ الرَّبَابِ لَهُ فَاسْتَدَارَا

ومن خصال الديك المحموده قولهم في الشراب اصفى من عين الديك واذا وصفوا عين الحمام بالحمرة ، او عين الجراد ، قالوا : كأنها عين الديك ^(٦) وفيها يقول الاعشى ^(٧) :

وَكَأْسُ كَعِينِ الدِيكَ بَاكَرَتْ حَدَّهَا بِفَتْيَانِ صِدْقٍ وَالنَّوَاقِصُ تُضْرَبُ ^(٨)
ويقول عدي بن زيد : ^(٩)

قَدَّمَ مَتْنُهُ عَلَى سُلَافٍ كَعِينِ الدِيكَ صَقَى سُلَاقَهَا الرَّأْوُوقُ

ويقول : ^(١٠)

ثَلَاثَةُ أَحْوَالٍ وَشَهْرٍ نَجْرَمَا يَضِيءُ كَعِينِ الْعُتْرَفَانِ الْمُحَارِبِ

(١) انظر ديوان عبيد ٣١ / (٢) الجاحظ . الحيوان ١/١٩٤ (٣) نفس المصدر
(٤) الاعشى . الديوان ٦٩ / (٥) الاعشى . الديوان ٤٧ / وانظر ديوان لبيد ٨ / ٢٦ و ٣١
(٦) الجاحظ الحيوان ٢/٣٤٩ (٧) الاعشى . الديوان ٢٠٣ / (٨) الاعشى . الديوان ٨٣
(٩) عدي بن زيد . الديوان ٧٨ / (١٠) عدي بن زيد . الديوان ١١٨ / ودوي البيت في
الديوان خطأ . انظر نثار الازهار لابن منظور ٩٦

ويقال لصوت الديكة الدعاء والزقاة والهتاف والصراخ والصقاع وهو يهتف ويصقع ويزقو ويصرخ قال لبيد: ^(١)

لَدُنْ أَنْ دَعَا دِيكَ الصَّبَاحُ بِسُحْرَةٍ
إِلَى قَدْرِ وَرْدِ الْخَامِيسِ الْمُتَأَوَّبِ

وفي الديك الجولان ، وهو ضرب من الروغان وجنس من تدبير الحرب وذلك انه يقدر ايقاع صبيسته ^(٢) بعين الديك الآخر ويتقرب الى المذبح فلا يخطئ ^(٣) ومن الحوادث التي يذكرها الجاحظ معرفة الديك بالليل وساعاته ثم يقسط اصواته على مقادير الاوقات تقسيطا موزونا لا يغادر منه شيئا ^(٤) .

الحجل : وعرض الشعراء لذكر الحجل في اوصافهم لنياقهم ^(٥) واوصافهم للنساء القصار اللواتي شبهوهن بهيته ، قال امرؤ القيس حين نزل في بني عدوان ^(٦) :

قوم يحاحون بالبهام ونسوان قصار كهيته الحجل

واشار سلامة بن جندل الى الحجل في وصفه للشباب وسرعة زواله ^(٧) :

أودى الشباب حميداً ذو التعاجيب اودى وذلك شأو غدير مطلوب
ولتى حثيثاً وهذا الشيب يطلبه لو كان يُدركه ركض العاقيب
والذي يبدو ان لهذا الحيوان اوقات يكثر فيها ومناطق يرتادها في مواسم معينة يصطادونه فيها ^(٨) .

وتحدثوا عن السمام ^(٩) ، فشبهوا به الناقة السريعة قال عنتر ^(١٠) :

(١) لبيد . الديوان/ ٨ (٢) الصبيسة : شكة في رجل الديك (٣) الجاحظ . الحيوان ٢٣٤/٢ (٤) الجاحظ . الحيوان ٢٤١/٢ و ٢٩٣ و ٣١٤/٦ (٥) انظر ديوان امرؤ القيس ١٩٧ (٦) امرؤ القيس . الديوان/ ٣٤٨ (٧) المفضل . المفضليات ١١٧/١ (٨) انظر ديوان طرفة/ ١١٢ (٩) السمام : طائر دون القطا في الخلق (١٠) عنتره . الديوان/ ٣٨٦

وقفت وصحبتى بأرينباتٍ على اقتاء عوجٍ كالسمام
وقال النابغة : (١)

سماماً تباري الريح خوصاً عيونها لهنّ رذايباً بالطريق ودائع
وشبهوا الجياد به قال الافوه الاودى (٢) :

كان الجياد الشعث تحت رحلهم سمام دعاها للمزاحف ناجر (٣)
وشبه الشنفري نعاله الممزقة بأشلاء هذا الحيوان .

العصافير : اما العصافير ، فكانوا يضربون بأحلامها مثلاً لأحلام السفهاء ،
قال دريد بن الصمة (٤) :

يا آل سفيان ما بالي وبالكُمُ انتم كثير وفي أحلام عصفور
وادرك القدمى حقيقة ضعف الانسان ، فقرنوا ذلك الضعف بضعف
هذا الحيوان ، فشبهوا به انفسهم من باب المجاز ، لغرض التصغير والتحقير
وعدم القدرة ، قال امرؤ القيس (٥) :

ارانا موضعين لأمر غيب ونُسحرُ بالطعام وبالشراب
عصافير وذبان ودود واجراً من مُجْلحة الذئاب
وقال لبّيد (٦) :

فان تسألينا فيم نحن فاننا عصافير من هذا الانام المُسحَرُ
وذكروا الخفافش (٧) : ومن اعاجيبه تركه ذرى الجبال وبسيط الفياقي
واعالي الاغصان ومجيئه يطلب مساكن الناس وقربهم ، ثم إذا صار الى بيوتهم
وقربهم قصد الى ارفع مكان واحصنه والى ابعد المواضع من مواضع الاجتياز

(١) النابغة . الديوان/ ١٥٨ (٢) الافوه الديوان (الطرائف)/ ١٤ (٣) ناجر : من
اشهر الحر . (٤) الجاحظ . الحيوان ٢٢٩/٥ (٥) امرؤ القيس . الديوان/ ٩٧ وانظر
حيوان الجاحظ ٢٤٠/٥ والمعاني الكبير ٧٥٣/٢ (٦) لبّيد . الديوان/ ٥٦ . المسحر :
المعلل بالطعام والشراب (٧) انظر ديوان بشر/ ٢٣٠

واعراض الحوائج^(١) . وذكروا ساق حر^(٢) . والكركي^(٣) . الذي لا يجد بدا ولا مصلحة لشأنه الا في اتخاذ رئيس ورفيق^(٤) وقد عرف بمخزله وحراسته^(٥) وقالوا ان الكراكي لا تنام ابدا الا في ابعد المواضع من الناس واحرزها من سباع الطير^(٦) . وذكروا طير الماء^(٧) والهدهد^(٨) . الذي ضرب به المثل في قوة البصر حيث قالوا : ابصر من هدهد^(٩) ، وزعموا في قترعته التي على رأسه مزاعم غريبة^(١٠) . وقد دخل الهدهد في الاساطير والحكايات كما دخل الغراب والحمام .

اما البط ، فقد شبهت به الاباريق^(١١) . والظاهر ان بعض الطيور دخلت في مجال الاساطير فكما تحدثوا عن الهامة والصدى ، تحدثوا عن الزمامح^(١٢) ، وكان لهم فيه معتقد خاص^(١٣) وكذلك القوارى^(١٤) التي كانوا يستبشرون بالمطر اذا رأوها^(١٥) .

هذه اهم الطيور التي تحدث عنها الشعراء الجاهليون ، وهناك انواع أخرى لم يحددها الشعراء وانما كانوا يطلقون عليها لفظ الطير مشبهين بها خيولهم تصويرا للسرعة^(١٦) .

-
- (١) الجاحظ . الحيوان ٥٩٢/٣ و ٦٦/٧ (٢) انظر ديوان الشنفرى ٣٥ (٣) انظر ديوان طرفة ٩٠ وديوان زهير/ ٢٠٤ (٤) الجاحظ . الحيوان ١٤١٩/٥ (٥) الجاحظ . الحيوان ٢٥٤/٢ و ٩/٧ (٦) الجاحظ . الحيوان ٤٠٦/٥ (٧) انظر ديوان اوس/ ٦٧ (٨) انظر ابن قتيبة في الشعر والشعراء/ ٣٧٠ (بيروت) (٩) انظر حيوان الجاحظ ١٦/٧ (١٠) الجاحظ الحيوان ٥١٠/٨ . (١١) انظر ديوان لبید/ ٢٤٤ (١٢) الزمامح : طائر قيل انه كان يقف بالمدينة في الجاهلية على اطم فيقول شيئا ، وقيل : كان يسقط على بعض مرابذ المدينة فيأكل تمره فرموه فقتلوه ، فلم يأكل احد من لحمه الا مات ، وقيل انه كان يأخذ الصبي من مهده (انظر التاج مادة زمع) (١٣) انظر ديوان قيس ابن الخطيم/ ١٦٤ (١٤) القوارى : مفردتها قارية ، وهو طائر قصير الرجل طويل المنقار ، اصفره ، اخضر الظهر تحبه الاعراب ، وتتمين به ، ويشبهون الرجل السخي به وقيل كان اذا رآه استبشروا بالمطر كأنه رسول الفيث او مقدمة السحاب (انظر التاج مادة قري) (١٥) انظر ابن قتيبة في المعاني الكبير ٤٢/١ (١٦) انظر الاغانى ٢١٨ / ١٨ (تأبطشرا) .

الزواحف والحشرات

تعد جزيرة العرب من المناطق الصالحة لمعيشة الأفاعي ، لملامحة المناخ والظروف الطبيعية التي يجد فيها هذا الحيوان قدرة على الحياة ، وقابلية على المعيشة ، وقد ارتبط مفهوم الأفاعي بالجن ، واعتبر القدماء الحية بنت الجن وهي من أكثر الحيوانات ورودا في القصص الذي يرويه الاخباريون عن الجن^(١).

وتحدث هيرودوت في تاريخه عن جزيرة العرب ، فذكر الأفاعي المجنحة الطائرة التي تكثر ببلاد العرب ، والتي لا شبيه لها في بلد آخر^(٢) . وظلت هذه الاساطير تدور في اذهان الناس حتى العصر الجاهلي ، فوجدنا صدى هذه المعتقدات ينعكس في الشعر والاخبار . اما اعتقاد القدماء بأنها تنطق ، فقد ورد في ابيات للناطقة^(٣) وعدي بن زيد^(٤) وأمية بن أبي الصلت^(٥) وزعموا ان في بطن الانسان حية يقال لها الصفر ، وانها تؤذيه اذا جاع^(٦).

ان انتشار هذه الأفاعي في جزيرة العرب ، هو الذي جعل الشعراء

(١) جواد علي . تاريخ العرب قبل الاسلام ٤٧/٥ (٢) جواد علي . تاريخ العرب قبل الاسلام ١٣/٢ (٣) انظر ديوان النابغة/ ٢١٦ (٤) انظر ديوان عدي بن زيد/ ١٥٩ (٥) الجاحظ . الحيوان ١٩٦/٤ - ٢٠٥ (٦) انظر الاصمعيات/ ٩١ وثمار القلوب/ ٣٣٦

يمنحونها هذه الأهمية ، ويذكرونها في قصائدهم ، ويستعملونها في الصور التي دارت في أذهانهم حتى تعددت اسمائها ، وأكثر ما يذكرونه منها : الأفعى والأسود والشجاع والأرقم^(١).

والحيات مختلفات الجهات ، وهي من الحيوانات التي يكثر اختلاف اجناسها في الضرر والسم ، وفي الصغر والعظم ، وفي التعرض للناس وفي الحرب منه^(٢). وكُنِيَ عنها بآبنة الرمل ، وحملت البينا الاخبار اسماء كثير من الهذليين والصعاليك وغيرهم من الذين ماتوا نتيجة لسع الحيات لهم^(٣). او شوهت اجسامهم كما وقع لذي الاصبغ العدواني الشاعر المعروف الذي نهشته حية في اصبغه فقطعها^(٤).

والعرب تضرب المثل في الظلم بالحية فيقولون : اظلم من حية لأنها لا تتخذ بنفسها بيتا ، وكل بيت قصدت نحوه هرب اهله منه ، واخْلوه لها ، قال مضر بن لقيط يشكو من ظلم قومه له^(٥) :

لَعُمْرَكَ إِنِّي لَوْ أَتَخَصَّمُ حِيَةً إِلَى فَتَقَعَسَ مَا أَنْصَفْتَنِي فَتَقَعَسَ
إِذَا قُلْتُ مَاتَ الدَّاءُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ سَعَى حَاطِبُ مِنْهُمْ لآخرَ يَقْبِيسُ
وكان شكل الأفعى ، وما تحمله من السم الزعاف الى فريستها يبعث الهلع والرهبة في نفوسهم ولهذا كانت صورتها تقرن بصورة القوة . وكانوا يقولون للرجل المنيع الجانب والداهية ، حية الأرض ، قال ذو الاصبغ العدواني يصف ما وقع بين قومه من بأس فتفانوا^(٦) :

عَدِيرَ الْحَيِّ مِنْ عَدَوَا نَ كَانُوا حَيَّةَ الْأَرْضِ

(١) انظر حيوان الجاحظ ٢٤٣/٤ و ٢٤٧ والسفر الثامن من المخصص ١٠٦-١١٢
(٢) الجاحظ . الحيوان ٢١٢/٤ (٣) انظر اخبار الشعراء الهذليين في شرح اشعارهم (فراج) (٤) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ٥٩٧ (بيروت) . (٥) الجاحظ . الحيوان ١٥١/٤ (٦) الاصمعي . الاصمعيات ٦٨ .

بَعَثَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَلَمْ يُبْتَغُوا عَلَى بَعْضٍ
وقال أوس بن حجر يفخر بقومه^(١) :

يرى الناسُ منا جلدًا اسودَّ سالخٍ وفروةَ صيرغامٍ من الأسد ضيغمٍ
وليس في الأرض شيءٌ جسمه مثل جسم الحية الا والحية أقوى بدنا منه
اضعافا ومن قوتها أنها اذا ادخلت رأسها في جحرها او في صدع الى صدرها ،
لم يستطع أقوى الناس ، وهو قابض على ذنبها بكلتا يديه ان يخرجها ،
لشدة اعتمادها وتعاون اجزائها^(٢) . ومن اعاجيبها أنها وان كانت موصوفة
بالشره والنهم وسرعة الابتلاع فلها في الصبر في أيام الشتاء ما ليس للزهد ،
ثم هي بعد مما يصير بها الحال الى ان تستغني عن الطعام^(٣)

وكنوا عن التهيب للهرب والاستبسال فيها بلباس الاسود وجلود النمر
يقول قيس بن الخطيم^(٤) :

مَنْ تَلَقَّوْا رِجَالَ الْاَوْسِ تَلَقَّوْا لِبَاسَ اسَاوِدٍ وَجُلُودَ نَمْرٍ
وقال خداس بن زهير^(٥) :

ونحن اذا ما الخيل ادرك ركضها لبست لها جلد الاساود والنمر

اما لوئها ، فقد اشار اليه بشر في حديثه عن تشبيه آثار الديار فقال^(٦) :

لِمْعَنَ الدِّيَارِ غَشِيَتْهَا بِالْأَنْعُمِ تَبْدُو مَعَالِمُهَا كَلَوْنِ الْارْقَمِ
واشار النابغة الى لوئها ايضا في حديثه عن قلقه الذي صورته بلدغة مللوع
من افعى رقشاء اللون فقال^(٧) :-

فبت كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي ضُثَيْلَةً مِنْ الرَّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا السَّمِ نَاقِعِ

(١) أوس بن حجر . الديوان/ ١٢٤ (٢) الجاحظ . الحيوان ١١١/٤ (٣) الجاحظ .

الحيوان ١٢٠/٤ (٤) قيس بن الخطيم . الديوان/ ٦٠ (٥) خداس بن زهير . (٦) بشر .

الديوان/ ١٧٧ (٧) النابغة . الديوان/ ١٥٦

وللتأبغة مقطوعتان يصور فيهما الأفعى بصورة مفزعة ومرعبة^(١) . واعتبر وصفه لها من احسن ما قيل^(٢) . ولعنترة مقطوعة كاملة يتحدث فيها عن الثعبان ويتطرق الى عاداته ووصافه^(٣) :

وللعرب فيها مزاعم كثيرة وغريبة^(٤) ، وكان اهل البادية يصيدون الحيات ويشوونها ثم يأكلونها^(٥) وان كانوا يتهاجون بأكلها في بعض الاحيان^(٦) . قال الشاعر^(٧) :

فإياكم والريِّفَ لا تَقْرُبْنَهُ
فان لديه الموتَ والحم قاضيا
هم طردوكم عن بلادِ ابيكم
وانتم حُلُولُ تَشْتَوْنَ الافاعيا

ومن خلال هذه النصوص نستطيع ان نحكم على الصور التي قدمها الشعراء ، ويمكن اعتبار التأبغة الديبائي من اكثر الشعراء اهتماما ، واطولهم ذكرا لهذا الحيوان والظاهر ان اهتمام الشعراء يرتبط بطريقة الحياة التي كانوا يعيشونها ، فالشاعر الذي عاش في اواسط الصحراء احس بأوصافها الدقيقة ، فكان وصفه لها وصفا حسيا . اما الشعراء الآخرون فكان تعرضهم لذكرها تعرضا يعتمد على الوصف العام بعيدا عن الصور التي توحى بالدقة ، وفي الغالب كان تصويرهم لها مرتبطا بالمعنى الذهني ومن هنا جاءت اوصافهم لها واستعمالهم لمعانيها .

وكنوا للأذى والمئة والشرور والمكائد بالعقارب اوديبها قال عروة بن الورد^(٨)

فللموت خيرٌ للفَى من حياته فقيراً ومن مولى تدبُّ عقاربُه

(١) انظر ديوان التأبغة/ ١٥٦ (٢) ابن الشجري . الحماسة/ ٢٧٣ (٣) ابن قتيبة . المعاني الكبير ٦٦٧/٢ (٤) انظر حيوان الجاحظ ١٧٩/٤ و ١٨٧ و ١٨٩ (٥) الجاحظ . الحيوان ٣٠٢/٤ (٦) الجاحظ . الحيوان ٢٦٤/٤ (٧) الجاحظ . الحيوان ٢٦٤/٤ (٨) عروة . الديوان/ ١٥١ .

وقال طرفة ينعت الكامل في الناس ، وكيف يصبح هدفا لاحتقادهم
وشروهم^(١)

من تَمَّ في الناس لم تُؤمن عقاربُه
على الصديق ولم تُؤمن أفاعيه
وقال الاعشى^(٢) :

ارى الناس هَرَوْنِي وشُهْرَ مدخلي
وفي كُلِّ ممشى أُرصدَ الناسُ عقربا

الحرباء : اما الحرباء فدويية اذا بدت الشمس لجأ بظهره الى اصول
الشجر وشماريخ النخل ، فلن رمضت الارض ، ارتفع ، ثم هو يقلب بوجهه
ابدا مع الشمس حيث دارت حتى تغرب ، وكلما حميت عليه الشمس رأيت
جلده يخضر وكانت اشارات الشعراء اليه قليلة^(٣) . فكانوا يكونون بها عن شدة
الحر ، قال عبيد ينعت قوة راحلته وهي تقطع الفلاة الواسعة البعيدة الأطراف^(٤)
ارمي بها عرض الدوى ضامزة في ساعة تبعث الحرباء مسمومة^(٥)
وقال بشر يصف الفلاة التي افقرت من الانيس^(٦) .

ومقفرة يحارُ الطرفُ فيها على ستنٍ بمندقعِ الصُّداح
تجأوبُ هامُها في غورتِها إذا الحيرباءُ أوفى بالمراح
الجواد : عرفت شعوب الشرق الجراد من أقدم العصور كما عرفت
احواله واطواره وغزواته وما يحمله للزرع من فناء ودمار ، وسميت الارض

(١) طرفة . الديوان/ ٢٣٦ (٢) الاعشى . الديوان/ ١١٣ وانظر ديوان عروة/ ١٥٣ وديوان
النايفة/ ١٦٠ (٣) انظر ديوان ابي دواد/ ٣٢٦ وديوان علي بن زيد/ ١٤٦ وحيوان
المحافظ/ ٣٦٤/٦ وما بعدها (٤) عبيد . الديوان/ ١٢٩ (٥) ضامزة : لارغام لها ، او
تمسك جرتها في فيها ، ولا تجتر من الفزع . مسمومة : من ربح السموم الحارة (٦) بشر ،
الديوان/ ٤٥ وانظر / ١٩٨ من الديوان نفسه .

التي لا نبات فيها مجرودة كأنها أصبحت عرضة للجراد كما قال لبيد^(١) :
ولقد قطعْتُ وصيلةً مجرودةً^٢ يبكي الصدى فيها لشجرِ اليوم
وكان الجراد يأتي على هيئة اسراب عظيمة ترى كالسحاب الذي يسد
الافق ولهذا شبه الشعراء الجيش الكثير به قال الافوه الاودي^(٣) :
بمناقب بيض كأن وجوههم زهر قبيل ترجل الشمس
دبوا كمتشر الجراد هوت بالبطن في درع وفي ترس
وقال لقيط الايادي^(٤) :

الا تخافون قوما لا أبا لكم أمسوا اليكم كأمثال الدبا سرعا
واكثر الشعراء من تشبيه جماعات الخيول بالجراد ، ووجدت هذه الصورة
في نفوسهم رضى واستحسانا قال اوس ينعت فرسا^(٥) :

تَقَبَّلَ مِنْ خَيْفَانَةٍ جُرْشُعِيَّةٍ
سَلِيلَةٍ مَعْرُوقٍ الْاِبَاجِلِ جُرْشُعٍ
وقال بشر^(٥) :

مُهَارِشَةَ الْعَيْنَانِ كَانَ فِيهِ جَرَادَةٌ هَيَّوَةٌ فِيهَا اصْفَرار
وشبه المفضل النكري كثرة النبل ومبروره وسرعته بالجراد قال^(٦) :
كَأَنَّ النَّبْلَ بَيْنَهُمْ جَرَادٌ تُكْفِيهِ شَامِيَةٌ خَرِيْقٌ
وتعرض الشعراء في حديثهم عن الجراد للونين منها ، الاسود والاصفر

(١) لبيد . الديوان/ ١١٤ (٢) الافوه الاودي الديوان/ ١٦ (٣) ابن الشجري . المختارات
٢٤/ وانظر ديوان اوس/ ٧٩ وديوان الاعشى/ ١٧٥ وشرح اشعار الهذليين ١١٦٠/٣
(٤) اوس . الديوان/ ٦١ (٥) بشر . الديوان/ ٧٤ وانظر ١٨٩ من الديوان وديوان امرئ
القيس/ ١٢١ و ١٦٣ وديوان الطفيل/ ٩ و ٢٢ وديوان الاعشى/ ١٧٥ وشرح اشعار الهذليين
٣٥٣/١

فالجراد الاسود يترك اثرا على الأرض وهو يدب عليها كما يقول اوس^(١) والجنذب بالاسود يصير في الصحراء المقفرة التي لا يهتدي فيها السالك كما يذكر الاعشى^(٢) اما بشر فيصف الجرادة بالصفرة لأن الذكور فيها صفرة والجرادة انما تصفر حين تم وينبت جناحها وتبلغ مداها^(٣).

وتطير النابغة الذبياني من الجرادة عندما تجهز مع زبان بن سيار الفزاري للغزو فلما أراد الرحيل نظر الى جرادة قد سقطت عليه فقال : جراد تجرد ، وذات لونين غيرى من خرج في هذا الوجه ، ولم يلتفت زبان الى طيرته وزجره ، ونفذ لوجهه فلما رجع الى موضعه الذي كان النابغة فارقه فيه وذكر ما نال من السلامة والغنيمة انشأ يذكر شأن النابغة فقال :^(٤)

تَحْيِرُ طَيْرَةَ فِيهَا زِيَادٌ لَتَعْبِرَهُ وَمَا فِيهَا خَبِيرُ
أَقَامَ كَانَ لُقْمَانَ بْنَ عَادٍ أَشَارَ لَهُ بِحِكْمَتِهِ مُشِيرُ
تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا طَيْرَ إِلَّا عَلَى مَتَطِيرٍ وَهُوَ الثَّوْبُورُ
بَلَى شَيْءٌ يُوَافِقُ بَعْضَ شَيْءٍ أَحْيَيْنَا وَبَاطَلَهُ كَثِيرُ

وروى الجاحظ اخباراً كثيرة عن اكله وطيب لحمه فقال : والجراد الاعرابي لا يتقدمه في الطيب شيء ، وما احصي كم سمعت من الاعراب من يقول : ما شبت فيه قط . وما ادعه الا خوفا من عاقبته او لأنني اعيأ فأتركه^(٥) ثم يقول : والجراد يطيب حاراً وبارداً ومشوياً ومطبوخاً ومنظوماً في خيط ويجعولا في المله ، والجراد المأكول ضروب فمنه الاهوازي ومنه المذبب واطيبه الاعرابي واهل خراسان لا يأكلونه^(٦).

النحل : للنحل في احاديث الشعراء ولا سيما الهذليين حديث طويل ،

(١) اوس . الديوان/ ٩٥ (٢) انظر ديوان الاعشى/ ٩٧ . (٣) بشر . الديوان/ ٧٤ وانظر حيوان الجاحظ ١٧٤/٤ و ٥٥٩/٥ . (٤) الجاحظ . الحيوان ٥٥٥/٥ (٥) الجاحظ . الحيوان ٥٦٥/٥ (٦) نفس المصدر ٥٦٥/٥ - ٥٦٦

لكثرة انتشاره في مناطقهم واستفادتهم من عسله الذي كان يعد بضاعة رائجة من بضائعهم ، وغذاء طبيعياً تقتات عليه جموع غفيرة منهم وكان يحمل من بلاد هذيل الى مكة^(١) ، وعرفت بعض المناطق بشهرتها به ، لوجود النباتات التي ترشعها ، وتعسل عليها ، كمنطقة حداب بني شبابة التي تعد من أكثر ارض العرب عسلاً^(٢) . ولهذا كثرت صوره في شعرهم فتحدث الشعراء عن الطرق التي يصلون بها الى خلاياه لجنيه والوسائل التي يستخدمها مشترارو العسل في هذه العملية من سقاء واوعية وادوات واعواد وحبال وما يجلب لهم ذلك من المشاق وقد صور ساعدة بن جؤية هذا العمل في قوله^(٣) :

أرى الجوارس في دؤابةٍ مُشْرِفٍ	فيه النُّسُورُ كما تَحَبَّيَ الموكبُ
من كلِّ مُعْنَقَةٍ وَكُلِّ عِطَافَةٍ	مما يُصَدِّقُهَا ثَوَابُ يَزْعَبُ
منها جوارِسُ للسَّراةِ وتَأْتِرى	كَرَبَاتٍ أَمْسَلَةٍ إِذَا تَتَصَوَّبُ
فَتَكْشِفُ عَنْ ذِي مَثُونٍ نَيْسِرٍ	كَالرَّيْطِ لَاهِفٍ وَلَا هُوَ مُخْرَبُ
وَكَأَنَّ مَا جَرَسَتْ عَلَى أَعْضَادِهَا	حِينَ اسْتَقَلَّ بِهَا الشَّرَائِعُ مَحْلَبُ
حَتَّى أَشِيبَ لَهَا وَطَالَ إِيَابُهَا	ذُورُجَلَةٍ شَتْنُ الْبِرَائِنِ جَحْنَبُ
مَعَهُ سِقَاءٌ لَا يُفْرِطُ حَمْلَهُ	صَفْنٌ وَأَخْرَاضٌ يُلْحَنُ وَمَسَابُ
صَبَّ اللَّهْيْفُ لَهَا السُّبُوبَ بِطَغْيَةٍ	تُنْبِي الْعُقَابَ كَمَا يُلْتَطُّ الْمَجْنَبُ
وَكَأَنَّهُ حِينَ اسْتَقَلَّ بِرِيدِهَا	مِنْ دُونَ وَقْبَتِهَا لَقَا يَتَذَبْذَبُ
فَقَضَى مَشَارَتَهُ وَحَطَّ كَأَنَّهُ	خَلَقَ وَلَمْ يَنْشَبْ بِهَا يَتَسَبَّبُ

(١) ياقوت . البلدان ٤/ ٧٩٥ (٢) البكري . معجم ما استمع ٢/ ٤٢٨ - ٤٢٩

(٣) ساعدة بن جؤية . شرح اشعار الهذليين ٣/ ١١٠٨ وانظر ٣/ ١١٣٨ - ١١٤١ والمسيب بن علس أبيات طويلة يتحدث فيها عن النحل وأوصافه وأعماله وأصواته . انظر ديوانه ضمن ديوان الاعشى (جابر) ٣٥٢/ ٣٥٣ .

فأزالَ ناصحَها بأبيضَ مَفسرطٍ من ماءٍ الهابِ عليه التَّألبُ^(١)
 وكان الصعاليك يجدون في اشتيَارِ العسل وسيلة من وسائل الرزق وطريقة
 من طرق الحصول على ما يسدون به رمقهم ومن أجل هذا كانوا يعرضون
 انفسهم لأشد المخاطر ويحدثنا تأبط شرا في قصيدة من قصائده عن مغامرة
 له خرج فيها قاصدا بلاد هذيل ليشتار عسلا ، وكان بينه وبين بني هذيل
 عدااء مستحكم وعندما علموا بحجره وجدوا الفرصة مواتية للانتقام منه وهو
 في داخل الغار ، وعندما علم تأبط شرا بذلك مضى في المراوغة ، وكان قبل
 ذلك قد نقب في الغار ثقباً اعده للهرب وجعل يسيل العسل من الغار ويهرقه
 ثم عمد الى الزق فشده على صدره ثم لصق بالعسل ولم يزل يزل حتى خرج
 سليماً الى اسفل الجبل فنهض وفاتهم^(٢) .

وربما كانت المقايضة بالعسل معروفة ، فعندما اراد اوس بن حجر ان
 يتحدث عن قيمة قوسه والمساومة التي جرت عليه ذكر ان احد المساومين
 دفع له ثلاثة ابراد جياد وزقا من العسل فقال^(٣) :

ثَلَاثَةُ اَبْرَادٍ جِيَادٍ وَجُرْجَةٌ وَأُدْكَنٌ مِنْ أَرِي الدَّبُورِ مُعَسَّلٌ

والنحل حيوان غريب ذكره الله عز وجل في القرآن وذكر انجاءه له
 والهامه وتعليمه في اتخاذ الجبال بيوتا تتعسل فيها ، واتخاذ الشجر طعاما تجرسه
 وتعتاد اكله^(٤) . وتحدث الباحث عن النحل في سياق حديثه عن مقياس قدر
 الحيوان فقال : « وكذا خلق النحلة مع ما فيها من غريب الحكم وعجيب التدبير
 ومن التقدم فيما يعيشها ، والادخار ليوم العجز عن كسبها ، وشمها ما لا

(١) الارى : العسل ويقال : تأرى : تجمع العسل . الجرس : العمل ، وهو اخذها من الشجر
 واكلها . يزعب : يتدافع . ذو رجلة : صبور على المشي . ججنب : قصير قليل . السبوب :
 الاسباب : وهي الجبال التي يرتقى فيها فينزل بها . (٢) الاصفهاني . الأغاني (ساسي)
 ٢١٥/١٨ (٣) اوس . الديوان/ ٩٨ (٤) سورة النحل . الآية ٦٨ : واوحى ربك الى
 النحل ...

يشم ، ورؤيتها لما لا يرى ، وحسن هدايتها والتدبير في التأمر عليها واطاعة
ساداتها وتقسيط اجناس الاعمال بينها على اقدار معارفها وقوة ابدانها ، فهذه
النحلة وان كانت ذبابة فانظر قبل كل شيء في ضروب انتفاع ضروب الناس
فيها فأنتك تجدها اكبر من الجبل الشامخ والقضاء الواسع^(١) .

والنحل تجتمع فتقسم الاعمال بينها فبعضها يعمل الشمع وبعضها يعمل
العسل ، وبعضها يبني البيوت ، وبعضها يستقي الماء ويصبه في الثقب ويلطخه
بالعسل ومنه ما يبكر إلى العمل ومن النحل ما يكفه حتى اذا نهضت واحدة
طارَتْ كلها^(٢) . ومنها ما ينقل العسل من اطراف الشجر ومنها ما ينقل
الشمع الذي تبني به فلا تزال في عملها حتى اذا كان الليل آتت الى ما بها^(٣) .
واستخدم الشعراء النحل في صورتين ، صورة تعتمد على الصوت اخذت
جانبا واسعا من اوصافهم ، وصورة تعتمد على الهيئة . اما الاولى فهي صورة
النساء اللواتي اسر رجالهن وتركبن وحيدات ، لا يرين الا التطير ولا يسمعن
الا الرياح المسرعة المدوية التي تشبه جماعات من النحل تدوي كما يرى
الافوه الاودي^(٤) . والزجل الذي تثيره اصواتها كما يحسب المسبب بن علس^(٥) ،
وحفيف النبل حين ينطلق من القوس كما يسمعه الشنفرى^(٦) . واما الاخرى ،
فهي صورة الجماعات الكثيرة المتزاحمة من الخيل في قول الطفيل^(٧) :

فباتوا يستنون الزجاج كأنهم اذا ما تنادوا خشرم متحذّب
وقول المثقب العبيدي^(٨) :

وامكن اطراف الاسنة والقنسا يعاسب قود ما تُثني قنودها

(١) الجاحظ . الحيوان ١٠/٦ (٢) الجاحظ . الحيوان ٤١٧/٥ (٣) الجاحظ . الحيوان
٤١٨/٥ . (٤) انظر ديوان الافوه الاودي ١٨/ (٥) انظر ديوان الاعشى (جابر)
٣٥٢/ (٦) الاصفهاني . الاغانى ١٤١/٢١ (٧) الطفيل . الديوان ٢١/ (٨) المثقب
العبيدي . الديوان ٢٤/

وجماعات الكلاب المطلقة كما نعتها الاعشى^(١) :

فصبّحه عند الشروق غُدِيّة كلاب الفتى البكري عوف بن ارقما
فأطلق من مجنوبها فأتبّعنه كما هيج السامي المعسل خشرما
واعداً تأبط شرا الذين يطاردونه كما وصفهم في قوله^(٢) :

ولم انتظر ان يدهموني كأنهم ورائي نحل في الخليّة واكنسا
الى جانب الصور الاخرى التي لمسها الشعراء في هذا الحيوان . فالنحل
في سرعة اهتدائه الى اهدافه كالنحل^(٣) ، ولسعه كلدغ النبال^(٤) واستساغة
الشمّ والاستلذاذ به كالعسل المزوج بماء السحاب^(٥) وكانت اشارات الشعراء
الى الالوان في حديثهم عن النحل او عسله قليلة . فالمسيب بن علس يشير
الى اللون الاسود وهو يصف رؤوسها فيقول^(٦) :

سود الرؤوس لصوتها زجل محفوفة بمسارب خضر
ويذكر ساعدة بن جؤية اللون الابيض في حديثه عن العسل الشديد الصلب^(٧)
وفي حديثه عن الماء الخالص الذي يمزجه .^(٨) ومن الجدير بالذكر ان اشير
الى ان اغلب حديث الشعراء عن العسل والنحل كان يأتي في معرض اوصافهم
لثغور الاحبة وعذوبة ريق افواههن^(٩) . وعد المسيب بن علس سابقا لغيره
من الشعراء في اوصافه لثغر المرأة^(١٠) في قصيدته التي اشار فيها الى النحل .
الذباب : كان وجود الذباب بالنسبة للشاعر الجاهلي يعني الحياة ويقظتها

(١) الاعشى - الديوان/ ٢٩٥ - (٢) الاسفهاني . الاغاني ٢١٣/١٨ وانظر ديوان الطفيل
٢١/ (٣) انظر ديوان الاعشى/ ٢٥ وانظر شرح اشعار الهذليين ١٢٧٤/٣ (٤) انظر
شرح اشعار الهذليين ١١٨٣/٣ (٥) انظر ديوان طرفة/ ١٤٣ (٦) المسيب . ديوان
الاعشى/ ٣٥٢ (٧) انظر شرح اشعار الهذليين ١١٣٨/٣ (٨) نفس المصدر
١١١٢/٣ (٩) انظر ديوان عبيد/ ٤٠ وديوان امرئ القيس/ ٢٠٤ وديوان ابي دود
٣٠٦/ وشرح اشعار الهذليين ١١٠٧/٣ و ١١٣٨ (١٠) ابن قتيبة . الشعر والشعراء

اذ يعد وجوده دليلاً على الخضرة والربيع ، لأن الذباب لا يغني الا في الرياض ولا يهزج الا في الخضرة ، والخضرة والرياض كانت تعني بالنسبة للشعراء الجاهليين الذين الهبت وجوههم لفحات السموم اللاذعة ، الحياة الزاهية المفتحة ، المليئة بالشذى العاطر ، المفعمة بأسباب البقاء والاستقرار ، ولهذا اقترن ذكره بالغناء والرياض والزهور ، وسموا طنينه غناء قال عنترة يصف روضة^(١) :

جادت عليها كل عين ثرة فتركز كل حديقة كالدرهم
سحاً وتسكاباً فكل عشية يجري عليها الماء لم يتصرم
فترى الذباب بها يغني وحده هزجاً كفعل الشارب المترنم
غرداً يسن ذراعه بذراعه فعل المكب على الزناد الاجذم^(٢)
وشبه المثقب العبدى صوته بتغريد الحمام قال^(٣) :

وتسمع للذباب اذا تغنى كتغريد الحمام على الكون
اما زهير ، فيشبه صوته وطنينه بترنم السكران اذا غنى^(٤) . وذكر
الذباب في موضع الدم والهجاء فقالوا في المثل : ما هم الا فراش نار وذبان
طمع^(٥) واذا ارادوا التصغير والتقليل ضربوا المثل بالذبان^(٦) وسموا
الذباب الذي يهلك الابل ، الازرق وقيل إنه اخضر اللون قال المتلمس^(٧) :
وذاك اوان العرض حيّ ذبابه زنايره والازرق المتلمس

(١) عنترة . الديوان/ ٣٧٢ وانظر حيوان الجاحظ ٣/ ٣١٥ (٢) السح : الصب الشديد .
يسن : يحذ . المكب : المقبل على الشيء . الاجذم : المقطوع الكف يقول : يصوت الذباب ،
وهو يحك احدى يديه بالآخرى فيحكى قذح رجل ناقص اليد النار من الزندين وهذا من التشبيهات
التي لا نظير لها في الشعر الجاهلي (٣) المثقب العبدى . الديوان/ ٣٧ وانظر حيوان الجاحظ
٣/ ٣٨٨ (٤) زهير . الديوان/ ٢٦٣ (٥) الجاحظ . الحيوان ٣/ ٣٠٤ (٦) الجاحظ
الحيوان ٣/ ٣١٧ (٧) ابن قتيبة . المعاني الكبير ١/ ٦٠٤ وانظر حيوان الجاحظ ٣/ ٣٩٠

ويذكر زهير الذباب الذي خالط لونه حمرة في وصفه لناقته^(١) .
ومن الذباب ما كان يدخل في انف البعير او يقع على رؤوس السدواب
فيؤذيها كالقمع^(٢) . والشذا^(٣) ومنها ما كان يطير فوق الماء كالتزخارف^(٤) .
اما الوانه فذبان الشعراء حمر ، والذباب التي تهلك الابل زرق والذبان
الذي يسقط على الدواب صفر^(٥) ، وكان يطلق لفظ الذباب على النحل
في كثير من الأحيان ومن هنا كان التمييز في بعض الأحيان بين المقصود
منهما صعباً^(٦) .

وفي المعنى المجازي استعمل الذباب بمعنى الأذى لما يشبهه ، وعندما
اراد الحارث بن ظالم ان يمدح قريشاً سئى عن اعدائهم بالذباب فقال^(٧) :
فلو اني اشاء لكنت منهم وما سيرت اتبع السحابا
ولا قظت الشربة كل يوم أعدى عن مياههم الذبابا
وعد الذباب من الحيوان اللجوج^(٨) ، واورد الجاحظ في ذلك قصصاً
كثيرة^(٩) ورمز له بالعناد حتى قيل اجرأ من الذباب^(١٠) ، وازهى من ذباب^(١١)
لأنه يسقط على انف الملك الجبار وعلى موق عينيه ليأكله ، ثم يطرده فلا
ينطرد^(١٢) وهو يقع على جفن الأسد ويذاد وهو مع ذلك يعود .

(١) انظر ديوان زهير/ ٣٧٣ (٢) انظر ديوان اوس/ ٥٧ . (٣) انظر الأصمعيات
١٥٩/ و ١٨٩ (٤) انظر ديوان اوس/ ٦٩ . (٥) الجاحظ . الحيوان ٣٩٠/ ٨ - ٣٩١
(٦) انظر اللسان والتاج (ذب) (٧) المفضل . المفضليات ١١٦/ ٢ (٨) الجاحظ .
الحيوان ٣/ ٣٤٠ (٩) الجاحظ . الحيوان ٣/ ٣٤٦ (١٠) الميداني . مجمع الامثال/ ١٩٠
(١١) الجاحظ . الحيوان ٣/ ٣٥٥ (١٢) نفس المصدر .

الباب الثاني

الدراسة الفنية

الفصل الأول

تصوير الطبيعة في الشعر الجاهلي

- ١ - فن الشعر الجاهلي وتطوره
- ٢ - تصوير الطبيعة الصامتة
- ٣ - الأطلال
- ٤ - تصوير الطبيعة الحية
- ٥ - الصيد

فن الشعر الجاهلي وتطوره

من العيب حقاً ان نحاول تحديد البداية الأولية للشعر العربي ، وثبتت المراحل الأولية التي مر بها ، حتى استوى في صورته التي وجدناه عليها ، لأنها محاولة لا يمكن بأي حال من الأحوال ان تنيسر لنا اسبابها ، ولكن الذي يبدو من قصائد الشعراء التي وصلت إلينا ان الشعر العربي الموجود بين ايدينا قد سبق بمحاولات كثيرة ، وتجارب متعاقبة ارست دعائمه ، وحققت له مقوماته وتقاليده الفنية التي استقرت وأصبحت معالم ثابتة ، واصطلاحات معروفة . وليس بين ايدينا من قصائد تلك المراحل التي قطعها هذا الشعر ما يبين لنا الصورة التي كانت عليها .

ان صورة القصائد التي بين ايدينا تامة ، وتكاد تكون متكاملة الى حد بعيد لأن تقاليدها الفنية معقدة ، وصياغتها محكمة ، ومعانيها تدل على الجودة والاختيار والانتقاء . اما الاوزان والقوافي والموضوعات ، فهي تقاليد اخرى تنبئ عن مرحلة ناضجة من مراحل تطور هذا الشعر . وقد حاول القدماء الوقوف عند اولئك الشعراء الجاهليين الأوائل ، ولكننا نجد ابن قتيبة يذكر ثلاثة منهم ويقول : لم يكن لأوائل الشعراء الا الابيات القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة^(١) . وقد غلب على القصيدة الجاهلية

(١) ابن قتيبة . الشعر والشعراء / ٤٨ .

النظام الذي يطالعنا في معانيها وموضوعاتها ، والطريقة التي نظمت عليها ، فهي تبدأ - في غالب الاحيان - بوصف الاطلال والوقوف عندها ، والبكاء بين آثارها المتبقية ، ثم ينتقل الشاعر الى الحديث عن رحلته وما يركبه في هذه الرحلة ، وما يقطعه من مفاز ، وما يلاقيه من صعوبات وهو يشبه راحلته ببعض الحيوانات الوحشية المعروفة بسرعتها ، ثم يخرج بعد ذلك الى الغرض المقصود من القصيدة . وقد اخذ شكل القصيدة نظاماً ثابتاً لا يتغير مهما طالت ابياتها ، او تعددت اغراضها . فهي مجموعة من الابيات يجمعها وزن واحد وقافية واحدة .

ان صناعة هذا الشعر قد توفر لها من الخصائص والعناصر ما جعلنا نعتقد ان الشعراء كانوا يبذلون في سبيل الوصول الى صناعة قصائدهم ومقطعاتهم جهداً شاقاً وعناء كبيراً . فلم يكونوا يقبلون كل ما يرد على خواطرمهم ، وانما كانوا ينتقون ويمجدون ويعاودون النظر ، ليصونوا كلامهم عما قد يفسده ، ويحققوا له الشكل الفني المتعارف عليه بينهم . الى جانب الجهد الآخر الذي كانوا يبذلونه في سبيل المحافظة على موسيقى هذا الشعر . لأن الشعر مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالموسيقى فهو صورة رقيقة من صور الغناء والحنان وانغامه . واذا حاولنا دراسة موسيقى الشعر الجاهلي وجدنا ظاهرة الغناء والموسيقى واضحة فيه وضوحاً بيناً تدلنا على الجهود التي كانت تبذل في سبيل المحافظة عليها . فالقصيدة تتألف من وحدات موسيقية سميت الابيات ، يلتزم الشاعر فيها وزناً واحداً ، وكل بيت منها يمسك بالبيت الآخر في توازن موسيقي يطرد الى نهاية يستقر فيها النغم ، تسمى الروي . وهذا التوافق الصوتي في الوزن ، والتوازن الموسيقي في النهايات يشكلان الموسيقى الخارجية التي تنتظم القصيدة فيجعلانها تدور في محور واحد . وتحمل نغماً موسيقياً واحداً . ومثلها التصريع في مطالع القصائد . فقد صرع

أبو دواد ثلاث مرات في قصيدته الدالية ، صرع في قوله^(١) :

أمنٌ رسم يُعَفَّى أو رمادٍ وسُفَع كالحماماتِ القِرَاد^(٢)

وصرع بعد ذلك بيت فقال^(٣) :

مضيف الهم يمنعني رقادِي اليَّ فقد تَجافَى بي وسادي
لفقدِ الأَرَبِيِّ أبي بجَادِ أبي الأضيافِ في السنةِ الجَمَادِ

وصرع أوس ثلاث مرات في حائته ، صرع في قوله^(٤) :

ودَّعْ لميسَ وداعِ الصَّارِمِ اللّاحي إذْ فَتَنَكْتُ في فسادٍ بعد إصلاح

وصرع بعد ذلك بقليل فقال^(٥) :

هَبَّتْ تلومٌ وليستَ ساعةَ اللّاحي هَلَا انتظرتِ بهذا اللّومِ لصباحي

ثم صرع ثالثة فقال^(٦) :

إنّي أَرِقْتُ ولم تَأرقْ مغي صَاحي لمستكفٍ بُعيدَ النّومِ لَوَاح

وفي ديوانه مواضع أخرى يصرع فيها أكثر من مرة^(٧) .

وصرع امرؤ القيس ثلاث مرات في معلقته^(٨) . وصرع في غير معلقته

في أبيات كثيرة^(٩) ، ومثله زهير^(١٠) ، والاعشى^(١١) ، وليبد^(١٢) .

(١) أبو دواد . الديوان/ ٣٠٩ (٢) السفح : الأثاني لاسودادها . الفراد : المنفردة
(٣) أبو دواد . الديوان/ ٣٠٩ وانظر الصفحات ٣١٠ - ٣١١ و ٣٣٧ - ٣٣٩ من الديوان
(٤) أوس . الديوان/ ١٣ . (٥) أوس . الديوان/ ١٤ (٦) نفس المصدر/ ١٥
(٧) انظر ديوان أوس/ ٨٢ و ٩٠ و ١١٧ و ١٢٤ . (٨) انظر ديوان امرؤ القيس/ ٨
و ١٢ و ١٨ (٩) انظر ديوان امرؤ القيس/ ٢٧ و ٥٦ و ٦١ و ٦٩ و ٧٨ و ٨٥ و ٨٧
و ١٠٥ و ١٠٦ و ١٥٤ و ١٦٨ و ١٧٠ (١٠) انظر ديوان زهير/ ١١٦ و ١٢٣ و ١٢٤
و ١٢٦ (١١) انظر ديوان الاعشى/ ٢٧ و ٢٩ و ٥٥ و ٥٧ و ٦٥ و ٨٣ و ٨٥ و ١٧١
و ٢٣٣ و ٢٣٥ و ٢٦٣ (١٢) انظر ديوان لبّيد / ٥٤ و ٢٥٦ و ٢٩٧ - ٢٩٨

وتأثرت موسيقى الشعر بالغناء ، فكانت هذه الأوزان المجزوءة والخفيفة ، وقد خضع الرجز لكثير من هذه التأثيرات باعتباره وزناً شعبياً ينشد في أثناء حداثهم للإبل ، وفي كل ما يتصل بهم من حركة وعمل وحرب . لأنهم كانوا يجدون لغنائهم راحة من عناء ، وتسليه عن هم ، وعوناً على ان يمضوا فيما اعتادوا عليه من شؤون الحياة ، ولعل هذا الانتشار والاستخدام الواسع للرجز ، جعله عرضة للحذف والتحريف والتعديل حتى أصبحت نماذجه وامثله بعيدة عن الضبط .

أما تلك الانحرافات التي نلمسها في بعض الاوزان الشعرية ، وبعض القصائد وقوافيها ، فهي انحرافات نادرة وقليلة ، لا تشكل في الواقع الا جزءاً يسيراً من التراث الضخم الذي وصل إلينا . فقصيدة عبيد^(١) :

أفقرَ من أهله مَلْحُوبٌ فالقَطِيبَاتُ فالذَنُوبُ

التي عدها ابن قتيبة اجود شعره^(٢) ، وادخلها التبريزي في القصائد العشر وصدر بها ابو زيد القرشي المجهرات ، من مخلع البسيط وهو بحر نادر غير مألوف لا نراه الا في قصيدة لامرئ القيس^(٣) . ويبدو ان غرابة هذا البحر وقدم عهد عبيد ، وحدائث سن الشعر العربي في عصره ، اثرت تأثيراً كبيراً في القصيدة فكثرت زحافاتا وعللها ، واضطرب وزنها حتى قيل عنها ، لكثرة ما دخلها من الزحاف والقطع ، كادت ألا تكون شعراً . ومثلها قصيدة المرقش التي مطلعها^(٤) :

هل بالديار أن تُجيبَ صَمَمٌ لو كانَ رَسْمٌ ناطقاً كَلَمٌ

والتي يخرج شطور بعض ابياتها على الوزن الذي نظمت عليه القصيدة ومثلها مقطوعة سلم بن ربيعة التي اعتبرها المرزوقي خارجة عن البحور

(١) عبيد . الديوان ١٠ / (٢) ابن قتيبة . الشعر والشعراء ١٨٨ / ١ (٣) انظر ديوان امرئ القيس / ١٨٩ (٤) المفضل . المفضليات ٣٧ / ٢

التي وضعها الخليل بن احمد وقال انها اقرب ما يقال فيها انها نجيء على السادس من البسيط (مخلع البسيط) (١).

ولا بد ان تعد هذه الاضطرابات العروضية رواسب ويقايا تصور فترة زمنية لم يكن النظام العروضي فيها قد اكتمل ، لأن قسماً من الشعراء الذين رويت عنهم هذه القصائد المضطربة رويت عنهم قصائد كثيرة مستقيمة في وزنها وقافيتها (٢) واعتبر الدكتور شوقي ضيف اضطراب هذه القصائد في اوزانها دلالة على صحتها وان ابدى الرواة لم تعبت بها .

ولم تكن الجهود التي بذلها الشاعر في سبيل الحرص على الاصول الصوتية والعروضية كل شيء في صناعة الشعر وبناء القصيدة ، وانما حاول ان يعقد نماذج من التشبيهات المفصلة والصور المحكمة والخيالات الفنية لإثارة الانفعالات الوجدانية وتغذية الخيال بالصور المتحركة حتى اصبحت هذه اللوازم اصلاً من اصول صناعتهم ، وكثيراً ما كان الشاعر يلقي عناء وجهداً في اختيار الالفاظ والمعاني التي يريد ان يوفرها لهذه الصنعة ، وهذا ما حمل امرؤ القيس على ان يقول (٣) :

هوجهاً على الظلل المحيل لألنسا نبيكي الديار كما بكى ابن خلدان

ودفع عنرة على مشاركة امرئ القيس هذا الرأي اذ يقول (٤) :

هل غادر الشعراء من متردم ام هل عرفت الدار بعد توهم

وذهب كعب بن زهير هذا المذهب فقال (٥) :

ما اراتنا نقول الا رجيعاً او معاداً من قولنا مكروراً

(١) ابو تمام . الحماسة شرح المروزي ١١٣٧/٣ (٢) انظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي للدكتور شوقي ضيف ١٨ والفصل السادس من القسم الأول من كتاب الدكتور شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ومقالة الدكتور يوسف خليل في مجلة المجلة المصرية العدد/٩٨ (شباط ١٩٦٥) (٣) امرؤ القيس . الديوان/١١٤ (٤) عنرة . الديوان/٣٦٩ (٥) كعب بن زهير . الديوان/١٥٤ .

وتتضح اصول هذه الصناعة كذلك في نماذج القصائد التي كان الشعراء يحرصون في مطولاتهم عليها ، فهي تبدأ غالباً بوصف الاطلال ، وبكاء اللمن ثم ينتقل الى وصف رحلات الشاعر في الصحراء ، وحينئذ يصف ناقته التي تملأ حسه وصفاً دقيقاً فيه حذق ومهارة ، ثم يخرج من ذلك الى الموضوع المعين من مدح او هجاء أو غيرهما . وقد استقرت تلك الطريقة التقليدية في الشعر العربي وثبتت أصولها في مطولاته الكبرى على مر العصور .^(١)

وهذا التقليد يفسر لنا اتحاد المعاني والصور والتشبيهات ، ومعالجة الموضوعات عند الشعراء الجاهليين ، حتى اذا استطاع شاعر ان يسدح في اخراج صورة من الصور ، او تشبيه من التشبيهات اخذه الشعراء الآخرون ، فاستخدموه وتداولوه ، ونسجوا على منواله . الا ان الصورة العامة لتطور الشعر الجاهلي صورة طبيعية غير معقدة كما تبدو عند امرئ القيس او عند غيره من المعاصرين له ، لأنهم حاولوا في قصائدهم تسجيل الظواهر الطبيعية بصورة مباشرة ، ليس فيها تكلف ولا بعد بحيث يجعلون العبارات قريبة المنال ، لا يشوبها عسر ولا صعوبة . فاذا اراد امرؤ القيس ان يصور الليل ، يصوره بسواده وهمومه فهو امواج لا تنتهي ، يصوره وقد طال ، واسرف في الطول ، حتى يظن ان نجومه شدت بأسباب وامراس من الجنادل والجبال ، فهي ثابتة لا تتحرك واقفة لا تزول^(٢) .

واذا اراد ان يصور فرسه جعله قيداً لأوابد الوحش اذا انطلقت في الصحراء وهو لشدة حركته وسرعته كأنه جلمود صخر حطه السيل من عل^(٣) . واذا احس بقوة جريان جواده وقد ابتل جانبه من العرق ، قرنه بهزيز الريح اذا مرت بشجر الثأب ، المعروف باشتداد صوت الريح فيه^(٤) . واذا اراد ان يصف وميض البرق وتألقه ، شبه هذا التألق واللمعان بحركة

(١) شوقي ضيف . الفن ومذاهبه في الشعر العربي / ٢١ - ٢٢ (٢) امرؤ القيس . الديوان ١٩ / (٣) انظر ديوان امرئ القيس / ١٩ (٤) انظر ديوان امرئ القيس / ٤٩ .

اليدى^(١) وإذا تراءت له صورة الحياة والفناء ، التي تزخر بها الطبيعة ،
تمثلت له هذه الصورة في وصف قلوب الطير ، وهي مكدسة في وكسر
العقاب ، فيصور الرطب واليابس منها ، ووجد في العناب صورة حية
لتشبيه القلوب الرطبة ، ولمس في الحشف البالي نموذجاً واضحاً لتشبيه القلوب
اليابسة^(٢) .

وكذلك نجد اسلوب عبيد ، فهو طبيعي وسهل ، ولا يتجلى فيه التكلف
الذي اغرم فيه الشعراء فيما بعد ، لأنه حريص - كمعاصريه - على نقل
الصور نقلاً أميناً وصادقاً ، وتبدو هذه الظاهرة بصورة جلية وواضحة في
قصائده . وهي ميزة تميز شعراء هذه الفترة عن الشعراء الذين اعقبوهم ،
حتى أصبح الشاعر يعاني بعد هذه المرحلة معاناة واضحة تظهر في الصور
الشعرية والمقاييس الدقيقة والتشبيهات المعقدة التي بدأنا نلمسها عند اوس
ابن حجر ومن جاء بعده من الشعراء الذين سلكوا مسلكه . فعبيد يذكر
الاطلال كما يراها ، ويصورها كما تبدو له ويستخدم لها من الصور ما ينهياً
له من المحسوسات فيقول^(٣) :

لن السدار أقفرت بالجناب غير نؤى وديمة كالكتاب
غيرتها الصبا ونفح جنوب وشمال تذر دق التراب

ويكرر عبيد هذه الصورة في قصيدة أخرى فيقول^(٤) :
لن ديمة أقوت بجوة صرغدي تلوح كعنوان الكتاب المجدد
وتعود الذكريات الى نفس الشاعر ، فيرى ديار الاحبة المندوسة ،
وقد تناثر فوق رمالها النعام ، وانتشرت الظباء ، فالتحذت من ساحاتها
ومرابعها مراتع فيقول^(٥) :

(١) انظر ديوان امرئ القيس/ ٢٤ (٢) انظر ديوان امرئ القيس/ ٣٨ (٣) عبيد .
الديوان/ ٢١ (٤) عبيد . الديوان/ ٥٢ وانظر صفحة ١٠١ من الديوان نفسه .
(٥) عبيد . الديوان/ ١٠٥ - ١٠٦

دارُ حَيٍّ اصابَهُمْ سالفُ الدهرِ فأُضحَت ديارُهُمْ كالخِلال
مُفْغراتٍ إلا رمادا غَبِيًّا وبقايا من دمنة الأطلال
وأوارى قد عَقَوْنَ وثُوبًا ورُسُوماً عُرِّنَ مَدُّ احوال
بُدِّلَتْ مِنْهُمُ الدِّيارُ نَعامًا خاصباتٍ يُزْجِن خيط الرمال
وظباءُ كأنَّهُنَّ اِباريقُ لَحينٍ تَحْنُو على الاطفال

وهكذا يمضي عبید على هذا النمط في رسم الصورة الواقعية البسيطة ،
التي تستمد بساطتها من رسمها للواقع رسماً مباشراً ، دون مبالغة فيه ،
أو تزييف له .

واذا انتقلنا في اواخر العصر الجاهلي الى زهير وأوس ومدرستهما لاحظنا
اتساع التكلف ، حتى أصبح الشعر الجاهلي لا يصور في شعره عواطف
فياضة وإنما كان يعمل شعره عملاً ، وينشؤه انشاءً ، وكانت عنايته تنصب
على الفن نفسه ، فكثُر عند شعراء هذه الفترة التشبيه والمجاز والاستعارة وكثُر
الافتنان بها واشتدت عنايتهم باختيار ألفاظهم وتنقيح عباراتهم ، محاولين
بذلك مقاومة الطبع ، وعدم الاندفاع في قول الشعر مع السجية التي ترسل
ارسالاً ، فتفيض بالشعر كما يفيض ينبوع بالماء^(١) . وعندها بدأنا نحس
بتطور جديد للشعر الجاهلي ، وبدأنا نلمس اسساً جديدة لهذا التطور ،
لأن القصيدة بدأت تأخذ صورة غير صورتها البسيطة التي كانت عليها .
ومن الطبيعي ان تكون الصورة الجديدة مغايرة للصورة القديمة التي درج
عليها شعراء المرحلة الاولى من بعض الجوانب ، لأن هذه الصورة لم تنهيا
لأصحابها بشكل طبيعي ، وإنما هي نتيجة جهد وعناء ومهارة وحذق ،
وقد استطاع شعراء هذه المرحلة ان يستخدموا مهارتهم استخداماً واسعاً
في شعرهم ، فتمكنوا من الخروج بالشعر - كما يقول الدكتور يوسف

(١) طه حسين . في الأدب الجاهلي / ٢٨٨

خليف^(١) - من نطاق التعبير المباشر والتسجيل السريع الى نطاق الروية والاناة ، والتحمل من اجل التجويد والتهديب والصقل والإحكام .

لقد فرضت هذه القيود والمقاييس والالتزامات على الشاعر الجاهلي نمطاً شعرياً جديداً ، خضع له ، والتزم به ، وفرض عليه طريقاً معيناً في التعبير والتصوير . وقد اشار الجاحظ الى ذلك في قوله : « ومن شعراء العرب من يدع القصيدة تمكث عنده حولا^(٢) كريئاً^(٣) ، وزمناً طويلاً ، يردد فيها نظره ، ويقلب فيها رأيه اتهاماً لعقله ، وتتبعاً على نفسه ، فيجعل عقله ذماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، اشفاقاً على أدبه ، واحرازاً كما خوله الله من نعمته . وكانرا يسمون تلك القصائد : الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات ليصير قائلها فحلاً^(٤) خنذيذاً ، وشاعراً مقلعاً^(٥) . »

ونقل في موضع آخر قولاً للحطيئة فقال : « خير الشعر الحولي المحكك^(٦) » ثم قال ايضاً : « وكان الأصمعي يقول : زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر . وكذلك كل من يجود في جميع شعره ، ويقف عند كل بيت قاله واعاد فيه النظر ، حتى يخرج ابيات القصيدة كلها مستوية في الجودة ، وكان يقال : « لولا ان الشعر قد كان استعبدهم واستفرغ مجهودهم ، حتى ادخلهم في باب التكلف ، واصحاب الصنعة ، ومن يلتمس قعر الكلام ، واعتصاب الألفاظ لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعاني سهوا ورهوا ، وتتنال عليهم الألفاظ انثيالاً^(٧) . »

واختلف الشعراء في سلوكهم هذا ، وجهدهم وتعبهم ، فكانت قصائد بعضهم تأخذ شكلاً بسيطاً ، وتتعدد تعقداً واصحفاً عند آخرين ، توفرت لهم اسباب المهارة ، فحذقوا ضروب التهذيب ، واتقنوا فن الصياغة .

(١) يوسف خليف . مقال في مجلة المجلة المصرية العدد/ ١٠٠ السنة التاسعة/ ١٩٦٥ (٢) حولا كريئاً : حولا كاملاً (٣) الجاحظ . البيان والتبيين ٧/٢ . (٤) الجاحظ . البيان والتبيين ١٢/٢ (٥) نفس المصدر ١٢/٢ - ١٣

وقد التفت النقاد القدامى الى هذه الظاهرة ، فلقبوا الشعراء القاباً تدل على مدى احسانهم وتجويدهم فكان طفيل الغنوي يسمى المحجر لحسن شعره^(١) . ويسمى النمر بن تولب الكيس للسبب نفسه^(٢) وقيل ان ربيعة بن سعد كان يسمى المرقش لتحسينه شعره وتنميته^(٣) . ولا بد ان يعكس لنا هذا الاهتمام بالمعاني ، والتنقيح بالألفاظ ، طبيعة الحياة الأدبية التي كانت تسود العصر الجاهلي والتعقيد الذي كان يعتورها . وقد لمسنا ذلك في التكلف الذي كان الشعراء يبذلونه ، والتعب الذي كانوا يحملون أنفسهم عليه ، والروية في نظم الشعر ، والابتعاد عن الاندفاع في قوله مع السجية ، واتكأهم في وصفهم على التصوير المادي ، واخذهم انفسهم بالتجويد والتصفية والتنقيح ثم التأليف^(٤) وكان الشعراء يمدحون - وهم يتحملون هذا العناء ، ويبذلون هذا الجهد - تشجيعاً على الإجادة ، وقبولاً لدى الناس للتفحيط^(٥) .

وكان ذلك يحملهم على المحافظة على هذا المسلك ، والسير فيه ويدفعهم الى الإفاضة في ذلك ، وقد نبه الجاحظ الى ذلك في قوله : « ومتى كان اللفظ كريماً في نفسه ، متخيراً في جنسه ، وكان سليماً من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حجب الى النفوس واتصل بالأذهان ، والتحم بالعقول ، وهشت إليه الأسماع وارتاحت له القلوب ، وخف على السن الرواة ، وشاع في الآفاق ذكره ، وعظم في الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعلم الریض »^(٦) . وقال في موضع آخر : وهم يمدحون الحذق والرفق ، والتخلص الى حبات القلوب والى اصابة عيون المعاني ، ويقولون : اصاب المهدف اذا اصاب الحق في الجملة ويقولون : قرطس فلان ، واصاب القرطاس ، اذا كان اجود اصابة من الأول ، فاذا قالوا : رمى فأصاب

(١) ابن قتيبة . الشعر والشعراء ٣٦٤/١ نفس المصدر ٢٢٧/١ (٣) المفضل .
المفضليات ٤١٠/١ (٤) طه حسين . في الأدب الجاهلي ٢٧٢ و ٢٨٤ (٥) انظر الاغانى
٣٤٠/٩ (دار الكتب) و ١١٢/٢١ (ساي) . (٦) الجاحظ . البيان والتبيين ٦/٢

الغرة ، واصاب عين القرطاس ، فهو الذي ليس فوقه احد ، ومن ذلك قولهم : فلان يقل المحز ويصيب المفصل ، ويضع الهناء مواضع النقب^(١) ولعل هذه الدوافع كانت سبباً من اسباب انتشار هذا الاتجاه بين عامة الشعراء ، ويمكن اعتبار زهير بن ابي سلمى ، الذي استطاع ان يرسي تقاليد هذه المدرسة الفنية وتقاليدها ، وان ينهض بها نهضة رائعة بعد ان مهد لها استاذان كبيران هما : طفيل الغنوي وأوس بن حجر ، خير شاعر يمثل ذلك ، ويصور جوانبه ويلتزم قواعده التي لا تنتهياً الا بعد جهد بالغ وعناء كبير .

لقد ازدهر هذا الاتجاه على مسرح الحياة الأدبية في عصر زهير ، واصبح له من الانصار والاعوان ما ثبت اقدامه ، وحفظ اصوله لالتزام هؤلاء الانصار والاعوان بالخطوط الواضحة واعتمادهم على الاناة والروية في النظم وبذلك اخذ هذا الاتجاه مكانه للنهوض بفن الشعر وصناعته ، وخرج به من مرحلة الانطلاق الطبيعي الحر الى مرحلة التقيد بالقوانين الفنية الدقيقة واصبحت الصورة الشعرية عند اصحاب هذا الاتجاه تأليفاً يجهد فيه العقل ويقاوم فيه الطبع وتبذل في اعداده المشقة .. ولا بد ان يصاحب ذلك اهتمام بصور التشبيه والاستعارة والمجاز . ولعل حائية أوس التي اعجب بها القدماء اعجاباً شديداً ، ووجدوا أنها أجود ما قيل في وصف المطر^(٢) ، ولا ميته المشهورة التي وصف فيها سلاحه ، وقافيته التي نعت بها ناقته ، اثبت أدلة على هذه الظاهرة .

لأن الشاعر اكثر في هذه القصائد من ألوان التشبيه المادي كثرة مفرطة يمكن الاهتداء اليها بسهولة ، وسلك فيها طريق التصوير الدقيق الذي يحس حيناً بالبصر وحيناً بالسمع . واعتمد على فنون البيان المختلفة .

(١) نفس المصدر ١٦٠/٢ - ١٦١ الهناء : القطران. النقب: قروح الحرب . (٢) انظر ديوان اوس/ ١٣ (٣) انظر ديوان اوس/ ٨٢ (٤) انظر ديوان اوس/ ٧٧ .

وعلى هذا النحو سار زهير ، فذهب مذهب استاذه فاعتمد على التشبيه والتصوير والترويح ، واتخذ الشعر فناً وصناعة يعرض فيه صوره ، فيما فيها العين ويحرص على تنوع الصور وسعتها ، ويعمد الى تفصيلها وتمثيلها ، متخيراً لها المعنى المراد واللفظ المنتقى ، جاعلاً الى الهدوء والتمهل حين تدعوه الحاجة الى ذلك ، والى العنف حين يدعوا الامر الى الحركة والسرعة . وقد جمع كثيراً من هذه الصور والأوصاف في معلقته ، فاذا أراد ان يذكر سفر الأحبة اتبع الصور بعضها بعضاً في هدوء واتزان ، وانتقل معها من موضع الى آخر ، وتابعها بكل ما يقدر عليه من سبل المتابعة فوصف ظعن أحبته وقد رفعن فوقهن الانماط العناق ، والكلل الوردية الحواشي ، والرحال القشبية ، وفتات العهن الأحمر قال ^(١) :

تبصر خليلي هل ترى من ظعنائى تحمّلن بالعلياء من فوق جُرثم
علون بأنماط عناقٍ وكِلَيسَةٍ وِرَادٍ حواشيهَا مُشَاكِهَةٌ السَدَمِ
كَأَنَّ فُتَاتَ الْعِهْنِ فِي كُلِّ مَسْنَوِيٍّ نَزَلْنَ بِهِ حَبَّ الْفَنَاءِ لَمْ يُحْطَمِ
فهو يحدد مواضع الصورة وامكانها وازمانها وألوانها ، ويدقق أجزاءها ويحرص على استكمالها ببراعة فائقة ، تتمثل فيها قدرته الفنية ، وفهمه الواعي لطبيعة عمله والتزامه بالمقاييس الدقيقة التي اخضع لها عمله ، وبهذه الأوصاف يسمو فن الشعر عند زهير الى مستوى لم يجده عند غيره من الشعراء . ولم تكن هذه الملاحظات التي التفت اليها القدماء والمحدثون غريبة ازاء الأعمال الفنية التي قدمها لنا هؤلاء الشعراء ، والتي أصبحت حقاً نماذج رفيعة في جودتها وصياغتها وتهذيبها .

لقد استقر في هذه المرحلة نظام القصيدة واتضحت أسس العمل الفني في أذهان الشعراء ، وبرزت لهم السمات المميزة لأن الشعراء وقفوا على

(١) زهير . الديوان/٩ - ١٢

تراث زاخر من النماذج والأشكال التي مرت بها القصيدة العربية ، وتهيأ لهم حشد وفير من الصور والقوالب التي بذل في اعدادها الشعراء جهداً وعناء .

وهنا بدأت القصيدة عند شعراء هذه الفترة تأخذ شكلاً تقليدياً واضحاً لأنهم بدأوا يسلكون في اعدادها مسلك التقليد والمحاكاة ، فوقفهم على الاطلاع لا يشعروا بأنه يصدر عن تجربة ، ووصفهم لما تنائر فوق ديار الأحبة من حيوان لا يحمل مشاعر الصديق الحقيقية ، وتصويرهم للحيوان في هذه الصحراء القسيحة لا يمثل الدلالات الأصلية التي كنا نلمسها عند غيرهم من الشعراء ، وهكذا بدأنا نحس بعدم استطاعة الشاعر نقل الانفعال الصادق ، او العاطفة الحقيقية التي تشعروا بصدق التجربة التي كان الشعراء يعيشتونها وهم ينظمون هذه القصائد . ومن هنا كانت الصور متشابهة ، والأساليب متقاربة ، ومعالجة الموضوع تكاد تكون واحدة ، ويعد لبيد بن ربيعة النموذج الواضح لهذا الاتجاه ، لأنه كان يسير في نفس الطريق الذي سلكه الشعراء من قبله ، وتمثل له الصور التي حاولوا رسمها تمثيلاً كلياً ، فكان ينحت أبياته على غرار أبياتهم ، ويلون زوايا صوره بنفس الألوان التي استعملوها ، ويحدد ابعادها بالأبعاد التي انتهى اليها الشعراء الأوائل . فهو يبدأ كما يبدأ زهير ، ويصف كما يصف زهير ويعدد الأماكن التي قطعتها قوافل الأحبة كما عدد زهير ويكفي للتدليل على ذلك قراءة هذه الابيات (١) :

ألم تُلِّمْ على الدَّمَنِ الخَوَالِي لَسْمَى بِالْمَدَانِبِ فَالْقِفَالِ
فَجَنَّبِي صَوَابَ فَنَعَافُ قَوَّ حَوَالِدَ مَا تَحَدَّثُ بِالزَّوَالِ
تَحْمَلُ أَهْلَهَا إِلَّا عَرَاراً وَعَزَّافاً بَعْدَ أَحْيَاءِ حَلَالِ
تَحْمَلُ أَهْلَهَا وَأَجَدَّ فِيهَا نَعَاجُ الصَّيْفِ أُخْيَةِ الظَّلَالِ
وَقَفْتُ بَيْنَ حَتَّى قَالَ صَحْبِي : جَزَعْتُ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِالرَّحِيلِ

(١) لبيد . الديوان / ٧٢ .

فهذه الصورة تذكرنا بمعلقة زهير ، لأن البداية واسلويا شبيهة بالمعلقة وتسلسل الكلام واحد وتحمل الامل عند الاثنين واقع ، وصورة يوم الرحيل التي تحمل فيها الحي ، وشدة الموادج والخيام فوق ظهور الابل واحدة ، ثم الوقوف بعد ذلك والجزع الذي ينتاب الشاعر لهذه الرحلة المفجعة .

ولم تقف المحاكاة عند النماذج الواضحة ، وانما تعدتها الى جزئيات الصورة ، فكما شبه زهير عينه وهي تسكب الدموع سكباً بدلو عظيمة تملأ ثم تصب في جدول ثم عرض للأدوات التي تصحب هذا العمل نجد ليبدأ يصنع هذا الصنيع ، فيشبه دموعه بماء الدلو ، لسرعة دفعه وتتابعه ، ثم يتابع الصورة ، فيذكر ارواء الزروع بهذه المياه المنصبة من الدلو ثم يذهب الى ان السائي لما فرغ من سقي الزروع أمال السجال ليسقي النخل^(١) :

كأن دموعه غرباً سنة يحيلون السجال على السجال
إذا ارووا بها زرعاً وقضبا امالوها على خور طوال
ويكرر لبيد هذه الصور في قصائد اخرى^(٢) .

ولا نريد ان نذهب اكثر من ذلك ، لأن ديوان لبيد يوضح هذا الاتجاه بصورة دقيقة ويكشف عن الاسلوب الذي اتبعه في النظم بشكل متميز .

(١) لبيد . الديوان/٧٤ . (٢) انظر الصفحات/١٢١ و ١٢٢ من ديوان لبيد .

تصوير الطبيعة الصامتة

كان الشاعر الجاهلي يعيش في عصر تنبعث فيه الآلهة والأرواح في كل شيء حوله ، فأمن بقوى خفية كثيرة في بعض النباتات والجمادات^(١) والحيوانات ، ونسب إليها قدرة تفوق قدرة الناس ، وسلم بسيطرتها على قوى الطبيعة ، وباختفائها وراء كل حركة أو ظاهرة تعرض له وحاول التقرب منها ، واسترضاءها بمختلف الوسائل والطرق ، واستمالتها اليه بما يقدمه لها من الذبائح والقرابين .

وكانت الصحراء أمامه تفيض بكائنات روحية ، لا أول لها ولا آخر ، وكان يرى في صورها هذه القوى الخفية ، مما دفعه الى ان يقيم بين الأشياء علاقات التشبيه ، فاذا هو يرى في بعض الأشياء صورة أشياء أخرى ، فيستعيرها لها وكان كل شيء يقع تحت بصره مهما كان صامتاً او جامداً يحس فيه الحياة والحركة ، فظن أنه لا فرق بينه وبين الموجودات وظن ان للجماد حياة حقيقية تحمل فيه أحياناً . ولا بد ان يكون هذا الظن مبعثاً لتفاؤلهم ببعض الحيوانات وتشاؤمهم من البعض الآخر ولا بد ان يكون هذا الظن

(١) يشير ابن الكلبي الى ان الرجل اذا سافر ونزل منزلاً اخذ اربعة احجار فنظر الى احسنها فاتخذها رباً (الاصنام) / ٣٣ وانظر اخبار مكة للأزرقي / ٦٦ .

نفسه سبباً من أسباب تقديس الاشجار والإعراض عن قطعها او إلحاق الأذى بها ، خوفاً من انتقام الروح الحالّة فيها^(١) وقد عملت البيئة العربية ، والخيال العربي عملهما في تخيل حكايات الجن وتصور الأرواح ، لتوحيدهم في القفار وتفردهم في الاودية وسلوكهم المهامه الموحشة .

وقد وهب الشعراء حساً دقيقاً بوحداث الصحراء المسموعة وأصوات الفلوات واصوات اصدائها التي تتجاوب فيها اذا جن الليل ، وذهبوا مع الاوهام في تصور مصادرها فاعتقدوا انها من الجن تارة وانها من غير الجن تارة اخرى وذكر الجاحظ عن ابي اسحاق قوله^(٢) : ويكون في النهار ساعات ترى الشخص الصغير في تلك المهامه عظيماً ، ويوجد الصوت الخافض رفيعاً ، ويسمع الصوت الذي ليس بالرفيع مع انبساط الشمس غدوة من المكان البعيد ، ويوجد لأوساط القياقي والقفار والرمال والحرار ، في انصاف النهار ، مثل الدوي ، من طبع ذلك الوقت وذلك المكان عندما يعرض له وفي تعليل ما يتخيله الاعراب من عزيز الجنان ، قال الجاحظ :^(٣) « اصل هذا الأمر وابتدأؤه ، ان القوم لما نزلوا بلاد الوحش ، عملت فيهم الوحشة . ومن انفرد وطال مقامه في البلاد والخلاء ، والبعد من الأنس استوحش . والانسان اذا صار في مثل هذه الاماكن تفكر ، ودخلته الظنون الكاذبة ، والاهام المؤذبة ، فصورت له الاصوات ، ومثلت له الاشخاص ، واوهمه المحال » .

وقد ادرك الجاحظ هذه الحقيقة ايضاً فأشار إليها بقوله^(٤) : « واذا استوحش الانسان تمثل له الشيء الصغير في صورة الكبير وارتاب وتفرق ذهنه وانتقضت اخلاطه ، فرأى ما لا يرى ، وسمع ما لا يسمع وتوهم على الشيء اليسير الحقير انه عظيم جليل ، ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعراً

(١) انظر الاساطير العربية قبل الاسلام لمحمد عبد الحميد خان/٥١ وما بعدها (٢) الجاحظ . الحيوان ٢٤٨/٦ . (٣) الجاحظ . الحيوان/٢٤٩ . (٤) الجاحظ . الحيوان ٢٥٠/٦ - ٢٥١

تناشده ، واحاديث توارثوها ، فازدادوا بذلك إيماناً ، ونشأ عليه الناشئ ، وربى به الطفل ، فصار أحدهم حين يتوسط الفياني ، وتشتمل عليه الغيظان في الليالي الحنادس ، فعند أول وحشة وفزعة ، وعند صياح بوم ومجاوبة صدى ، وقد رأى كل باطل وتوهم كل زور ، وربما كان في أصل الخلق والطبيعة كذاباً نفاجاً ، وصاحب تشنيع وتهويل فيقول في ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة ، فعند ذلك يقول رأيت الغيلان وكلمت السعلاة ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول قتلتها ، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول تزوجتها .

وعرض الجاحظ الى تصور الجن وطعامهم وشرابهم وذبائحهم واستضافتهم الناس^(١) . ومن خنقته الجن وقتلته واستهوته ورؤيتهم ومكالمتهم وسماع أصواتهم وعزيفهم ، والتحصن منهم والعزيمة عليهم ومطايهم . واستشهد لذلك بالأشعار الكثيرة والاخبار الطويلة^(٢) .

وقد تخيل العرب للجن اشكالاً مختلفة تمثل للناس في صورة حيوان كالقط او القنفذ او النعامة او الثعبان^(٣) . وتصوروا لها مساكن كانت تعد مواطن خطر ورعب كأجواف الصحراء ، وسفوح الجبال ، وموارد المياه ، وملتف الاشجار . وزعموا انها كانت تترامى لهم في الليالي ، واوقات الخلوات فيتوهمون انها انسان فيتبعونها ، فتزيلهم عن الطريق التي هم عليها^(٤) وفي اساطيرهم أخبار كثيرة تدل على إيمانهم بالجن وتفسيرهم لكثير من المظاهر الطبيعية والمشكلات التي تواجههم تفسيرات تدل على ان للجن اثرأ في حدوثها^(٥) . فكانوا اذا اوردوا البقر فلم تشرب ، اما لكدر الماء او لقلّة العطش ضربوا الثور ليقتحم الماء ، لأن البقر تتبعه كما تتبع الشول الفحل

(١) انظر قصيدة تأبط شرا في الاغاني ٢١٠/١٨ (سامي) والقصائد التي رواها المسعودي لعبيد بن ايوب ١٥٧/٢ (٢) الجاحظ الحيوان ٢٨٩/٧ (٣) انظر جمهرة اشعار العرب للقرشي ٤٩ (٤) المسعودي . مروج الذهب ١٥٥/٢ (٥) انظر الازرق . اخبار مكة ١١/٢ وما بعدها والاغاني ٢٠٩/١٨ و ٢١٠ وما بعدها .

وكما تتبع اتن الوحش الحمار وكانوا يزعمون ان الجن هي التي تصد الثيران
عن الماء حتى تمسك البقر عن الشرب حتى تهلك^(١) وقال في ذلك الأعشى^(٢) :

فأني وما كلفتموني - وربكم -
ليعلم من أمسى أعق وأحربا
للكثور والجن يضر بظهرة
وما ذنبه أن عافت الماء باقرا
وما ان تعاف الماء الا ليضربا
وقال نهشل بن حري^(٣) :

اترك عارض وبنوعدي وتغرم دارم وهم براء
كدأب الثور يضرب بالبراري إذا ما عافت البقر الضمائم

ويزعمون ان مع كل فحل من الشعراء شيطانا يقول ذلك الفحل على
لسانه الشعر فزعم البهراني ان هذه الجنية بنت عمرو صاحب المخيل ، وان
خالها مسحل شيطان الأعشى^(٤) . وقد ذكر الأعشى مسحلا حين هجاه
جهنم فقال^(٥) :

دعوت خلكي مسحلا ودعوا له جهنم جدعا المهجين المذمم
وذكره في موضع آخر فقال^(٦) :

وما كنت شاحردا^(٧) ولكن حسيتني إذا مسحل سدى لي القول أنطق
وتحدث الثعالي^(٨) والقرشي^(٩) عن شياطين الشعراء . وقد بلغ تأثير
الجن في نفوس بعض العرب مبلغا دفعهم الى عبادتها ، وفي القرآن الكريم
اشارات صريحة الى ذلك . قال تعالى :

« قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم

(١) الجاحظ . الحيوان ١٨/١ - ١٩ (٢) الأعشى . الديوان ١١٥ (٣) الجاحظ . الحيوان

١٩/١ (٤) الجاحظ . الحيوان ٢٢٥/٦ - ٢٢٦ (٥) الأعشى : الديوان ١٢٥

(٦) الأعشى . الديوان ٢٢١ (٧) شاحردا : قالوا ان معناها متعلم . (٨) انظر ثمار

القلوب ٥٥ (٩) انظر جمهرة اشعار العرب/٤٠ (صادر)

مؤمنون^(١)» وقال تعالى: «وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون^(٢)» .

واشار ابن الكلبي الى ان بني مليح من خزاعة كانوا يعبدون الجن^(٣) .

لقد صور الشعر الجاهلي هذا الجانب من حياة العرب تصويرا دقيقا ورسم معتقدات الناس في هذه الارواح التي كانت تحل في ما حولهم من مظاهر الطبيعة رسماً يينا . وكان الشاعر الجاهلي يستقي اخیلته من العالم الحسي الترامي حوله ، فيقارن بين المراثيات ويربط الصور بعضها ببعض ، ويشيع الحركة في المعاني التي ينتقيها من هذا العالم ويث في عناصرها المشاعر والحياة . وقد دفعته هذه الحسية الى ان يدقق النظر في وصف المراثيات حتى استطاع ان يترك لنا صورة قريبة من صور حياته التي كان يعيشها ، وتفكيره الذي كان يضطلع به ، واحسن تصوير ما كان يعايشه من حيوان ، وما كان يقطعه من مفاوز ووهاد وصحار ، ويشوق اليه من مياه وآبار وانهار ، ويتأمله من غيث او سحاب او رعد او مطر ، وما كان يقف عنده من طلل . وكأنه كان يحرص على نقل هذه الصور الى قصائده ليبقي على صورها ، ويحافظ على جوهرها . ولهذا كانت قصائده ومقطعاته وثائق دقيقة لحياته بكل ما تضمه هذه الحياة من جوانب وما تحفل به من مظاهر .

فالصورة المجسمة التي ولدتها صورة الجبل في نفس الشاعر هي الخلود الى جانب صور اخرى كانت دلالتها تأتي في أحاديثه بصورة غير مباشرة . وقد صاحبت فكرة البقاء والخلود التي ادركها نفر منهم ، فكرة بقاء هذه الجبال . فكل شيء عندهم يزول وينتهي وله امد الا هذه الجبال التي يرونها

(١) سورة سبأ : الآية : ٤١ (٢) سورة الانعام . الآية : ١٠٠ (٣) ابن الكلبي . الاصنام/ ٣٤

صباح مساء والتي شاهدت موت آبائهم واجدادهم ، وهي لم تتغير احوالها ، ولم تبدل اشكالها ، وسوف تكون شاهدة حتى على موتهم . يقول ليبيد (١) :

ان يكن في الحياة خير فقد أذْ ظرت لو كان ينفع الإنظار
عشت دهرأ ولا يدوم على الايام الا يللم وتعار (٢)
ويدرك ليبيد الفرق بينه وبين هذه الجبال ، فهو ليس من جنسها حتى يبقى بقاءها . بل هو من البشر ، يخضع لما يخضعون له من مصائب وحوادث يقول (٣) :

فلست بركن من ابان وصاحه ولا الخالدات من سواج وغرب
وكانت فكرة الخلود التي توسمها في الجبل ، وفكرة الموت التي احسها في نفسه تدفعه الى ان يتحداها كما وجدنا ذلك في ابيات تأبط شرا والتي اسلفنا ذكرها وكانت تبعث في نفسه الالحاح المستمر الى اختراق الجبل ، والوصول الى قمته التي كانت تمثل نهاية التحدي في نفسه . وكانت الجبال مأوى للعقول الممتنة ، وكأنها كانت تحس ان ذلك يمنعها من الموت ، او يخفيها عن انظاره ، وكانت وكرا للعقبان الكاسرة والنسور الجارحة ، منها تنقض على فرائسها ، ولهذا اقترنت هذه الاصناف من الحيوانات بها . قال امرؤ القيس يصف غيثا (٤) :

كتيس الظباء الاعفر انضرجت له عقابٌ تدلّت من شماريخ شعلان
وقال يصف عقاب تنوفى (٥) :

كان دثاراً حلقت بلبونة عقابٌ تنوفى لا عقاب القواعل (٦)
ومن هنا كانت نظرهم لما يحيط بهم من الصور ، لا لمجرد انها صور

(١) ليبيد . الديوان/ ٤١ (٢) يللم وتعار : جبالان : اسماء جبال تهاه وسكانها لعرام / ٤٣٠ (٣) ليبيد . الديوان/ ٥ . (٤) امرؤ القيس . الديوان/ ٩٢ (٥) انضرجت له : انقضت عليه (٦) امرؤ القيس . الديوان/ ٩٤ . دثار : راعي إبل امرؤ القيس . اللبون : التي لها ألبان . تنوفا : من جبال طي . والقواعل : أسماء جبال ليست بشوايخ .

فحسب وانما كانوا يحاولون ان يتخذوا منها وسيلة - في بعض الاحيان -
يسطون فيها رغبتهم ويفسرون في اطارها ما يدور في اذهانهم من الفكر ،
مستخدمين في ذلك احوال هذه الصور واشكالها للتدليل على الغاية التي يهدفون
اليها .

وضخامة بعض الجبال وعظمتها في نفوسهم ، ونباتها دفعتهم الى ان
يضربوا بها المثل في الصبر على النوازل قال الحارث بن حنظلة (١) :

فلو أن ما يسأوي إلى اصاب من ثهلان فندا
أو رأس رهوة أو رؤو س شمارخ لهددن هذا

ويتصور امرؤ القيس الليل ويحس اسرافه في الطول حتى ليظن ان نجومه
شدت بيذيل ، فهي لا تتحرك ولا تزول ، ثابتة ثبات هذا الجبل .

يقول : (٢)

فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار القتل شدت بيذبل

اما لبيد فقد اقرنت في نفسه صورة الجبل بصورة الكتيبة العظيمة فحينما
اراد ان يرثي النعمان بن المنذر وصف كتيبته فقال (٣) :

كأركانٍ سلمى اذْ بَدَتْ وكأنَّها ذُرَى أجأ اذْ لاح فيها مَواصل (٤)

وقال سلامة بن جندل يصف كتائب قومه وسلاحها (٥) :

له فِخْمَةٌ ذُفْرَاءُ تَنْفِي عَدُوَّهُ كَمَنْكَبٍ ضاحٍ من عَمَايَةِ مُشْرِقٍ (٦)

وبالغ بعضهم فجعلها اماكن مقدسة يقسم بها . قال اوس بن حجر (٧) :

حلفتُ بربِّ الداميات نحورُها وما ضمَّ اجسادُ اللّيبين وكبكبُ

(١) البكري : معجم ما استعجم ١/ ٣٤٧ (٢) امرؤ القيس . الديوان/ ١٩ (٣) لبيد .

الديوان/ ٢٦٣ (٤) المواصل : الراغب . الاصمعي . الاصمعيات/ ١٥٢

(٦) الذفراء : الرائحة من الحديد والصدفة (٧) اوس بن حجر . الديوان/ ٧

على ان هذه الصور المتقدمة لم تمنعهم من تصوير بعض المعاني التي
تعارفوا عليها ووصفوها بالجبال سمواً ومفاخرة . كالحلم والزانة
قال بشر^(١) :

لو يوزنون كيالاً أو مُعايرةً مالوا يرضوى ولم يعدلهم أحدٌ
وقال لبید يفخر بقومه^(٢) :

قومي أولئك ان سألت بئيمهم وكل قوم في النواثب خيمٌ
وهم حلومٌ كالجبال وسادةٌ نُجُبٌ وفرعٌ ماجدٌ وأرومٌ
هذه بعض الصور التي وجدناها ممثلة في الشعر الجاهلي للجبل وقد وجدنا
ان الجانب الحسي من هذه الاوصاف يشغل جانباً كبيراً من اوصافهم وان
نظرتهم الى الجبل لم تكن نظرة مجردة وانما حاولوا ان يمنحوه احساساً ويصفوا
عليه شعوراً من الانسانية ، مستمدين منه صور العظمة والقوة والصبر والثبات .
وهي نفس الاوصاف التي ظلت متداولة في الشعر لفترات طويلة .

وفي احاديث الشعراء عن الكئيب كانت صورة تشبيه بعض اعضاء المرأة
بالكئيب والدعص والنقا من اوضح الصور وابرزها في توضيح قدرتهم على
الوصف وبراعتهم في تتبع الشكل الذي كانوا يريدون التعبير عنه قال عبيد
يصف صاحبه ويشبه عجزها بالرمل المجتمع لضخامته^(٣) :

صَعْدَةُ ما علا الحقيقة منها وكئيبٌ ما كان تحت الحِقَابِ^(٤)
وكانوا يحرصون على ان يصفوا على هذه الصورة ، الحركة التي تملأ
جوانبها فاذا قامت المرأة وتحركت ، فاهتزاز ردفها رمل ينهار من اعلى
كئيب ، ضعيف الأصل . قال طرفة^(٥) :

(١) بشر بن ابي خازم . الديوان ٥٧ . (٢) لبید . الديوان ١٣٦ / - ١٣٧
(٣) عبيد . الديوان ٢٢ (٤) الصلدة : القناة المستوية تنبت كذلك والحقيقة : العجيزة .
الحقَاب : شي . تعلق به المرأة الحلي وتشد في وسطها (٥) طرفة . الديوان ٧٣

وإذا قامتُ تداعى قاصفٌ مال من اعلى كتيب منقر^(١)

اما امرؤ القيس ، فيشبه عجيزتها بالنقا في لينه وامتلانه وهو مع لينه
ليس بمنهال متناثر ، والوليدان يلعبان عليه ، وقد اكتفيا بلين مسه وسهولته ،
وخص الوليدين لأنه لا يلعب اقل من اثنين ، ولم يجعلهما اكثر ، لأنهم اذا
كثروا افسدوا الحقف فاضطربت الصورة فيقول :^(٢)

كحقف النقا يمشى الوليدان فوقه

بما احتسبا من لين مسّ وتسّهل

ويشبه الاعشى ارداف صاحبه وتثني الرءاء فوقها بكتيب الرمل الذي
يكاد ينهار فيقول^(٣) :

روادفهُ ثني الرءاء تساندت الى مثل دِعْصِ الرملة المتَهَيِّل

ولعل هذه الصور هي التي دفعت الآمدي الى ان يقول : والعرب اذا
شبهت اعجاز النساء بكتيب الرمل شرطت فيها ان تكون ندية وان تكون
منظورة ، والشعراء اذا شبهوا اعجاز النساء بكثبان الرمل وصفوها بالانهيال
فانما يقصدون الى تحرك اعجازهن عند المشي^(٤).

اما احاديث السراب وذكره فكانت تأتي من خلال اوصافهم لسرعة
رواحلهم وهي تقطع المفاوز المقفرة . فبشر بن أبي خازم مثلاً يكني عن سرعة
راحلته بالتتوء لان التتوء في رجع مرفق الناقة يكون من شدة السير فيقول^(٥) :

وقد أمضي الهُموم إذا عترتني بحرف كالمولعة الشّناع^(٦)

تَرى في رجع مِرْفَقِها نُتُوءاً إذا ما الآل خَفَقَ لارتفاع

(١) القاصف : المرتفع من الرمل . (٢) امرؤ القيس . الديوان/ ٣٠ (٣) الاعشى .

الديوان/ ٣٥٣ (٤) الآمدي الموازنة ١ / ٣٢٣ (٥) بشر . الديوان/ ١١٠

(٦) الحرف من الابل : الناقة النجيبة الماضية التي انضمتها الاسفار : شبهت بحرف السيف في
مضائها ونجاها ودقتها ، وقيل : هي الصامرة الصلبة شبهت بحرف الجبل في شدتها وصلابتها .

ويصف زهير قطعة للبيداء وقت الضحى فيشبه الآل اذا اضطرب بسيوف
تنفرج ثم تلتقي فيقول^(١) :

قطعت اذا ما الآل آصّ كأنه سيؤفّ تنحى نسفة^(٢) ثم تلتقي^(٣)

اما الاعشى فيقدم لنا صورة أكثر وضوحا للسراب ، وهو يتماوج فوق
الارض وبذلك يمنح الصورة احساسا وازهافا لم يتهيا لغيره من الشعراء ويشبهه
وهو في هذه الحركة المضطربة بالثوب الابيض المخطط . يقول^(٤)

وبيداء تيه يلعب الآل فوقها اذا ما جرى كالرازقي المعضد
ويشبه المثقب العبدى السراب في قلبه عند اشتداد الحر بثياب تطوى
فيقول^(٥) :

وأمت صواذيج النهار وأعرضت لوامع يطوى ريطها وبرودها^(٥)
ومعظم الصور التي تحدث عنها الشعراء كانت في مجال الحديث عن
سرعة نياقهم وإبلهم : وكانوا يتفوقون في تصوير اللون والحركة ، فبريق الآل
يذهب ثم يعود وبياضه يلوح للناظر ثم يختفي . اما صورة ارتداء الآكام
لأردية الآل ومنظر السراب المتفرق فوق الرمال في حركته الوهمية الخداعة
التي تترامى من بعيد فهي جانب آخر من الجوانب التي ابرزها لنا الشعراء
القدامى وقد تمثلت فيها الصورة الحسية الجميلة وبرزت قدرتهم على استعمال
الاستعارة في المكان الملائم فأكسبتها هذه الصورة ومنحتها هذا التشخيص
المحسوس ، قال لبيد يصف راحلته^(٦) :

فبتلك إذ رقيص اللوامع بالضحى واجتاب أردية السراب أكامها
أقضي البانة لا أفرط زينة أو ان يلوم بحاجة لئوامها

(١) زهير . الديوان / ٢٤٨ (٢) نسفة : خطوة (٣) الاعشى . الديوان / ١٨٩ .
(٤) المثقب العبدى . الديوان / ٢٠ (٥) أمت : اشتد حرها . والاورام
والاور : شدة الحر . والصواذيج : الطيور (٦) لبيد . الديوان / ٣١٢ - ٣١٣

وقال بشر يصف فلاة واسعة^(١) :

ونخرق تعزفُ الجنانُ فيه فيافيه يطيرُ بها السهامُ
ذعرتُ طباءةً مُتغوراتٍ إذا أدّعتُ لوامعها الأكمام
واقترنت هذه الصور عند الشاعر بصور بطولته وهو يقطع هذه المفاوز ،
ويصور ناقته التي تحرق هذه المتاهات الالهية ، ويصور حنينه الى الأحبة وهم
يقطعون هذه الفلاة المقفرة ، فرسموا الصور المتحركة وهي تداعب عيونهم
فيلاحقونها وهي تختفي بين منعطفات الرمال ثم تظهر فوق الكثبان المتناثرة .
وكان مع كل لمحة من هذه اللوحات يرسم في نفوسهم امل ويحيا في
قلوبهم حب .

وتناول الشعراء السحاب فتحدثوا عنه وعن اسمائه وانواعه وما ارتفع
وتراكم منه وما علا بعضه فوق بعض مستخدمين الوانه التي تمثل الخصب
والمحل وفق ما كانوا يجدونه فيها من الخصب والجذب فإذا كان السحاب
بطيئا في سيره فذلك دليل على كثرة مائه قال صخر الغي^(٢) :

فأقبلَ منه طيَوالُ الذرى كأن عليهنّ بيعا جزيفاً
واقبلَ مرا الى مِجدَلٍ سباقَ المقيّدِ يمشي رَسيفا
وإذا كان شبيها بالجذب وبالحمل ، متدلّيا فذلك من علامات المطر ، قال
أوس^(٣)

دان مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح
وإذا كان لونه اسود او اخضر يضرب الى السواد ، فهو المحمل بالماء
قال الطفيل^(٤) :

(١) بشر . الديوان/٢٠٣-٢٠٤ (٢) صخر الغي . شرح اشعار المهديين ١/ ٢٩٥ -
٢٩٦ وانظر ديوان عني بن زيد/ ٨٦ . (٣) أوس . الديوان/ ١٥ (٤) الطفيل .
الديوان/ ٤٤

له هيدب دان كأن فروجه فريق الحصى والارض ارفاض حتم
اما اذا كان السحاب اصهب او احمر فذلك دليل على الجذب قال
النابة^(١) :

صهب الظلال أئين التين عن عرض يزجين غيما قليلا ماؤه شيبا^(٢)
واعتمد الشعراء في معظم الصور التي مرت على اللون في ابراز الحقائق
التي راموا التعبير عنها ، موضحين الاشكال التي ارتسمت في اذهانهم ،
مستملين - كمعادتهم في التشبيه - صورهم من البيئة التي يعيشون فيها ، فالناقة
السريعة خفيفة تشبه السحاب الذي هراق ماؤه . قال الاخنيس^(٣) :

تظاير عن اعجاز حوش كأنها جهام اراق ماءه فهو آتب
واستعاروا للسحاب المملوء بالماء ، الروايا من الابل قال علقمة من
قصيدة يمدح بها الحارث بن جبلة وكان اسر اخاه شاسا فرحل يطلب فكه^(٤) :

فلا تعدلي بيبي وبسين معمر سقتك روايا المزن حيث تصوب
اما شدة السحاب وقوته وتجمعه فقد شبهت بصور كثيرة ، من ذلك
تشبيه السحاب المملوء بالماء ، المترامي بعضه في اثر بعض بالجبال . قال
المزرد^(٥) :

من الدهم رجاف كأن ربابه جبال السرى يرمى اليه ويرتمي
وكانوا يستدلون بالبرق على المطر وذكرت كتب اللغة انواعا كثيرة له
فمنه المستطير والميض والخافق والخالب^(٦) .

(١) النابتة . الديوان/ ١٧٠ (٢) التين : جبل مستطيل (٣) المفضل . الفضليات ٢/ ٥
وانظر في تشبيه السحاب بالحيوان ديوان عبيد/ ٣٥ والاعشى/ ٢٨٩ وديوان لبيد/ ٨٩ والكمال
٨١٧/ ٣ (٤) حلقة . الديوان/ ١٩ (٥) المزرد . الديوان/ ٢٤ (٦) المستطير :
المتفرق . والوميض : الضيف . الخافق : المضطرب . الخالب : الذي ليس فيه مطر ،
كانه يغلب من يثيمه ويغذمه

وكانوا يشيمون البرق ، فاذا لمع سبعين مرة ، انتقلوا ولم يبعثوا رائدا ،
لثقتهم بالمطر ، واذا كان البرق عندهم وليفا ، وثقوا بالمطر ايضا (١) . قال
صخر الغي (٢) :

لشمام بعد شتات النوى وقد بت اخيلت برقا وليفا
اجش زجلا له هيدب يكشف للخال ربطا كشيفا (٣)
ارقت له مثل لمع البشير يقلب بالكف فرضا خفيفا

والظاهر ان لمعان البرق واستنارته وتلألؤه لقي في نفوس الشعراء هوى
فأكثروا من ذكره في مواضع الاشتياق ، وذكر الاحبة وهذا ما دفعهم الى
مراقبته وقد حرصوا على ان تكون مراقبتهم له منفردين ، مترقبين ، وهذا
ادعى للتأمل وكانوا يكثررون من استعمال الفعلين (راقب) و (أرق) وهما
فعلان يدلان على الحذر والقلق ، وفي استعمال الشعراء لهما دلالة على الحالة
النفسية التي كانوا يرقبون بها هذه الظاهرة الطبيعية . قال امرؤ القيس (٤) :

ارقت له وقام ابو شريح اذا ما قلت قد هدا استطارا
وقال الاعشى (٥) :

يا من يرى عارضا قد بت ارقبه كأنما البرق في حافاته الشعل
وقال لبيد (٦) :

يا هل ترى البرق بت ارقبه يزجي حيبا اذا خبا ثقبنا
والبرق لم يهيج انشاعر الجاهلي وحده ولم يستثر اشواقه فحسب ، وانما
كان يهيج وميضه الابل كذلك قال عبید (٧) :

(١) ابن قتيبة . الانواء ١٧٧ والوليف : الذي يلعب لمعتين لمعتين (٢) صخر الغي
شرح اشعار المهلبين ٢٩٤/١ - ٢٩٥ . (٣) الرجل : الثقيل . الكشف : المكشوف
(٤) امرؤ القيس . الديوان/١٤٧ (٥) الاعشى . الديوان/٥٧ (٦) لبيد .
الديوان/٢٩ وانظر صفحة ٨٨ من الديوان . (٧) عبید . الديوان/٨٠

وحنّت قلوصي بعدد وهن وهاجها مع الشوق يوما بالحجاز وميض
ولامرئ القيس مقطوعة في الغيث والسيل يصور فيها المطر وهو ينهمر
حتى يعم الارض ويصور فيها هذا المطر وهو يقلع . فتبدو الاوتاد مسن
الارض ، ولا يلبث أن يعود فتكثر سيوله وترع القيعان . فيخرج الضب
من مكمنه ، ويعدو عدوا سريعا خوفا من هذا السيل الجارف ، وما تزال
هذه السيول تندفق حتى تغمر الاشجار فلا يبقى فيها الا اعاليتها . فتترأى
كأنها رؤوس معمة قطعت في ساحات حرب عنيفة . وظل المطر على هذا
الانصباب الشديد فترة لم تنكشف بعدها السماء فقد القت السحب بوبلهما
واقطاعها ، تستدرها ريح الصبا الشمالية ولم تلبث ريح الجنوب ان هبت ،
فانهمرت الامطار : وعلت السيول حتى ضاقت بها خيم وجفاف ويسر^(١) .
قال امرؤ القيس^(٢) :

دِمْعَةٌ هَطَلَتْ فِيهَا وَطْفٌ	طَبَقُ الارضِ تَحَرَّى وَتَدُرُ
تُخْرِجُ الْوَدَّ إِذَا مَا اشْحَذَتْ	وَتَوَارِيهِ إِذَا مَا تَشْتَكُرُ
وَتَرَى الضَّبَّ خَفِيفًا مَاهِرًا	ثَانِيًا بَرِئْتَهُ مَا يَنْعَفِرُ
وَتَرَى الشَّجَرَاءَ فِي رِيقِهِ	كَرْوُوسٍ قُطِعَتْ فِيهَا الْخُمُرُ
سَاعَةً ثُمَّ انْتَحَاهَا وَابِلًا	سَاقِطُ الْاَكْنَافِ وَاهٍ مُنْهَمِرُ
رَاحَ تَمْرِهِ الصَّبَا ثُمَّ انْتَحَى	فِيهِ شُؤْبُوبُ جَنُوبٍ مَنفَجِرُ
ثَجَّ حَتَّى ضَاقَ عَنْ آذْيِهِ	عَرَضُ خَيْمٍ فَجْجَافٍ فَيَسِرُ

وقد استمد الشاعر الجاهلي من المطر وهطوله ودفعاته وتواليه وسيوله
صورا كثيرة استخدمها لبث الحركة في كثير من صور الطبيعة ، وترى
ملاعها بادية في تشبيهاته . فوصف السيل الجارف وتحدده وقوته وجبروته
وهو يكتسح كل ما يقف امامه من الوحوش ويكب الاشجار الضخمة على

(١) شوقي صيف . العصر الجاهلي / ٢٥٧ (٢) امرؤ القيس الديوان / ١٤٤

وجها . ولم يترك بتيماء نخلا ولا بيتا الا ما شيد بالصخر وقد التفت بطمية
 جبل المجيمر حتى لكأنه فلكة مغزل وغطى ابا ن فبدا كأنه شيخ ملتف بكساء
 مخطط ، وهم في كل هذه الصور يحاولون ان يمنحوا هذا المظهر الطبيعي قوة
 تتألف مع قوته في نفوسهم ^(١) .

وقد استمد الشعراء من الشجر صورا متعددة ، واعتبر قول كعب بن
 الاشرف وهو يصف طلع النخيل من اجود ما قيل من الشعر القديم ^(٢) :

ونخيل في تلّاع حمة تخرج الطلع كأشمال الأكف

واستغل عنترة صورة انتشار دخان العلندی استغلالا موفقا فشبّه به قصائد
 الهجاء التي نظمها ، ليقول من شأن خصومه ، وليلدل على سرعة انتشارها
 بين القبائل بلا موانع او عوائق فقال ^(٣) :

سيأتىكم غني وان كنت نائيا دخان العلندی دون بيتي مذود
 والقعق ذات يضرب به المثل للدليل الضعيف الذي لا امتناع به على من
 يضيفه لأنه يثبت على وجه الارض فيوطأ بالاقدام . وقيل هو شحم الارض ،
 والعرب تسميه جذري الارض ، وغالبا يذكر في مواضع الهجاء قال طرفة
 بهجو عبد عمرو بن بشر ^(٤) :

فأصبحت فقعاً نابتا بقرارة تصوح عنه والدليل ذليل

لقد كانت هذه الصور تملأ عليه جوانب الحياة ، حتى اصبحت بضعة
 من نفسه فحاول تصويرها ، وبث المشاعر فيها ، ليتمكن من نقلها نقلا فنيا
 صادقا وكان الشاعر موفقا كل التوفيق في وصفه لها ، وتصويره للصامت منها
 وللحي حتى ابرزها لنا وهي متحركة في كل جزء من اجزائها ، ملونة في
 كل وجه من وجوها .

(١) انظر ديوان امرئ القيس/ ٢٤-٢٥ و/ ١٤٤ - ١٤٥ وديوان لبيد/ ٣٠ - ٣١ و٣٢
 و ٣٣ (٢) ابو دلال العسكري . ديوان المماني / ٣١ . (٣) عنترة . الديوان/ ٣٩٩ (الاعلم)
 (٤) طرفة . الديوان/ ١٢٠ وانظر فيه ان التابغة/ ٩٩ وشرح اشعار الهذليين / ٣٥٨ وامثال
 الميداني / ١ و٢٩٥ والمستقصى / ١٣٤ .

الأطلال

يعد الطلل من اهم الموضوعات التي ترددت في القصيدة الجاهلية ،
لملاقته الوثيقة بانسانية الشاعر الجاهلي ، وتنازعه مع ميوله وعواطفه وماضيه
وحاضره ، وقد جرت محاولات عدة لتفسير ظاهرة الوقوف على الاطلال ،
ولعل اول اشارة حاولت الوقوف عند تفسير هذه الظاهرة ، وتعليل الدواعي
التي دفعت الشعراء الى سلوك هذا المسلك هي قول ابن قتيبة « ان مقصد
القصيد انما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكى وشكا ، وخاطب
الربع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سببا لذكر اهلها الظاعنين عنها ،
اذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر ،
لانتقالهم من ماء الى ماء ، وانتجاعهم الكأ ، وتبعهم مساقط الغيث حيث
كان ، ثم وصل ذلك بالنسب فشكا شدة الوجد وألم الفراق ، وفرط الصباية
والشوق ليميل نحوه القلوب ، ويصرف اليه الوجوه ، وليستدعي به اصغاء
الاسماع اليه لان التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما قد جعل
الله في تركيب العباد من محبة الغزل ، والى النساء . فليس يكاد احد يخلو
من ان يكون متعلقا منه بسبب وضاربا فيه بسهم ، حلال او حرام ، فاذا
علم انه قد استوثق من الاصغاء اليه ، والاستماع له ، عقب بايجاب الحقوق
فرحل في شعره ، وشكا النصب والسهر ، وسرى الليل وحر الهجير ، وانضاء
الراحلة والبعير ، فاذا علم انه قد اوجب على صاحبه حق الرجاء ، وذمامة

التأميل ، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير ، بدأ في المديح ، فبعثه على المكافأة ، وهزه للسماع ، وفضله على الاشباه وصغر في قدره الجزيل .

فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام ، فلم يجعل واحدا منها اغلب على الشعر ، ولم يطل فيمل السامعين ولم يقطع بالنفوس ظمأ إلى المزيد^(١) . »

ومثل ما حاول ابن قتيبة تفسيرها ، حاول بعض النقاد المحدثين تفسيرها فصورها البعض بأنها الصرخة المتمردة البائسة امام حقيقة الموت والفناء ، التي فجرت الكثير من الفن الانساني^(٢) .

وفسر المستشرق الالماني فالتر براونه^(٣) الظاهرة من خلال التماسه لالوان من التفكير الوجودي لدى الشعراء الجاهليين ، واعتبر النسيب ظاهرة تحمل ملامح من التفكير الوجودي ، واعتقد ان موضوع اختيار القضاء والفناء والتناهي ، هو الذي حرك الانسان في كل زمان ، وهو الموضوع الذي يرده عن وعيه ، والذي ينسأه الانسان من حين الى حين ، وهو الموضوع الذي يسترجع فيه انسان اليوم وزنه واهميته . واعتقد هذا المستشرق ان الشعراء صدروا في نسيبهم عن مشاعر صادقة كامنة في نفوسهم ، تمثل نوعا من القلق الوجودي ، وان الاحاديث التي ذكروا فيها ايامهم السعيدة ، ووصفوا ساعات اللهو والشرب والهزل والمداعبة ، كانوا يتكلمون عنها بصرخة من الالم ، لشعورهم بان الفرح انتهى ، وان اللهو مضى ، وان الشباب فني ، ثم يقرن هذا الموقف بموقف الانسان في التاريخ كله ويرجع ذلك الى ان الانسان يشعر دائما بتهديد القضاء ، وتوعد الفناء ، وهو ينظر الى الموت اليقين ، ويخلص من حديثه هذا فيقول : ان في الشعر القديم مسائل شبيهة بتلك التي تثيرها الفلسفة الوجودية .

(١) ابن قتيبة . الشعر والشعراء ٢٠/١ - ٢١ (بيروت) (٢) مجلة الكاتب المصرية . العدد الثاني - ١٩٦١ ص ٣٤ (٣) مجلة المعرفة السورية . السنة الثانية . العدد الرابع / ١٩٦٣

وحاول الدكتور يوسف خليف^(١) ان يجعل فترات الفراغ التي كانت تطول في بعض الاحيان وخاصة في ايام الربيع ، عندما تتحول البادية الى جنة خضراء ، ينطلق البدو فوقها ، يسيمون ابلهم وانعامهم وشاءهم ، سببا من اسباب ملء اوقات الفراغ باي شيء ، حتى لا تستحيل الحياة معها فراغا باردا لا احساس بالوجود فيه ، وشعورا بالضيق في هذه الصحراء المترامية الاطراف التي يخيل للانسان فيها انه يعيش في عالم لا يعرف الحدود . ولا يدرك معنى النهاية . وحددت ظروف البيئة والحضارة في المجتمع الجاهلي وسائل حل هذه المشكلة ، مشكلة الفراغ في ثلاثة اتجاهات اساسية ، الخروج إلى الصحراء للرحلة او للصيد ، والالتقاء بالرفاق لشرب الخمر ولعب الميسر ، والسعي خلف المرأة طلبا للحب والغزل .

ومن هنا ارتبطت هذه المقدمة بهذه الدوافع التي حاولوا عن طريقها حل مشكلة الفراغ في حياتهم ، وتحقيق وجودهم امامها . وهي مشكلة وجد العربي حلها في هذه المتعة التي لم تجد مكانا للتعبير عنها في زحمة الالتزامات القبلية الا في مقدمات قصائده .

ووقف الدكتور يوسف عند بداية هذه المقدمة : ان هذه المقدمة بدأت بداية طبيعية عند شعراء المرحلة الفنية الاولى من حياة الشعر الجاهلي ، وهي المرحلة التي عاصرت حرب البسوس ، وقد استطاع شعراء هذه المرحلة ان يرسوا دعائم هذه المقدمة ، وان يحققوا لها - بصورة تقريبية - اطارها الشكلي ومضمونها الموضوعي ، وطائفة من مقوماتها وتقاليدها الفنية التي استقرت لها بعد ذلك ، والتي اصبحت معالم ثابتة في طريق الشعر العربي القديم . ومن الطبيعي ان الصورة العامة لم تكن صورة ثابتة جامدة عند شعراء هذه المرحلة ، وانما كانت صورة عامة تختلف من شاعر الى شاعر في التفاصيل والجزئيات ، او في طريقة العرض ، او في اختيار الالوان والزوايا او في توزيع الظلال والاضواء ، ثم تحولت هذه المقدمة الى مقدمة تقليدية عند شعراء المرحلة

(١) يوسف خليف . مقدمة الاطلال في القصيدة الجاهلية . ثلاث مقالات نشرت في مجلة
المجلة المصرية في الاعداد ٩٨ و ١٠٠ و ١٠٤ من سنة ١٩٦٥ .

الثانية من حياة هذا الشعر ، وهي المرحلة التي عاصرت حرب داحس والغبراء ، والتي شهدت ازدهار مدرسة الصنعة الجاهلية ممثلة في ابرع شعرائها ، زهير بن أبي سلمى ، الذي استطاع ان يرسي تقاليد هذه المدرسة ومقوماتها الفنية ، وان ينهض بها نهضة رائعة ، وترجع مدرسة الصنعة في بدايتها الاولى ، الى استاذين كبيرين ، وضعوا اسسها ودعائمها الفنية وهما طفيل الغنوي ثم أوس بن حجر من بعده واستطاع هذان الشاعران ان يطورا القصيدة العربية من صورتها البسيطة التي كانت عليها في مرحلة النضج الطبيعي الى صورة لا تتأني لصاحبها الا بعد جهد طويل ، وعناء شديد ، ومعاودة للنظر فيها من اجل تجويدها وتقيحها وتهذيبها ، بل من اجل صنعها صنعا ، واخراجها وفقا لمقاييس دقيقة وقوالب محكمة .

ويشير الدكتور يوسف الى صور اخرى للمقدمات تختلف في اتجاهاتها ، ولكنها تلتقي عند الفكرة التي تعد هذه المقدمات تعبيراً عن متع الحياة الجاهلية التي كان فتيان العرب يعيشون لها ، ويحرصون عليها ، وتدور جميعها حول محور واحد . وهو محاولة اثبات الوجود امام مشكلة الفراغ في حياتهم ، لما وجدوه في هذه المقدمات من فرص يفرغون فيها لانفسهم ، متخفين من زحمة الالتزامات القبلية التي كان يفرضها عليهم ما كان بينهم وبين قبائلهم من عقد اجتماعي ، طبع الشعر الجاهلي - في مجموعه - بطابع قبلي ، وجعل الاحساس بالقبيلة في نفس شاعرها اعمق من احساسه بنفسه ، فكانت المقدمات الغزلية التي تتحدث عن الحبيبة نفسها ، والمقدمات الخمرية ، ومقدمات الفروسية ، ومقدمات الشيب والشباب ، ومقدمات اخرى اقل ظهورا منها ما نراه في مقدمات الطيف التي تتحدث عن طيف الحبيبة الذي يحترق استار الظلام ، ويسري في ظلمات الليل ليزور الشاعر في احلامه .

وارى أن بكاء الاطلال ليس عاطفة خاصة ، ولا تجربة وجدانية ذاتية ، بل لحظة حزينة املاها على الشاعر شعور الجماعة التي ينتمي اليها بالحرمان من الوطن المكاني ، وبالحنين الى الاستقرار والمقام الثابت الذي يستطيع فيه

ان يقيم بيتا ، يخلد فيه ذكرياته ويسترجع ملاعب صباه وهو في الواقع لا يواجه ذكرى حبه فحسب ، وانما كانت تنداعى في ذاكرته صور شبابه الداهب ، وهذان الدافعان يكفيان لخلق عاطفة تثير في نفسه جوا مناسباً يحمله على الحنين ، ويعد ذلك التمهيد الذي يخلق الجو الشعري المناسب لقول القصيدة . وقد اصبحت المقدمة الطللية - بكل صورها والوانها - تؤدي وظيفة خلق هذا الجو الشعري ، الذي يمنح الشاعر القدرة على القول ، لانه يصبح في حالة معاناة شعرية حادة ، تمده بالمشاعر التي تمكنه من التنفيس عن كل ما يحبس في نفسه من الاحساسات ، ويدور في ذهنه من الافكار والحوادث وهو في نفس الوقت يهيء الجو المناسب للمستمع الذي يجد في هذه المعاناة شبيها لما يحسه هو ، فينشئ الشاعر بهذه البداية لنفسه ولسامعه وقارئه حالة شعرية مليئة بعواطف الحنين والشوق والاستعداد للنشاد او الاستماع او المتابعة ، يبتعد فيها الانسان عن كل ما يحيط به ، او يتصل بحياته القريبة ، وهذا ما دفع الشعراء الى التزامها ، والتقيّد بمعانيها ، والمحافظة على اصولها . ولا شك في انها تمثل تجربة الرحلة التي قامت عليها الحياة الجاهلية . فالحنين الى الطلل يمثل الحنين للوطن لان الطلل وما يحيط به وما يتناثر حوله من الدمن يمثل مجموعة الذكريات التي عاشت في ذهنه فحفظ لها اجمل الاوقات واسعد الايام ، فلا غرابة اذا وجدنا الشاعر الجاهلي يبرز ذاتيته ويفرغ شخصيته ، محاولا بذلك اثبات وجوده المبعثر في هذه الصحراء التي لم يضمن فيها مسكنا يلم حياته الضائعة وسط رحلة لا تستقر وتنقل لا يقف / وانعكست هذه الذاتية حتى في الشكل العام للقصيدة الجاهلية فهو عندما ينتهي من وقوفه القصير او الطويل عند الطلل الشاخص او الدارس ، ينتقل الى ما يتعلق بالطلل من ذكريات ، وليس ذكريات أعذب في نفسه من ذكريات الاحبة ، فيذكر حبيبته وذكرياته معها وطيفها ووصلها وهجرها ، وكل ما يتعلق بها ، ثم ينتقل الى فرسه ، او ناقته ، لانها وسيلته لاطهار بطولته وشجاعته وفروسيته ، وكل هذه الصور والمظاهر تقابل وتماثل مرحلة الشباب والفتوة عند الشاعر ،

وفيها يظهر قوته وجرأته في اختراق المفاوز ، ثم تدركه فترة التأمل والعبرة والتعقل ، فيختم القصيدة بآيات الحكمة التي تتمثل فيها تجربته في الحياة الطويلة ، وخبرته في مسالكها الوعرة ، وسأمه منها ، والنهاية الحتمية لطبيعة الحياة . وهكذا نجد الشكل العام للقصيدة يمثل تطورا طبيعيا لمراحل الحياة التي يمر بها الانسان وذلك لا يمنع من ان كثيرا من الشعراء كانوا مقلدين تابعين لمن سبقهم في وقوفهم وغزلم و ذكر بطولاتهم ونهايتهم ، لان هذه الظاهرة بدأت طبيعية عند اوائل الشعراء الذين وردت في شعرهم ، ثم تحولت الى ظاهرة تقليدية عند غير هذه الطبقة من الشعراء ، وربما جاز لنا ان نربط بين حياة التنقل وعدم الاستقرار ، وطبيعة الحياة المتنقلة ، القائمة على الترحال الدائم والتجوال المستديم ، والتي جعلت الشاعر يكثر في المنطقة ما دامت عميمة الخصب ، حتى اذا اجذبت الارض ، ونضبت العيون ، وشعر بالملح يهدده ويهدد رواحله وانعامه رحل الى حيث يتوفر الخصب ، ويكثر الكأ ، وتنتشر العيون ، اقول ربما جاز لنا ان نربط بين هذه الحياة وبين بناء القصيدة العربية التي كان ينتقل فيها بسرعة الى اغراض متعددة ، فكنا نرى الشاعر لا يكاد يقف عند معنى من المعاني التي تساوره حتى يتجاوزها الى معنى آخر ، يعن له ، ويخطر بذهنه ، وما يزال حاله على هذه الشاكلة الى ان ينتقل الى غرض آخر ، وهكذا نجد طبيعة هذه الحياة تطبع تفكير الشاعر ، وتدفعه الى ان يبنى جميع أحكامه ، ويقرر كثيرا من حقائقه على ضوء هذه الظاهرة التي احاطت به .

والواقع ان وقوف الشاعر الجاهلي عند اطلال احبته . او بكاء دياره التي هجرها - او اضطر الى هجرها - لم يكن غريبا ، لان الطلل عندهم قطعة من الحياة التي تهزم كلما مضى منها جزء لا يستطيع الانسان رده مهما حاول ، فكان البكاء على الطلل اصبح يعني البكاء على الحياة نفسها . وكان البكاء على الحياة يمثل نقطة الانطلاق في تفكير الشاعر الجاهلي . فهو ينظر الى الطلل . ويمسح بعمر الحالة التي تصادفه ، فيربط بين فكرتي الحرمان

من الوطن وعمق حالة النزوح والارتحال . وعندها لا يجد شيئا يناجيه غير هذه المعالم الضئيلة التي صعب على الناس حملها ، فظل الزمن يجد في ازالها ، والاحجار الصماء التي طال عليها الدهر ، والاثاثي السفح المحترقة التي اختلفت عليها الخطوب والاحداث ، والدمن المتبقية ، والحيوانات الوديعه التي ترود ملاعب صباه . وكلما كان الاثر اكثر اندراسا ، كان التأثير اقوى في نفس الشاعر ، وابتعث في استثارة عواطفه ، وكان قسم من الشعراء يحرص على ان يكون حديثه عن الظلل بصيغة التثنية ، لان اقل اعوان الرجل في ابله وماله اثنان واقل الرفقة ثلاث الى جانب طبيعة الرحلة التي كانت تفرض على الشخص ان لا يرحل وحده وانما يرحل مع رفيقين ، ويدل على ذلك من بعض الوجوه قوله تعالى لملك خازن جهنم « ألقيا في جهنم كل كفار عنيد »^(١).

اما الظاهرة الاخرى التي نجدها ، فهي محاولة الشعراء . تحديد الفترة الزمنية التي مرت على ترك هذا الاثر ، والواقع ان هذه الفترة التي يحصرها الشاعر الجاهلي بهذه السنوات غالبا ما تكون من فترات حياته المملوءة بالنشاط والحيوية والقدرة على اظهار البطولة ، فعهد زهير بهذه الديار من بعد عشرين حجة كما يقول^(٢) . ولم يهتد اليها الا بعد الجهد والتعب ، او يجعلها حججا غير محدودة فيقول^(٣) :

لمن الديار بقنة الحجر اقوين من حجج ومن دهر
او يحصرها بشماني سنوات فيقول^(٤) :

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو
واقفر من سلمى التعانيق والثقل

(١) سورة ق . الآية : ٢٤ وانظر ديوان عبيد/١١٥ ، ١٣٠ وديوان امرئ القيس ٨ و ٩ و ٨٩ و ١٠٥ و ١١٤ وديوان بشر بن أبي خازم/٢٠ و ١٠٩ و ١٣٨ . (٢) انظر ديوان زهير/ ٧ (٣) زهير . الديوان/ ٨٦ (٤) زهير . الديوان/ ٩٦

وقد كنت من سلمى سنينا ثمانيا
على صبر امر ما يمر وما يحلو

ويحدد امرؤ القيس ثلاثين شهرا في قصيدة^(١) ، وعامين في قصيدة
أخرى^(٢) ، وأزمانا غير محدودة في الثالثة^(٣) . أما النابغة فيؤكد هذه السنوات
فيجعلها سبعا كوامل^(٤) ، ومثل ذلك يصنع الشعراء الآخرون^(٥) .

وكانوا يحرصون على تحديد المواضع وتسميتها وتعديدها ، لان وقوفهم
على هذه المواقع يدخل الرضا الى نفوسهم ، ويعلمهم يطمثون الى صحتها ،
بسبب الرياح الشديدة التي تهيل التراب عليها فتغطيها ، وعند ذلك يصعب
الاهتداء اليها مما يدفعهم الى تركها ، وقد حفل الشعر باسماء هذه الأماكن
وقد ورد منها في شعر عبيد : المذائب وواهب^(٦) وصاحبة وحروس^(٧) ولبنى
وفحان والقطيبات والذكادك والحمد والشقيق والامل^(٨) . وورد منها في
شعر امرئ القيس : الدخول وحومل وتوضح والمقراة^(٩) وسحام وعمايتان
والهضب وذو اقدام^(١٠) . وذكر طرفة^(١١) وعنترة^(١٢) وزهير^(١٣) والنابغة^(١٤)
ولبيد^(١٥) أماكن أخرى . وهذان الباعثان كانا من بواعث الاثارة والاستدكار ،
فلا غرو اذا وقف الشعراء عندها هذه الوقفة ، وسكبوا بين بقاياها ارق
العواطف ، وانعموا عليها بالسلام ، وذكروا ما تعفيه الرياح والامطار وصوروا

(١) انظر ديوان امرئ القيس/ ٢٧ (٢) انظر ديوان امرئ القيس/ ٣٠٠ (٣) نفس
المصدر/ ٨٩ (٤) انظر ديوان النابغة/ ١٥٥ و ١٩٥ (٥) انظر ديوان بشر ١٨٦
وانظر المفضليات ٥٨/٢ و ٢٠٧ (٦) انظر ديوان عبيد/ ٨ (٧) نفس الديوان/ ٦٧
(٨) نفس الديوان/ ٩٦ و ٩٧ وانظر الصفحات ١٠٥ و ١٢١ و ١٣٢ (٩) انظر ديوان
امرئ القيس / ٨ (١٠) نفس السديوان / ١١٤ وانظر الصفحات ١١٨ و ٢٥٥ (١١)
انظر ديوان طرفة/ ٣٠ و ١١٦ و ١٢٢ (١٢) انظر ديوان عنترة/ ٣٨٧ و ٣٩٤
(١٣) انظر ديوان زهير/ ٤ و ٥٦ و ٥٧ و ٨٦ و ٢٠٦ و ٢٠٨ و ٢١٩ و ٢٦٨ (١٤) انظر ديوان
النابغة/ ١٤٩ و ١٥٥ و ١٦٩ و ١٩٩ و ٢٠٥ و ٢٠٨ و ٢١٢ (غنثار الاعلام) (١٥) انظر
ديوان لبيد / ٧٢ و ٩٥ و ١١٨ و ١٣٨ و ٢٣٢ و ٢٨٨ و ٢٩٧ .

ما بقي من آثارها بابتدع ما يستطيعونه من الصور ، فاعتنروا لسكوتهما بعله الصمم والخرس ؛ وعرضوا لما يخلفه الحيوان فيها وقد صوروا تلك الاطلاع بشئ الصور ، وشبهوها باشكال مختلفة فشبهوها بالكتاب قال امرؤ القيس : (١)

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان

ورسم عفت آياته منذ ازمان

أتت حجج بعدي عليها فاصبحت

كخط زبور في مصاحف رهبان

وقال عبيد (٢) :

لمن دمنة اقوت بحجة ضرغد تلوح كعنوان الكتاب المجدد

ثم يشبه الديار بالكتاب في استوائه (٣) :

لمن الدار افقرت بالجناب غير نوى ودمنة كالكتاب

اما تشبيه آثار الديار بالصحف ، فهو معنى متداول بين الشعراء قال بشر (٤) :

كأنها بعد عهد العاهدين بها بين الذنوب وحزمي واحق صحف

وقال عنترة (٥) :

كوحى صحائف من عهد كسرى فاهداها لاعمجمن طنظمي

ويحاول الشاعر ان لا يقف عند الاثر الذي تركه الاحبة ، وانما يعتمد الى ما بقي من هذا الاثر ، فيشبهه بآثار الكتابة على الاحجار ، محاولا ان يعقد هذه المقارنة بين هاتين الصورتين اللتين ارتسمتا في ذهنه . يقول عبيد (٦) :

(١) امرؤ القيس . الديوان/ ٨٩ انظر ديوان ابي دواد/ ٢٩٣ (٢) عبيد . الديوان / ٥٢

(٣) عبيد . الديوان/ ٣١ وانظر ديوان زهير/ ١٢٦ و ١٤٦ و ٢٦٨ (٤) بشر . الديوان

/ ١٣٧ . (٥) عنترة . الديوان/ ٣٩٤ (مختار الشعر الجاهلي) (٦) عبيد . الديوان/ ٦٧

لن الديارُ بصاحّة قحروس
درّست من الإقفار أنيَّ درّوس
إلاّ أواريتا كأن رؤسومها
في مهرق خلق الدّواة لبّيس

وقال لبّيد^(١):

فمدافعُ الرّيتان عُرّي رسمها خلّقا كما ضَمَنَ الوُحيّ سلامها
ويشبه زهير رسوم الدار برق مكتوب ، قد اتى عليه الدهر فأذهب
معالمه يقول^(٢) :

أمن آل لبّي عرفت الطلولا ندى حرض ماثلات مثولا
بكين وتحسب آباتهن . عن فرط حولين رقا محيلا
واخذت الصورة تستكمل ابعادها عند بعض الشعراء الجاهليين ، مما جعلها
تأخذ شكلا جديدا ، مغايرا للصورة التي رسمها الشعراء الاوائل ، وفي هذا
التصوير تكمن براعة هذا البعض من الشعراء ، وتظهر قدرتهم على هذا
التحقيق الدقيق ، قال سلامة بن جندل^(٣) :

لن طلل مثل الكتاب المنمق خلا عهده بين الصليب فمطرق
أكب عليه كاتب بدواته وحادثه في العين جدة مهرق
ويشبه بشر بن أبي خازم ما بقي من آثار الديار بالالواح المزخرفة يقول^(٤) :
فكأن اطلالا وبقي دمنة يجدد الواح عليها الزخرف
ويقف الشاعر امام الاطلال متعجبا من بقاء آثارها ، مع ان العهد بها
قديم ، وهو بالرغم من كل هذه القسوة التي تقسوها الطبيعة على ذكرياته ،

(١) لبّيد . الديوان / ٢٩٧ . (٢) زهير . الديوان / ١٩٣ - ١٩٤ (٣) الاصمعي .
الاصمعيات / ١٤٦ (٤) بشر بن أبي خازم . الديوان / ١٥٢

فانه يخفف من ذلك بما يضيفه عليها من النعوت فهي كتاب اكب عليه الكاتب بدواته ، يسوي سطره مرة ، ويخالف اخرى ، لعدم جيئها على استواء واحد ، وهي صورة حية لعبث الدهر وقضائه وحيرة الانسان منذ القديم ، وهي الصورة التي ظلت تعيش في ذهن البشرية آمادا طويلة . قال ثعلبة بن عمرو العبدي^(١) .

لمن دمن كآتهن صحائف قفار خلا منها الكتيب فواحف
فما احدثت فيها العهود كأنما تلعب بالسمان فيها الزخارف
اكب عليها كاتب بدواته يقيم يديه تارة ويخالف

ويصورها الحارث بن حلزة اليشكري بصحف الفرس ، فيقول^(٢) :

لمن الديار عفون بالحبس آياتها كمهارق الفرس

اما مقابلة صورة الاثر بالوشم فلا بد ان تعكس لنا المعنى المراد من ثبات هذا الاثر الذي يشبه ثبات الوشم ، وقد تعاور الشعراء على هذه الصورة وتداولوها ، قال عنترة^(٣) :

الا يا دار عبلة بالطوى كرجع الوشم في كف الهدى

وقال طفيل الغنوي^(٤) :

لمن طلل بذي صميم قديم يلوح كأن باقيه وشوم

وزهير لا يكتفي بظهور ديار احبته كالوشم ، وانما يجعل الوشم مرجعا ، ويجعله في نواشر المعصم ، تثبيتا لفكرة الوضوح والبقاء والحركة التي يريد الشاعر ابرازها في صورته . واطهارها في وصفه . فالوشم ثمرة صناعة وتحلية ، وهذا يخلص بنا الى الربط بين عواطف الشاعر التي تحمل صورة الوشم ،

(١) المفضل . المفضليات ٨١/٢ (٢) المفضل المفضليات ١٣٠/١ (٣) عنترة . الديوان ١٩٠/ (٤) طفيل الغنوي . الديوان ٦٤ وانظر ديوان طرفة ٣٠٨

وهي منقوشة على يد الحبيبة ، تزينها وتجميلها ، وصورة آثار هذا الطلل التي تحلي هذا المكان وتجمله . ومن هنا كانت صورة زهير ، وصورة غيره من الشعراء تؤدي أكثر من وجودها ، وتتجاوز النطاق المحدد لها ، قال زهير (١) :

ديار لها بالرقمتين كأنها مراجيع وشم في نواشر معصم
وهناك صور أخرى ترددت في تضاعيف هذه الصور ، فيها شيء من
الجدّة بالنسبة لما عهدناه في اوصاف وتشبيهات الجاهليين . فتشبيه ما بقي من
الديار نتيجة تلاعب الرياح ، وتقادم الايام ، بنقوش اجفان السيف او ببرد
قطع ، فجعل لكل جفن سيف منه طائفة يبطن بها ، او بوشي غمد اجد
الصانع في نقشه . هذه الصور التي ابداع في رسمها الشاعر الجاهلي ، جديدة
في مجال الصور التي فناها ، قال عبيد : (٢)

كان ما ابقّت الزاومس منه والسنون الذواهبُ الاولُ
فرعُ قضيمٍ غلا صوائعهُ في يمنيّ العياب او خلل (٣)

ويعيد عبيد الصورة بشكل آخر ، محاولا ان يجدد فيها فيقول (٤) :

دار حيّ اصابهم سالف الدهر فأضحت ديارهم كالحلال
مقفّرات الا رماداً غيبّاً وبقايا من دمنة الاطلاع
وتبدو الصورة عند طرفة أكثر وضوحا ودقة في قوله (٥) :

اتعرف رسم الدار قفرا منازل كجفن اليماني زخرف الوشي مائله
ووردت صور أخرى لتشبيه آيات الديار وعلاماتها ورسومها ، فشبهت

(١) زهير . الديوان / ٥ . (٢) عبيد . الديوان / ٩٦ (٣) القضيم : الصحيفة
او الجلد الابيض . غلا : بالغ وتأنق . العياب : جمع عيبة ، وهي الحقيبة . الحلال جمع
خلة بكسر الخاء وتشديد اللام المفتوحة وهي جفن السيف المغشى بالادم ، او بطانة يغشى بها
جفن السيف (٤) عبيد . الديوان / ١٠٥ ، وانظر ديوان زهير / ٢٩٣ (٥) طرفة .
الديوان / ٣٥٤

بالثوب اليماني الموشى والمزين^(١) ، او الثوب البالي^(٢) .

ولا بد ان تعكس لنا هذه الصور الحالات النفسية التي كانت تدور في ذهن الشاعر وهو يصف لنا هذه الآثار ، فيضفي عليها من نفسه الوانا توضح الغرض الذي يريده منها ، وتجعلنا نقف عند هذه الحالات التي دارت في ذهنه ، والتي لم يجد لها حلا غير هذا الوقوف ، وهذه الصور والتشبيهات .

ان صور الذكريات التي كانت تعيش في وجدان الشاعر الجاهلي وحينه الذي كان لا يفارقه ، كأننا يلحان ، في نفسه ، فحاول التعبير عن هذا اللاحاح المتوالي بهذه الصور المحفورة ، او المكتوبة ، او الملونة . وهي في كل هذه الحالات ترسم لنا المعاناة الحقيقية التي يعانها هذا الانسان ، وتصور الاثر الكبير الذي كانت تجدد هذه العوامل في نفسه ، فلم يجد وسيلة يبرزها بها غير هذه ، وكأنه كان يخشى نسيانها فعبّر عن ذلك بالكتابة والزخرفة والحفر والتوشية والتجميل ، لتكون اثبت وارسخ وادق وابهج ، ولتكون مناسبة لللاحاح الذي يعتور تفكيره .

وطبيعي ان ينتقل الشاعر بعد اشارته الى آثار الديار ووصافها الى تغير معالمها فالرياح والأمطار والسيول وصروف الزمان والايام ، كلها عوامل مؤثرة في هذه الاطلال كانت تتعاون على تعفيتها ومحوها ، ويحاول الشاعر في بعض الاحيان ان يفسر كثيرا من ظواهر الطبيعة بما يلائم مزاجه وطبيعته ، ولعله يرى في هذه التفسيرات راحة نفسية ، تخفف من حدة ما يعاناه ، وقسوة ما يشعر به من الحسرة والكتابة . فالآثار تتغير لتقادم عهدها ، فلم يبق منها الا بقايا تدل على رسمها ، ويحول اختلاف الرياح دون زوالها ، فكلما مستها هذه ودفتها — بما هالت عليها من الرمل — سمرت عنها الاخرى ، واطهرتها ، فهي ، وان تغير اثرها ، باقية ، تلهب عواطف الشاعر ، كلما فطر اليها . قال امرؤ القيس^(٣) :

(١) انظر ديوان طرفة ٣٣٧ (٢) انظر ديوان عبيد/ ١١٥ (٣) امرؤ القيس . الديوان/ ٨

فتُوضَحَ فالمقراة لم يعف رسمُها لما نسجتُها من جنوب وشمال
والنظرة التي ينظرها امروُ القيس الى الرياح ، لا ينظرها بقية الشعراء ،
فعبد الله بن سلمة يشبه مرور الرياح على ديار احبته بذيل العروس ، وهي
صبغة غير التي عرفناها عند الشعراء المتقدمين ، وربما يكون هذا التشبيه غريباً
على الشعراء الآخرين^(١) :

وكأنما جر الروامس ذيلها في صحنها المعفو ذيل عروس
فصورة الرياح كما تبدو من تصوير الشاعر لها ، برغم تعفيتُها للآثر ،
ومحوها لمعاله ، وحفرها لبقاياها محبة لنفسه ، لحبه هذا الآثر ، وتعلقه به
فكان يمتزج فيها الحب بالاشفاق .

والرياح بانواعها لا تكون سبباً كافياً في رأي الشاعر ، لآبادة معالم
الديار ، من رماد واثافي ، ومرابط خيل ومراح ابل وغم وانما كان الدهر
عاملاً آخر من عوامل افقارها ، فلم يترك فيها غير البقر الروائع والظباء
الخالصة البيضاء ، قال عبيد^(٢) :

اقوت معاملها وغير رسمها هوج الرياح وحقبة الايام
دار بها عينُ النعاج رواتعا تقرو مساربها مع الآرام
ويضيف الشاعر عوامل اخرى لتغيير هذه المعالم ، كالمنطق والسيول ،
وهي في الواقع من ابرز العوامل ، لآثرها الكبير ، وقوتها في سرعة ازالة
بقاياها ، قال النابغة^(٣) :

وقفت برقع الدار قد غير البلى معارفها والساريات الموطائل
اسائل عن سعدى وقد مر بعدنا على عرصات الدار سبع كوامل

(١) المفضل . المفضليات ١٠٤/١ (٢) عبيد . الديوان ١٢١/ ، ١٣٠ (٣) النابغة .
الديوان ١٩٥ ، وانظر الصفحات ١٩٩ ، ٢٠٥ من الديوان نفسه ، وانظر ديوان امرئ
القيس ٢٧٠/ ديوان عبيد ٩٧ ، وديوان ابي دؤاد ٢٩٨ ، والمفضليات ٨١/٢

ولعل الامطار عند عبيد والاعشى اقوى في تعفية الاثر ، ويسلم عبيد بحكم الزمن في ابادة معالم الأثر ، ويؤمن بشأن تقلباته ، لانه لا يؤتمن . يقول^(١) :

فان تلك غبراء الجنيبة اصبحت خلت منهم واستبدلت غير ابدال
فقد ما ارى الحى الجميع بغيطه بها والليالي لا تدوم على حال
ويعود الشاعر الجاهلي الى الديار بعد أن لفته تأثير هذه العوامل فيها ،
متأملاً احوالها . فالآثار تعفو ، ولا يبقى منها شيء ، وتكرار الزمن يمر ،
وهو يحو آثار هذه المواضع حتى لا تكاد تعرف لأول وهلة ، لتغير معالمها
ولطول المسافة بينه وبينها ولكن التفرس فيها والتأمل في احوالها ، يدلان
المرء على حقيقتها قال النابغة: ^(٢)

عَفَا ذُو حُسَا مِنْ قَرَرْتِي فَالْقَوَارِعُ فَجَنِبَا أُرَيْكَ فَالتَّلَاغُ السِّدَوَاعُ
فَمَجْتَمَعُ الْأَشْرَاجِ غَيَّرَ رَسْمَهَا مَصَائِفُ مَرَّتْ بَعْدَنَا وَمَرَابِيعُ
تَوَهَّمَتْ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَا لِسِتَةِ أَعْوَامٍ وَذَا الْعَامُ سَابِعُ
وبعد كل هذه المشاعر لا يجد الشاعر الجاهلي تفسيراً لهذا الدهول الذي
يحسه الا ان يشبه نفسه بشارب الخمر المعتقة يقول عبيد^(٣) :

أَمِنْ رَسُومٍ نَوَّيْهَا نَاجِلٌ وَمِنْ دِيَارٍ دَمَعُكَ الْهَامِلُ
قَدْ جَرَتْ الرِّيحُ بِهِ ذَيْلَهَا عَاماً وَجَوْنُ مَسْبِلِ هَاطِلِ
ظَلْتُ بِهَا كَأَنِّي شَارِبُ صَهْبَاءَ مِمَّا عَتَقْتُ بَابِلُ
ولا بد أن تكون حقيقة ارتباط الديار بحياة الانسان قد لازمت منذ ان
عرف الحياة فكان اقفار هذه الديار بالنسبة له يعني اقفار الحياة نفسها وهذا
وحده يكفي لتفجير كثير من الاحاسيس . ومن خلال ذلك كان الشاعر

(١) عبيد . الديوان/ ١١٣ ، وانظر ديوان الاعشى/ ١٧٥ (٢) النابغة . الديوان/ ١٥٥
(٣) عبيد . الديوان/ ٩٧ - ٩٨ وانظر ديوان امرئ القيس / ١١٥ والمفصليات ٢/ ٢١٣ .

يحاول ان يطابق بين هذه الصور ويربط بين موت الناس ومفارقة الديار
ويعد الحالين واحدة قال لبيد^(١) :

ما الناسُ الا كالديارِ واهلها بها يوم حَلَّوها وغَدَوْا بلاقع
ولهذا كان وقوفهم عندها يثير المشاعر ويلهب العواطف قال امرؤ
القيس^(٢) :

لمن طَلَلُ ابصرته فشجاني كحُط زبور في عَسيبِ يمانِ
وكما كانت صور المطر والسحاب والرياح وصروف الزمان تزيل الحنين
والذكريات ولا تبقي منها الا آثارها التي تُلوح من خلال تلك الاطلال ،
كانت صور الحيوانات وهي تجوب هذه الآثار تبعث في نفسه الاسى واكثر
ما يقع عليه نظره في حالته هذه ، النعام والظباء والبقر والتعاج ، وحاول
الشاعر الجاهلي ان يقتصر على ذكر هذه الحيوانات لوداعتها وجمال صورتها
عنده ، ولياقتها ومناسبتها للصورة التي تحتلها هذه الديار في نفسه ، والشاعر
في كل لوحة يعرضها بمنح حيوانه صفة من الصفات . فحركة الاطلاء
عند زهير وهي تسير مخالفة او تحاول النهوض من مجامعها لتلحق بأهملها ،
تضيف الى الصورة خطوطا والوانا وحركات تجعلها اكثر قدرة على التعبير^(٣) :
بها العين والآرام يمشين خلفه واطلاؤها ينهضن من كل مجثم
ويشبه الاخنس بن شهاب النعام وهي تروود هذه الديار بالحواطب اللاتي

يحملن الحطب وقت العشي ، وهن يرجعن به يقول^(٤) :

ظَلَّيْتُ بها أعرى وأشعرُ سُخْنَةً كما اعتاد محموماً بخير صالِبُ
فَظَلُّ بها رُبْدُ النعام كَأَتَها إماءُ نَزَجِي بالعِشي حواطِبُ

(١) لبيد . الديوان/١٦٩ (٢) امرؤ القيس . الديوان / ٨٥ وانظر ديوان النابغة/٢٠٨

(٣) زهير . الديوان/٥ (٤) المفضل . المفضليات ٤/٢

ويتكرر المعنى عند طرفة^(١) ؛ ويستذكر الشاعر ايامه التي قضاه في
المربع الذي ارتبوا فيه ، وحببته سلمى ، ولكن المربع تبدل الى قفر ، ترتاده
اولاد الظباء ، وترعاه بيض النعام^(٢) .

ان جماعات النعام وحدها لم تركز انتباه الشاعر ، وانما اصوات الرياح
المتجاوبة - التي عبر عنها بالعواصف - وهي تحف بأطراف هذه الديار ،
واصوات ذكر النعام ، كانت ترسم له صورة أخرى من صور الفزع والخوف
والفراق فيسفع عبراته ، وقد ارتسمت هذه الصورة في ذهن عبيد ارتساما
واضحا فأحسن التعبير عنها فقال^(٣) :

أَمِنْ مَتَرَلٍ عَافٍ وَمِنْ رَسَمٍ أَطْلَالٍ
بَكَيْتَ؟ وَهَلْ يَبْكِي مِنَ الشَّوْقِ امْثَالِي؟
دِيَارَهُمْ إِذْ هُمْ جَمِيعٌ فَأَصْبَحْتُ

بَسَائِسَ الْوَحْشِ فِي الْبَلَدِ الْخَالِي
قَلِيلًا بِهَا الْأَصْوَاتُ إِلَّا عَوَازِفًا

وَالْأَعْرَارُ مِنْ غِيَاهِبِ آجَالٍ
أَمَّا الْبَقَرُ فَهِيَ صُورَةٌ أُخْرَى مِنَ الصُّورِ الَّتِي تَمُرُّ فِي ذَهْنِ الشَّاعِرِ وَهُوَ
يَذْكُرُ أَحَبَّتَهُ يَقُولُ أَمْرُ الْقَيْسِ^(٤) :

تَرَى بَعَرَ الْأَرَامِ فِي عَرَصَاتِهَا وَقِيعَانَهَا كَأَنَّهُ حَبُّ فَلْفَلٍ
وَذَكَرَهَا النَّابِغَةُ وَأَوْسٌ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الشُّعْرَاءِ^(٥) .

وتشبه صورة البقر عند المرقش الفرس الذين يمشون في القلانس^(٦) ولا بد
ان تحمل هذه الصورة مرارة الألم الذي احس به الشاعر وهو لم يهتد الى معالم

(١) انظر ديوان طرفة/ ٣٣٥ (٢) انظر ديوان امرؤ القيس/ ٢٨ (٣) عبيد -
الديوان/ ١١٢ (٤) امرؤ القيس . الديوان/ ٨ (٥) انظر ديوان النابغة/ ٢٠٦ وديوان
اوس/ ٦٣ والمفضليات ٤١/٢ (٦) انظر المفضليات ٢٩/٢

احبته حتى كادت هذه الارض تقسم بأغلظ الايمان انها ما صادفت احدا ولم يقيم عليها احد بنيانا ، ولم يشد دارا — وهذا ما اشرنا اليه في بداية حديثنا عن تحديد الاماكن — ولم تحفل هذه الارض بأحسن ذكرياته واطيب ايامه ، انها صورة مريرة للألم الذي يعانيه الشاعر الجاهلي ، وخيبة مفعجة له وهو يقف على ارض لم تحفل بأيامه ، ولم تأنس بشبابه وصباه .

ويجمع الشاعر احيانا بين النعم المخضر السيقان ، والظباء الطويلة الاعناق الحسنة البياض ، في صورة واحدة^(١) ولا ينسى الشاعر التعاج في صورة هذه فيجعلها رفيقة للظباء^(٢) ، ويحاول ان يجعل التعاج تحل محل ليلي ، التي ابى رسم دارها ان يتحول على الرغم من مرور الزمن^(٣) ، وعلى الرغم من هذه الاحوال التي ترد في ذهن الشاعر ، باعتبارها مرحلة انفعالية حادة ، فقد كانت تثير في نفسه الأسى ، وقد صور بشامة بن الغدير ذلك فقال^(٤) :

فوقفت في دار الجميع وقد جالت شؤون الرأس بالدمع
كعروض فياض على فلج تجري جداوله على الزرع
ويشبه امروء القيس ما يجري من دمه — لفقد اهل الدار — بما يسيل من
عيون ناقف الحنظل ، لكثرة ما يسكبه من الدمع^(٥) .

وعلى الرغم من ضالة الآثار المتبقية بسبب رحلة الأحبة يتعلق الشاعر بها ويذكرها بألم وفجعة . فالرماد المتبقي كالكحل ، واثر ذبول الرياح الشديدة على هذه الديار حُصِرَ زيتنها اصابع فنية متقنة ، وهذا ما نجاهه واضمحاعند قراءتنا لبعض المقدمات الطللية قال النابغة^(٦) :

رماد ككحل العين لأيا أبينهُ ونوى كجذم الحوض أنام نخاشع
كأن مجر الرامسات ذبولها عليه حصير نمقته الصوانع

(١) انظر ديوان صيد/ ١٠٦ (٢) انظر ديوان امرئ القيس/ ١١٤ (٣) انظر المفضليات ٢٠٥/٢ (٤) المفضل . المفضليات ٢٠٧/٢ (٥) انظر ديوان امرئ القيس/ ٩ (٦) النابغة . الديوان/ ١٥٦

وغالبا ما تعاوده الصورة التي عاشت في ذهنه ، فيتذكرها عند وقفته هذه حين يجد المنازل قفرا لا انيس بها ، الا مواقد نار ونويا قديما لم تتلمه نواب الايام ، وصروف الليالي ، لأنها حفرت في ارض صلبة مرتفعة ، وهو في وقفاته هذه وفي استنكاره لتلك الصور كان يعد ذلك قضاء حق للذكرى ، وواجبا تفرضه المحافظة على العهد وتقتضيه المروءة^(١) . وهو لا يكتفي بأن يكون وحيدا في هذا الوقوف ، وانما يريد من صاحبيه ان يقفا معه فكان يجلس اصحابه وأخلاءه والركب المصاحب له^(٢) .

وبعد كل هذا البكاء نرى الشاعر يستنكره ، لأنه - في اعتقاده - لا يجدي نفعا ، وفي هذه المواقف المتناقضة تكمن نفس هذا الانسان الذي اجبر على هذا السلوك ، بسبب قسوة الحياة وقسوة الظروف المعاشية التي عاش تحت وطأتها قال عبيد^(٣) :

بل ما بكاء الشيخ في دمنة وقد علاه الوضع الشامل
اقوت من اللائي هم أهلها فما بها - اذ ظعنوا - آهل^(٤)
ويفسر امرؤ القيس استنكاره للبكاء بأنه لا يرد حبيبا ولا يجدي شيئا فلا ينبغي ان يعول عليه^(٥) . ولما لم يجد الشاعر ردا لندائه عند هذه الاطلال اجتازها بعد ان ادى هذا الحق ، معللا ذلك بخلوها من اهلها ، ولو كان بها احد لرد عليه واجاب دعوته^(٦) ، أو انه ينادي او يكلم اخرس^(٧) . وما جدوى السؤال عند جنادل خرس^(٨) .

(١) انظر المفضليات ٨٠/٢ وديوان طرفة/٣٠٨ (٢) انظر ديوان عبيد/١٠١ والمفضليات ١٣١/١ (٣) عبيد . الديوان/٩٨ وانظر الاصمعيات/١٤٧ (٤) الوضع : الشيب (٥) انظر ديوان امرئ القيس/٩ وديوان عنبرة/٣٦٩ والمفضليات ٣٧/٢ (٦) انظر المفضليات ١٥٨/٢ (٧) انظر ديوان امرئ القيس/ ١٠٥ (٨) انظر ديوان امرئ القيس/٢٤٣

وهكذا وجدنا الشعراء الجاهليين يعبرون عن احساسهم العميق بالحنين الى ملاعب الصبا ، ويقرأون في هذه الآثار المعفاة . حقيقة الموت التي تثير في نفوسهم المخاوف .

وتعد مشاهد الاطلال من اشد المظاهر الطبيعية تأثيرا في الحس والنفس ، لانها تحمل تخيلات مؤلمة من صور الحياة الدارسة فهي صورة ترمقها العين وتجتلي مظاهرها ولكن آثارها تتخلل النفس ، وتحرك الخواطر .

تصوير الحيوان

تحدث الشعراء عن الحيوان كثيرا، وعنوا به عناية كاملة ووصفوا حركاته وصفا دقيقا ، ومثلوا هيئاته وأشاروا الى عاداته اشارات كثيرة تظهر في احاديثهم وقصائدهم فتكلموا عن الناقة والفرس والكلاب والظباء وعرضوا للأسود والذئاب والضباع والحمر الوحشية والثيران والثعالب وتحدثوا عن الصقور والنسور والرخم والغراب والحمام فوصفوا اشكالها واعضاءها ورسوموا لنا من خلال احاديثهم سلوكها وعاداتها وهي تقطع المفاوز ، وتخرق الصحارى وتكر على الاعداء وتنقض على الفريسة ، وتمزق اشلاء القتلى وتصيح في الخرائب وتنعب في الاماكن المهجورة موضحين لنا معتقداتهم التي صاحبت هذه الحيوانات .

على ان وصف الشعراء لبعض هذه الحيوانات لم يكن مجرد اوصاف عابرة لأعضائها ، وانما كان يشوب ذلك حس وعاطفة يضيفان على الوصف طابع الجمال والركة . وكانت عاطفتهم عاطفة انسانية سامية ، لأنها عاطفة مساواة في الحب والحنان والمشاعر . فاذا اراد الشاعر ان يتحدث عن راحلته شبهها بجمار وحش يسوق اتنه ، تريد ان تشفي غلتها من الماء ، فاذا بها تسمع صوتا خفيفا فتشعر ابدانها خوفا من ان يكون هناك صائد يتربص لها . حتى اذا اقتربت من مورد الماء ، وحاولت ان ترد منه صوب الصائد سهامه

فطاشت وعندها تعود بسرعة من حيث انت ، تقدح حصي الصحراء بأقدامها .
فالأحالة لم تعد مجرد حيوان وإنما أصبحت بضعة من نفوس الشعراء وان
اوصافهم لها وحركتهم معها تحملنا على الاعتقاد بمشاركتها لهم في هذه الاوصاف
فهي تشعر بالخوف كما يشعر وتحس بالعطش كما يحس ، وتفلت من سهام
الصائد كما يفلت من سهام اعدائه وخصومه ، وتعجب بالنصر كما يعجب
وتحن على صغارها كما يحن على اطفاله ، وتأبى الضيم ولا تقيم في مكان اذا
لم ترض الإقامة فيه كما يأبى الإقامة في مكان يسام فيه الضيم . وكان يداخل
الشاعر وهو يرسم هذه الصور كثير من العواطف والمشاعر والاحاسيس .
وكان الشعراء يعكفون على تصوير هذه المشاهد فيرسمون دقائقها وهم يحسون
احساسا عجبيا ويشعرون شعورا عميقا بالرغبة في تصويرها واثبات خصائصها (١)

فزهير بن ابي سلمى يجعل للبقرة الوحشية التي شبه بها ناقته ولدا يبيع
فيها الخنو ، وليثير فيها العاطفة ولتحتدم في داخلها مشاعر الرعاية فتنتقل لإفقاذ
هذا الولد من حالة الجوع والظما والخوف والقلق فيقول (٢) :

كخنساء سفعا الملاطم حرة مسافرة مزودة أم فرقد
غدت بسلاح مثله يتقى به ويؤمن جأش الخائف المتوقد (٣)

ويعيد لببذ قصة هذا الصراع والعاطفة التي تدور في حياة البقرة الوحشية
البائسة ، التي عدت على ولدها العوادي . فأكل السبع ابنها ، فبدأت الصياح ،
وكانت تحسب ان النبات قد غطاه ، وتظل صائحة منادية حتى يجدها الصياح
والنداء ، ولم تجد بدا من ان تدخل نفسها في جوف شجرة ، لتبقى بعيدة
عن المسالك ، والشجرة نابتة في كثبان تنهال رمالها في يسر ، وقد ابدع لببذ

(١) انظر ديوان الاعشى/ ٢١٣ و ٢٩٥ و ٣٦٣ (٢) زهير . الديوان/ ٢٢٥

(٣) الخنساء : البقرة والخنس : تأخر الانف في الرأس . السفح : سواد في حمرة . الملاطم :
الخدان . المزودة : الملعورة . الفرقد : ولد البقرة . الجأش : الصدر . المتوقد : الذي توقد
خوفه من الفزع .

في تصوير قلق هذه البقرة الوحشية حين شبهها بلؤلؤة الغواص التي سل خطبها فانفطرت وتساقت .

ولم يقف لبيد عند هذا الحد من تصوير مأساة هذه البقرة البائسة ، وإنما يتابع رسم الصورة بعد أن هياً لها من الالوان ما يجعلها قائمة مؤلمة ، فالليل اطبق على هذه البقرة ببرده وقسوته ، بهوموم واحزانه فتحملته صابرة حتى اذا انجلى هذا الليل اندفعت تصيح ، وهي حائرة تذهب ولا تعلم الجهة التي تذهب اليها ، ونحيب . ولكنها تجهل الوجهة التي تريدها ، وهي في كل ذلك مترددة قلقلة ، حتى اذا ادركت نهاية طفلها حزنت ، وتركت الوعي فأسحق ضرعها الذي كان حالقا ، وبدأت تتوجس الاصوات الخفيفة عن ظهر غيب ، وكأنها كانت تحسب كل فرج أولى بالمخافة من الثاني لحيرتها وقلقها وخوفها . وهنا يعكف لبيد على رسم مشاهد الصيادين الذين اعدوا لهذه البقرة من وسائل الصيد ما يجعلهم قادرين على اصابتها فاذا يشسوا من اصابتها بالنبال ، تزكوارميهم ، وارسلوا كلاهم المعودة للصيد ، لتلحق بها ، ولكنها تذودهن - وتخرج من المعركة منتصرة قال لبيد (١) :

غنساء ضيعت الفريز (٢) فلم يرم	عرض الشقائق طوفها وبغامها
لمعفر قهّد تنازع شلوه	غُبْس كواسب لا يَمَن طعامها (٣)
صادف منها غرة فأصبنها	ان المنايا لا تطيش سهاها
باتت وأسبل واكف من ديمة	يُروي الحماثل دائما تسجاما (٤)
يعلو طريقة متنها متواتر	في ليلة كفر النجوم غمامها (٥)

(١) لبيد . الديوان/٣٠٨-٣١٢ . (٢) الفريز : ولد البقرة . لم يرم : لم يبرح او يحاو . الشقائق : الارض الغليظة بين رملتين . بغامها : صوتها . (٣) المعفر : ابنها الذي قد سحب في التراب . القهّد : الابيض وقيل الصغير الاذن من الضأن تلعوا حمرة . النبس : اللثاب ، او الكلاب ذات اللون الاغبر . كواسب : تنعش من الصيد . لا يَمَن طعامها : لا أحد يطعمها فيمن عليها وانما هي تعتمد على جهدها . (٤) الواكف : القطر (٥) الطريقة : حطة مخالفة في لونها . متواتر : مطر متتابع . كفر : ستر .

تَجْتَأِفُ اصْلا قَالِصَا مُتَنَبِّدَا
وَتَقْضِي فِي وَجْهِ الظَّالِمِ مَنِيرَةً
حَتَّى إِذَا انْخَسَرَ الظَّالِمُ وَاسْفَرَتْ
عَلَيْهَتْ تَرَدَّدُ فِي نِهَاءِ صَعَائِدِ
حَتَّى إِذَا يَثْسِتُ وَاسْحَقُ حَالِقُ
وَتَوَجَّسَتْ رِزَّ الْأَنِيسِ فِرَاعِهَا
فَعَدَّتْ كَلَا الْفَرَجِينَ تَحْسَبُ أَنَّهُ
حَتَّى إِذَا يَثْسُ الرَّمَاةُ وَارْسَلُوا
فَلَحَقْنَ وَاعْتَكُرَتْ لَهَا مَدْرِيسَةٌ
لِتَنُودَهُنَّ وَابْقَتْ أَنْ لَمْ تَذُدْ
فَتَقْصِدَتْ مِنْهَا كَسَابٍ فَضَرَجَتْ

بِعُجُوبٍ أَنْقَاءُ يُبِيلُ هَيَامِهَا^(١)
كَجُمَانَةِ الْبَحْرِيِّ سُلْ نِظَامِهَا
بَكَرَتْ تَزَلُّ عَنْ الثَّرَى اِزْلَامِهَا^(٢)
سَبْعَا تَوَامًا كَامِلَا أَيَامِهَا^(٣)
لَمْ يُبْلِهْ اِرْضَاعِهَا وَفِطَامِهَا^(٤)
عَنْ ظَهْرِ غَيْبِ وَالْأَنِيسِ سِقَامِهَا^(٥)
مَوْلَى الْمَخَافَةِ خَلْفَهَا وَامَامِهَا
غَضُفَا دَوَاجِنَ قَافِلَا اِعْصَامِهَا^(٦)
كَالسَهْمِيَّةِ حُدَّهَا وَتَمَامِهَا
أَنْ قَدْ أَحْيَمَ مِنَ الْحَتُوفِ حَمَامِهَا
بَدَمَ وَغُودَرِ فِي الْمَكْرِ سَخَامِهَا

وكذلك كان حديثهم عن الثور الوحشي فقد عرض له الشعراء في كثير من الصور التي وصفوا فيها روحا لهم ، فكانوا يقفون في هذه الاوصاف عند بعض الصور التي تستحق الوقوف . فقيام الثور بالحفر استوقف الشعراء قليلا فقدموا لنا من خلال ذلك صورا طريفة .

فالثور هو مكب على وجهه في الليالي الباردة ، قاضي نذور ، يصلي صلاة يقضي بها نذرا ، قال لبيد^(٧) :

فَبَاتَ كَأَنَّهُ قَاضِي نَذُورٍ يَلُودُ بِغُرْقَدٍ خَضِيلَ وَضَالٍ

(١) تجتأف : تدخل في جوفه . قالص : مرتفع . المتنبذ : الذي انتهى ناحية . المجوب : جمع عجب وهو اصل الذنب ويعني اطراف الرمال (٢) الازلام : القوائم ، شبهها بالقداح (٣) علته : جزعت وقلقت . والنهاء جمع نهى : وهو مجتمع الماء . صمائد : اسم مكان . (٤) اسحق : اخلق وذهب ما فيه اللبن . الحالق : الضرع الذي كاد يمتلئ (٥) الرز : الصوت (٦) الدواجن : المودة للصيد . افل : يابس . الاعصام : القلائد . (٧) لبيد . الديوان/ ٧٧

وهو صيقل انكب على جلاء الوان سيف ، ليصيرها بيضا بعد زرقها^(١) :
جنوح الهالكي على يديه مكباً يجتلي نقيب التّصال^(٢) .
وهو حداد انكب على الفحم ينفخه^(٣) :

مولّي الريح رقيه وجبهته كالهبّرقى تنحى ينفخ الفحما
اما التراب فكان يهيل كلما عاجله الثور ، قال لبيد^(٤) :
وبات يُريدُ الكين لو يستطيّعه
يُعالجُ رجافاً من التّرب غائلا

ويرسم النابغة صورة الثور الذي بات برمل منعطف ، يرقبه خشية ان
ينهال عليه^(٥) :

بات بحقف من البقار بحفرة اذا استكف قليلا تربه انهدما
وقال بشر بن ابي خازم^(٦) :

وبات مكبا يتقيها بروقيه وأرطاة حقف خانها النبت يحفر
ومن خلال ذلك تبرز حدة القرون وقوتها وشدتها ، وحدة الاظلاف التي
يعتمد عليها في تنظيف المكان الذي يأوي اليه ، قال الاعشى يصف ثورا^(٧) :

مكبا على روقيه يحفر عرقها على ظهر عريان الطريقة اهيما
وقال امرؤ القيس^(٨) :

تعشى قليلا ثم انحى ظلوفه يثيرُ الترابَ عن مبيت ومكنس

(١) لبيد . الديوان / ٧٨ (٢) النقب : الصدا وانظر ديوان الاعشى / ٢٧٩

(٣) النابغة . الديوان / ١٧٢ (٤) لبيد . الديوان / ٢٣٩ (٥) النابغة . الديوان / ١٧١

(٦) بشر . الديوان / ٨٢ وانظر صفحة / ١٠٢ من الديوان ايضا وديوان الاعشى / ٢٩٥ .

(٧) الاعشى . الديوان / ٢٩٥ وانظر ديوان امرؤ القيس / ١٠٢ وديوان لبيد / ٨٠ و ١٤٥

(٨) امرؤ القيس . الديوان / ١٠٢

وكان الشعراء يصفون جريه حتى يدهمه الليل والمطر ، فيلجأ الى ارطاة
أو رمل ، يمضي فيها ليلته ، وما يزال المطر ينهمر من فوقه ، ويتحدر من
على جلده كاللؤلؤ^(١) .

والنفث الشعراء الى الضجر الذي يملك هذا الثور ، والمتاعب والآلام
التي يعانيتها ، والسهر المفزع الذي يسيطر عليه فيدفعه الى ان يقول :
« اصبح ليل » مكنيا بذلك عن الليلة الشديدة ، قال بشر يصف راحلته
بعد ان شبهها بالثور^(٢) :

فبات يقول : اصبح ليل حتى تجلى عن صريمته الظلام
وقال الاعشى^(٣) :

بات يقول بالكثيب من ال غبية اصبح ليل لو يفعل
وفي هذه الحالة التي يعتور القلق قلب هذا الحيوان ، تتحفز اعضاؤه ،
وتتيقظ حواسه ، فاذا سمع شيئا رمى ببصره فكان ذلك تصديقا منه لما يسمع ،
وهو لا يخطيء في سماعه ولا بصره . وكان الشاعر يذكر ان هذه الاصوات
تأتي اليه من مطلع الشمس : قال بشر^(٤) :

فأدى اليه مطامع الشمس نبأة وقد جعلت عنه الضباب تحسیر
تمارى بها رآد الضحى ثم ردها الى حرثيه حافظ السمع مبصر

ويفصل لبید في وصف حال حمار الوحش تفصيلا يجعلنا بحس بما
يجري بقلبه من انفعالات الغيرة والحرص على انثاء حرصا لا يقاربه فيه الا
الانسان ، فالأتان الوحشية تنافست فيها الفحول ، وازدحمت عليها وكثر فيما
بينها الخصام ، ثم استطاع واحد منها أن يستأثر بها من دون اصحابه ، وهنا
يظهر الشك ، وتبدو الريبة ، وتشتد الغيرة فتمتلك عليه جوارحه حتى تصل

(١) انظر ديوان الاعشى/ ٢١٣ و ٢٧٩ و ٢٤٥ و ٣٢٥ . (٢) بشر . الديوان/ ٢٠٥

(٣) الاعشى . الديوان/ ٢٧٩ . (٤) بشر . الديوان/ ٨٣ ، ١٢٠ .

به حداً يحمل على العزلة ثم يحرص على هذه العزلة حرصاً غريباً وهو يرى تمنع صاحبته وتجنّبها .

يقول لبّيد^(١) :

أوملّيعٌ وسَقَتْ لاحقَبَ لاحَهُ طردُ الفُحُولِ وضربُها وكدامُها
يلو بها حدبَ الاكامِ مُسَحَّجٌ قد رابه عصيانها ووحامها
باحزةِ الثلبوتِ يربأ فوقها قفرَ المراقبِ خوفها آرامها^(٢)

وفي كل هذه الصور يتابع الشاعر الجاهلي هذه المشاعر ، فيصفها وكأنه يحس بها ، ويذكر جزئياتها ، وكأنه يعيش لحظاتها .

وبعد هذا الاعداد الكلي الذي تصوره الشاعر ، والتهوي الكامل يبدأ وصف المعركة ، وتبدأ في هذه المرحلة مقدرة الشاعر على تصوير الثور الذي يظهر منتهى الضراوة في الدفاع عن نفسه ، وييدي أقصى ما يستطيعه من قوة ، وهو يجابه المعركة الحاسمة ، وطبيعي ان تنعكس في هذا الجانب مشاعر الشاعر وهو يعالج جانباً واضحاً من جوانب الصراع المستحكم بين الحياة والموت ، وتبرز عند ذلك مقدرة على احكام الصورة ، واستيفاء الالوان الكاملة لها ليخلق الجو المناسب ، ويصور الأجزاء الدقيقة للصورة ، فالغبار يتطاير في ساحة المعركة والدماء تسيل ، والارواق تنشب في الاحشاء ، والاجساد ، فتمزق ما تصادفه والقرون الحادة التي يستطيع بواسطتها ان يكسب المعركة ، ويضرب خصومه بالدماء^(٣) ، ويأخذ الركض جانباً من المعركة .

(١) لبّيد . الديوان/ ٣٠٤ - ٣٠٥ . (٢) الملح : الاثان التي استبان حملها . وسقت : حملت . الاحقب : العير الذي في موضوع الحقب منه بياض . لاحه : غيره . كدامها : عضها الحذب : ما ارتفع من الارض . المسحج : المفض . آحزة : جمع حزيز وهو المكان الغليظ . يربأ : يقف طلّية ، ويشرف ويلو . الآرام : اعلام الطريق وهو يخاف من تلك الاعلام ، لأنه يتوهم انها ما يخيفه . (٣) اوس بن حجر . الديوان/ ٤٢ - ٤٣

قال اوس بن حجر يصف راحلته^(١) :

كانها ذو وُشومٍ بين مَافِقَةٍ والقُطُطَانَةِ والبُرُومِ مَدْعُورُ
أَحْسَ رَكَزَ قَنِيصٍ من بني أُسَدٍ فانصاعَ منثويا والخطو مقصور
يسعى بَغْضَفٍ كأمثالِ الحصى زَمَعاً^٢ كَأَن احناكها السفلى مَاشِيرُ
حتى أَشَبَ لَهَنُ الثورِ من كَثَبٍ فارسلوهن لم يدروا بما ثيروا
ولّى مجدا وأزْمَعَنَ اللّحاق به كَأَنهِنَّ^٣ يجنييه الزنابيرُ
حتى اذا قُلْتَ نالتهُ اوائلُها ولو يشاء لنجتهُ المشابيرُ
كَرَّ عليها ولم يَفْشَلْ يَهَارِشُها كَأَنه بتواليهِنَّ^٤ بسرور
فشكها بذليق حَدهُ سَلَبٍ^٥ كَأَنه حين يهلوهن موتور
ثم استمرَّ يَبْاري ظله جَدَلًا كَأَنه مرزبانُ فاز محبور
ويعرض لبيد للصور والاحساسات التي تحيط به ، مما يحملنا على الاعتقاد
بأن هذه الاحساسات مستمدة من احساسات الشاعر وتجاربه .

وكان الشعراء الجاهليون يحسون تصوير ما يحس به حيوانهم من مشاعر
وحركات فيشاركونه فيها . ومن هنا كانت الصور التي يقدمونها حافلة بأمثال
هذه الأحاسيس الذاتية من جهة ، والعطف والحنين من جهة أخرى .

فالحَيوان الذي يصورونه أبى يأنف الهزيمة ، وقوي يفتك بالكلاب
وعطوف تأخذه العاطفة على ولده ، ومتلهف اذا شعر ان صغاره وقعت
فريسة . فهو بهذه الاوصاف يمثل الانسان الذي يعقل ويشفق ويغار ويشعر
بلذة الانتصار ، فتتصلب في حناياه الارادة والعزيمة .

وقد منحتهم معرفتهم بالحيوان القدرة على اختيار الصفات الواضحة

(١) مافقة والقططانة والبرعوم : مواضع . الزعم : الذي يسير ببطء وتؤدة يخالس الفريسة .
المتابير من المتابة . الذليق : الخاد ، ويعني به هنا قرنه . المرزبان : الفارس ، الشجاع المقدم على
القوم دون الملك وانظر ديوان بشر / ١٠١ و ١٠٤ و ١٢٠ - ١٢١ و ديوان النابغة / ١٥١
وديوان الاعشى / ٢١٣ ، ٢٧٩ ، ٢٩٥ و ديوان لبيد / ٧٦ - ٨٠ ، ١٤٣ ، ١٤٦ .

فيه ، فامتازت اوصافهم له بالدقة المتناهية التي لا تنهيا الا لمن عايشه عن قرب . قال جئرة يصف ثعبانا^(١) :

له ربة في عنقه من قميصه وسائرته عن مته قد تقدا
رقدو صحيات كأن لسانه اذا سمع الاجراس مكحال ارمدا
وقد مكنتهم هذه القابلية على ان يذكروا الحيات باسمائها دون صفاتها
فيذكرون الافعى والاسود والشجاع والارقم^(٢) .

وعرفوا مواضع مزاحفها اذا انسابت في الكثبان والرمل ، وميزوا آثارها
قال المتنخل الهذلي^(٣) :

كان مزاحف الحيات فيها قبيل الصبح آثار السياط .
وقال الآخر ، وهو يصف حيات^(٤) :

كان مزاحفها أنسع جرن فرادى ومتناها^(٥)
وكذلك عرفوا آثار العطاء ، وميزوا بين آثار مزاحفها ومزاحف الافاعي .
انشد ابن الاعرابي^(٦) :

بها ضرب اذنان الغطاء كأنها ملاعب ولدان تخط وتمصع^(٧)
ان هذه الملاحظات التي يصور فيها الشعراء هذه الآثار والعادات لا ينتبه
اليها الا من عاش في القفار ، وراقب حركات هذه الحيوانات وادرك التغيرات
التي تحصل لها في كل وقت ، وعرف اوقات خروجها وتلوها وهي تزحف .
ومن الطبيعي ان يكون الشعراء الذين عاشوا في القفار ادق في اوصافهم ،
واكثر استقصاء لأوصاف اعضاء هذه الحيوانات ، لمراقبتهم لها عن قرب ،

(١) ابن قتيبة : المعاني الكبير/٦٧٢ (٢) الجاحظ . الحيوان ٢٤٣/٤ (٣) المتنخل .
شرح اشعار الهذليين ١٢٧٣/٢ (٤) الجاحظ . الحيوان ١٧٥/٤ (٥) الانسع :
جمع نسع وهو سير يضرر ويجعل زماما للبعير وغيره (٦) الجاحظ . الحيوان ١٧٥/٤
(٧) تمصع : تسرع .

ورصد حركاتها عن كتب ، وتسجيل اوصافها بامعان . وكان تسجيل الشعراء الصعاليك ، واللصوص ، والهذليين لأوصاف حيوانات الصحراء احكم ، وحديثهم في ابراز حركاتهم اذق ، والتفاتهم الى الوانها وعاداتها وظواهرها الغريبة اصدق . فهم يتحدثون عن بوئسها وشقائها وتعاستها فمرارة الجوع التي رسمها الشنفرى للذئب الذي صادفه ، تعكس مرارة الجوع الذي يشعر به الانسان المعدم^(١) .

والصراع الذي صورته ابو خراش في الصحراء المقفرة بين كائناتها الحية ، يمثل الصراع الذي كان يعانيه هؤلاء الشعراء من اجل الحصول على القوت^(٢) وبكاء الحمام الذي استثار هموم صخر الغي بدل على قوة الآلام الكامنة في نفسه^(٣) . وهكذا يسير الشعراء في تتبع هذه الانفعالات ، مستخلصين تجاربهم مما يقع امامهم من صور محسوسة ، مستغلين ضواري الصحراء ، وجوارح الطير في تشبيه انفسهم او رفاقهم او اعدائهم بها . وطبيعي ان تتأثر اوصافهم ومعالجتهم لموضوعاتهم بأحوالهم الخاصة ، وظروفهم التي عاشوها . أما الحيوان الأليف ، فكان وصف الشعراء له اذق ، وقصيدهم فيه اطول ، لأنهم آنسوا معاشرته ، ودققوا في اعضائه على ان هذه الموائمة والتدقيق ، لم تجعل وصف الشعراء له واحدا ومكررا . فوصف امرئ القيس وعامر بن الطفيل وعنترة للفرس ، يختلف عن وصف زهير وطرفة والأعشى لأن الوصف عند الشعراء الثلاثة لم يكن مجرد وصف جامد ، لا تشعر للحس فيه روحا ، فهم يدركون دواخل هذا الفرس ، ويحسون بكل حركة يتحركها ، فيهيئون لصورهم ما يجعلها واضحة متكاملة .

ان طبيعة الحياة القاسية جعلت العربي يرتبط بالفرس ارتباطا وثيقا لأنها عنوان بارز في حياته الصعبة ، فهو انيسه في المغامرة . وصاحبه في السرى

(١) الزمخشري . اعجب العجب/٣٨-٣٩ (٢) انظر شرح اشعار الهذليين ١١٩٣/٣ - ١١٩٤ . (٣) انظر شرح اشعار الهذليين ٢٩٢/١ .

ورفيقه في الحل والترحال ، وقد لمس العربي تلك الصداقة في اشد محنه ،
وتذوقها في اخرج ساعاته ، وعرفها في التماع الاسنة ، وتحت ظلال السيوف ،
بيته شكواه ويقاسمه احزانه .

وكان يجيش في نفوس الفرسان احساس عميق نحو خيولهم التي تعيش
معهم ، حين تنال منها سيوف الاعداء ورماحهم ، وكثيرا ما كانوا يصورون
آلامها وجروحها بحيث يرفعونها الى درجة الشعور الانساني ، فيصورون شكواها
والشكوى لا تصدر الا من عاقل ، وشكاية فرس عنتره^(١) ، عبرة وحممة .
اما الحارث بن ولة الجرمي فيمنح فرسه صفة اخرى من صفات الإنسانية ،
وهي نداؤها الفرسان لإظهار شجاعتهم ودعوتهم الى الثبات والصمود في القتال
اذ وجدهم يولون الادبار ، يقول^(٢) :

وَلَمَّا سَمِعْتُ الْخَيْلَ تَدْعُو مُقَاعِسًا تَطَالَعَنِي مِنْ ثَغْرَةِ النَّحْرِ جَائِرُ^(٣) .

وهي تثبت في الحرب ، ولا تتألم حتى اذا جرحت ، لانها عريقة النسب
أصيله^(٤) تمخوض الحرب كما تمخوضها الفارس ، وتخرج منها محجلة الأيدي
دما بعد وطنها القتلى ، تأتي بالغنم ، ومن يعرف ايامها تعقبه الخير كما قال
الطفيل الغنوي^(٥) :

طوامح بالطرف الضراب اذا بدت محجلة الأيدي دما بالمخضب
وللخيل أيام فمن يصطبر لها ويعرف لها ايامها الخير تعقب

ويدعو الفارس فرسه الى التأسي والصبر اذا شعر بوقع الرماح عليه ،
لينال شرف النصر^(٦) ، وكثيرا ما كان الفارس يستشهد بالخيال على بدئه
في المعركة ، ويضفي عليها صفة العلم والدراية^(٧) ، وللخيال كره في الحرب

(١) انظر ديوان عنتره/٣٧٩ (٢) المفضل . المفضليات ١/١٦٤ (٣) ثغرة النحر :

الثغرة في اعل الصدر . الجائر : حر يؤذي الجوف عند الجوع (٤) انظر المفضليات ١/١٨٣

(٥) الطفيل الغنوي . الديوان/١٥ - ١٦ . (٦) انظر ديوان عامر بن الطفيل/٦٢

(٧) انظر ابن الانباري . شرح القصائد السبع الطوال/٢٤٢

يباهي بها ، وكسبها غنيمة يفخر بها^(١) .

فأمرؤ القيس عندما أراد أن يصف فرسه ، وصفه كما وجدته في طرده
ولحاق صيده فصور سرعته ، ثم جعله قيذا للأوبد ، وهو لشدة الحركة
وقوتها وسرعتها ، كأنه يكر ويفر في آن واحد .

وهو يصب الجري صبا ، ثم يقرن هذه الحركة بغلي الرجل ، ويوحى
الشاعر بكل الصور التي تحمل دلالات الحركة والسرعة والقوة ، ويهيئ لذلك
ما تحتاج إليه هذه العملية من ادوات واصوات واشكال ، ثم يعود لفرسه ،
فهو ينطلق مسرعا كخلدروف الوليد الذي امضاه ، وهو فرس ضامر كأنه
ظلي في نفاره ، ونعامة خفيفة في فزعه ، وذئب في انطلاقه وشدته^(٢) .

أما عامر بن الطفيل ، فكان يدرك قيمة فرسه بالنسبة له ، وهو يخوض
المعارك فكان يخاطبه مخاطبة الصديق للصديق ، فإذا حاول أن ينهزم هذا
الفرس أرجعه ، وإن انحرف دفعه ، وإذا أصيب أساءه وصبره^(٣) .

وهم بعد كل هذا ينظرون الى خيولهم نظرة المحب الواله العاشق ،
وينظرون الى كل دقيقة من دقائقها ، ويكشفون عن كل جانب من جوانبها
التي لم يفتن اليها غير الفارس ، ولم يعرفها الا المحارب ، فالفرس رفيقه
الذي يشاطره النصر ، ويقاسمه الهزيمة ، وهو دليله الى المكربة ، وقائده الى
المفخرة ، وكانوا يحرصون على تشبيهه بأسرع الحيوانات^(٤) .

وكذلك نجد الشعراء غير متفقين في اوصافهم للناقة ، لأن الدقة التي
وجدناها عند طرفه وزهير والنابعة ولييد والأعشى في اوصافهم لها ، لم نجدها
عند امرئ القيس او عامر بن الطفيل او عنتره ، فطرفة اتخذها وسيلة يقطع

(١) انظر ديوان الأعمى الأودي (الطرائف الأدبية) ١٢/ والمفضليات ٦٣/١ (٢) انظر

امرئ القيس / ١٩ - ٢١ (٣) انظر ديوان عامر بن الطفيل / ٦١ - ٦٢ .

(٤) انظر حديثنا عن الخيل .

بها الطريق الطويل ، فعرض لوصف اعضائها ، و اشار اليها باحكام ، والح في تأكيد هذه الأوصاف والأعضاء الخالصة لم نجد عند غيره من الشعراء ، حتى انه لم يترك فيها عضوا الا قابله بما وقع تحت بصره من اوجه الشبه المادية .

ولم نجد غيره من الشعراء يعرض لها بمثل ما عرض . فقد بدأ وصفه لها كما عودنا الشعراء الآخرون ، فهو يرتحل عليها اذا نزل به الهمة ، وكثرت عليه الاحزان^(١) .

واني لا مضي الهمة عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي . ثم بدأ يمثّل ناقته في صورة عامة ، وهي مندفة على الطريق ، فهي ناقة موقنة الخلق ، يؤمن عثاها وزللها ، ثم يحدد لها الطريق المستوي الذي لا يعوق السير فيها عائق فيشبه طرائقه بطرائق الكساء المخطط .

وهي في مشيتها تسابق ابلا كراما ، سرعات في السير ، تتبع وظيف رجلها وظيف يدها ، فوق طريق مدلل ، وفي هذين البيتين تظهر نزعة طرفة التصويرية في رسم التعاريج والخطوط والآثار التي تبدو في معالم هذا الطريق ، وتتجسم فرحته التي تملأ عليه حسه وهو يتبين هذه المعالم ، فتتوضح امام عينيه ملامح الحياة التي يلمسها في آثار هذا الطريق السلوك . ويشعر بدبيب الطمأنينة يتسرب الى نفسه وهو في هذه الصحراء القاحلة^(٢) :

أمون كألواح الإران نسأتها على لاجب كأنه ظهر بُرْجْد
تباري عتاقاً ناجيات واتبع وظيفاً وظيفاً فوق مَوْرٍ مُعْبَدٍ
ثم يصف هذه الناقة ، وهي ترعى ايام الربيع ، في واد اعتادته الامطار ، فينعتها بالدكاء ، لانها تعود الى راعيها حين يدعوها ، والقوة لانها تدفع الفحول عنها بذنب قوي كأن جناحي نسر ابيض قد غرزا فيه ، تحركه الى

(١) ابن الانباري . شرح القصائد السبع الطوال/ ١٤٩ (٢) نفس المصدر/ ١٥١-١٥٣ .

اعلى واسفل من فرط النشاط ^(١) :

تَرَبَّعتِ القَفَّينَ بالشَّوْلِ ترتعي
تربعُ الى صوت المهبب وتبقي
كَأَن جَنَاحِي مُضْرجِي تَكْتَفِي
فطوراً به خلف الزميل وتارة

وان لهذه الناقة فخذين كاملتي الخلق مكنزتي اللحم ، كأنهما مصراعا
باب قصر عال ملمس ، وفقار ظهر متراسة ، متداخلة ، واضلاعا منحنية
في صلابة كالقسي ، تتحمل مشاق السفر وآلامه . وقد شد باطن عنقها وما
حواله الى فقار عنق صلبة ^(٢) :

لها فَخْذَانِ اكمل النَّحْضُ فيهما
وطي مَحَالٍ كالحَيِّ خُلُوفُهُ
كَأَن كِنَاسِي ضَالَّةً يَكْتَفِيهَا
وأجرنة لُزَّتْ بِدَائِي مُنْضِدَّةً
وَأَطْرَقِسي تَحْتَ صَلْبٍ مُؤَبَّد

ولهذه الناقة مرفقان شديدان بعيذان عن جنبها ، كأنهما دلوان بيدي
سقاء يجانبهما عن ثيابه ، ثم يستمر طرفه في وصف شدة اعضائها ودقة
احكامها ومثانة بنيانها وسرعتها ^(٣) .

لها مِرْفَقَانِ أَفْتَلَانِ كَأَنَّمَا
كفنترة الرومي اقسام ربهما
صهابة العُثْنُونِ مُوجُودَةُ الْقَرَا
أَمَرَتْ بِدَاهَا فَتَلَّ شَزْرًا وَجَنَحَتْ
جَنُوحٌ دُفَاقٌ عَنْدَلٌ ثُمَّ أَفْرِعَتْ

ثم يقف طرفه عند آثار السيور في ظهرها وجنبها ، فتتبادر الى ذهنه

(١) ابن الانباري . شرح القصائد السبع الطوال/ ١٥٤ - ١٥٨ . (٢) نفس المصدر/ ١٥٩

- ١٦٢ . (٣) نفس المصدر/ ١٦٣ - ١٦٨

معالم طريق وراد المياه على هضبة في ارض مرتفعة صلبة ، فتدب معالم الحياة في نفسه ثانية ، وتسرب ملامح الطمأنينة اليها ، فيلح في وصف هذه الآثار الحاحا فيجعلها شديدة البياض وكأنه يريد ان يفرض على الصورة كثرة اولئك الذين مروا على هذا الطريق فحفرته اقدامهم ، وابانته آثار مشيهم^(١) :

كَأَنَّ عُلُوبَ النَّعْرِ فِي دَأْيَاتِهَا مَوَارِدٌ مِنْ خَلْقَاءِ فِي ظَهْرِ قَرْدٍ
تَلَاقَى وَأَحْيَاناً تَبَيَّنُ كَأَنَّهَا بَنَائِقُ غُصْرٍ فِي قَمِيصٍ مُقَدَّدٍ

ثم يعود لوصف بقية الاعضاء ، التي يأتي لها بمشبهات لم يسبقه احد اليها كما يقول الاصمعي^(٢) . فيصف العنق والجمجمة والخذ الابيض وصفاء عينيه وصدق سمع اذنيها وارتياح قلبها وخضوعها لإرادة راکبها ، فإن شاء تركها تسير سيرا عاديا ، وان شاء جعلها تسرع . مخافة سوط شديد القتل^(٣) .

وَاتْلَعُ نَهَاضٌ إِذَا صَعِدَتْ بِهِ وَجُمُجُمَةٌ مِثْلُ الْعَلَاةِ كَأَنَّمَا
وَجْهَ كَقَرطاسِ الشَّامِيِّ وَمَشْفَرٌ وَعَيْنَانِ كَالْمَسَاوِيَتَيْنِ اسْتَكْنَتَا
طَحْشُورَانِ عَوَّارِ الْقَدَى فَرَاهُمَا وَصَادِقَتَا سَمِعَ التَّوَجُّسَ لِلسَّرَى
مَوْلَتَانِ تَعْرِفُ الْعَتَقَ فِيهِمَا وَارَوْعُ نَبَاضٌ أَحَدٌ مُلْتَمَسٌ
وَأَنْ شَتَّ سَامِي وَاسِطُ الْكُورِ رَأْسُهَا وَإِنْ شَتَّ لَمْ تَرُقْ لَ وَإِنْ شَتَّ أَرَقْلَتْ

كَسُكَّانِ بُوْصِيٍّ بِدَجَلَةٍ مُصْعِدٍ وَعِى الْمُتَقَى مِنْهَا إِلَى حَرْفٍ مِيرَدٍ
كَسَيْتِ الْيَمَانِي قَدَهُ لَمْ يَجْرَدَ بِكَهْفِي حِجَاجِي صَخْرَةٍ قَلْبَتْ مَوْرَدٍ
كَمَكْحُولِي مَدْعُورَةٍ أُمٌّ فَرَقْدَ لَهَجْسٍ خَفِيٍّ أَوْ لَصُوتٍ مُنْدَدٍ
كَسَامَعِي شَاةٍ بِحَوْمَلٍ مُفْرَدٍ كِمِرْدَاةٍ صَخْرَةٍ فِي صَتِيحٍ مَصْمَدٍ
وَعَامَتٍ بِضَبْعِيهَا نَجَاءً الْخَفْنَدِ . مَخَافَةً مَلُويٍّ مِنَ الْقَيْدِ مُحْصَدٍ

(١) نفس المصدر ١٦٩ - ١٧١ (٢) انظر التبريزي في شرح القصائد العشر/ ٩٨

(٣) ابن الانباري . شرح القصائد السبع الطوال/ ١٧١ - ١٨٠

ومن هنا كانت اوصاف طرفة مغايرة لما عهدناه عند غيره من الشعراء لأنه كان يحدق - وهو في حالة وصفه لهذه الناقة - في أعضائها كما كان يحدق بقايا الدار ورسومها . ثم يرسم من خلال ذلك هذه الأعضاء ويصورها تصويراً دقيقاً ، وقد حمل هذا الإيغال في الوصف على ان ينسى مهمة هذه الناقة ، وكونها اداة للسفر التي تنسيه همه ، وتفرج كروبه .

وكذلك فإن الاعشى يكثر من وصف الصحراء ، وكان لا بدله - وهو المعروف بكثرة رحلاته واسفاره - ان يتحدث عن اوصافه للناقة ، التي تقطع به مثل هذه المهام المقفرة الموحشة ، فهي شديدة بيضاء ، صافية العين صلبة ، لم يذهب بعزمها طفل ترضعه ، قد استنفدت الاسفار البعيدة ، تفري الارض الملتهة فريا بالارقال ، بخطى سريعة وقوائم صلبة^(١) . وهي ضخمة سلسة القيادة تنطلق بسرعة وقت الهاجرة ، حين تنكمش الظلال تحت ارجل المطى ، تعتسف الطريق اعتسافاً ، تاركة وراءها اثر اخفافها مطبوعاً على الرمال^(٢) .

وهي قوية شديدة لا تتعثر في طريقها تضرب بذنبها ذات اليمين وذات الشمال ، تكلف نفسها مشاق الرحلة فتضمر^(٣) .

ولكن الاعشى لا يطيل في وصف اعضاء الناقة اطالة طرفة وانما يوجز في حديثه عنها ، الا انه يطيل حين يريد ان يظهر سرعتها وقدرتها على قطع المسافات الطويلة ، فيشبهها بحمار الوحش ، او الثور ، او النعامة ، ثم يبدأ بتفصيل ما يلم به منها ، وما يعرض له من اوصافها .

وكما كان الشعراء يحرصون على تشبيه الخيل بالعقاب ، فقد كانوا يكثرون من تشبيه نياقهم بالبقرة الوحشي والحمار الوحشي والنعام ، ثم

(١) انظر ديوان الأعشى/ ٥- ٧ (٢) انظر ديوان الاعشى/ ٢٧ - ٢٩ . (٣) انظر

ديوان الاعشى/ ١٠٣- ١٠٥ ، ١١٩ - ١٣٥ ، ١٦٣ - ١٦٥ ، ١٩٧ ، ٢٤١

يستطردون في هذا الوصف . فناقرة زهير تشبه البقرة الوحشية في السرعة ، طليقة في الصحراء ، تنتقل من موضع الى موضع ، وتوصل من مكان الى مكان ، ولها قرنان محددان كالسيوف وآذان مرهفة ، وقد عاودها الحنين الى ولدها ، فعادت اليه فكان بقايا اشلاء ودماء . تحوم حوله الطير ، فعادت تجري في الصحراء وهي تنتظر المصير الذي يترصد لها . وقد تمثل هذا المصير في الصيادين . وان افلاتها من الرماة لا يعني خلاصها من النهاية المحتومة ، والمصير المنتظر ، وكأنها ادركت في مصير ولدها مصيرها هي بالذات ، ومن خلال هذه الصورة ترسم مأساة هذه البقرة . التي ترمز الى مأساة الانسان نفسه^(١) .

وعني الشعراء برسم صورة هذه الناقاة . وهي تشبه بالحمار الوحشي الذي يقاسي من آلام البرد والمطر ولظى الصيف ، وهجير الصحراء ، وهؤلاء الصيادين الذين يضيقون عليه سبيل الحياة . ويملأونها عليه قسوة وألما وتعباً ، فهو يسرع لا يلوي على شيء^(٢) . ورسوموا صورتها وهي تشبه الثور الوحشي الذي يطوي ليالي الشتاء الباردة . مستظلاً بأغصان شجر الارطاة وكتبان الرمال . فإذا تراءت له خيوط الفجر . خرج متوارياً في ظلال الرمال والكتبان ، حتى اذا رأته كلاب الصيد اسرعت له . محاولة اللحاق به^(٣) ، وكذلك رسموا صورة الناقاة وهي تشبه بالنعامة^(٤) .

وتتكرر مثل هذه الصور عند معظم الشعراء الجاهليين . وكانت وقفاتهم تنضح ، وبواعثهم تبرز ، وهم يصورون المعارك التي تنشب بين هذه الحيوانات

(١) انظر ديوان زهير/ ٢٢٥-٢٢٩ وديوان ليث/ ٣٠٧-٣١٢ وديوان -الاعشى/ ٦٧ ، ١٠٥ ، ٧٣ (٢) انظر ديوان ليث/ ٣٠٤-٣٠٧ وانظر ديوان الاعشى / ٧ ، ١١٩ ، ١٦٥ ، ٢٠١/ ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢٢٩ ، ٣٢٥ ، ٣٤٩ . (٣) انظر ديوان امرئ القيس/ ١٠١ وديوان النابغة/ ١٥٠-١٥١ ، ٢١٩ ، ديوان بشر ٨٢ ، ١٠١ ، ٢٠٢ وديوان الاعشى/ ٢١٣ ، ٢٧٩ ، ٢٩٥ ، ٣٢٥ ، ٣٦١ وديوان ليث/ ٧٦-٧٩ (٤) انظر ديوان زهير/ ٦٣ وديوان الاعشى/ ٢٢٩ وديوان ليث/ ١٤٧ .

وكلاب الصيد ، وبينها وبين الصيادين .
وكان الشعراء يحرصون على اتباع تقليد معين ، تنبه اليه الجاحظ ،
وصرح به في قوله^(١) : « ومن عادة الشعراء اذا كان الشعر مرثية وموعظة
ان تكون - الكلاب هي التي تقتل بقر الوحشي ، واذا كان الشعر مديحا ،
وقال كأن ناقتي بقرة صفتها كذا ، ان تكون الكلاب هي المقتولة ، وليس
على ان ذلك حكاية عن قصة بعينها ، ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب ،
وربما قتلنها » .

واما في اكثر ذلك فلنما تكون هي المصابة ، والكلاب هي السالمة والظافرة
وصاحبها الغانم .

وهي صورة تبين لنا رغبة الشاعر - وخاصة في حالة المديح - لأنه لا
يريد ان يرسم صورة الثور وهو يقع فريسة ، او ينهزم . فالثور رمز لشيخ
القبيلة ، لأن - الأوصاف التي يخلعها الشاعر على الثور لا تتوفر الا عند
الشيخ ، فهو رجل القبيلة في الشدائد ، وعنوانها في الحرب ورأسها في المفاخر
وعمادها في النوائب والأزمات ، فلا غرابة بعد هذا ان يرمز الى الشيخ بهذا
الحيوان الذي يمثل القوة والصلابة والسرعة في كل احواله . لأنه وجد بينهما
اوجه شبه متماثلة . ولأن - الممدوح في اغلب الاحيان يمثل الشيخ . ومن
هنا كانت قيمة الناقة التي شبهها بهذا الثور مرتفعة في نفسه منسجمة مع
مفهومه الرفيع لهذا التكوين العظيم للناقة ، فأصبحت صورتها في نفسه متكاملة ،
فافتراسها او سقوطها كان يعني بالنسبة للشاعر انهيار هذه الصورة المتكاملة ،
وسقوط النموذج الرمزي الذي ارتسم شكله في اذهانهم وربما كانوا يتخلدون
الكلاب رمزا لأعداء الممدوح^(٢) .

ولا يفوتنا ونحن نعرض لحديث الشعراء عن الناقة ان نقول : ان الشعر

(١) الجاحظ . الحيوان ٢٠/٢ وانظر المعاني الكبير لابن قتيبة ٢٢٤/١ (٢) انظر قصيدة
الاسمر الجمعي في الاصمعيات/١٦٠

كان الفن الوحيد الذي يعرفه البدوي ، وان محيط الحياة الذي كان يعيش فيه لم يكن ليسمح بتعاطي الفنون الأخرى ، التي فيها يفرغ الشاعر هذه القابليات ، فكان لزاما عليه ان يستعيض عنها بهذا التفصيل الدقيق : والايضاح الشامل ، وهو يعرض لأوصاف هذه الحيوانات التي لازمته عن قرب ، فارتسمت صور اعضائها في نفسه .

ان صحبة الشاعر الجاهلي للناقة ، وقيام حياته على وجودها ، كان من الاسباب الدافعة لهذا الفيض الزاخر من الشعر ، ردا للجميل . واعترافا بالصحبة وأداء لواجب العطف . ويكفينا دليلا على هذا الاهتمام ان نقول : ان اربعة من شعراء المعلقات وصفوا الناقة في اكثر من مائة بيت^(١) ، وهذا ما دفع صاحب العمدة الى القول : ان اكثر القدماء يمجّد وصفها ، لأنها مراكبهم^(٢) .

واقترنت صورة الوعل في حديث الشعراء الجاهليين بصورة الموت حتى كاد شكل هذا الحيوان ، يكون الرمز المجسم لحقيقة هذا الموت ، ولا بد ان تكون هذه الصورة من الصور التي رسخت في اذهانهم ، باعتباره الحيوان الممتنع في قلل الجبال ، والمقيم في الامكنة البعيدة ، والذي يفتت باطلافه الحجارة الصلدة ، ويعتمد في الوثوب ، وفي القذف بنفسه من اعالي الجبال على القرون^(٣) . ويشرب من مناقع المياه الموغلة في اعماق الصحراء ، ويطالب الحيات مطالبة شديدة . ويقوى عليها قوة ظاهرة^(٤) . وفي كل هذه الصور تتجسم القوة وتبرز القدرة على تحمل المخاطر . وهذا ما كانوا يحسون به . ومن هنا كان هذا الحيوان رمز القوة . ونموذج الجلد الذي شغل تفكيرهم ، فربطوا بينه وبين الموت . واعتبروه القوة الخارقة التي يقف

(١) انظر معلقة طرفة والنابغة والاعشى وليد . (٢) ابن رشي . العدة ٢/٢٨٠

(٣) الجاحظ . الحيوان ٧/٢٤٨ . (٤) الجاحظ . الحيوان ٦/٥٥ وانظر الصفحات/٢٨

من الجزء الأول و٥٢ من الثاني و٤٩٧ من الثالث و١٦٦ من الرابع .

امامها الموت مترددا ولهذا جاء حديثه في الرثاء ، باعتباره — الصورة الأخيرة التي تخضع لهذا الجبروت ، فكل شيء يفنى ، ولو كان الاحياء يتمكنون من النجاة لنجا هذا الوعل . وكانت الصورة الأخيرة حديث الشعراء الذي رددوه في مراثيهم ، قال صخر الغي يرثي ابنه تليدا^(١) :

ارى الايامَ لا تُبقي كرمياً ولا العُصمَ الأوايدَ والنعاما
ولا العُصمَ العواقلَ في صُخُورٍ كُسِينَ على فراستها خِداً^(٢)
وقال يرثي اخاه^(٣) :

اخي لا اخا لي بعده سبقت به منيته جمع الرُقى والطبايب
أعني لا يبقى على الدهر قادراً بتهورةٍ تحت الطخاف العصائب^(٤)
اما الطير فكان موقفه لا يختلف تجاهها عن موقفه تجاه المظاهر الاخرى للطبيعة ، فهو لم ينظر اليها نظرة سلبية بحتة ، وانما استوحى نظرته اليها من ابحاء هذه الطيور له ، فالغراب نذير شؤم ، ومدعاة تطير ، واليوم مبعث قلق ، واليف خرائب ، والحمام باعث اشجان ، ومستثير احزان . وهكذا ارتسمت في ذهنه الصور لكل حيوان من هذه الحيوانات .

على ان هذه الهواجس والمشاعر لا تقف حائلا دون الانتفاع من الصور التي كانت تثيرها في نفسه بعض هذه الحيوانات ، فقد وجد في افحوص القطا صورة لتشبيه ما صلع من الرؤوس ، وذهب من الشعر ، لان القطاة تجيء الى الموضع اللين من الارض فتفحصه . وتماسه ، ثم تدبر حوله ترابا ، فتبيض على غير عش ، وهي التفاتة طريفة يصورها لنا بشر بقوله^(٥) :

(١) صخر الغي شرح اشعار الهذليين ٢٨٧/١ . (٢) الفراسن : الاكارع . الخدام : البياض . (٣) صخر الغي . شرح اشعار الهذليين ٢٤٦/١ . (٤) القادر : الوعل المسن . التيهورة : ما اطمأن من الأرض . الطخاف : مارق من القيم وانظر ٢٤٩ من الكتاب نفسه والصفحة ٧٤٢ من الجزء الثاني والمفصليات ٣٨/٢ وديوان علي بن زيد/ ٦٥ وديوان ليلى/ ٢٧٢ . (٥) بشر بن ابي خازم . الديوان/ ١٥

رأني كأفحوص القطة ذؤابي وما مسها من منعم يستثيبها
او يصورون اثر حركة الرجل بجني البعر ، وذهب الوبر عنها بافحوص
انثلمت جوانبه^(١) ، ولا بد ان تكون الاستدارة والفراغ الذي يحصل نتيجة
ذهاب الشعر او الوبر ، من العوامل الدافعة لرسم هذه الصورة التي وجد
فيها الشاعر وجه شبه مناسب . واستغل الشفري عرقوب القطة ، وتلويره ،
فشبه به فوق سهمه فقال^(٢) :

عليه نسارى على خوط نبعة وفوق كعقوب القطة مدرج
وعلى الرغم من أن الشعراء الجاهليين قد امتلأت قصائدهم بذكر
الحيوان ، فهم لم يعالجوا في هذه القصائد الا حيوانات معدودة ، واغفلوا
ذكر حيوانات مألوفة اخرى . كاليربوع والارنب والعقرب والفهد والبغل
وغيرها من الحيوانات الاخرى وربما يعزى ذلك الى ضالة صلتهم بها ،
او طبيعة تكوينها مما جعلهم ينظرون اليها نظرة غير النظرة التي ينظرون بها
الى الحيوانات الاخرى ، ولعل الرأي الذي عرضنا له في الفصول الاولى ،
والذي يعلل استجابة الشاعر للمظاهر القوية اكثر من استجابته للمظاهر
الضعيفة يكون من اقوى الاسباب التي صرفت الشاعر الجاهلي عن التعرض
لذكر هذه الحيوانات ، وابعادها عن الحيوانات التي انفق في وصفها طاقاته
وقدراته وقابلياته .

(١) انظر ديوان بشر/ ١٩٨ (٢) الشفري . الديوان (الطرائف الادبية) / ٣٤ .

الصيد

اقتنع الانسان في حياته الاولى بما تجود عليه الطبيعة من غذاء ، يدفع به عن نفسه غائلة الجوع ، ومما لا شك فيه ان عملية الصيد . نشأت بسيطة وان المستوى العقلي الذي كان عليه لم يسمح له بتغيير هذه الطريقة ، ومن الجائز ان تكون قد استمرت مدة طويلة .

والواقع ان ضرورات الحياة ، وحاجات الافراد ، وملء اوقات الفراغ ، كانت تدفعهم إلى ممارسة الصيد بكل وسيلة ، وتثير فيهم الرغبة في الحصول على الحيوان بأي شكل كان . وظلت هذه العملية التي مارسها الانسان منذ فجر التاريخ حرفة تتناقلها الاجيال حتى العصر الجاهلي وما بعده .

وطبيعي ان يضيفي الشعراء على هذه الحرفة او الهواية ، طابع الشكل الادبي ، فيتعرضون لوصف ادواتها وحيوانها : وما يعتور هذا الحيوان وما ينتابه من مخاوف ، وما يصنعه الصياد للاحتيال على صيده ، وما يستخدمه في ذلك من وسائل . متمثلة في الخيول والكلاب ، والسهام والقيسي والرماح ، وما ابدعه فكروهم من وسائل يتمكنون بها من الوصول الى هذا الصيد . حتى اصبح صيد الحيوان الشغل الشاغل لكثيرين منهم . فكانوا يدربون الكلاب عليه . وبضرونها تضربة حتى تصبح الجوارح الفاتكة .

وقد رسم الشعر الجاهلي تلك الوسائل التي استعملت في الوصول الى

هذه الحيوانات ، ويظهر ان صيد الوحش لم يكن هم شجعانهم وفرسانهم ،
انما كان هم فقرائهم ومعوزيهم ، ولذلك كان يأتي في المرتبة الثانية من
غزوهم ونهبهم اللذين يدلان على بطولتهم واستبسالهم^(١) . وهذا ما حمل
الملاحظ على القول : « وقد وجدنا العرب يستدلون الصيد ، ويحرقون الصياد ،
ومن ذلك قول عمرو بن معد يكرب يهجو قوما بانهم يعيشون على الصيد^(٢) :

أبني زياد أنتم في قَوْمِكُمْ ذَتَبٌ وَنَحْنُ فِرْعَوْنُ أَصْلَ طَيْبِ
نَصِلُ الْخَمِيسَ إِلَى الْخَمِيسِ وَأَنْتُمْ بِالْقَهْرِ بَيْنَ مَرِيقٍ وَمَكْلَبِ
لَا يَحْسَبَنَّ بَنُو طَلِيحَةَ حَرْبَنَا سَوْقَ الْحَمِيرِ نَجَاتَهُ فَالْكُوكَبِ
حَيْدٌ عَنِ الْمَعْرُوفِ سَعْيُ آيِهِمْ طَلَبُ الْوَعُولِ بَوْفُضَةٍ وَأَكْلُبِ^(٣)

وكانت قصائدهم في الصيد ، او ابيائهم التي تعرضوا فيها له ، تأتي
من خلال احاديثهم عن رواحلهم ، ولهولهم وايامهم ، وذكريات شبابهم
لأنه يعد ضربا من ضروب الفروسية في كثير من الأحيان .

وكما كانوا يصيدون الوعول او الماعز الجبلي ، كانوا يصيدون الوحشي .
ويتردد وصفهم له في اشعارهم ترددا واسعا . وهو تردد اتاح للملاحظ في
حيوانه سيولا من هذه الاشعار فصور الشعراء في هذه السيول ما كان يصاحب
الصيد من مراقبة واحتيال وترصد ، وقدموا من خلال هذه الاوصاف صورا
ملينة بالحركة والحياة . فابو دؤاد يصور صيادا يعدو كعدو النعامة ، خفيفا ،
يخفي وطأه مدة ، ويخفي شخصه ، ويتقي الناس مرة اخرى ، يقول^(٤) :

فاتانا يسعي ففرش ام البيض شدا وقد تعالى النهار^(٥)

غير جعيف اوابد ونعام ونعام خلاها انوار

(١) انظر تاريخ الأدب (العصر الجاهلي) ٨٠/ للدكتور شوقي ضيف . (٢) الملاحظ .
الحيوان ٣٠٩/٢ (٣) القهر : الذل . والمرق : اراد به الصائد بالريقة ، وهي العروة في
الجل والمكلب الصائد بالكلاب . الوفضة : جعبة السهام اذا كانت من ادم . (٤) ابو
دؤاد . الديوان ٣١٩ (٥) اى-ذلك الصائد يمدوكما تعدو النعامة .

في حوال العقارب العمر فيها حين ينهضن بالصباح عذار
وقال امرؤ القيس ، يصف الصياد ، وهو لاصق بالارض ، يخفي شخصه
من الصيد لثلا ينفر ، ويمسح الارض ببطنه وهو يزحف^(١) :

بَعَثْنَا رَيْثًا قَبْلَ ذَلِكَ مُخْمَلًا كَذُوبُ الْغُضَا يَمْشِي الْفُرَّاءُ وَيَتَّقِي
فُظْلَ كَمْثَلٍ انْخَشَفَ يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَسَائِرُهُ مِثْلُ التُّرَابِ الْمَدْقِقِ
وَبَجَاءٍ خَفِيًّا يَسْفِنُ الْأَرْضَ بَطْنُهُ تَرَى التُّرْبَ مِنْهُ لَاصِقًا كُلَّ مُلَصِّقٍ
ولم يغفل الشعراء في حديثهم عن الصيد ، ندامة الصياد اذا اخطأ الرمي ،
فهذا يعرض ابهامه من الندم ، ويلهف سرا امه لثلا يسمعه الوحشي . قال
اوس بن حجر^(٢) :

فَعَضَ بِلِبْهَامِ الْيَمِينِ نَدَامَةً وَلَهَفَ سَرَا امَهُ وَهُوَ لَاهِفٌ
وكان لزهير بن ابي سلمي مهارة خاصة في استخدام الالفاظ والعبارات
المثيرة التي تجعل المنظر وكأنه يتحرك تحت اعيننا ، ففي حكايته للغلام الذي
أنباه بالصيد يقول^(٣) :

اِذَا مَا غَدَوْنَا نَبْتَغِي الصَّيْدَ مَرَّةً مَتَى نَرَهُ فَانْنَا لَا نَخَانِلُهُ
فَبَيْنَا نَبْغِي الْوَحْشَ جَاءَ غَلَامُنَا يَدْبُ وَيَخْفِي شَخْصَهُ وَيَضَائِلُهُ
فَقَالَ شَيْءٌ رَاتَعَاتٍ بِقَفْرَةٍ بِمَسْتَاذِ الْقَرِيَانِ حَوْرٍ مَسَائِلُهُ
ثَلَاثَ كَأَقْوَاسِ السَّرَاءِ وَمَسْحَلٍ قَدْ اخْضَرَ مِنْ لَسِ الْغَمِيرِ جِحَافِلُهُ
وَقَدْ خَرَّمَ الطَّرَادُ عَنْهُ جِحَاشَهُ فَلَمْ يَبْقِ الْإِنْفُسُ وَحَلَالَتُهُ
وَقَالَ : أَمِيرِي مَا تَرَى رَأْيِي مَا تَرَى اِخْتَلَهُ عَنْ نَفْسِهِ أَمْ نُصَاوِلُهُ
فَقُلْتُ لَهُ : سَدَدٌ وَأَبْصَرُ طَرِيقَهُ وَمَا هُوَ فِيهِ عَنْ وَصَاتِي شَاغِلُهُ
وَقُلْتُ تَعْلَمُ أَنَّ لِلصَّيْدِ غِيْرَةً وَلَا تَضْيَعُهُ فَنَّاكَ قَاتِلُهُ

(١) امرؤ القيس . الديوان/ ١٧٢ (٢) اوس بن حجر . الديوان/ ٧٢ (٣) زهير .
الديوان/ ١٣٠ - ١٣٤ .

فزهير يغدو للصيد - كما يصور لنا ذلك - مع بعض رفاقه ، وهو لا يأخذ صيده بالخدعة ، وتلك مفخرة من مفاخر الصيادين المهرة .

ثم يصور هذا الغلام الذي جاء ينبتهم بمكان الصيد ، وهو حذر محتاط يدب ويخفي شخصه ويضائله ، ثم يمضي زهير في هذه الدقة التي يصور فيها المنظر ، ليحيط بما يريد ان يصوره . فهذه الحمر اربع ثلاث منهن تمتاز بالضمور واما الرابع فهو الفحل ، ثم يبلغ منتهى الدقة في هذا التصوير حين يرسم هذا الحمار وقد اكثر من رعي النبات المخضر ، حتى ظهرت خضرته في فمه . وفي هذا الجو المليء بالفزع والاضطراب والقلق يوصي زهير الغلام ، ويرشده الى الطريقة التي يجب ان يسلكها ليتمكن من صيده .

وكذلك فعل النابغة حين ذكر ناقته ، فزعم انها كالثور ، ثم اخذ يصف لنا قوائمه المزينة ، وضموره الذي يشبه السيف المسلول ، يجري في هذه الصحراء خائفا متوجسا ، ثم يقص علينا قصته حين احس بالصائد ، وسمع صوته ، وهو يهتف بكلايه ، ففرع واسرع في جريه ، وكلما اشتد به الذعر ، اشتدت قوائمه وقويت كعوبه ، واستخرج منها كل ما ينبغي من السرعة ولكن الكلاب ادركته فعطف عليها يصارعها ، ثم اهوى على الكلاب بقرنيه ، فاصاب بعضها فقتله ، واحجم البعض الآخر عن لقاءه ، بعد ان اخذه اليأس ، واصابته الخيبة . قال النابغة (١) :

كأنّ رحلي ، وقد زال النهارُ بنا	يوم الجليل ، على مستأنسٍ وحيدٍ
من وحشٍ وجرةٍ موثي أكارعهُ	طاوي المصير ، كسيف الصيقل القرد
أسرت عليه من الجوزاء سارية	ترجي الشمالُ عليه جامدَ البرد
فارتاع من صوت كلابٍ فبات له	طوع الشوامت من خوف ومن صرد (٢)
فبتن عليه ، واستمرّ به	صمغ الكعوب . بريات من الحرد

(١) النابغة . الديوان/ ٣١ - ٣٣ (صادر) (٢) الشوامت : القوائم . الصرد : شدة البرد .

وكان ضميران منه حيث يُوزعه
شكَّ الفريضة بالميدري فانقذها
كأنه ، خارجا من جنب صفحته
فظل يعجم اعلى الروق منقبضا
لما رأى واشق اقعاص صاحبه
قالت له النفس: اني لا أرى طمعا
طعن المearك عند المحجر النجد
طعن المبيطري اذ يشفي من العضد
سفود شرب تسوه عند مفتاد
في حالك اللون صدق غير ذي أود
ولا سبيل الى عقل ولا قود
وان مولاك لم يسلم ولم يصد^(١)

اما ناقة لبید ، فكانت بقرة يطلبها القناص ، وهي تريد ان تنجو ، فهي
تعدو ، لا تلوي على شيء ، وقد ملأها الخوف ، وتملكها الرعب ، وهي
تنتظر الخطر من امامها . والخطر من ورائها ، وهي تسلم نفسها لقواتها
البحاف ، وكأنهن القذاح حتى ابست الرماة : وفاقت النبل ، ولكن عجز
الرماة ، وقصور النبل لم يؤثما هذه البائسة ، فكلاب الصيد حاضرة ، وما
اسرع ما ارسلمها القناص ، فأخذت تعدو ، واخذت البقرة تعدو ايضا ،
فلما استبأست من العدو ، وعرفت ألا نجاة لها الا باستقبال الخطب ، عطفت
على هذه الكلاب . فكانت بينها وبينهن حرب اسفرت عن قتيلين^(٢) :

حتى اذا يئست وأسحق حالي
وتوجست رز الانيس قراعتها
فتعدت كلا الفرجين تحسب أنه
حتى اذا يش الرماة وارسلوا
فلحقن واعتكرت لها مدرية
لتلودهن وايقنت إن لم تعدد
لم يبله لإرضاعها وفطامها .
عن ظهر غيب والانيس سقامها
مولى المخافة خلفها وامامها
غضفا دواجن قافلا اعصامها
كالمهريّة حدّها وتمامها
أن قد أحيم من الخوف حكامها

(١) الصمع : الضواير . الحود : استرخاء عصب يد البعير من شد القتال ، استمارة للثور لأنه
لا يشد بالقتال . المحجر . الملجأ . النجد : الشجاع . المفتاد : موضع النار الذي يشوى فيه .
الاقعاص : القتل السريع . العقل : الدية . القود : القصاص (٢) لبید . الديوان/ ٣١٠

فتقصدت منها كساب فضُرجتُ بدم وغودرَ في المكرَّ سَخامها^(١)
 وكان الشعراء يشيرون في اثناء حديثهم عن الصيد الى الحفر التي كان
 الصيادون يحفرونها ، ويحيطون جوانبها ، لينستروا بها ، ويكمنوا في داخلها .
 لئلا تجد الوحوش رائحتهم^(٢) . وكانوا يذكرون القبائل التي عرفت بمهارتها
 في الصيد ، فيضربون بها المثل في جودة الرمي ، كقبيلة طي التي عرف منها
 ابن مر ، وابن سنيس . قال امرؤ القيس^(٣) :
 فَصَبَّحْهُ عِنْدَ الشَّرُوقِ غُدَّةً كَلَابُ ابْنِ مُرٍ أَوْ كَلَابُ ابْنِ سَنَيْسِ
 وبني اسد التي يذكرها اوس في قوله^(٤)

أَحْسَ رَكَزَ قَتَيْصٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ فَانْصَاعَ مَثْوِيًّا وَانْخَطَوُ مَقْصُورٍ
 وتعل التي عرف منها عمرو الذي عد من ارمى العرب ، وفيه يقول
 امرؤ القيس^(٥)

فأوردها ماءً قليلاً أنيسُهُ يحاذرن عَمْرُوًّا صاحبَ القتراتِ
 وصباح^(٦) وغوث^(٧) وذلان^(٨) وذريح^(٩)

ومثل ما عرفت القبائل واشتهرت بمهارتها في الصيد ، عرف الاشخاص
 بهذه الصفة ، فكان عوف بن الارقم^(١٠) ، وعمرو بن مسيح الطائي^(١١) وابن

(١) اسحق : أخلق وزهب ما فيه من اللبن . حلق : الضرع الذي كساد يمتلئ . الرز : الصوت
 الخفي . الدواجن : العودة للصيد . قافل : يابس . اعصابها : قلائد الكلاب . اعتكرت :
 كرت . المدرية : الحرية وهي هنا قرونها . تقصدت : قصدت . (٢) انظر ديوان اوس
 / ٧٠ والمعاني الكبير ٢ / ٧٨٥ ، والمصايد والمطارذ ٢٤٢ (٣) امرؤ القيس . الديوان
 / ١٠٣ (٤) اوس . الديوان / ٤٢ . (٥) امرؤ القيس . الديوان / ٨٠ وانظر الصفحات
 ٩٦ ، ١٢٣ من الديوان نفسه ، وانظر ديوان الاعشى / ٣٦٣ . (٦) انظر ديوان اوس / ٧٠ .
 (٧) انظر ديوان زهير / ٢٢٨ . (٨) انظر ديوان الاعشى / ١٢١ . (٩) انظر ديوان
 بشر / ٥١ والاصابة ١ / ٤٧٠ . (١٠) انظر ديوان الاعشى / ٢٩٥ . (١١) انظر ديوان امرؤ
 القيس / ٨٠ ، وكتاب المعمرين / ٧٧ .

مر وابن سنيس^(١) من امهر رماة العرب ، واشهرهم في هذه الصنعة .
 اما طرق الصيد ، فكانت تعتمد على المهارة والخفة والحذر واختيار
 الاماكن المناسبة ، فكان الرماة عادة يرصدون الوحوش عند موارد
 المياه حتى اذا وردت واطمأنت رموها واصابوا مقاتلها ، قال امرؤ
 القيس^(٢) :

قد أتنه الوحش وارِدَةً فتنحى الترع في يسره
 فرماها في فرائصها يلزاء الحوض او عقره
 برهيش من كنانته كتلطي الجمر في شره
 وقال اوس بن حجر^(٣)

فأوردّها التقريبُ والشدُّ منهلًا قطاهُ مُعيدٌ كَرَّةَ الوردِ عاطِفُ
 فلاقى عليها من صُباحٍ مُدمرًا لِناموسِه بين الصفيحِ سقائفُ
 وقال الاعشى^(٤) :

فأوردّها عَيْنًا من السيف ريةً بها بُرءٌ مثلُ الفَسِيلِ المكمّمِ
 تَبَاهُنْ من ذَلانٍ رامٍ أعدّها لِقَتْلِ الهوادي داجنٍ بالتبوقمِ
 وكان بعض الصيادين يفخر بصيده لأنه لم يستر ، ولم يخاتل فهو يجاهر
 وينادي من بعيد بالركوب ، ثقة منه بفرسه الذي لا يفوته الوحش مهما
 كانت سرعته واعتقادا منه بنفسه وقدرته على اقتناصه مهما كانت قوته ،
 قال علقمة^(٥) :

اذا ما اقتنصنا لم نُخاتِلُ بُجَنَّةً ولكن نُنادي من بعيدٍ ألا اركب
 اخا ثقةً لا يَلْعَنُ الحَيُّ شَخْصَهُ صَبُوراً على العِلاتِ غيرِ مُسَبِّبِ

(١) انظر ديوان امرؤ القيس/ ١٠٣ . (٢) امرؤ القيس . الديوان ١٢٤ . (٣) اوس .
 الديوان/ ٦٩ - ٧٠ (روى البيت الثاني من الصفيح) والتصحيح من المصايد والمطارد
 لكشاجم/ ٢٤٢ . (٤) الاعشى . الديوان/ ١٢١ . (٥) علقمة . السديوان/ ٤٣٨ .

وقال زهير^(١) :

إذا ما غَدَوْنَا نَبْتَغِي الصَّيْدَ مَرَّةً متى نَرَهُ فَلإنْسَا لَا نُخَاتِلُهُ
وغالبا ما يشبهون الصياد بحسبه ولباسه بالذئب ، ليقظته وحذره ، وقوة
شكيمته ، وترقبه^(٢) .

اما الحيوانات التي كانوا يستخدمونها في الصيد . فكانت الخيل ،
والكلاب والظاهر ان الصيد بواسطة الخيل كان يعد متعة من المتع ، ومظهرا
من مظاهر الفروسية وكان الشعراء يقدمون من خلال احاديثهم عن الصيد
لوحات فنية جميلة ، تتناثر فيها الألوان والأصوات والصور والحركات .
ومعظم النماذج التي قدمت في هذا الوصف ، كانت لشعراء عرفوا بترفعهم
وغناهم ، وقدرتهم على اقتناء الخيل ، كامرئ القيس وعلقمة وابي ذؤاد ،
وزهير ، والاعشى .

وكان الشعراء يعرضون في احاديثهم عن الصيد بواسطة الفرس للأوقات
المناسبة التي يمكن الخروج فيها لإدراك الصيد^(٣) ، واوصاف الفرس الدقيقة
التي تساعده على الصيد ، فهو كريم الاب والام^(٤) ، مرتفع ، عظيم الحلقة
يشبه الثور الوحشي بسرعته ونشاطه واعتداله واستوائه^(٥) ، منجرد يقيد
الاوابد ولا يغيبها عن عينيه حتى يصيدها^(٦) ، اضمره اقتفاء كل طلق بعيد
خوافره صلبة^(٧) لا يعيبه تباعد ما بين الفخذين ، ولا اصطكاك العرقوبين^(٨)
صافي اللون^(٩) ، الى غير ذلك من الاوصاف التي وجد فيها الشعراء عاملا
من العوامل التي تساعد هذا الحيوان على تحقيق غايته ، والوصول الى صيده ،

-
- (١) زهير . الديوان/ ١٣٠ . (٢) انظر ديوان الاعشى/ ١٢١ وديوان لبيد/ ١٤٥ .
(٣) انظر ديوان امرئ القيس / ١٩ ، ٣٧ ، ٧٥ ، ١٦٠ . وانظر ديوان علقمة / ٤٣٦ .
(٤) انظر ديوان عبيد/ ١٠٩ . (٥) انظر ديوان امرئ القيس/ ٤٦ . (٦) انظر ديوان
زهير/ ٢٢٥ . (٧) انظر ديوان امرئ القيس/ ٦٤ . (٨) انظر ديوان زهير/ ١٦٩ .
(٩) انظر المفصليات ٤٢/٢ .

وقد ارتبط الصيد بهذه الوسيلة ببعض العادات ، فكان الفرس اذا عقر عليه خضبوه بدم الصيد ، وكذلك يفعلون مع البازي اذا صاد شيئا من عظام الطير ، وانعكست هذه العادة في تصوير الشعراء لها ، قال امرؤ القيس (١) :

كَأَنَّ دِمَاءَ الْهَادِيَاتِ بَنَحَرِهِ عُصَارَةٌ حَتَاءُ بِشِيبِ مُرْجَلِهِ
وقال سلامة بن جندل (٢) :

وَالْعَادِيَاتِ أَسَابِي الدِّمَاءِ بِهَا كَأَنَّ أَعْنَاقَهَا أَنْصَابُ تَرْجِيْبِ
وقال الأعشى (٣) :

بِمُشْدَبٍ كَالْجُلْعِ صَا لَكَ عَلَى تَرَاتِبِهِ خَضَابَةٌ

وكانوا يفضلون لحم الصيد ، وطيب مضغه على غيره من اللحوم (٤) ، وتعد الكلاب الحيوان الثاني الذي كانوا يستعملونه في الصيد ، وقد ذكر الجاحظ خبرة الكلب في الصيد ، ومعرفته اذا عابن الظباء ، وقدرته على التمييز بين القريب والبعيد منها ، والمعتل وغير المعتل ، والعز من التيس (٥) .

ثم عرض الجاحظ لذكائه ، ومهارته في الاحتيال للصيد فقال ، وبمضي الكلاب بالكلب ، وهو انسان عاقل ، وصياد مجرب ، وهو مع ذلك لا يدري اين جحر الارنب من جميع بسائط الارض ، ولا موضع كناس ظبي ، ولا مكن ثعلب ولا غير ذلك من موالج وحوش الارض ، فيتخرق الكلب بين يديه وخلفه ، وعن يمينه وشماله ويتشم ويتبصر ، ولا يزال كذلك حتى يقف على افواه تلك الجحرة ، وحتى يثير الذي فيها بتنفيس الذي فيها . وذلك ان انفاسها وبخار اجوافها وابدانها ، وما يخرج من الحرارة المستكنة في عمق الارض - مما يذيب ما لاقاها من فم الجحر ، من الثلج

(١) امرؤ القيس . الديوان/٢١ . (٢) المفضل . المفضليات ١/١١٩ . (٣) الأعشى . الديوان/٢٨٥ ، وانظر ديوان عبيد/٧٠ ، وديوان امرئ القيس ٢١ . (٤) كشاجم . المصايد والمطارد/٩ . (٥) الجاحظ . الحيوان ٢/١١٧

الجامد ، حتى يرق وان لم يثقب وذلك خفي غامض ، لا يقع عليه قانص ولا راع ، ولا قائف ولا فلاح وليس يقع عليه الا الكلب الصائد الماهر^(١) .

وكان الشعراء يذكرون اسماء الكلاب التي يصيدون بواسطتها فهي عطاف ومجدول وسلهبة عند الاعشى^(٢) ، وكساب وسخام وركاح وسائل عند لبيد^(٣) وسحام ومقلاء وسلهب وجدلاء والسرطان والمتناول عند المزرد^(٤) وواشق عند النابغة^(٥)

والذي يبدو على هذه الاسماء ، أنهم كانوا يعمدون اليها تفاعلاً بالكسب او الاكتساب ، او اعتمادا عليها في الحصول على الصيد ، او تشبيها لها بالذئب أو الافراس الطويلة العظيمة ، ومن عاداتهم في استعمال الكلاب تضريتها ، وهي ان ترك حتى يشتد عليها الجوع ، لتكون اكثر ضراوة في الصيد ، وكانوا يطلقون عليها في هذه الحالة الضراء ، قال عبيد^(٦) :

مُسْرِعاتٍ كَأَنَّهُنَّ ضِرَاءٌ سَمِعَتْ صَوْتَ هَاتِفٍ كَلَّابٍ
وقال لبيد^(٧) :

فباكره مع الاشراق غُضُفٌ ضَوَارِيهَا تَحْبُتُ مع الرَّجَالِ

ويظهر ان حديث الشعراء هذا كان يأتي في اثناء حديثهم عن سرعة نياقهم وتشبيها بالثيران الوحشية ، من حيث القوة والنشاط والسرعة ، ثم ينتقلون الى وصف الثور واعتماده على اظلافه ، وغير ذلك من الاوصاف الأخرى الكثيرة ، حتى وقت الصباح الذي يحين فيه موعد مباشرة الصيادين المهرة لهذا الثور ، تصحبهم مجموعة من الكلاب الضارية^(٨) ، المتميزة بهزائها

(١) الجاحظ . الحيوان ١١٨/٢ - ١١٩ . (٢) الاعشى . الديوان ٣٦٣ . (٣) انظر ديوان لبيد/ ٢٣٩ ، ٣١٢ . (٤) انظر ديوان المزرد/ ٤٧ . (٥) انظر ديوان النابغة/ ١٥١ (مختار الأعلام) (٦) صبيد . الديوان/ ٢٣ . وانظر صفحة ٣٢ من الديوان نفسه . (٧) لبيد . الديوان / ٧٨ وانظر ديوان اوس/ ٣ وديوان الطغول / ٨ وديوان الاعشى/ ١٠٥ . (٨) انظر ديوان امرئ القيس/ ١٠٣ .

وضمورها وانطوائها وجوعها لتكون احرص على طلب الصيد^(١) ، المعودة عليه ، المسترخية الآذان - وهي صفة غالبية لكلاص الصيد^(٢) ، تنطلق الى صيدها ، وكأنها النبال في سرعتها وقد طوقت اعناقها السيور والسلاسل والقلائد^(٣) :

وبعد الانتهاء من هذه الاوصاف ، يبدأ الشعراء بابرار الصورة التي يريدون اظهارها وفي هذا الموقف بالذات ، تتجلى قدرة الشعراء على الوصف ، وتظهر براعتهم الفنية في استخدام العبارات والالوان التي تجعل المنظر بارزا وناظقا ومتحركا ، فالثور ايقن ان الكلاب ادركته ، فكانت تسعه كالزناير ، فيثار ويزداد هياجه ، ويكر عليها بقرنيه ، فترجع عنه^(٤) أو تقترب من مؤخرة فخذ ، ومعاطف جلده فاذا خاف ان تجذبه بافواهها ، حاول دفعها بقرنيه ، وعندها يتمكن من تخليص نفسه من متناول الكلاب وعندما تجد الكلاب نفسها عاجزة عن التمكن منه تعتمد على العواء^(٥) ولكن ذلك لا يمنع الثور من طعنة نافذة الى صدر الكلب ، يتدفق الدم على اثرها^(٦) ثم يترك الكلاب الباقية ، وقد شملت الجروح وجهها ، ثم يستمر سريعا يباري ظله ، فرحا بانتصاره ، ظافرا عزيزا كالكوكب المنقش في سرعته ولمعانه وبياضه^(٧) ، أو شعلة النار المتأججة^(٨) ، أو الثوب الأبيض^(٩) أو السيف الأبيض الصقيل ، أو الصحيفة البيضاء^(١٠) أو الكفن في بياضه^(١١) .

وفي كل هذه الاوصاف والنعوت يحاول الشعراء اظهار الغبطة وعلامات

-
- (١) انظر ديوان زهير / ٤٧ . (٢) انظر ديوان بشر/ ١٠٧ وديوان لبيد/ ٣١١ وديوان المرزد/ ٤٧ .
(٣) انظر ديوان بشر/ ٥٦ وديوان الاعشى/ ١٠٧ وديوان لبيد/ ٣١١ وديوان المرزد/ ٤٧ .
(٤) انظر ديوان الاعشى/ ٢٩٥ (٥) انظر ديوان بشر/ ٥٢ . (٦) انظر ديوان بشر/ ٥٢ . (٧) انظر ديوان زهير/ ٤٨ . (٨) انظر ديوان عبيد/ ٤٤ ، وديوان اوس/ ٣ وديوان بشر/ ١٣١ ، وديوان الاعشى/ ٣٦٣ . (٩) انظر ديوان امرئ القيس / ١٠٣ وديوان بشر/ ١٠٤ . (١٠) انظر ديوان لبيد/ ١٤٦ . (١١) انظر ديوان النابغة/ ١٥٠ ، ١٧٢ .

الانتصار والبشر الذي يطفح على الوجه في حالات الانتصار والغلبة ، ولم يجد الشعراء انصع من البياض لونا ، واميز اشراقا ليستعوضوا به عن اوصاف هذا الثور وايحاء المعاني التي كانت تدور في رؤوسهم ، وهم يشعرون بهذه اللذة .

اما الاسلحة التي كانت تستخدم للصيد ، فهي السهام والنبال والرماح واكثر ما نجد هذه الوسيلة واضحة ومتميزة عند شعراء هذيل والصعاليك والصوص ويبدو أن ضيق ذات يدهم ، وضعف احوالهم المعاشية ، وضالة موارد رزقهم ، ونظرتهم الى الخيل باعتبارها اقل سرعة منهم ، واتخاذها وسيلة من قبل اعدائهم تستغل للحاق بهم ، جعلتهم ينظرون اليها نظرة تختلف عن نظرة الآخرين اليها ، قال صخر الغي يصف صائدا (١) :

أَحَاطَ بِهِ حَتَّى رَمَاهُ وَقَدْ دَنَا بِأَسْمَرٍ مَفْتُوقٍ مِنَ النَّبْلِ صَائِبٍ
وقال ساعدة بن جؤبة يصف وعلا (٢) :

حَتَّى أَتَيْتُ لَه رَامٌ بِمَحْدَلَةٍ جَثِيءٍ وَبِيضٍ نَوَاحِيهِنَّ كَالسَّحْمِ
وقال صخر الغي يصف حمارين (٣) :

فَبَاتَا يُحْيِيَانِ اللَّيْلَ حَتَّى أَضَاءَ الصُّبْحُ مُبْتَلَجًا وَقَامَا
فَإِمَّا يَنْتَجُوا مِنْ خَوْفِ أَرْضٍ فَقَدْ لَقِيَا حَتُّوقَهُمَا لَزَامَا
فَشَاكَمَتْ فِي صُدُورِهِمَا رِمَاحًا مِنْ الْبِرِّزِّي أَشْرَبَتِ السُّمَامَا

ووردت اشارات لاستعمال السهام في الصيد عند الاعشى ، وقد صور صيادا يبيء سهامها محددة ، يسوقها وتر قوي ، فتمضي مصوطة ، مترنمة ، يقذف بها حمارا ، فتمر من تحت صدره (٤) ،

(١) انظر ديوان امرئ القيس/ ٥٢ . (٢) ساعدة بن جؤبة . شرح اشعار الهذليين ١١٢٦/٣ . (٣) صخر الغي . شرح اشعار الهذليين ٢٩١/١ وانظر/ ٤٤٠ من الجزء نفسه والجزء الثالث/ ١١٧٦ . (٤) انظر ديوان الاعشى/ ١٢١ .

والظاهر ان الصيادين كانوا اذا عجزوا عن الرمي ، ويشوا من بلوغ
السهم ارسلوا الكلاب . قال لبيد^(١) :

حتى اذا يش الرماة وأرسلوا غُضُفًا دواجنًا قافلاً أعصامها
وأشار ابو دؤاد الى استعمال الرمح^(٢) ، وكذلك اشار الاعشى^(٣) ،
وذكر اوس طريقة تكاد تكون غريبة ، أو ندر وجود صورة شبيهة لها
عند غيره من الشعراء في صيد النسر ، وهي انهم كانوا يضعون السم في
اللحم ، وعندما تأكله النسر تموت ثم يأخذ ريشها^(٤) :

وَقَتْلَى بِجَنْبِ الْقُرْتَيْنِ كَأَنَّهَا نُسُورٌ سَقَّاهَا بِالدماءِ مُقَشَّبٌ^(٥)
وكانوا يطلبون بها بيض النعام في افاحيصها ، قال الطفيل^(٦) :

عواذب لم تسمع بنوح مقامة ولم تر ناراً تم حول مجرم
سوى نار بيض أو غزال مُعْفِرٍ أغن من الخنس المناخر ثوم

هذه اساليب الصيد التي وجدناها متميزة في الشعر الجاهلي ، وقد
استطاع الشعراء الجاهليون اظهارها وتقديمها باعتبارها الوسائل الشائعة لهذه
العملية ، ومن الظواهر التي توجب الوقوف عند حديث الشعراء عن الصيد ،
هي ان الشعراء كانوا يحرصون على ان تكون اسلحة الصياد الكلاب المعودة
على الصيد^(٧) ، وعندما كانوا يحاولون تشبيهها بالحمار الوحشي ، كانوا
يحرصون على ان تكون هناك اثنان ، يحاول القاحها ، فيثود لها ، ويتشوق
اليها ، ثم يصفون الكدمات التي تلوح على وجهه ، والعض والندوب ، واخيراً
تنهي هذه المقابلة بسوق الحمار لهذه الاثان نحو المورد الصافي ، وهنا يظهر

(١) لبيد . الديوان/ ٣١١ . (٢) انظر ديوان ابي دؤاد/ ٣٥٣ . (٣) انظر ديوان
الاعشى/ ٢١ . (٤) اوس بن حجر . الديوان/ ٦ . (٥) القشب والقشب . بكسر الشين
وفتحها : السم ، والجمع : اقشاب ، يقال اقشبت للنسر ، وهو ان تجعل السم على اللحم فيأكله
فيموت . (٦) الطفيل . الديوان/ ٤٥ ، وانظر المصايد والمطارد / ٤٧ وما بعدها .
(٧) انظر ديوان طرفة/ ١٨٥ ، وديوان زهير/ ٢٢٥ ، وديوان لبيد/ ٦٧ ، ٣٠٧

الصيد ، وقد اعد نفسه ، وهياً أدواته وتجهز بالسهم الحادة ، والاقواس النبعية المثينة ؛ ولكن هذا لا يغير من سياق القصة ، لأن الصيد يخطئ في الصيد .

وكان الشعراء يتحاشون استعمال الكلاب في هذه الحالة ويقتصرون على الاسلحة^(١) .

وكانوا يكترون من التحدث عن الالوان في تصويرهم للمعركة التي تنشب بين هذه الحيوانات والكلاب . فاذا ارادوا ان يصفوا على الكلاب صفة الترقب والترصد والتجوع ، وصفوا عيونها بنوار العُرس^(٢) ، أو منحوها اللون الأزرق^(٣) ، واذا بدأت المعركة واشتبكت القرون بالأجسام ، والمخالب بالجلود ، تدفقت الدماء فخضبت اعناق الكلاب ، وقرون الثيران ، وكان الشعراء يبرزون حدة القرون وشدها وسوادها^(٤) ، ثم يشبهونها بالنبال والحرا ب والمداى^(٥) ، واذا انتهت المعركة ، اشرقت وجوه الثيران او البقر ، بالبياض ، وكان هذا اللون اكثر الالوان استعمالا في هذا الموقف الذي يحمل دلالات الانتصار ، ومعاني الافتخار والاعتزاز .

اما في اوصافهم لهذه الحيوانات ، فكانوا يقفون عند المظاهر الخارجية والتي تتعلق بالصيد فقط ، فهم يعرضون — كما اسلفنا — لذكر القرون المخضبة والأظافر الجارحة ، والخوافر الصلبة ، لأنها السلاح الوحيد الذي يستعمل في امثال هذه المعارك ، ولكننا لا نجد صدًى في احاديثهم للأوصاف الداخلية .

واخيرا ، فالشعراء كانوا يحاولون اصفاء بعض الصور على الصيد ،

(١) انظر ديوان امرى القيس/ ١٨٠ ، ٣٠٤ . وديوان الاعشى/ ٣٢٥ (٢) انظر ديوان امرى القيس/ ١٠٣ . (٣) انظر ديوان بشر/ ١٢١ وديوان زهير/ ٤٧ . (٤) انظر ديوان بشر/ ١٢٢ ، وديوان زهير/ ٢٢٩ ، وديوان الاعشى/ ٢٩٥ (٥) انظر ديوان النابغة/ ١٥١ وديوان لبب/ ٣١٢ .

ليكسبه جوا من المأساة ، فليبد عندما شبه راحلته بالبقرة ، اضمنى عليها صورة البؤس والحنين لولدها الممزق ، والشكل الذي تعانیه ، واحاط ذلك بجو من الإشفاق والعاطفة . ثم عرض لما تلاقيه هذه البقرة من مطر ينهمر عليها ، فلا تجد ملاذا تلوذ به ، وقد تملكها القلق المفزع والحيرة الطويلة ، ومثل صنيعه هذا صنع الشعراء الآخرون^(١) .

وبهذه الاوصاف رفع ليبد وغيره من الشعراء هذه البقرة الى مصاف غير المصاف الذي عرفناه لها ، باضافتهم هذه المعاناة الانسانية ، والقسوة الرهيبة التي صبها القدر عليها . فكانت احاديثهم عن الصيد ، وما اشتملت عليه هذه الاحاديث من الصور المختلفة ، تدل دلالة قاطعة على قدرتهم في استغلال الحس ، واستظهار الصور المليئة بالحركة والإثارة .

(١) انظر ديوان طرفة/ ١٨٥ وديوان زهير/ ١٧١ - ٢٢٧ ، وديوان الاعشى/ ٦٧ ، ٧٣ ، ١٠٥ .

الفصل الثاني

الخصائص الفنية في شعر الطبيعة

- ١ - الواقعية في شعر الطبيعة
- ٢ - القصصية في شعر الطبيعة
- ٣ - الخصائص المعنوية
- ٤ - الخصائص اللفظية والموسيقية

الواقعية في شعر الطبيعة

لقد تحدث الشاعر الجاهلي عن كل شيء احس به وشاهده . وكانت اوصافه مستمدة من هذه المظاهر التي وقعت تحت نظره ، وكان شعره مستمدا من صميم البيئة التي وجد فيها ، ومن الزرع الطبيعي للتعبير عن الوجود الحي الذي كان يعيشه ، ولا اغالي اذا قلت ان الشعر الجاهلي قد صور الحياة الجاهلية تصويرا صادقا ، فالحياة الجاهلية لم تكن نمطا واحدا ، وانما كانت تختلف باختلاف المواطن المختلفة . فهي حياة قبيلة متنقلة في الصحراء وحياة مرفهة في قصور الملوك والأمراء والسادة . وكان الشعراء متميزين ، يغلب على شعراء الحضر منهم طابع الرقة والعدوية ويسر الألفاظ . وتبرز قوة الفخر والنطق بلسان القبيلة والدفاع عنها عند شعراء القبائل وتتضح احاديث العطاء ووصف الحياة المتحضرة وكثرة التطواف عند اولئك الذين كانوا يتعرضون لنائل الملوك ، وعطاء السادة ، ومن هنا نستطيع ان نستدل على ان الشعر الجاهلي تناول جوانب كثيرة من حياة العرب تناولا واقعيا ، فيه استقصاء وشمول ، وفيه دقة وعمق .

ومن هنا كانت الصورة التي يتطرق اليها الشاعر الجاهلي دالة على احساس عميق ببعض المظاهر التي كانت تضطرب في نفسه ، وترتبط في كثير من الاحيان بصور انسانية مؤثرة يعيشها الشاعر نفسه . وكان الشاعر يحرص ان تكون صورته مأخوذة عن واقعه المحسوس ، فالسحاب الذي

بسوقه ريح الشمال يسير كسير الكسير ، قال علي بن زيد ^(١) :
 وَحَيِّيْ بَعْدَ الْهُدُوْ تَزَجِيْهِ شَمَالٌ كَمَا يُزَجِّي الْكَسِيْرُ
 مَرِيْحٌ وَبِلَهْ يَسُجُّ سَيُولَ الْمَاءِ سَحَا كَأَنَّهُ مَنَحُوْرُ
 والرماح في ايدي القوم كأشطان البئر كما شبهها سلامة بن جندل في
 قوله ^(٢) :

كَأَنَّهُ بِأَكْفَ الْقَوْمِ إِذْ لَحَقُوْا
 مَوَاتِيْحُ الْبِيْرِ أَوْ أَشْطَانُ مَطْلُوْبٍ
 والأصحاب تشرق وجوههم كالذئاب ^(٣) ، والأشجار تبدو للخائف
 المدعور كالأشخاص ^(٤) والظعون كالنخيل أو الدوم أو السفين ^(٥) والحبيبة
 كالظبية ^(٦) وشعر المرأة في طوله وتداخله وغزارته كشماريخ النخلة ^(٧) ،
 أو مثل الحيات ^(٨) ، وضمور أناقة وانحناؤها لكثرة ما قطعتة من المقاوز
 كالهلال ^(٩) ، وضمور الحصان كسوار الهلوك ^(١٠) وعيون الناقة بعد اجهاها
 وتعبها من سير الليل مثل الآبار التي نضبت مياهها ^(١١) . وآثار بروكها تشبه
 مواقع القطا ^(١٢) وذنبها في كثرة فروعه ، وغزارة شعره مثل عناقيد النخل
 المرطبة ^(١٣) وصور أخرى كثيرة تطالعنا ونحن نقرأ الشعر الجاهلي . اما
 الأصوات المتعالية من وقع أخفاف الابل ، وما يعقب ذلك من رنين الحصى ،
 ونجواب الأصداء فقد وقف عندها الشعراء وقفات طويلة ، وهم يتأملون
 قوة هذه الاخفاف وقدرتها على ضرب الأرض وحاولوا ان يأتوا في أوصافهم

(١) علي بن زيد : الديوان / ٨٦ . (٢) المفضل : المفضليات / ١ / ١٢١ .
 (٣) انظر ديوان الشنفرى (الطرائف الأدبية) / ٣٢ . (٤) انظر شرح اشعار المهذلين ١ / ٣١٨
 (٥) انظر ديوان امرئ القيس / ٤٣ وديوان عبيد / ١٣٢ وديوان طرفة / ٣٠ ، وديوان النابغة
 / ٢٧ ، وديوان زهير / ١٤٨ . (٦) انظر حديثنا عن الظباء . (٧) انظر ديوان امرئ
 القيس / ١٦ ، ٣٢ . (٨) انظر الأصمعيات / ٦٠ . (٩) انظر ديوان عبيد / ١١١ .
 (١٠) انظر ديوان ابى دود / ٣٥٢ . (١١) انظر ديوان زهير / ٣٧١ . (١٢) انظر ديوان
 بشر / ١٤٦ . (١٣) انظر ديوان علقمة / ٩٤ وديوان الاعشى / ٢٢٤ .

لها بصور تقرب من صور المحسوسات ، فشبه طرفة الحصى المتطاير بالفراش المتفرق^(١) ، وشبهه المثقب العبيدي بالتعزاف المرن^(٢) ، وشبهه غيرهما بالدوي المرتفع^(٣) والصوت الأبع^(٤)

ولا بد ان يكون للجو الذي كان يسلكه الشاعر وللهدوء الذي يملأ عليه هذه الجوانب المقفرة من الصحراء اثر في ادخال لون من التضخيم على صوره ، ودافع الى تركيز الانتباه ، لتبعد عن نفسه الفراغ الكبير الذي يشغل باله ، وهو يجوب هذه الآفاق^(٥) ، فهو يعتمد على الواقع في تصويره ، ولكنه يوشيه بأثار من انفعالاته ، تدخل على هذا الواقع الوانا من التخيل .

اما اشاراتهم الى مظاهر الطبيعة واستخدامهم لها ، فكانت تدل على دراية ومقدرة ، لأنهم كانوا يذكرون كل مظهر من مظاهرها في الموضوع اللائق به ، فيذكرون الجبال في حديثهم عن البقاء ، باعتبار ان كل شيء عندهم يزول وينتهي وله امد ، ولم تبق الا هذه الجبال التي تلوح صباح مساء ، والتي شاهدت فناء اجيال طويلة من اسلافهم ، كما قال لبيد^(٦) :

إن يكن في الحياة خيرٌ فقد أنْزَظرتُ لو كان يَنْفَعُ الْإِنْقِصَارُ .
عشتُ دهرًا ولا يدومُ على الأيامِ الا بِرَمَرٍ وتَعَارِ

ويذكرون السراب والآل في ارتفاع النهار ، وهم يقطعون القياقي المقفرة ، ورياح الصبا في التغني والحنين والكرم ، ورياح الشمال في الجذب والقشط والشوم والقسوة ، والكرم من باب الفخر . واستعملوا شجر النبق والشوحط للقوة والصلابة والشدة والاحكام وقال الاعشى^(٧) :

ونحن أناسٌ عودُنَا عودٌ نَبْعَةٌ إذا انتسَبَ الحيان بكرٌ وتغلب

(١) انظر ديوان طرفة/ ٣٢٨ (الاعلم) . (٢) انظر ديوان المثقب العبيدي / ٩ .
(٣) انظر المفصليات ١ / ٦٠ . (٤) انظر المفصليات ٢ / ٩١ . (٥) انظر حيوان الجاحظ ٦ / ٢٥٠ - ٢٥١ ، ومروج الذهب للسعدي ٢ / ١٦٠ وما بعدها .
(٦) لبيد . الديوان/ ٤٣ . (٧) الاعشى . الديوان/ ٢٠٣ وانظر الاصمعيات/ ٢٣٣ .

وكنوا عن الضعف بشجر السدر نخوره . قال المفضل النكري^(١) :
وجدنا السدرَ خَوَّاراً ضعيفاً وكان النبتُ منبتُهُ وثيقُ
وعن الشيب بالثغام لبياضه كما قال الاعشى^(٢) :
فإن تكُ لَمَيِّ يا قَتْلُ أَصَحْتُ كَأَنّ على مفارقِها ثَغَامَا

وعن الفراق والموت بصورة الغراب والبوم ، لاحساسهم - نتيجة
للتجارب التي مروا بها ، وهم يسمعون اصواتها ، ويشاهدون منظرهما -
بالشؤم ، لارتباد هذه الحيوانات الاماكن المهجورة ، وهذا ما دعاهم الى
الاشارة اليهما في كل حديث يدعو للتشاؤم ، وكل مكان موحش يبعثُ
على الخوف والفرع والرهبة . قال عبيد^(٣) :

زَعَمَ الأَحِبَّةُ أَنَّ رِحْلَتَنَا غَدَاً وبذلك خَبَرْنَا الغُدَاةُ الاسود
وقال عنترة^(٤) :

ظَلَعَنَ الَّذِينَ فِرَاقَهُمْ أَتَوَقَّعُ وجرى بينهمُ الغُرَابُ الأَبَقُ
خَرَقَ الجَنَاحَ كَأَنَّ لَحْيِي رَأْسَهُ جَلَمَانِ بالأخبار هَشَّ مولع^(٥)
فَزَجَرْتُهُ أَلَا يُفَرِّخُ عَشَّهُ أبداً ، وَيُصْبِحُ واحداً يَتَفَجَّعُ
ان الذين نَعَبْتُ لي بفراقهم قد أسهروا ليلى التمامَ فاوجعوا
وقال « بشر » بن ابي خازم^(٦) :

أمن ليلى وجارتِها تروحُ وليسَ حاجةٍ منها مُرِيحُ

(٤) الاصمعي . الاصمعيات / ٢٣٣ . (٥) الاعشى الديوان/ ١٩٥ وانظر شرح اشعار
الهلليين ٢٨٩/١ عبيد . الديوان / ٤٣ . (٤) عنترة . الديوان/ ٣٩٢ (الاعلم) .
(٥) خرق الجناح : اي شديد الصوت ، والجلمان ، مثنى جلم : وهو المراض . وهن :
مولع ، فرج . (٦) بشر . الديوان/ ٤٩ ، وانظر ديوان النابغة/ ١٨٢ (الاعلم) ،
وديوان الاعشى/ ١٠٣، ٧٣ . الاصمعيات/ ١٩٣ والمفضليات ٢/ ٢٥ ، ٢١٩ .

ولم تعلم بين الحي حتى اناك به غدا في فصيح
وذكروا الضباع في حديثهم عن القتل لولعها بمش الموتى ورغبتها بنش
القبور وقرنوا صورتها بصورة الفزع ، وكانوا يظهرون خوفهم ويتحاشون
من الوقوع بين براثنها ، ليكونوا طعاما لها ، تعبت بهم كيف تشاء ، وتنزع
جلودهم ، وتمكن انيابها وبرائنها في اجسامهم^(١) .

وغلب ذكر هذه الصورة عند الشعراء الصعاليك .

ومن مظاهر هذه الواقعية اهتمام الشعراء بالألوان عند تعرضهم لمظاهر
الطبيعة وكأنهم كانوا يبتغون الدقة في التصوير بما يعطون من الوان الاشياء
او ما يذكرون من تفاصيلها .

وكانت نظرهم اليها نظرة تدقيق وتمحيص ومراقبة وتنبع ، وهكذا
وجدوا في الالوان الصورة المعبرة . فالحيوان اذا اقشعر خرج باطن شعره ،
فبدا لون غير لونه الحقيقي ، واذا سكن وزالت عنه هذه الحالة ، عاد لونه
الأول ، وتلك التفاتة نادرة ، ولمسة رقيقة ، من الصعب ان نجد لها نظيرا
في كثير من النماذج الشعرية ، والى ذلك يشير ساعدة بن جؤية في وصفه
للحيوان المستوحش ، يقول^(٢) :

تحول لونا بعدلون كأنه بشفان ريج مقلع الوبل يصرد
وكما ميزوا الوان الحيوان ، ميزوا عرق هذا الحيوان ، فكان لكل
حيوان لون معين فيما ينزل منه من العرق ، وعلى هذه الشاكلة كانت الوانهم
تحدد تحديدا صافيا دقيقا .

اما اذا ارادوا ان يشيروا الى السحاب المحمل بالماء فلأنهم يذكرون اللون
الأسود أو الأخضر . واذا حاولوا الإشارة الى الجذب فالسحاب الاصهب

(١) انظر شرح اشعار الهذليين ١/١١٦، ٤٦٤، ٤٦٨، ٣/١١٤٦، ١٢٦١ والاعاني ١٨
٢١٣ (مسي) . (٢) ساعدة بن جؤية . شرح اشعار الهذليين ٣/١١٧ .

أو الأحمر^(١). وإذا عرضوا للأثافي فهي سفح^(٢). والكلل وردية الحواشي^(٣) ، وفئات العهن احمر^(٤) ، والماء أزرق^(٥) ، وفم الحمار ، وهو يعرى النبات المخضر اخضر^(٦) .

ولم ينس الشعراء تشبيه الثور بالكوكب المنقض ، أو الشعلة المضئنة ، في اوصافهم للبقر الوحشي^(٧) ، وفي حديثهم عن النعام كانوا يؤكدون احمرار ساقيه ، واطراف ريشه^(٨) ، وكذلك كانوا يفعلون في اوصافهم للخمر التي وجدوا في حوصلة الرأل صورة مشابهة لونها الأحمر^(٩) .

واستعمل الشعراء اللون الأسود والرمادي في الصور التي رسموها للنعام وحاولوا تأكيد هذه الصور بما تهبأ لهم من الاصباغ والخطوط فالنعام عبد اسود عليه كساء من القطيفة عند بشر^(١٠) ، وعبد يرتدي فروا طويلا عند ليبد^(١١) .

وقد برزت ظاهرة الألوان بالنسبة للحيوانات بروزا واضحا لا يمكن حصره فكانوا اذا عرضوا للخيل ذكروا الحو والكمث ، واذا اشاروا الى الابل فهي الدهم وعن القطا فهي الكدر ، والعقبان فهي السفح والحدارية ، والجراد فهو الاصفر ، والذباب فلوته الأزرق والاحمر والاخضر والاصفر ، والذئب فهي الطلس ، وهكذا نجدهم يلونون كل حيوان بما ارتسم في اذهانهم من ألوانها ، محاولين اعطاء الصورة الحقيقية لهذه الحيوانات .

-
- (١) انظر ديوان النابغة/ ١٨٩ . (٢) انظر ديوان زهير/ ٨ . (٣) انظر ديوان زهير/ ٩ . (٤) انظر ديوان زهير / ١٢ (٥) انظر نفس الديوان / ١٣ . (٦) انظر نفس الديوان / ١٣١ . (٧) انظر ديوان امرئ القيس/ ١٧٤، ٢٢ وديوان بشر / ١١٠ ، ٦٥ ، وديوان المزرد / ٣٤ وديوان الاعشى / ٣٩ ، والاصمعيات / ٧٥ ، والمفضليات / ٢ و ١٧٣ . (٨) انظر ديوان بشر / ١٥٤ ، وديوان زهير / ٣١٦ . (٩) انظر ديوان علقمة/ ٢٧ وديوان الاعشى/ ٧١ . (١٠) انظر ديوان بشر/ ١٥٤ . (١١) انظر ديوان عنترة/ ٣٧٣ .

ومن الظواهر الأخرى في هذه الواقعية ، ظاهرة تصوير الجوانب الدقيقة التي تكمل الصورة ، وتمنحها القدرة على التعبير ، وتبرز الغرض الذي من أجله حاولوا هذه المحاولة ، فاذا رغب امرؤ القيس في تشبيه صفاء عين فرسه ، لم يجد لها نظيراً إلا في صورة امرأة الصنّاع ، لأنها ابداً مجلوة (١) وفي تصويره للصيد نجده بدق في صورته تدقيقاً يصور فيه تسره وتخفيه ، وزحفه على الأرض ، ولصوق ذرات التراب على جسمه - وهي التفاتة دقيقة - ليرز أهمّك هذا الصيد ، وانشغاله بأمر هذا الصيد ، وفي وصفه لحوافر الفرس ، تبدو ملاحظته الدقيقة وقدرته في تفصيل الصورة عندما حاول اظهار لون الحافر ، الذي غيره اثر الروث ، فبدأ كأنه حجارة ماء علاها الطحلب فاصفرت (٢) . وفي رسمه لصورة الحمار الوحشي الذي يطارد الحمر الوحشية ، يتجلى احساسه وتظهر قدرته ودقته في تصوير هذا الحمار ، وقد علا حاجبه اثر الضرب الذي لم يبرأ منه بعد ، وأثر العض في أعلى الكاهل وهو متحول الشعر (٣) .

ان اهتمام الشاعر بهذه الصور ، يكشف عن جوانب جديدة وبدل على دقة متناهية في تصوير جزئيات المنظر ، ومتابعة عناصر الصورة ، لتأخذ شكلها الواضح (٤) وكذلك فعل عندما اراد ان ينعث مناخر فرسه فشبها بوجار الضباع (٥) ، وعندما وجد عنزة شخوص عيني فرسه ، وتعلقهما ، لم يجد صورة اوضح من صورة عين الاحول (٦) . اما ابو دؤاد الذي كان يعتز بفروسه ، ويحرص على شدنها وقوتها وهي تدق الأرض بحوافرها ، فقد هيا لهذه الحوافر صورة مكابيل الزيت لثقلها (٧) ، وكذلك فعل الحارث بن حذرة عندما شبه اخفاف ابله وقوتها وشدها بالمطارق (٨) ، أو المعاول كما نعتها

-
- (١) انظر ديوان امرئ القيس / ٤٨ .
(٢) انظر ديوان امرئ القيس / ١٨٠ .
(٣) انظر ديوان امرئ القيس / ١٧٢ .
(٤) انظر ديوان امرئ القيس / ١٦٥ .
(٥) انظر ديوان امرئ القيس / ٣٩٢ (الاعلم) .
(٦) انظر ديوان ابى دؤاد / ٣٤٣ .
(٧) انظر ديوان ابى دؤاد / ٣٤٣ .
(٨) انظر المفضليات ١ / ١٣١ ،

طرفة^(١) . ووجد اوس ابن حجر ، والناطقة الديباني في المناشير صورة مقبولة
لتشبيه احناك الكلاب بهما لدقتها^(٢) .

وحاول الاعشى ، وهو يتحدث عن سرعة ناqqته في الهاجرة ، وهي تجري
مدعورة ان يعطى سببا لهذه السرعة ، فجعل هرا يخذشها ، ولم تكن روعة
الصورة كاملة في هذه السرعة التي حاول الشاعر ان يصورها فحسب ، وانما
يبدو جمالها الفني في تعبير الشاعر الرائع عن تقلص الظلال في الهاجرة ،
وما عقبه بعد ذلك من تعبير عن الظل الذي تلاشى ، ولم يبق لناqqته الا
ظل اخفافها وهي تتعله بخطاها^(٣) .

بِحَالَةٍ سُرْحٍ كَانَ بَغْرُزَهَا هِرّاً اذا انتعلَ المَطِيّ ظِلَالَهَا
ثم حاول ان يصور لنا جرأة هذه الناقة وهي تقطع المفاوز المقفرة
في الليل بأنها تحتفر الظلماء قال^(٤) :

ولقد أُحْزِمُ اللَّبَانَةَ أَهْلِي وَأَعْدِيَهُمْ لِأَمْرِ قَدِيفٍ
بَشُجَاعِ الْجَنْكَانِ يَحْتَفِزُ الظُّلْمَاءَ ماضٍ عَلَى الْبِلَادِ خَشُوفٍ
أو تشق برقبته الطويلة الليل^(٥) :

تَشَقُّ اللَّيْلَ وَالسَّيْرَاتِ عَنْهَا بِأَتْلَعِ سَاطِعٍ يُشْرِي الزَّمَانَا .
وتعد مقارنات الشعراء التي كانوا يعقدونها من اكثر الأدلة وضوحا
على واقعيّتهم لأن هذه المقارنة لا تنهى الا لمن خبر الصلة في مقارنته بين
طرفي التشبيه وادرك الصفة البارزة فيهما ، وهذه لم تأت بصورة عفوية .
والشعر الجاهلي مليء بهذه التشبيهات التي لا تخلو منها قصيدة .

(١) انظر ديوان طرفة/ ٨٣ . (٢) انظر ديوان اوس/ ٤٣ وديوان الناطقة / ٢١٩ .
(٣) الاعشى . الديوان/ ٢٧ ، وانظر الاصميات/ ١٠٦ (البيت/ ١٤) (٤) الاعشى . الديوان
/ ٣١٥ . (٥) الاعشى . الديوان/ ١٩٧ .

القصصية في شعر الطبيعة

يعتمد كثير من الشعراء الجاهليين على السرد القصصي في صور تناولهم للحيوان الذي يصورونه ، ويكاد يصبح ذلك تقليدا يتسم به بعضهم ، وأكثر ما كان يرد هذا السرد في احاديثهم عن الصيد والمديح والثناء ، وقد اتخذ الشعراء من حياتهم الخافلة بالحوادث مادة ثرة لهذا الفن ، يعرضون فيه ما يصادفهم ويعترضهم من صعوبات الحياة ومشاكلها واتعابها .

وقد استغل الشاعر الجاهلي في عمله هذا كل ما وقع تحت حواسه ، فمشكلاته والحوادث التي تصادفه ، والحيوان الذي يعيش معه أو الشارد في ارجاء الصحراء كانت مقومات ناضجة للسرد القصصي .

وكان الشاعر الجاهلي ينظر الى الفكرة التي يريد معالجتها من جوانبها المتعددة ليمنحها الإطار الكامل . ثم يجمع بعد ذلك اشتاتها . ليعد منها هيكلًا عامًا لهذا السرد ، اما الحادثة فكان يعطيها أهمية كبيرة ، ويمنحها شكلاً خاصاً ، فيجهد لها بسلسلة من الوقائع التي يسرد فيها ما يجعل الحادثة مقبولة ومستساغة ، مستخدماً في اوصافه ما يستطيعه من عناصر التشويق . المتمثلة في الحركات السريعة التي كان يمنحها لهذا الحيوان الذي يطارده ، أو يصادفه أو يصيده ، أو الذي ينقله الى ممدوحه ، والألوان التي كان يؤكدها في احاديثه مستعيناً بالألفاظ المعبرة التي تمهد لفكرته .

ويمكننا اعتبار معظم قصائد الشعراء التي عرضوا فيها لوصف الرحلة

سردا تتمشى فيه الروح القصصية . مسرحه تلك المهامه المقفرة التي تخدع المسافرين وتغناهم ، تعزف فيها الجن ويصوت في جوانبها البوم ويصر من لفح هجيرها الجندب . ويترك النعام يبيضه ، ولا تجد فيها الناقة الا ما تجتره . وزمانه النهار الذي يشوى الوجوه . أو الليلة الماطرة التي تفرع بسحابها المظلم وروعدها القاصفة . او الفجر المشرق الذي يحدد بداية الصراع . ثم تأتي الخاتمة التي تنتهي بانتصار الثور أو الكلاب .

والشاعر الجاهلي في سرده هذا كان يبغى التعبير عن فكرة ماثلة في ذهنه ، ولهذا كانت كافة الحركات تخضع - في داخل السرد - لفكرة الشاعر التي يريد بها . وهذا يدل على ان الفكرة التي كانت في ذهن الشاعر هي التي توجه القصيدة ، وتحرك اجزاءها . وترسم الخطوط العريضة لحوادثها .

والشاعر في كل هذه الاحوال يهيء - في حالة وصف الناقة وتشبيهها بالثور او البقرة الوحشية في حالة المديح في الغالب - لهذه المعارك ما يلزمها من السلاح والعدة . فالنبال والرماح والكلاب والعقبان والمخالب والقرون والحيل ، وما يستلزم من الصياد من توقف وترصد وتتبع وانقضاض ومطاردة . كل هذه الآلات ، كان الشاعر يرسمها ويخطط لها ، ويعطيها ما تستحقه من اوصاف ، ثم يبدأ بنقلها على لوحته ، ليحدد معالمها على ضوء المعركة المرتقبة التي ارتسمت في ذهنه قبل وصفه ، وتكونت في نفسه قبل ان يخطط لها هذا التخطيط .

ان الموصوف الذي يؤثره الشاعر الجاهلي هو ما يشعر بتأثيره في نفسه مما يعايشه أو يسمعه أو يراه . أو يحس به ، ليكون عنصر الإثارة في الصورة اوضح ودواعي التشويق لتتبعها ادق .

والصورة عنده تكاد تكون حية ، تختلط فيها عواطفه وأمزجته مما يجعلها قادرة على التأثير في نفس السامع او القارئ^(١) . وهو من خلال هذه الاوصاف

(١) انظر ديوان الاعشى/ ٧٣ ، ١٠٦ وديوان لبيد/ ٣٠٨ - ٣١١

يرسم^(١) صورا أخرى يعرض فيها جوانب من حياته او مغامراته .

على اننا لا ننسى انصراف كثير من الشعراء - وهم في غمرة هذا الوصف - الى المشبه به ، وترك المشبه ، ذاهبين الى التدقيق في وصفه واظهار قوته أو جماله ، حتى يشبعوا صوته وصفا وتدقيقا ، ويطمئنون الى استيفاء جوانب المشبه به وهذا ما يدخل الرضا الى نفوسهم ، وكأنهم يودون بذلك مهمة كلفوا بآداؤها .

وكان اغلب الشعراء يتعرضون لذكر الصيد في حديثهم عن رواحلهم التي تجوب بهم آفاق الصحراء ، سواء أكانت خيلا أم نياقا ، ومن الطبيعي ان يضيفوا على حرفة الصيد هذه - عند بعض الشعراء . او هوايتها عند البعض الآخر - طابع الشكل الأدبي ، فيعرضوا لوصف ادواته وحيوانه ، وما يعتور هذا الحيوان وهو يطارد أو يطارده ، وما ينتابه من مخاوف .

وكان الشاعر يمهّد لمعركة الصيد هذه تمهيدا وافيا ، فالراحلة تشبه الثور ، او الحمار الوحشي من حيث القوة والنشاط ، ثم ينتقل لوصف هذا الحيوان ، فهو يعتمد على اظلاله في الحفر . ليقى نفسه المطر الغزير والرياح الباردة الشديدة ، وهو يختار الرمال الصلبة التي لا تنهال ، فيمكث فيها متحملا الآلام والمتاعب ، حتى يحين الصباح ويحين معه موعد مباشرة الصيادين المهرة ، تصبحهم كلابهم المدربة الضارية ، التي تنطلق الى صيدها ، وكأنها النبال أو الخيل في سرعتها ، كل هذا التمهيد يعرضه الشاعر ، بأسلوب مسلسل ، ليخلق الجو المناسب للحركة ، ويهيئ لها - كما اسلفنا - لوازمها الضرورية : فالثور ايقن ان الكلاب ادرسته ، فهي تلسعه كالزناير ، وهو يزداد هياجا ، فيكر عليها بقرنيه ، فترجع عنه ، ثم تتقرب من مؤخرة فخذيه ، فيخشى جذبها له ، فيحاول دفعها ، فيتمكن من تخلص نفسه ويجد الفرصة مؤاتية للرجوع ثانية عليها ، وقد جهز نفسه تجهيزا محكما ، وهيا لوازمه تهيئة

(١) انظر ديوان امرئ القيس/ ١٩ - ٣٦ ، ٧٥ ، ١٦٠

كاملة ، وعندها لا تمجد الكلاب - وهي ترى هذا التصميم - الا ان تتخاذل فتبدأ بالعواء ، ولكن انى لها ذلك ، والصورة في ذهن الشاعر ناضجة والجو الشعري ملائم ، في هذه اللحظة يوجه اليها طعنة نافذة فيبدأ على اثرها الدم بالتدفق ، وتنهمز بقية الكلاب ، وقد شملت الجروح وجهها ، ويتنصر الثور ويترك المعركة ظافرا منتصرا ، وهي الخاتمة التي اعد لها الشاعر هذا الاعداد .

وتتكرر هذه الصورة - وان اختلفت الوانها ، أو ادواتها ، أو اسلحتها عند الشعراء ، وهي تحافظ على الاطار العام لها . والشكل المعد لإخراجها والفكرة الهيماء لنهايتها ، وهذا ما يدعونا الى الاعتقاد بأن التقليد أصبح لازما لها ، وهذا وحده جعل الشعراء يلتزمون بهذه الافكار ، ويسلكون هذا المسلك^(١) ولا بد لنا من الاشارة الى حديث الشعراء وهم يعرضون لأوصاف خيلهم وسرعتها ، لأنهم ينحون في هذا الوصف منحى تتشرب فيه الروح القصصية ، ولكن بصورة موجزة لم تصل الى المستوى الذي وصل اليه السرد القصصي في حديثهم عن الرواحل فهم يشبهون الخيل بالعقاب التي رأت فريسة فانقضت عليها تعمل فيها ما تشاء ، فتنشب فيها اظفارها ، فتترك في جسدها ثقوبا وجروحا ، وكانت هذه الصورة تختلف عند الشعراء ، فمنهم من يفصل فيها^(٢) ، ومنهم من يوجز^(٣) . وكذلك صورة الذئب التي كانوا يؤكدونها في اوصافهم للجوع ، ويهينون لذلك ما يقدرون عليه من الالفاظ الموحية فالقوت الزهيد والهزال والمشي المضطرب ، والطوى ، وهلهلة الأجسام والعواء ، والضعف وما يقاسيه هذا الحيوان من البؤس ، وهو في هذه الصحراء ، كلها تنعكس في هذه الصورة ، وكثيرا ما كانوا يعقدون المحاورات التي تدور بين الشاعر وهذا الحيوان ، والمناجاة الودية ، والاشارات

(١) انظر ديوان امرئ القيس/ ١٠١ - ١٠٤ وديوان عبيد/ ٤٤ وديوان أوس/ ٣ ، ٤٢ وديوان زهير/ ٤٨ ، ٤٧ وديوان بشر/ ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ وديوان الاعشى/ ٣٦٣ وديوان لبيد/ ٧٨ وديوان المزد/ ٤٧ . (٢) انظر ديوان امرئ القيس/ ٢٢٥ - ٢٢٩ ، وديوان عبيد/ ١٨ . (٣) انظر ديوان بشر/ ١١٠ ، ٤٧ ، ٢٣ ، وديوان الاعشى/ ٣٩ ، ٢٩ ، والمفضليات ١/ ٣٨ ، ٣٥ .

المعبرة ، بأسلوب مترابط ، وتسلسل قصصي واضح ، مهيدين لفكرة كانت تختلف في اذهان الشعراء ، فهي عند المرقش^(١) وامرئ القيس^(٢) ، تنتهي بفكرة الكرم ، لأن الشاعر الأول يكرم الذئب ، وبصور فكرة الكرم الأصيل الذي يقدم للضيف مهما كان شكله ، لا يفرق في تقديمه بين انسان وحيوان . والشاعر الثاني يترك له مورد الماء ليشرب ، اما صورة الشنفرى في لاميته ، فتعكس لنا بوّس الشاعر وتعاسته وضجره من هؤلاء الناس الذين فضل عليهم هنا الذئب فأمنه على سره^(٣) ، ويأتي ابو كبير على ذكر الذئب العاوية حول هذه الموارد من الجوع .

وقد وجدت القصة عند شعراء هذيل صورة اخرى ، يكاد ينفرد بها شعراء هذه القبيلة وخاصة في احوال الرثاء ، لأنهم وجدوا في الوعل المسن ، والثور الوحشي الاسفع ، والحمار والعقاب . صورة الخلود ، لما تتمتع به هذه الحيوانات ، وخاصة الوعل ، من قوة وصلابة وتمكن من الارتقاء الى المناطق المرتفعة ، وتسلق قلل الجبال المنيعه ، وقابلية على الاغفال في اعماق الصحراء البعيدة ، ولكن بالرغم من كل هذا التمتع والتمكن والقابلية فهي تخضع لسلطان الموت ، وحوادث الدهر الذي لا يبقى على حدثانه شيء ، فلا بد ان يتاح لها في يوم من الايام صياد ماهر ، اخذ عدته . وتأهب للعمل ، واعد السهام القوية ، والرماح الطويلة التي يتمكن بها من اصابتها .

قال صخر الغي يرثي اخاه^(٤) .

أعينيّ لا يبقى على الدهر قادر بتيهورة تحت الطّخّافِ العصائب
تملّى بها طولَ الحياة فقرنه له حيد اشرافُها كالرواجب
يبىّت اذا ما آتس الليلَ كانساً مبيتَ الكبير ذي الكساء المُخّارب

(١) انظر المفصليات ٢٦/٢ . (٢) انظر ديوان امرئ القيس/٣٦٣ . (٣) انظر اعجب المعبج للزّخشري /٣٧ - ٥٠ . (٤) وقيل لأخي صخر الغي يرثي بها اخاه صخرًا ، انظر شرح اشعار الهذليين ٢٤٥/١

يُرْوَع من صوتِ الغُرَابِ فينتحي
أُتِيحَ له يوماً وقد طال عُمُرُهُ
يُحامي عليه في الشتاء إذا شتا
فلما رآه قال لله من رأى
لو أن كرمي صيدَ هذا عاشره
احاطَ به حتى رماه وقد دنا
فنادى أخاه ثم طار بشفرة
ولله فتشخّاءُ الجناحينَ لِقُوَّةٍ
كأن قلوبَ الطير في جوفٍ وكرها
فخانت غزالا جائما . بصرت به
فمرت على ريد فأعنت بعضها
بمتلفةٍ قفري كأن جناحها
وقد ترك الفرخان في جوف وكرها
فُريخان ينضاعان في الفجر كلما
فلم يرها الفرخان بعد مساهة

مَسَامَ الصخُور فهو اهربُ هارب
جريمة شيخ قد تحنّبَ ساغب
وفي الصيف يبغيه الجنا كالمتناجب
من العَصم شاة قبله في العواقب
الى ان يغيث الناس بعض الكواكب
باسمر مفتوق من النبل صائب
اليه اجتزاز الفعفي المناهب^(١)
توسد فرخيها لحوم الأرباب
نوى القسب يلقي عند بعض المآدب
لدى سلمات عند ادماء سارب
فخرت على الرجلين أخيب خائب
إذا نهضت في الجو مخرق لاعب
ببلدة لا مولى ولا عند كاسب
أحسا دوي الريح أو صوت ناعب
ولم يهدأ في عشاها من تجاوب

(١) القادر : الوعل المسن والتهيرة : ما اطنان من الرمل ، والطخاف : مارق من الغنم
والمصائب : المعائم ، وتمل : تمتع ، وحيد : جوائب والرواجب : الدقاق الكناس : مثل
البيت يحفره في اصل الشجرة ويكون فيه . يقول : يبيت هنا الوعل كانسا اذا ابصر الليل
في كناس كمييت رجل كبير عليه كساؤه . قد عادى اهله فتحنى عنهم ، مسام الصخور :
مره في الصخور ، يقول ، الوعل يروع من صوت الغراب ، تحوفه من المنايا فينتحي يعتمد
كأنه يروع من كل شيء يسمعه ، انما هو مفزع من كل شيء . جريمة شيخ : اي كاسب شيخ
صائد يكسب لايه ، تحنّب ابلودب ، اي تحنّت عظامه وساغب : جائع . الجنا : ما اجنى
من الثمر . المناضب المجاهد ، العصم : الأروى . كرميه : يعني شيخه أي لو صيد له لا عاشره
الى ان يغيث الناس بعض انواع النجوم . باسمر مفتوق : يسهم مخلق ، ومفتوق من النبل :
يعنى سهما واسع النصل . شفرة : سكين . اجتزر : قطع . الفعفي المناهب : المبادر .

فذلك مما أحدث الدهر أنه وقال ابو كبير يرثي ابنه^(٢) :

والدهر لا يَبْقَى على حداثته
يرتدن ساهرة كأن جَمِيمَهَا
فأرأين قلّة فارس يعدو به
فاهتجن من فزع وطار جِحاشُهَا
وهَلَاءُ وقد شَرَعَ الاسنة نحوها
وقال ساعدة بن جؤية^(٤) :

تالله يبقى على الأيام ذو حَيْسِدٍ
ادفى صُلُودٌ من الاوعال ذو خَدَمٍ

(١) اللقوة : العقاب ، والفتح : استرخاء جناحيها . توسد : تطعم . اراد : احبى لا يبقى على الدهر قادر ولا فتخاء الجناحين ، خانت : انقضت على غزال . سلمات : لشجرات ، ادماء : ظبية ، وسارب : اى قد سربت في موضعها فدخلت الريد : الخرف يندر من الجبل ، فاعتت بعضها : اصابه بعنت ، كسر ، اى كسر جناحها فغرت . المولى القريب ، يريد ان يقول ، وقد ترك الفرخان وليس له مولى يقوم بامرهما . ينضاعان : يتحركان كلما طلع الفجر أو سمعا صوت ناعب ، وهو الغراب . (٢) شرح اشعار الهذليين ١٠٩٠/٣ (٣) قب : حمض البطون : يريد حمير وحش والشجون : شعاب تكون في الحرة ينبت المرعى مكانها والمبرم : الذي قد خرجت برمه والبرمة : ثمر الطلع . الجميم النبات الذي نبت وارتفع قليلا ولم يتم كل التام ، المميم : المكتمل التام . نهد المخزم : عظيم البطن . القارم : الذي قطع ، فهو يقرم من يقول الارض . الوهل : الفزع : المحتق : الذي قد اصاب فاحتق الرمية . المشرم : الذي قد شق بالعرض . (٤) شرح اشعار الهذليين ١١٢٤/٣ الخيد في القرن أي في قوته حيود . والادفى : الذي ينحى قرناه الى ظهره والصلود : الذي يضرب برجله الصخرة فتسمع لها صوتا وذو خدم : اعصم المشمخرات المرتفات . والقان والشم : شجران تنخذ منها القسي العربية الجلي : منافع الماء ، الظبان : شجر والعم : شجر الزيتون اليرى (الجبلي) الجش : القصب الخفيف ، والبيض السهام ، والسحم : شجر له ورق كورق الخلاف يريد ان نصالها مثل ورق هذا الشجر . دمست : التبتت الظلمة ، والاسداف : جمع سد ، وهو الظلمة والفسم : اختلاط الظلمة دلى يديه : كأنه رماه من فوقه . نفاحة : اى تنفض بالدم . غير انباء ، يقول : لم ينب سهمه حين رماه .

ياوي الى مُشْمَخِرَاتٍ مُصْعَدَةٍ
 من فوقه شَعَفَ قَرُّ واسْفَلَ
 حتى أُتْبِحَ له رامٌ بِمُحْدَكَةٍ
 فظَلَّ يَرْقُبُهُ حتى إِذَا دَمَسَتْ
 دَلَّى يَدِيهِ له سِيراً فَأَلْزَمَهُ
 فراغٌ منه بِجَنْبِ الرِّيدِ ثم كَبَا
 ولا صَوَارٍ مَدْرَأَةٍ مُنَاسِجُهَا
 ظَلَّتْ صَوَافِينُ بِالْأَرْزَانِ صَاوِيَةً
 قد أُوْبِيتَ كُلُّ ماءٍ فِيهَا طَاوِيَةً
 حتى إِذَا مَا تَجَلَّى لَيْلُهَا فَرَعَتْ
 فَاغْتَنَّتْهَا فِي فِضَاءِ الْأَرْضِ يَأْفَرُهَا
 انْحَى عَلَيْهَا شُرَاعِيًّا فَعَادَرَهَا

شُمٌّ : بين فُرُوعِ الْقَانِ والتَّشْمِ
 جِيٌّ : تَنْطِقُ بِالظُّلْيَانِ والعُثْمِ
 جَشِيٌّ : وَبَيْضُ نَوَاحِيهِنَّ كَالسَّحْمِ
 ذَاتُ الْعِشَاءِ بِأَسْدَافٍ مِنَ الْغَسَمِ
 نَفَاحَةٌ : غَيْرُ ابْنَاءٍ وَلَا شَرَمٍ
 عَلَى نَضِيٍّ خِلَالِ الصَّدْرِ مُنْحَطَمٍ
 مِثْلُ الْفَرِيدِ الَّذِي تَجْرَى مِنَ النَّظْمِ
 فِي مَاحِقٍ مِنْ نَهَارِ الصَّيْفِ مُحْتَدِمٍ
 مَهْمَا تُصِيبُ أَفْقًا مِنْ بَارِقٍ تَشْمِ
 مِنْ فَارِسٍ وَحَلِيفِ الْغَرْبِ مُلْتَمِّمٍ
 وَأَصْحَرَتْ عَنْ قِفَافِ ذَاتِ مُعْتَصِمٍ
 لَدَى الْمُرَاحِفِ تَكِيٍّ فِي نَضْوُخِ دَمٍ

فالشاعر الهذلي في هذا الرثاء ، يسرد لنا الحكاية سردا شيقا ، يصور
 فيه هذا الحيوان ، وقد اكتملت قوته ، وعظم نشاطه ، ويصور ما يصادفه
 في حياته ، وما يتمتع به من ملذات الحياة . وينعم به من مغامرها ، ليمنحه
 الصورة الكاملة للقوة والنشاط بأسلوب محكم ، والفاظ مناسبة ، وصور حية ،

= النضى : قلع بغير ريش ولا نصل . خلال الصدر : أى دخل بين أطباق الضلوع . الفريد :
 شيء يعمل مدور من فضة ويجعل في الخل . الارزان : الامكنة الصلبة الصاوي : الدابل ، وما
 حق من نهار الصيف : أى في شدة الحر . أوبيت منمت ، طاوية : ضامرة . شُم : تقدر اين
 موقعه ثم تمضي إليه .

الحليف : السنان ، وغريب كل شيء . حده وحليف الغرب : أى جديد الحد . اقنها :
 اشقق بها . يَأْفَرُهَا : ينزويها نزوا والقفاف : غلط من الارض لا تجرى فيه الخيل ، يقول :
 فلما اصحرت عن القفا أدركتها الخيل . انْحَى : صرف اليها وحمل عليها رجا . شراعيا : طويلا ،
 منسوب الى رجل أو بلد ، ثليلا : صريعا .

تشد إليها القارئ ، وتدفعه الى التركيز على هذه الصورة التي يقدمها الشاعر بهذا التقديم .

وهنا يعد الشاعر ادواته ليعطي الفكرة المرسومة في ذهنه كل الوانها فيصور الموت وقد تمياً ، ويرسم القدر وقد حان ، وهو على شكل صياد ماهر ، أو حيوان جارح ، يترصد لهذا الحيوان ، ويترقب حركاته ، ويلاحقه ، حتى اذا اصبحت الفرصة مواتية ، سدده سهمه ، وصوب (رمحاً ، وانقض عليه فارداًه على الارض يسح دماؤه .

وهنا يطمئن الشاعر الى هذه النهاية التي وضع خطوطها قبل أن يبدأها ، وصمم هيكلها قبل ان يشرع في سردها .

ويختم القصة بعبارة التي توحى بالرضا ، ليعث في نفسه الراحة ، لأنه المصير المقدر ، يدرك كل انسان وحيوان ولا يفلت من قبضته احد^(١) .

(١) انظر شرح اشعار المهذلين ١/٢٥٣ و ٣/١٠٩٣ ، ١١٢٤

الخصائص المعنوية

يتميز الشعر الجاهلي بوضوح معانيه ، وبعده عن كل تكلف أو اغراق وهذا أمر طبيعي ، بالنسبة له ، لنشوته في بيئة لم تتعقد فيها حياة الإنسان تعقيدا يوحى بالتكليف ، ومن هنا كان الشاعر الجاهلي امينا في نقل الصور ، والمحافظة على اشكالها كما هي في العالم المحيط به ، وكان أدب هذه الفترة من اصدق الآداب العربية ، واثبتها في رسم الحياة ، وتبين مظاهرها التاريخية وهو يعطي الدارسين الوجه التقريبي للحياة العربية خلال العصر الجاهلي .

وقد ادرك القدامى هذه الحقيقة ، فوجهوا اهتمامهم إلى الاستشهاد بنماذجهم الشعرية في كل باب من ابواب الادب . واعتبروها الأساس لكل الجوانب التي اقبلوا على دراستها .

فالشاعر الجاهلي ينقل الصور التي تلوح امامه نقلا امينا ، بعيدا عن تحليل الاوصاف ، والتعمق في التشبيهات والايغال في عقد المقارنات . فاذا اراد التشبيه كانت تشبيهاته حسية ، يحاول فيها ابقاء جواهر الموضوعات على حالها دون تغيير أو تبديل . تدرك لأول وهلة ، ومن هنا كانت معانيهم محدودة في كثير من الصور . فآثار الخيام كأنها بقايا النقش . وقد محاه او كاد يمحوه ، طول الزمن ، أو كانه رجع الوشم ، وقد اخذت الواشمة تعيده وتجده على اليد . أو كأنها الكتاب الذي اكب عليه الكاتب بدواته ، يسوي

سطوره مرة ، ويخالف اخرى ، لعدم مجيئها على استواء واحد . ولكن هذا لم يحل بينهم وبين الصور الجديدة التي كانت ترسم في اذهانهم . فكانت الصور عند بعضهم شاخصة وحافلة بالحركة والحياة ، تتابعها العين والاذن والخيال ، ولا يقف دونها غموض . ولم يفصل بينها فاصل لأن هذا البعض كان يعرض لها بصورة مباشرة فيجسدها ويحسها ويمنحها الحياة الشاخصة والحركة المتجددة ، منتزعا صور المشبه به من البيئة التي يعيش فيها ، مع محاولات بسيطة لاضفاء بعض الالوان عليها من عاطفة أو حركة ، محاولا طبعها بطابع معين . فصورة الطريق الذي تقطعه ناقة طرفه كساء مخطط يجد فيه جمالا^(١) ، كما يجد في ناقتة روعة وبهاء^(٢) وصورة البقرة الوحشية عند زهير ، وهي تراءى له في لونها الابيض ، وقوائمها المخططة كأنها الثوب الناصع الجميل^(٣) . وصورة الطريق البين الواضح الذي تسير به ناقة النابغة ، ثوب ابيض^(٤) ، اما صورة البداء المقفرة التي تخترقها ناقة الاعشى ، فكانها ثوب يمني مخطط ، يستنفذ عزيمة ونشاط راحلته فيقول^(٥) :

وبدء قفر كبردٍ السدير مشاربها دائراتٌ أجُن .
ويقول^(٥) :

فأفنيتهَا وتَعَالَتْهُهَا على صَحْصَحٍ كرداءِ الرُّدْنِ
ويتابع المثقب العبدى هؤلاء الشعراء في رسم هذه الصورة فيقول^(٦) :
في لاحِبٍ تعزِفُ جنائنه مُنْفَهِيهِ القفرةِ كالبُرْجُدِ
وهكذا يتبارى الشعراء الجاهليون في استنباط الصور التي يتمكنون من استنباطها ليدلوا على براعتهم ومهارتهم وقدرتهم على الايتاء بالصور الجديدة .

(١) طرفه . الديوان ٣١٠ (الاعلم) (٢) انظر ديوان زهير/ ٢٢٨ (٣) انظر ديوان النابغة/ ٩٣ (صادر) (٤) الاعشى . الديوان/ ١٧ . (٥) الاعشى . الديوان/ ١٩ . (٦) المثقب العبدى . الديوان/ ٨ .

ان حرص الشاعر الجاهلي على نقل الصور نقلا امينا ، جعل تشبيهاته حسية لأنه كان ينزع فيها نزعاً مادية بحتة . فالوحش الذي كان يصيده امرؤ القيس ، كانت عيونه متفرقة على الارض ، حول الخباء والارحل كأنها الحُرز لما فيه من السواد والبياض وجعله مثيراً لأنه اصفى له ، واتم لحسنه ، ومما يزيد جمال الصورة ، ابداع الشاعر في حرصه على هذا النقل بتلوين الصورة بالالوان التي تنطبق عليها انطباقاً ، فيجعلها زاهية ، تقرب الحقيقة ، حتى تصبح الصورة والحقيقة كأنهما وحدة . واحدة واوس يكثر من التشبيهات المتناثرة في قصائده والتي يحس بها بالسمع والبصر ، فهو يشبه البرق بالصبح المضيء ، مستعملاً لفظ لماح ليمثل خطف البرق تمثيلاً حسناً ، ثم يضيف الهيدب الى السحاب ، ويقارب بينه وبين الارض ، حتى يكاد يدفعه بالراح أو تمسه بيديك ، وتدفعه اذا قمت . ثم يأتي على جملة تشبيهات ، يقول ^(١)

لَئِنِّي ارَقْتُ وَلَمْ تَأْرُقْ مَعِيَ صَاحِي	لَمُسْتَكْفٍ بُعِيدَ النَوْمِ لَوَاحِ
يَا مِنْ لَبْرِقِ ابْيَتِ اللَّيْلِ ارْقَبُهُ	فِي عَارِضٍ كَمُضِيءِ الصَّبْحِ لَمَاحِ
دَانِ مَسْفٍ فَوْقَ الْأَرْضِ هَيْدِيَّةِ	يَكَادُ يَدْفَعُهُ مِنْ قَامٍ بِالرَّاحِ
كَأَنَّ رَيْقَهُ لَمَّا عَلَا شَطْبَا	أَقْرَابَ أَبْلَقَ يَنْفِي الْخَيْلَ رَمَاحِ
كَأَنَّما بَيْنَ اعْلَاهُ وَاسْفَلِهِ	رَبَطُ مُنْشَرَةٍ أَوْ ضَوْءِ مَصْبَاحِ
كَأَنَّ فِيهِ عِشَارَ جِلَّةٍ شَرْقَا	شَعَثَا لَهَا مِمِّ قَدْ هَمَّتْ بِارْشَاحِ

وكان التشبيه يصل عند كثير من الشعراء الى السرد القصصي الذي يسرد فيه الشاعر ما يروم التعبير عنه ، ويسكب فيه عاطفته التي تتحد في الصورة . ليكسبها احساساً جديداً ، ففي حديث زهير عن احبته ورحيلهم وهم يمشون لوجههم تراه يوشك ان ينسى الاحبة ، فينصرف الى تشبيه عينه وهي تسكب الدمع سكباً بدلو تملأ ثم تصب في جدول ، ويمضي زهير في تتبع الصورة

(١) اوس بن حجر . الديوان/ ١٥-١٦-١٧

فيعرض للادوات التي تصحب هذا العمل ، والناقة التي تستقي ، والجدول الذي يصب فيه الماء ، والضفادع التي تعيش في هذا الجدول ، مستطردا في هذه التشبيهات مبتعدا عن ابنة البكرى التي اصبح الحبل منها واهنا خلقا يقول^(١) :

كَانَ عَيْنِي فِي غَرْبِي مُقْتَلَةً مِنْ النَوَاضِحِ تَسْقَى جَنَّةً سَحَقَا
تَمْطُو الرِشَاءَ وَتُجْرِي فِي ثَنَاتِهَا مِنَ الْمَحَالَةِ ثَقِيَا رَائِدًا قَلِقَا
لَهَا اِدَاةٌ وَأَعْوَانٌ غَدُونُ لَهَا قَتَبٌ وَغَرَبٌ إِذَا مَا أَفْرَغَ اِنْسَحَقَا
وَحَلَفُهَا سَائِقٌ يَحْدُو إِذَا خَشِيَتْ مِنْهُ الْعَذَابَ تَمُدُّ الصَّلْبَ وَالْعُنُقَا
وَقَابِلٌ يَتَغَيُّ كُلَّمَا قَدَرَتْ عَلَى الْعَرَّاقِي يَدَاهُ قَائِمًا دَفَقَا
يُحِيلُ فِي جَدُولٍ تَحْبِوْضَفَادَعُهُ حَبَوَ الْجَوَارِي تَرَى فِي مَائِهِ نُطْقَا
يَخْرُجْنَ مِنْ شَرَابَاتِ مَائِهَا طَحِلَ عَلَى الْجُدُوعِ يَخْفَنُ الْغَمُّ وَالْغَرَقَا^(٢)

وفي حديثه عن ناقته التي يشبهها بالظلم ، يمنح هذا الحيوان وصفاً دقيقاً ويصوره تصويراً كاملاً يحيط به من كل جانب ، فيعرض لهيئته وحركته وذعره وانطلاقه ، وإلى جانب وصف أعضائه ، فهو صغير الرأس ، متقارب العرقوين ، صغير الأذنين ، ثم يعرض لحركته ، فهو يعتسف الصحراء اعتسافاً ، وينطلق في رحابها الفسيحة لا يلوي على شيء ، ولا يقف عند حد ، يقول^(٣) :

كَانَ الرَّجُلُ مِنْهَا فَوْقَ صَعْلٍ مِنَ الظَّلْمَانِ جَوْجُوهٌ هَوَاهُ
أَصْلُكَ مُصْلَمٌ الْأُذْنَيْنِ أَجْنَى لَهُ بِالسِّيِّ تَتُومُ وَأَهْ^(٤)

(١) زهير . الديوان/٣٧ - ٤٠ (٢) الغربان : الدلوان الضخمان . والمقطعة : المذلة يعني الناقة . الثنائة : الحبل الذي قد اوثق طرفه بفتحتها والطرف الآخر في الغرب . والعراقي : الخشيتان على الدلو . (٣) زهير . الديوان/٦٣ - ٦٤ (٤) الجوجو . الصدر . هواء . لا مخ فيه . الصلك : اصطكاك العرنقوين التنوم : الواحدة تنومة : شجرة غيرة تثبت حبا دسما والنهي : ارض . آه . الواحدة آة : ثمر السرح ، والسرحة دوحة محلال واسعة يحل تحتها الناس في الصيف ويبنون تحتها البيوت وظلها صالح .

ولم يجد الشاعر الجاهلي صورة احفظ من هذه الصور التي كانت تطالعه في كل جهة يتجه اليها ، ليقرها ويؤكد في الذهن فكان هذا الفيض الزاخر من الفاظ الرمال والرياح والسيول والبروق والأبل والخليل والثيران الوحشية والحمر والافاعي والذئاب والوانها واوصافها ، وكأن الشعراء ادركوا حقيقة التصوير والصورة وهي تتجلى بأشكالها وهياتها واجزائها ، وادركوا كذلك التفاصيل المتمثلة في الألوان والمظاهر التي تبرز تلك الحقيقة ، فكانوا يجمعون بين الركنين جمعا متوافقا ، وهذا ما حمل القدامى على تمييز هذه الطبقة من الشعراء الذين عرفوا بهذا الاهتمام - عفوا أو تعمدوا - فأطلقوا عليهم من الاسماء ما يشير الى حسن الصياغة والتنميق ، واصحاب الصنعة ، وعبيد الشعر

ولعل قصائد اوس بن حجر ، وزهير بن ابي سلمى تُعدّ النماذج الأولى لهذا الاتجاه ، لعنايتهما الشديدة بإبراز الصورة ، وتفصيلهما في جوانبها والمأمهما الشامل بتفاريعهما واجزائها ؛ وكأنهما كانا يدركان الأوصاف التي يريدان ادخالها في الصورة مسبقا ، فيجعلان اطار صورهما واسعا ، ومجال التفصيل فيهما رحبا ليستطيعا ادخال الأجزاء التي كانت تدور في نفسيهما .

فأوس يؤلف الصورة الشعرية تأليفا محكما ، وكان يتحمل من اجل هذا التأليف جهدا وعناء ومشقة ، ليتمكن من الربط بين الخيال الذي يريد ان يطبع الصورة به . والحواس التي تدرك هذا الخيال ، وقد ساعدته على ذلك مهارة فنية نادرة ، وقدرة حسية عجيبة في استخدام الالفاظ وبث الحركة والحياة .

لقد ارتبطت هاتان الميزتان في شعر اوس ارتباطا وثيقا وقد حملته على ان يستوحي الجمال الفني من المظاهر الطبيعية المحسوسة .

ولعلنا ندرك ذلك في كثير من قصائده التي تطالعا في ديوانه . ففي قصيدته الأولى يتحدث عن تماضر التي حلت بربب ثم يتابعها وينتقل معها

الى الغمر فالمرين فالشعب ، ويستمر اوس في هذه المتابعة حتى تحط الرحال في الشام وبعدها يربط بين منازل تماضر التي ابتعدت عنه ، وبين منازل اهله ، حتى اصبح طلابها نصبا . ويلح اوس في البيت الثالث على هذا المعنى . وبعدها ينصرف الى تصوير بقايا الديار ، وما تنائر فيها من الحفر والخيوط فيشبهها بالزخارف الجديدة التي لم تندثر ، ويعرض بعد ذلك الى النعيم فيصفى عليه اللون الاسود المغبر ، وقد اتخذ دار صاحبه مقاما ، فهو يمشي كما تمشي الاماء وقد تسربت جيباً ، وتبرز قدرة اوس في رسم هذا المنظر باستخدام كلمة تمشي التي تبث فيه الحركة ، واضفت عليه عنصراً مهما من عناصر النجاح . اذ يقول ^(١) :

حَلَّتْ تُمَاضِرُ بَعْدَنَا رَبِّبَا فَالْغَمَرُ فَالْمُرِّينَ فَالشُّعْبَا
حَلَّتْ شَامِيَّةٌ وَحَلَّ قِسَا أَهْلِي فَكَانَ طَلَابُهَا نَصَبَا
لَحَقَتْ بِأَرْضِ الْمُنْكَرِينَ وَلَمْ تُمَكِّنْ لِحَاجَةِ عَاشِقٍ طَلَبَا
شَبِهَتْ آيَاتُ بَقِيْنِ لَهَا فِي الْاَوَّلِينَ زَخَارِفَا قُشْبَا
تَمْشِي بِهَا رُبْدُ النِّعَامِ كَمَا تَمْشِي لِامَاءٍ سُرْبِلَتْ جُبْبَا

ويستمر اوس في هذا العرض ، فيقدم الحوادث في هذه الصور المتطورة ، فالناقة الضخمة سريعة العدو ، وما اطمأن من الارض حولها مضطرب ، ولوامع السراب تكسو جوانب تلك الارض المطمئنة ، حتى اتصلت برووس الاحكام ، والثور الوحشي ، الذي شبه به ناقته ، ملمع ، حتى اشبه وحش انبط ، الذي تجمع ولحاً الى مضيق من الأرض ، لاشتداد المطر عليه ، ثم نعته بالبياض . واذا انعمنا النظر في آيات اوس هذه ، وجدنا قدرة هذا الشاعر على امكنة الصورة . وقدرته على تحديد زمانها ايضا .

(١) اوس . الديوان / ١

الى جانب الألوان الناضجة التي ملكت عليه حواسه ، وملأت قلبه ،
فظل يتابعها في بقية آيات القصيدة ، متابعاً تدل على افتتاحه في هذه الألوان ،
وشدة احساسه بما تثيره في نفسه من المشاعر والاحاسيس^(١) :

وقد لازمت هذه الصفة زهيرا في اغلب قصائده ، حتى أصبحت منهجا
واضحاً يلتزمه ، وطريقاً يسير عليه ولعل معلقته التي وفر لها الجهد الفني
الضخم والطاقة التصويرية البارعة ، تعد النموذج الرائع لهذه المهارة والقدرة^(٢)
فهو يصف الطفل في صمته وسكوته ، ثم يتحدث عن الاثافي ، وعن النوى
القديم الذي حفرته القبيلة حول خيامها وعن بقاياها التي ما تزال قائمة كأنها
بقية حوض لم يتنلم ، ويظل زهير يراقب هذه النوى والاثافي مراقبة صامتة ،
فيطيل إليها النظر ، ويستعيد الذكريات حتى اذا استيقن أنها ديار صاحبه
القديمة ، توجه إليها بتحمته الهادئة العميقة ، وادرج هذه التحية كل ما يحمله
لها في قلبه من وفاء ، ومن تشبث بذكريات . رغم تقادم العهد ، وتطاول
الزمن ، وتبعد الأيام^(٣) ، ثم ينصرف الى الحديث عن الطفل ، وقد استحال
مسرحة فسيحا للبقر الوحشي ، والظباء التي تمشي متخالفة وصغارها التي
تنهض في نشاط وحيوية . ثم ينتقل الى وصف معالم هذه الديار فهي لا تزال
باقية ، كأنها الوشم المرجع في عروق المعصم ، ثم يصف وقوفه فيها وبصور
صحتها وسكوته فهو لا يكاد يعرفها ، وهنا يستعين بلفظ (فلأيا) ، ليعبر
عن الحالة الشعورية التي انتابته ، والاحاسيس القوية التي اعترته وهو يظفر
بحاجته بعد عشرين حجة . حتى لاحت له ، وهي واضحة المعالم محدودة
الابعاد ، متميزة الألوان^(٤) .

ثم يستعيد زهير ذكرياته القديمة في المنظر الثاني ، فيطلب الى صاحبه ان

(١) اوس . الديوان/٣-٢ . (٢) شوقي ضيف . الفن ومذاهبه في الشعر العربي / ٢٩
(٣) شوقي ضيف الفن ومذاهبه في الشعر العربي/ ٣٠ ، ومقال الدكتور يوسف خليف في مجلة
(المجلة) . العدد/ ١٠٠ السنة التاسعة ، نيسان/ ١٩٦٥ (٤) انظر معلقة زهير في ديوانه .

يتبع بخياله رحلة صاحبه المسافرة ، فينتقل معها من العلياء الى القنان ومن القنان الى السوبان ، ومن السوبان الى وادي الرس ، وفي وادي الرس تستقر الرحلة ، فلا تجوز ولا تخطى . كما لا تجوز اليد اذا قصدت للفم ولا تخطه وزهر لا ينسى اثناء هذه الرحلة ، أن يعطي كل مكان صورته بالتفصيل ، فهو يبصر الظعائن وهن ينتقلن في شعاب الصحراء . وقد رفعت فوق المطايا الانماط العناق والكلل الوردية الحواشي .

ولا ينسى زهير ان يحدد نوعية الرحال ، وما يتساقط من فتات العهن في المنازل التي ينزلن فيها ليكمل اجزاء الصورة ، ويحدد مقوماتها الفنية ، ويبرز قابليته على استيعاب هذه اللوازم .

لقد اعطى زهير كل جزء منها لونا ، وكأنه يحسن استعمال هذه الألوان في تصويره احسانا شديدا ، فقد اعطى للكلل اللون الوردى ، ومنح فتات العهن اللون الاحمر ، فقارب بين الألوان مقارنة تظهر براعته ، وتبرز قدرته على هذا الذوق الفني الرفيع في الاستخدام^(١) .

فالصورة بعد كل هذا كانت عماد الشعر العربي ، وقد حاول الشعراء ان يجعلوا هذه الصور واضحة ، وهذا ما حملهم على نقل جزئياتها صورا والوانا وحركات ، وهم في الغالب لا يستقصون هذه الجزئيات استقصاء تاما منظما . ولكن ذلك لا يقلل من اجادتهم في لم اشتات هذه الجزئيات الى بعضها ، وتكوين الصورة الكاملة الى حد ما اجادة تضطرننا للوقوف عندها وقفة تأمل واعجاب .

ولا بد ان تكون هذه الصور متباينة في اخراجها قوة وضعفا ، لأن بعض الشعراء كان يقف عند حدود المراثيات منها . وكان البعض الآخر يتجاوزها الى ما اوحته اليه هذه الصور .

(٢) انظر ملقة زهير في ديوانه ومقال الدكتور خليف. في مجلة المجلة التي اشرنا اليه سابقا .

ومن الطبيعي ان تظهر معالم التكرار في هذه التشبيهات والصور لأن معظم الشعراء كانوا يدورون حول معان متعارف عليها ، وتشبيهات محددة لا يكادون يتعدون عنها ، ففي حديثهم عن الرحيل ، كان الشاعر يتحدث عن هذا الرحيل ، ويقص على نفسه قصة الرحلة الطويلة وكأنه يريد ان يقنع نفسه بها ، فيكرر الذكريات ، ويلج في هذا التكرير ، فيشبه النساء وقد دخلن الهواذج بالظباء يأوين الى الكنس .

وفي هذه الصورة يقدم الشاعر تشبيهات حسية كثيرة فالسراب ينتشر في اكل جانب ، والآيل منتقلة من سراب الى آخر ، والآكام تحجبها تارة ، وتظهرها اخرى وقد تعاور الشعراء على مثل هذه الصور . اما في مجال التشبيه فنجد الشعراء اذا وصفوا الديار شبهوها بالكتاب^(١)

واذا ارادوا ان يشبهوا آثارها ، شبهوها بالصحف أو الزخارف^(٢) ، وكأنهم كانوا يقرأون في هذه الآثار المتبقية من الذكريات ما يقرأونه في الكتب ، واذا رغب الشاعر في مقابلة صورة الاثر قابلها بالوشم^(٣) ، واذا تحدثوا عن الكئيب شبهوه بعجز المرأة^(٤) ، وكذلك شبهوا اعجاز النساء بالعجل المملوء بالماء^(٥) وكانوا يستعبرون للسحاب المملوء بالماء الروايا من الابل ، وهي التي يحمل عليها الماء للسقي^(٦) .

وشبه عترة قارات الروضة وحفرها بالدرهم وصوت الدباب بصوت الشارب المترنم : قال (٣) :

-
- (١) انظر ديوان امرئ القيس/ ٨٩ وديوان ابي دود/ ٢٩٣ . (٢) انظر ديوان عترة / ٣٩٤ (الاعلم) وديوان بشر/ ١٣٧ ، ١٥٢ وديوان اوس/ ١ . (٣) انظر ديوان عترة / ١٩٠ وديوان الطفيل/ ٦٤ وديوان طرفة/ ٣٠٨ (الاعلم) وديوان زهير/ ٥ . (٤) انظر ديوان عبيد/ ٢٢ وأبو انمرئ القيس/ ٣٠ وديوان طرفة/ ٣٥٦ (الاعلم) وديوان الاعشى/ ٣٥٣ . (٥) انظر ديوان الاعشى/ ٥٩ . (٦) انظر ديوان علقمة/ ١٩ . (٧) عترة . الديوان/ ١٤٥ (عبد الرؤف الشامي) .

أو روضةً أنفاً تَضْمَنَ نَبْتَهَا غَيْثٌ قَلِيلٌ الدمن ليس بمَعْلَم
جَادَتْ عليها كُلَّ عَيْنٍ ثَرَّةً فتركن كُلَّ حديقَةٍ كالدرهم
سَحًّا وتسكاباً فكلَّ عَشِيَّةٍ يجري عليها الماء لم يَتَصَرَّم
وخلأ الدباب بها فليس ببارح غردا كفعل الشارب المَرَم

وقد اعجبت هذه الصورة الجاحظ اعجاباً شديداً حملة على ان يعدد تشبيه عنتره هذا من التشبيه المصيب التام ، وانه وصف اجاد صفته ، فتحامى معناه جميع الشعراء فلم يعرض له احد منهم ، وانه لم يسمع في هذا المعنى بشعر ارضاه غير هذا الشعر^(١) .

واذا وصفوا الدروع شبهوها بماء الغدير الذي تصفقه الرياح^(٢) ، اما السحاب البطيء ، وهو تسوقه ريح الشمال فيشبه الكسير اذا سبق ، موضحين في هذا التشبيه صفة التثاقل والتباطؤ^(٣) ، وشبهت شدة السحاب وقوته وتجمعه بصور كثيرة ، من ذلك تشبيه السحاب المملوء بالماء المترامي بعضه في اثر بعض بالجلال^(٤) وشبهت الكتاب في غاراتها بالسحاب المندفع الجارف لكل ما يعترض سبيله^(٥) .

اما تشبيه السحاب بصور الحيوانات فقد وردت من ذلك في شعرهم صور كثيرة والظاهر ان المعاني التي اوحتها اليهم هذه السحب وهي تشكل بالمشكال متباينة ، انعكست في شعرهم بحيث تمكننا قراءة ما اوحته الى نفوسهم تلك الاشكال فصورة البرق اللامع وسط السحاب الأسود عند عروة بن الورد فرس بلقاء تنفي ذكور الخيل عن ولدها^(٦) .

ارقتُ وصحبتني بمضيق عمق لبرق في تهامة مستطير
اذا قلت استهل على قديد يحور ربابسه حور الكسير

(١) الجاحظ . الحيوان ٣/ ٣١١ - ٣١٢ . (٢) انظر ديوان عامر بن الطفيل/ ١٠٢ ،
والمفضليات ١/ ٤٠ ، ٨٤ . (٣) انظر ديوان عدي بن زيد/ ٨٦ . (٤) انظر ديوان
المزرد/ ٢٤ . (٥) انظر ديوان اوس/ ١٠٤ . (٦) عروة الديوان/ ٣١ (صادر) .

تكشف عائلته بقاء تنفي ذكور الخيل عن ولد شفور
ويشبه عبيد بن الابرص السحاب بأصول افخاذ فرس ابلق فيقول^(١) :
كَأَنَّ رَيْقَهُ لَمَّا عَلا شَطِيباً اقْرَابُ اَبْلَقٍ يَنْفِي الْخَيْلَ رَمَاحٌ^(٢)
ويجسم لبيد الصورة ، ويضفي عليها حركة واسعة ، فالسحاب الذي
نراه متدلّياً يشبه اعتناق النعام ، وانكشاف البرق عن سواد الغيم يشبهه بجيشان
بأيديهم حراب فيقول^(٣) :

أَرَقْتُ لَهُ وَأُنْجِدُ بَعْدَ هَدْمٍ وَأَصْحَابِي عَلَى شَعْبِ الرِّحَالِ
يُضِيءُ رَبَابَهُ فِي الْمَزْنِ جَبْشاً قِيَاماً بِالْحَرَابِ وَبِالْأَلَالِي
كَأَنَّ مَصْفَحَاتٍ فِي ذِرَاهِ وَأَنَوَاحِا عَلَيْهِنَ الْمَالِي^(٤)

والصورة بهذا الشكل ، كما قال الجاحظ^(٥) ، مخيفة ، مرعبة ، لأنهم
إذا اقبلوا بحرابهم ورماحهم وقسيهم وسيوفهم وراياتهم وخيولهم ، مع
سواد ألوانهم ، وضخم أبدانهم ، رأيت هولاً لم تر مثله ، ولم تسمع به ،
ولم تتوهمه ويقدم الاعشى صورة أخرى : يشبه فيها تجمع السحب المتكاثفة
والمترابكة بقطع من النعام ، تهدل ريشه ، فظل معلقاً في الفضاء فقال^(٦) :

بَلْ هَلْ تَرَى بَرْقاً عَلَى الْجَبَلَيْنِ يَعْجِبُنِي انْجِيَابُهُ
مِنْ سَاقَطِ الْاَكْتَنَافِ ذِي زَجَلٍ اَرَبٌّ بِهِ سَنَابُهُ
مِثْلُ النِّعَامِ مَعْلَقاً لَمَّا دَنَا قَرْدَا شَرَابُهُ^(٧)

-
- (١) عبيد . الديوان/ ٣٥ . (٢) الرقيق : اللعان . شطب : اسم جبل . الاحراب : جمع
قرب ، وهو الخافرة ، الرماح : الكثير الرفس . (٣) لبيد الديوان/ ٨٩ - ٩٠ .
(٤) أنجد : ارتفع ، اخذ البرق الى ناحية نجد ، يقول شنته حل نجد ، بعد هذه من الليل ،
شعب الرحال : عيدانها ، الرباب : السحاب الذي تراه كأنه متدل ، كأنه اعتناق النعام . الالال :
الحراب . المصفحات : الابل اللواتي قد صفحت عن اولادها أي عزلت عنها : فشب صوت الرعد
في هذا السحاب بصوت هذه الابل . المال : الخرق التي تكون مع المرأة تحركها تندب بها .
(٥) انظر رسالة فخر السودان على البيضان للجاحظ (٦) الاعشى . الديوان/ ٢٨٩ .
(٧) انجيا به : الكشافة . ارب : أقام . قردا : مجتمعا .

وكذلك يشبهه زهير بن عروة^(١).

ولم تكن هذه الصور وحدها تدور في ذهن الشاعر الجاهلي ، وهو يتحدث عن السحاب ، وإنما كانت هناك صور أخرى تمثل الجانب الرقيق من حياته ، حاول أن يجعلها أطرافاً في هذه الصور ، فقد شبه مرور المرأة لقلها ، وتقارب خطوها بمرور السحاب^(٢) ، كما شبهوا المرأة بنبات عُجْر^(٣).

أما البرق فقد شبهوا انتشاره وتشعبه وهو يتابع بعث اللمعات ، بحركة اليدين وتقليبهما^(٤) ، والظاهر أن لمعان البرق واستنارته وتلألؤه لاقى هوى في نفوس الشعراء ، فأكثروا من التشبيه به ، فشبهوا الوجه المشرق والمستنير بالبرق^(٥) ، وشبهوا بريق الأسنان بلمع البرق^(٦) ، وإذا تكلم السحاب ، وصار بعضه فوق بعض ، فهو أشد لضاءة البرق وعندها يكون التشبيه أروع ، والتلألؤ أوضح ، وبذلك شبه أوس بن حجر السيف فقال^(٧) :

وابيضَ هَندِيّاً كأنَّ غرارهُ
تلألؤُ بَرَقٍ في حبي تكللا

وهذه الصورة قريبة من صورة امرئ القيس التي شبه بها وميض البرق بلمع اليدين على أن الشعراء لم يتخذوا البرق طرفاً واحداً في تشبيهاتهم (مشبهاً به) وإنما حاولوا أن يجعلوه (مشبهاً) أيضاً ليقروا صورة المشبه به في الدهن ويؤكدوا الإحساس الذي يحسونه في الصورة ، فقد شبه عبيد بن الأبرص البرق بمصباح النبط^(٨) وشبه لمعانه بتسم النجوم^(٩).

ووردت إشارات كثيرة إلى الدلاء في مجال تشبيه الدموع بها^(١٠) ، وشبهوا

(١) انظر الكامل للبرد ٨١٧/٣ . (٢) انظر ديوان الأعمش ٥٥ . (٣) نبات عُجْر : من سحائب حسان مستطيلة ، منتصبات . وقاق كانوا يزعمون أن هذه السحب إذا رثين في أول الشتاء كان ذلك العام خليفاً بالمطر . انظر ديوان طرفة ٧٤ . (٤) انظر ديوان امرئ القيس ٢٤/ . (٥) انظر شرح اشعار الهذليين ١٠٧٤/٣ . (٦) انظر ديوان امرئ القيس ٢٣٣/ . (٧) أوس بن حجر . الديوان ٨٤ . (٨) انظر ديوان امرئ القيس ١٣٩ (٩) انظر ديوان عبيد ٧٦ . (١٠) انظر ديوان علقمة ٤٢٥ وديوان زهير ١٤٨ وديوان لبيد ١٢١ .

نقض العهد بقطع الحبل من الدلو^(١) والرماح لطلوها بجمال البئر^(٢) والآتان في سرعتها وانقضاضها على عدوها بالدلو اذا انقطع جبلها^(٣).

والظاهر أنهم كانوا يضربون المثل بالدلو في كثير من تشبيهاتهم وصورهم لكثرة استعمالهم لها ، وهم يضربون المثل كثيرا بما يعرفونه ويستعملونه . والناقة يركبها الشاعر ، لتقطع به الفيافي والمفاوز ، وهو في خلال هذه الرحلة يضيف عليها مختلف النعوت ، فهي حمار وحشي ، أو ثور وحشي ، طارده كلاب الصيد ، وكثيرا ما يذكر أنه خاض معها اعنف المعارك وخرج من المعركة منتصرا وهي نعامه خاضبة ، اعترضت سوقها الحمرة ، يعرض لها الظلم المصلم الدقيق الرأس ، ذو العنق الضخم ، والمخالب الحادة ، الذي تشبه اهداب ريشه زنجيا عليه كساء من القطيفة^(٤).

ولا بد أن تكون هذه التفاصيل من الاسباب التي تجعل سير الناقة اشد واسرع لانها تكون مطاردة مذعورة ، وفي هذه الحالة يجد الشعراء عدة مظاهر لهذه الشدة في الركض ، منها اسراع يدها وتقدمها على رجلها^(٥).

وحاول بعض الشعراء تشبيهه رواحلهم بالتعام النافر الشارد^(٦) ، أو النعامة التي تسابق الظليم^(٧) ، أو حمار الوحش الذي ضيق عليه المجال ، واحاط به الصائدون من كل جانب^(٨) ، ليخلصوا من ذلك الى شدة سرعتها وقوتها ونشاطها .

والظاهرة الجديدة التي تطالعنا في حديث الشعراء عن سرعة الناقة ، هي

-
- (١) انظر ديوان بشر/ ٢١ . (٢) انظر ديوان بشر/ ٢٣ والمفضليات ١٢١/١ (٣) انظر ديوان زهير/ ٦٧ . (٤) انظر ديوان بشر/ ١٥٤ . (٥) انظر المفضليات ٥٦/١ . (٦) عبيد بن الابصر / الديوان/ ٨٤ . (٧) المفضل . المفضليات ١٠٣/٢ ، (٨) وانظر ديوان امرئ القيس / ١١٥ ، وديوان زهير / ١٦٨ ، وديوان لبيد/ ١٤٧ وانظر ديوان عبيد / ٩٢ ، ولويس شيخو . شعراء النصرانية (المتملس) ٣٤٠/١ وديوان بشر/ ١٩٧ .

اقتران هذه السرعة بتمضية الهم ، وازاحة العلة ، وتسلية الاحزان ، ولا بد ان تكون دواعي هذا الانتقال قادرة على منح الشاعر بعض التنفيس عما اعتراه من الحزن عند وقوفه على الاطلال ، فكانت تنازعه هذه الرغبة في تفريج الهم ، وازالة بواعثه ، وعندها لا يجد غير هذه الناقاة السريعة التي تندفع به في مجال الصحراء الفسيح ، لتبعده - بما تهيأت له من ضروب السرعة -^(١) عن بواعث الحزن ، قال بشر^(٢) :

ولقد أسلني الهم حنين يعودني بنجاء صادقة المواجير ذِعْلبِ
وقال طرفة بن العبد^(٣) :

واني لأمضي الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي
وقال لبید^(٤) :

وكنْتُ اذا الهمومُ مُخَضَّرَتِي وضنَّتْ خُلَّةٌ بعد الوصال
صرمتُ حبالها وصدتُ عنها بناجية تجلّ عن الكلال

ولم يقفوا بسرعة الناقاة عند هذه الاوصاف ، وانما حاولوا ان يصفوا على دواعي السرعة ، دواعي اخرى ، فاذا وصفوها بأنها رواع^(٥) ، شديدة التفرج لفرط نشاطها ومرحها ، وصفوا بأن هرا قد نيب في دفها^(٦) ، وانما يذكرون في هذا الباب السباع المنعوتة بالمخالب ، وطول الأظفار ، ويذكرون الموضع الذي يوصف بالخلب والخذش والخمش والتظفير^(٧) ، وربما خصوا الهر ، لأنهم كانوا لا يتخذونه في البوادي الا قليلا ، فكانت ابلهم لا تعرفه ،

(١) انظر ديوان علقمة/٤٢٦ (تلاحظ السوط شزرا) ، وانظر ديوان طرفة (الملقة) ، وان شئت لم تقل ، وديوان زهير/٢٤٤ (وتتبي علالة ملوي) ، وديوان الاشمي (تعاليتها بالسوط) /١٩٥،٨٣ وديوان المثقب/٦ (تعطيك مشيا حسنا) . (٢) بشر . الديوان/٣٥ . (٣) طرفة . الديوان/٣٤ . (٤) لبید . الديوان/٧٥ ، وانظر ديوان بشر/١٥٣،٥٠،١٥٨،١٦٢،١٦٨، ١٩٥،١٦٨ . (٥) وصف من الروع وهو الفزع . (٦) نيب من التنيب ، وهو المعنى بالناب . الدف : الجنب (٧) الحيوان : الجاحظ ١/٢٧٨ .

وذلك أشد لنفارها وجزعها ، قال امرؤ القيس^(١) :

بَعِيدَةٌ بَيْنَ الْمُنْكَبِينَ كَأَنَّهَا تَرَى عِنْدَ مَجْرَى الضَّفِيرِ هَرًّا مُشْجَرًا
وقال عنترة^(٢) :

وَكأنَّمَا تَنأَى بِجَانِبِ دَفْهَى الْوَحْشِيِّ مِنْ هَزَجِ الْعُثِيِّ مَوْمٌ
هَرٌ جَنِيبٌ كُلَّمَا غَطَفْتُ لَهُ غَضَبِي اتَّقَاهَا بِالْيَدَيْنِ وَبِالْقَمِ^(٣)

وقال أوس بن حجر مضيفاً إلى الهر حيوانات أخرى^(٤) :

كَأَن هَرًّا جَنِيْبًا تَحْتَ غَرْضِهَا وَاصْطَكَّ دِيكَ بِرَجْلَيْهَا وَخِزِيرٌ^(٥)
وكان تعرض الشعراء الجاهليين لصفات الناقة الجسمية متبانيا ، ومعالجتها
لها مختلفة ، ولكنهم يجمعون على مدح الضامرة ، التي تشبه برقها جفن السيف
عند لبيد^(٦) :

أَجْدُ الْمِرَافِقِ حِرَّةٌ عَيْرَانَةٌ حَرَجٌ ، كَجَفْنِ السَّيْفِ غَيْرِ سَوْمٍ
أَوْ تُشَبِّهُ بِضُمُورِهَا وَانْحِنَائِهَا ، لَكثْرَةِ مَا قَطَعَتْ مِنَ الْمَافُوزِ ، الْهَلَالِ كَمَا هِيَ
الْحَالُ عِنْدَ عَيْبِ^(٧) :

عَنْتَرِيسُ كَأَنَّهَا ذُوْ وَشُومٍ أَحْرَجْتَهُ بِالْجَوْ أَحْدَى اللَّيَالِي
ثُمَّ أَبْرَى نَحَاضَهَا فَرَاهَا ضَامِرًا بَعْدَ بَدْنِهَا كَالْهَلَالِ^(٨)

وكانوا يطلقون على الناقة الضامرة (حرفاً) تشبيهاً بحرف الجبال^(٩) ولم

(١) امرؤ القيس . الديوان/ ١٧٠، ٦٣ . (٢) عنترة: الديوان/ ٣٧٣ - ٣٧٤ . (٣) انظر ديوان الاعشى/ ٢٧ وديوان المثقب العبدى / ٣٤ والمفضليات ١٠/٢ والاصمعيات ١٨٨ .
(٤) أوس . الديوان/ ٤٢ . (٥) الغرض والغرضة واحد : وهو حزام الرجل .
(٦) لبيد . الديوان/ ١١٥ . (٧) عبيد . الديوان/ ١١١ (٨) العنتريس : الصمبة . ذو
الوشوم يريد الثور الوحشي فيه سواد وبياض . أخرجته إلى شجرة بالجوا وحبيته
نحاضها: لحمها . وأبرى نحاضها : أهزل لحمها . البدن . السن . (٩) انظر ديوان بشر
/ ١١٠، ١٣٢ وديوان زهير/ ٣٧ ، وديوان لبيد/ ٩٦ وديوان الاعشى/ ٨٣ ، ٣٣٣ ،
والمفضليات ١٢٧/١ .

تكن اوصاف السرعة التي وصفوا بها الناقة مجرد صور ساكنة وصامتة ،
وانما حاولوا ان يمنحوا هذه الصور حركات والوانا تهيء لها القدرة على
التعبير .

فالناقة في سرعتها عند المسيب بن علس ، تحرك يديها بسرعة وكأنها
تلعب الكرة ، ولعل الصورة بهذا الشكل لا زالت غير متكاملة في ذهن
الشاعر ، ولا زالت خطوطها غير واضحة في نفسه ولهذا نراه يحاول محاولة
اخرى في اكمالها ، فيقدم حركة جديدة تتمثل في تشبيه سرعة يديها
بأيدي امرأة تحوِّك ثوبا ، وقد ادركها الوقت ، فهي تهم الاسراع ، لانجازه ،
وفي هذه الصورة ينهي تخطيط صورته . ويكمل اللوحة التي سعى الى تصويرها
اذ يقول (١) :

مرحت يداها للنجاء كأنما تكرو بكفي لاعب في صاع
فعل السريعة بأذرت جدادها قبل المساء تهم بالاسراع
وحاول اوس تشبيه ناقته ، والسرعة التي تنطلق بها بالدرر التي خانها
النظام فانفطرت (٢)

كأن ونى خانت به من نظامها معاقد فارفضت بهن الطوائف
ويشبه عبيد تدفق ناقته ، وسرعة سيرها ، بتدفق المياه اذ يقول (٣) :

فالحقنا بالقوم كل دفقة مصدرة بالرحل وخباء شمال
اما الحارث بن حنظلة فيصف في معلقته ناقته ، ويصور حركتها في قلب
الصحراء وهي تثير الغبار ، فتترك طرقات خفافها فوق الرمال اثارا واضحة
تلوى بها الصحراء فيقول (٤)

(١) المسيب بن علس. الديوان (ضمن شعر الاعشين/ جابر) ٣٥٤ . (٢) اوس. الديوان/ ٦٦ .
(٣) عبيد. الديوان/ ١١٤ . (٤) ابن الانباري . شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات
٤٤١/ - ٤٤٤ .

بزفوف كأنها هفلة أ م رثال دوية سقفاء
آنتست نبأة وافزعها الة نأص عصرا وقد دنا الامساء
فترى خلفها من الرجع والوة ع منينا كأنه اهباء
وطراقا من خلفهن طراق ساقطات تلوى بها الصحراء^(١)

وفي كل هذه الصور ، تبدو مهارة الشعراء في ألتقاط المشاهد التي يحسون بها فتبلغ متنتهى الدقة في اوصاف هذه المحسوسات ، وهي تنبه حواسهم لها تنبيهاً دقيقاً .

اما وصف اعضائها فقد تعرض له الشعراء ، ويعد طرفة بن العبد في مقدمة الشعراء الجاهليين الذين عاجلوا هذا الجانب الوصفي من الناقة فخصص وصفه كله للناقة ، وقد عني بوصفها كما عني امرؤ القيس بوصف فرسه في معلقته وبالبغ كل منهما في ذكر ضخامة حيوانه الضليع المتليء العالي ، حتى استغرق وصف طرفة من معلقته اكثر من ثمانية وعشرين بيتا ، الم بها الاماما شاملا متناولا كل عضو من اعضائها ، مقارنا ذلك بما تنبأ له من الصور والتشبيهات التي وقعت تحت حسه ، ويمهد طرفة لوصفه هذا باكتمال خلق هذه الناقة ، وقوة سرعتها ، واداء مهمتها في نشاط متواصل ، لا تعرف فيه الكلال ولا الملل ، وهي مقدمة لا بد منها حتى يتمكن من الحديث عن اعضائها التي تساعدها على اداء هذه المهمة الصعبة ، فضخامة الرأس وصلابة الجمجمة ، وصفاء العيون ، وحدة نظرها وغوورها في مكان امين ، والحد الابيض الذي لا شعر فيه ، والأذنان الحادتا السمع ، اللتان تحس بهما كل

(١) الزفوف : الناقة المسرعة الخفيفة . والزنيف : عدو النعام اذا اسرع . الهفلة : النعامة . الرثال : فراخ النعام . الدوية : منسوبة الى الدو ، وهو الارض الواسعة ، البعيدة الاطراف . السقفاء : النعامة التي في رجلها انحاء . النبأة : الصوت الخفي . المنين : الغبار الدقيق الذي تثيره بقوائمها . الاهباء : اثارها الهباء والهباء : الغبار الذي كأنه دخان . الطراق : مطارقة نعال الابل ، وساقطات : قد سقطت من ارجلها ، فالطراق تؤدي بها الصحراء ، اى تبيل هذه النعال فتسقط .

صوت خفي ، والعنقون الذي يخالط بياضه حمرة ، والمشفر الطويل الزين الذي لا يعرج في تقطيع النبات ، والعنق المشرف الطويل ، المتصل بفقر الظهر ، وظهرها الموثق الصلب ، وضلوعها المنحنية ، والفخذان الكاملان الخلق ، المكتنزا اللحم ، واليد المفتولة ، والمرفقان المتباعدان ، والذنب القوي الذي تدفع به كل اذى ، كل ذلك مذكور في المعلقة^(١) .

هذه الصفات التي لم يترك فيها طرفة عضوا من اعضاء ناقته الا وقف عنده ، تعتبر اجمع لوحة شعرية عرفها الشعر الجاهلي ، صور فيها ما وقع من اعضاء ناقته تحت بصره ، متخذنا من بعض الصور الخارجية الحسية أو المادية اوجه شبه للمقارنة .

ويتضح من اوصاف طرفة انه لم يراع ترتيبا ما في منحنا صورة الناقة فقد وصف الوجنات اولا ، ثم وصف الذيل ، ثم الفخذين ثم الأضلاع ، ثم المرفقين ثم العنقون ، ثم اليدين ، ثم الجمجمة ثم العيون ، والذي يبدو من هذه الأوصاف انه رسم ما جذب نظره من جسدها اينما كان موضعه ، فكان ينتقل بين انحاء الجسد دون ترتيب وذلك امر يختلف عن صورة الرسام ، فانه لا بد ان يتبع ترتيبا متناسقا لرسم الصورة ، فلا يستطيع ان يقفز من الوجنات الى الذيل كما فعل طرفة وكما يتضح لنا من خلال اوصافه انه لم يكن وصفا مجردا ، وانما هو وصف محب مولع بكل دقيقة من دقائقها وعضو من أعضائها . وكأنه يريد ان يصنع من هذا الوصف تمثالا يحفره حفرا في اذهان العرب ، الذين كانوا يعجبون بنوقهم اعجابا لا حد له . ففصل جمال بنائها ، ورشاقتها ، وكان يرسم من خلال هذه الأوصاف ايضا الطريق الذي كانت تسير فيه هذه الناقة ، والآثار التي تركها فوق رماله . وفي هذه الالتفاتة تبرز قدرة طرفة على الوصف ، تتجلى مهارته على اختيار اللفظ وتظهر

(١) انظر معلقة طرفة في شرح القصائد السبع الطوال لابن الانباري/ ١٤٩ - ١٧١ .

نزعته التصويرية في رسم التعاريج والخطوط والآثار التي تبدو كالكساء المخطط^(١) ثم يكرر طريقة وصف الطريق وحركة ناقته ، وكيف كانت تسابق العتاق الناجيات في سيرها وان رجليها كانتا تتبعان يديها في انتظام رائع فوق طريق موطأ مستو ، لا يعوق السير فيه عائق^(٢) . ثم يعكف طريقة على وصف اعضاء هذه الناقة ، فيلح في وصفها الخاها يبرز فيه ضخامة هذه الأعضاء وحسنها^(٣) ثم يختم هذا الوصف ؛ كما بدأه بصورة تتجمع فيها الحركة ، وتتمثل في عناصرها البراعة والتدرج من تصوير الهيئة الى تصوير الحركة^(٤) .

اما الشعراء الآخرون ، فكانوا يقفون عند بعض اعضاءها وقوفا قليلا ، ثم ينتقلون الى الاوصاف الاخرى . فبشامة بن الغدير يشبه عيونها بعيون مفيض القداح الذي يقلب اقداح الميسر ، ويدفعها ليظهر الرابع مشيرا الى حدة نظرها ويقظتها وحذرهما ، يقول^(٥) :

بعين كعين مفيض القداح اذا ما اراغ يريد الحويلا
ويشبه زهير غوور اعين الابل من سير الليل ، بأبار نضب ماؤها ،
يقول^(٦) :

وكأن اعينهن من طول السرى قلب نواكز ماوهن منضب
اما علقمة فيشبه عيون الابل - بعد ان انصاها واجهداها التعب بقوارير
نضب منها الطيب ، يقول^(٧) :

وعيس بريناها كأن عيونها قوارير في اذهانهم نضوب
واشار بعض الشعراء الى طول عنقها ، فشبهوه بالشرع^(٨) ، ووقف

(١) انظر شرح القصائد السبع الطوال/١٥١-١٥٣ وانظر الدكتور شوقي ضيف ، العصر الجاهلي/٢٢٣ . (٢) انظر شرح القصائد السبع الطوال/١٥٣ وكتاب الشوامخ لمحمد صبري/١٠٢ (٣) نفس المصدر/١٥٩-١٦٨ (٤) نفس المصدر/١٧٩-١٨٠ (٥) المفصل . المفصليات ٥٥/١ (٦) زهير . الديوان/٣٧١ . (٧) المفصل . المفصليات ١٩٢/٢ . (٨) انظر المفصليات ١/٦٠/٢١٩١ .

بعض الشعراء عند يديها ولينها وقوتها وسهولتها ، فشبه بشامة ناقتة وقت كالل غيرها من الابل ، بسابح كاد يغرق ، فهو اشد لتحريك يديه مخافة على نفسه^(١) :

كأن يديها اذا ارقلت وقد جرن ثم اهتدين السبيلا
يدا عائم خر في غمرة قد ادركه الموت الا قليلا
وشبهها ثافية بيدي ساق اصم لا يسمع ما يشغل به عن استقائه من البر
جلده^(٢) :

ويدي اصم مبادر نهلا قلقت محالته من النزاع
والشاعر في الصورتين يقدم لنا تعليلا للحركة ، وتفسيرا لدوامها ، فالغريق لا يسلم للموت بسهولة ، فهو يحاول النجاة ، وهذا العمل يكلفه مشقة وعناء والأصم لا يسمع الصباح من حوله ، فهو جاد في الاستقاء ، دائم الحركة فيه ، وهاتان الصورتان تدلان على قدرة الشاعر على ابتكار الصور المتحركة ، ويكاد علقمة يتفق في تشبيهه مع بشامة عندما يشابه ذراعي ناقتة - بعد الاغياء والكلال - بذراعي رجل قد تجرد من ثيابه ، أو شمر عنها ليستقي حينما يقول^(٣) :

كأن ذراعها على الخل بعدما ونين ذراعها مانع متجرد
ويصور المثقب العبيدي صوت قائمي ناقتة الاماميتين ، وهي ترجع بهما الى وسط بطنها في مسيرها بنواح ابنة الجون^(٤) ، على هالك عزيز تبكيه . يقول^(٥) :

كأنما اوب يديها الى حيزومها فوق حصي القدفد

(١) المفضل . المفضليات ٥٦/١ - ٥٧ . (٢) المفضل . المفضليات ٢٠٨/٢ وديوان الاعشى ٨٣/ (٣) علقمة . الديوان/ ١٤٠ . (٤) ابنة الجون: امرأة من كندة عرفت بشدة النواح . (٥) المثقب العبيدي . الديوان/ ٨ .

نوح ابنة الجون على هالك تنديه رافعة المجلد^(١)

وكما وقف الشعراء عند يدي رواحلهم ، وقفوا عند تصوير ضلوعها ففتحوها بمجفرة الضلوع ، وهو مستحب من خلقها كما وصفها ثعلبة بن صعير^(٢) ووصفوها بالعوج المتناطحة يريدون بذلك ان اضلاعها قوية متداخلة تدل على ان عظامها ضخمة ، كما اشار بشامة بن العدير^(٣) ، ولم يترك الشعراء اثر النسوع وهي تحز جنبها ، فشبهوه بآثار الحبال في البئر^(٤) ، وصور بشر صرير النسوع وهي تحز جوانبها بصرير القناة المشوية على النار ، عند تسويتها في الثفاف^(٥) ، ويسمع الاعشى لسيور الرحل حين تحز في هيكلها الضخم صوتا كأنه صوت الرماح في يد من يلينها^(٦) ويثقفها^(٧) . اما سنامها فقد تعرضوا له باعتبارها ابرز عضو يقع عليه النظر فشبهوه بالآكام^(٨) ، وبالضريح المرتفع^(٩) والغرى المجسد^(١٠) ، والجبل^(١١) ، والقبعة^(١٢) ، واكمة الرمل^(١٣) وحافة كبير الحداد^(١٤) .

ويشبه جنبها في انتفاجهما بالقنطرة^(١٥) ، وآثار بروكها بموقع القطا^(١٦) وقوائمها بالعسيب^(١٧) ، وذنبها في كثرة فروعه وغزارة شعره بعناقيد النخل المرطبة^(١٨) .

وبشبه عمرو بن كلثوم ذراعي امرأته بلذراعي الناقة الطويلة يقول^(١٩) :

(١) المجلد : جلد كانت تأخذه النائمة فتضرب به صدرها . (٢) انظر المفضليات ١٢٧/١ وديوان بشر/ ١٥٨ (٣) انظر المفضليات ٥٦/١ (٤) انظر ديوان زهير/ ٣٣١ وديوان الاعشى/ ٤٧ (٥) انظر ديوان بشر/ ١٤٥ ، ١٦٢ . (٦) انظر ديوان الاعشى/ ١٩٥ وانظر الصفحات/ ٧ ، ١٠٥ (٧) انظر ديوان ابي دود/ ٣٣٩ بشر . الديوان ٥٥/ (٨) انظر الاصميات/ ١٩٥ (٩) انظر ديوان اوس/ ٣٨ . انظر المفضليات ٦٠/١ (١٠) انظر المفضليات ٣٠/٢ (١١) انظر المفضليات ١٩٨/٢ (١٢) انظر المفضليات ٥٩/١ (١٣) انظر ديوان بشر/ ١٤٦ (١٤) انظر المفضليات ١٧/١ (١٥) انظر ديوان زهير/ ٢٢٤ وديوان الاعشى/ ١٠٥ ، ١١٩ (١٦) ابن الانباري : شرح القصائد السبع/ ٣٧٧

تركك اذا دخلت على خلاء وقد امنت عيون الكاشحين
ذراعي عطل ادماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا
واشار الشعراء الى صوت الحصى ، وتطاييره تحت اقدامها في حديثهم
عن سرعتها ، من مثل قول طرفة^(١) :

فترى المرو اذا ما هجرت عن يديها كالفراش المشفرت
وشبه المثقب العبدى مشيها في باطن الوادى ، واصطدام وظيفها بالحصى
الغليظ بالتعزاف المرن^(٢) :

لا يرفع السوط لها راكب اذا المهارى خودت في اليد
تسمع تعزافا له رنة في باطن الوادى وفي القردد
ويشبه المسيب بن علس هذا الصوت المتناوب بالدوى المرتفع يقول^(٣) :
واذا تعاورت الحصى اخفافها دوى نواديه بظهر القناع
ويعود المثقب الى هذا الصوت ثانية ، وقد اجهد نفسه فيسمعه وقد ابح
من الرنين^(٤) .

ويقرن ما يتطايير من الحصى ، بما يتطايير من الرحي عند رضخها النوى^(٥)
ووقف الشعراء عند صلابة الاخفاف وقوتها وشدها^(٦) فشبهوها بالمطارق^(٧)
وتطرق بعض الشعراء الى الصفات الداخلية للناق ، فوصفوا شدة فؤادها ،
وقوة نبضه ، وجدته وخفقانه .

قال المسيب بن علس يصف ذلك^(٨) :

(١) طرفة . الديوان/٧٦ (٢) المثقب . الديوان/٩ (٣) المفضل . المفضليات ٦/١
(٤) انظر ديوان المثقب/٣٦ (٥) انظر الأسميات/١٨٨ (٦) انظر ديوان الامشى
٢١١/ ، ٢٤١ ، ٣١٧ (٧) انظر المفضليات ١٣١/١ وانظر المفضليات ١/١١٥
(٨) المفضل . المفضليات ٦٠/١

واذا اطلقت بها اطلقت بكلكل نبض الفوائض مجفر الاضلاع
وقال علقمة^(١) :

الى الحارث الوهاب اعملت ناقتي بكلكلها والقصرين وجيب
ويصف المثقب العبدى زفيرها الذي يملأ جوفها فيقطع النسع يقول^(٢) :
يخمد تنفس الصعداء منها قوى النسع المحرم ذي المتون
اما احاسيس حيواناتهم ، فلا تختلف عما يحسون به من الحنين وهم
يذكرون اجبتهم ، ويحنون الى مرايعهم وقد حملهم ذلك على - وضع الكتب
في حنين الابل الى - الاوطان ، وكان ما تصدره هذه الحيوانات من اصوات ،
تثير في نفوسهم البكاء ، قال سبيع بن الخطيم يذكر حنين ابله ، ويشبهه
بالقصب المجوف الذي تمسكه ايدي الزامر^(٣) :

اما ترى ابلي كأن صدورها قصب بأيدي الزامر مجوف
ويشبه علقمة صوتها وهي تحن ، بدف مخروق ، فهو ابح الصوت يقول^(٤)
تتبع جوتا اذا ما هيجت زجلت كأن دفا على علباء مهزوم
وكانوا يعرضون من خلال احاديثهم عن السرعة الى ذكر ضمور هذه
الخيول^(٥) فيشبهونها بصدر القنا^(٦) ، والجدى^(٧) ، وسوار الملوكة ، زيادة في
الضمور^(٨) وهي صورة طريفة يقدمها ابو دواد حين يقول^(٩) :
غدوننا به كسوار الملو ك مضطرا حالباه اضطمارا

(١) علقمة . الديوان/ ٢٠٤ (الاعلم) (٢) المثقب . الديوان/ ٣٦ . (٣) المفصل .
المفصليات ١٧٢/٢ . (٤) علقمة . الديوان/ ٣١ (مختار الاعلم) (٥) انظر ديوان
النايفة/ ٢٠١ وديوان بشر/ ٣٩ ، ١٨٩ ، وديوان الاعشى/ ٣٧ ، ٣٤١ . (٦) انظر ديوان
الطفيل/ ٤ وديوان الاعشى/ ١٩٣ . (٧) انظر المفصليات ١٣٧/٢ والاصميتات ٢١٨/
(٨) لأن المرأة الملوكة تكثر من لبس السوار ، وهي تلبسه وتبرزه ، وفي هذه الحالة يصبح
ارق من غيره من الاسورة . (٩) ابو دواد . الديوان/ ٣٥٢ .

ويشبهونها أيضا بالسعفة المشدبة^(١) ، وغصن البان في الاعتدال وصفاء اللون^(٢) وجذع النخلة^(٣) ، وقضب الشوحط^(٤) .

وكانوا يعللون الضمور بكثرة الجري وراء القنيص ، قال ابو ذؤاد^(٥) :

طواه القنيص وتعداؤه وارشاش عطفه حتى شسب^(٦)

والظاهر من النماذج الكثيرة ، ان الشعراء كانوا يحرصون على وصف افراسهم بهذا الوصف . ويصرون على التشذيب ، مشيرين في ذلك الى أن الافراس قصيرة الشعر منجردة^(٧) ، باعتبارها من الخيل العتاق ، اضافة الى ان الجلدع اذا شذب ، تبين طوله وهذا بالذات . كان الشاعر يحرص على تقديمه ، وكذلك ذكروا الاعراف الطويلة ، باعتبارها جزء من الاعناق^(٨) ووصفوا الذراع^(٩) ، وصلابته وتثنيه^(١٠) والقوائم وقوتها وشدها^(١١) وطولها^(١٢) الذي شبهه علقمة باعناق الضياع في الغلظ والقوة^(١٣) ، وعمقاع رقباء لاعبي الميسر^(١٤) ووصفوا الرسغ . وشبهوه بالحبل المفتول^(١٥) . واعناق الضياع^(١٦) ووصفوا المرفق^(١٧) ، والمنكب^(١٨) .

اما الخيول فكانوا يشبهونها بالذئب في السرعة والخفة والنشاط والاندفاع ويضيف بعض الشعراء الذئب الى الغضا . لأن ذئاب الغضا اخبث واقتك .

-
- (١) انظر المفضليات ٤٢/٢ (٢) انظر ديوان امرئ القيس/ ١٧٣ (٣) انظر ديوان الاعشى/ ٢١ ، ٣٩ ، ٢٨٥ ، والمفضليات ١٠٤/١ (٤) انظر ديوان الاعشى/ ٩ (٥) ابو ذؤاد . الديوان/ ٢٩١ (٦) ارشاش عطفه : تعريفه اياه حتى ضم . شسب : ضم ونحف (٧) انظر ديوان عبيد/ ١٠٢ ، ١١٧ وديوان الطفيل/ ٥ وديوان عامر بن الطفيل/ ٢٧ ، ١٠٢ وديوان الاعشى/ ١٨٧ والمفضليات ٤٠/١ ، ٦٣ (٨) انظر ديوان امرئ القيس/ ٢١ (٩) انظر ديوان ابي ذؤاد/ ٢٩٢ (١٠) نفس المصدر/ ٢٩٥ (١١) نفس المصدر/ ٢٩٥ وانظر ديوان الاعشى/ ٣٤٩ (١٢) انظر ديوان ابي ذؤاد/ ٢٩٩ وديوان الاعشى/ ٣٤٩ (١٣) انظر ديوان ابي ذؤاد/ ٢٩٩ وديوان الاعشى/ ٣٤٩ (١٤) انظر ديوان علقمة/ ٤٣٧ (١٥) انظر ديوان ابي ذؤاد/ ٣٠٧ (١٦) انظر المفضليات ٢١٤/٢ (١٧) انظر ديوان ابي ذؤاد/ ٢٨٤ (١٨) انظر ديوان ابي ذؤاد/ ٢٨٩ .

واكثر اندفاعا وانكر . قال الطفيل الغنوي^(١)

وفينا رباط الخيل كل مطهم رحيل كسرحان الغضا المتأوب

ويزيد طرفة ايضاها آخر على صورة الذئب ، فيشبه فرسه بذئب الغضا الذي هيجه انسان ، وهو ذاهب لورود الماء ، وعند ذلك يكون في هذه الحالة اكثر اندفاعا . يقول^(٢) :

وكرّني إذا نادى المضافُ مُحَنَّبًا كَسَيْدِ الْغَصَا نَبَّهَتْهُ الْمُتَوَرِّدِ

وتشبه الخيل السريعة الخفيفة بالخيفانة (الجرادة)^(٣) . وكذلك شبهت غاراتها بغارة الجراد ، وجماعات الطير في الكثرة والانتشار والسرعة وشدة الطيران^(٤) . وشبه تتابعها وصلابتها وكثرتها بتتابع الثمر المنثور من الجراب^(٥) وشبهوها بالعقاب الذي يطارد قطعان بقر الوحش . سعيًا لاطعام صغاره الضعاف بعد ان خلفهم في العش^(٦) ، وتشبه بظل العقاب زيادة في السرعة^(٧) وكذلك شبهت بالباز^(٨) والصقر^(٩) والحداء^(١٠)

وفي كل هذه الصور تبرز قوة الفرس وشدته وانقضاضه وهو ما كان الشعراء يسعون اليه من هذه التشبيهات ، ولا سيما في حالة الصيد ، لأن الحيوان في هذه الحالة اضرى من غيره من البيزان والصقور والعقبان .

-
- (١) الطفيل . الديوان/ ٥ وانظر الصفحات / ٢١ ، ٢٣ ، ٣٣ من الديوان نفسه وانظر ديوان مبد/ ٥ ، وديوان امرى القيس/ ٦٧ وديوان عامر بن الطفيل/ ١٣٠ والاصمعيات/ ١١٥
(٢) طرفة . الديوان/ ٣١٧ (الاعام) (٣) انظر ديوان امرى القيس/ ١٦٣ ، ١٦٦ وديوان بشر/ ٧٤ (٤) انظر ديوان امرى القيس/ ١٢١ وانظر/ ١٩٣ من الديوان نفسه وانظر ديوان الطفيل/ ٩ ، ٢٢ ، ٣٣ وديوان طرفة/ ٨٥ وديوان النابغة/ ١٥٢ والمفضليات/ ١٠٦/١ .
(٥) انظر ديوان الاعشى/ ٣٧ والمثاني الكبير لابن قتيبة/ ١ ، ٥٢ ، ٥٣ (٦) انظر ديوان امرى القيس/ ٣٨ وديوان الاعشى/ ٢٩ والمفضليات/ ١ ، ٣٥ (٧) انظر ديوان بشر/ ١٨٩
(٨) انظر ديوان امرى القيس/ ١٧٣ والاصمعيات/ ١٥٨ (٩) انظر ديوان ليلى/ ١٨٨ والمفضليات/ ٢ ، ٥٦ والاغاني/ ١٠ ، ٣٩ (دار الكتب) (١٠) انظر ديوان النابغة/ ٢٠٤ (الاعلم) وديوان عامر بن الطفيل ٥٦

وكانت النعامة - كما اسلفنا - طرفا آخر من تشبيهاتهم لحيولهم ^(١) وكانوا
يؤكدون كون النعام مذعورا ، أو راعه خطب ، لأن ذلك ادعى للسرعة ^(٢)
وشبهوها بالوعل والظبي ^(٣) والطير ^(٤) والرشاء ^(٥) والسهم ^(٦) والخلدوف ^(٧).

اما وصف اعضائها ، فقد دققوا فيه ، فوقفوا عند كل عضو من اعضائها
مشيرين الى الصفة المحدودة فيه ، مقارنين ذلك بما وقع تحت انظارهم من
الصور . فشبها اعناقها بجمد النخلة ^(٨) ولم يكن تشبيههم للفرس بالنخلة
مكتملة فحسب ، وانما شبها بكل جزء منها ، فشبها بساقها ^(٩) وبجريدها
المشبب ^(١٠) وبشوكتها في الدقة ^(١١) . ووصفوا نواحيها وجباهها ^(١٢) ، ووصفوا
عيونها بالاكتماز والصلابة والضخامة ^(١٣) ، وشبها غورها بالنقر التي يجتمع
فيها الماء في الجبل ^(١٤) . اما صفاؤها فشبهه امرؤ القيس بمرآة الصنّاع ، لانها
ابدا مجلوة نظيفة ^(١٥) . وعرضوا لحدة نظرها ^(١٦) وشبه عترة شخوص عيني
فرسه وتعلقهما في وجه الاعداء ، خشية ان يصيبه مكروه او يلحق به سوء
بعين الاحول ^(١٧) ، ووصفوا آذانها ونعتوها بصدق السمع وشدته ^(١٨) ،

-
- (١) انظر ديوان امرئ القيس / ٢٣٣ وانظر ديوان ابي دواد / ٣٢٢ وديوان زهير / ٢٠٤
وديوان النابغة / ١٦٤ وديوان النابغة / ١٦٤ وديوان ليبيد / ١٣٤ والمفضليات / ٢ / ٢٠٧
(٢) انظر ديوان ابي دواد / ٢٨٤ ، ٣٤٢ وديوان الاعشى / ٣٤٩ . (٣) انظر
المعاني الكبير لابن قتيبة ٤٠ / ١ والمفضليات ٩٧ / ٢ (٤) انظر ديوان النابغة / ١٥٢
(٥) انظر المفضليات ٢ / ٤٣ (٦) انظر ديوان عبيد بن الابرص / ١٠٩ وديوان
الاعشى / ٣٤١ (٧) انظر ديوان امرئ القيس / ٥١٤٢١ (٨) انظر ديوان امرئ
القيس / ٤٨ وديوان ابي دواد / ٣٢٨ ، ٢٩٢ ، ٢٨٥ وديوان عترة / ٣٩١ (الاعلم) وديوان
الطفيل / ٢١٠٧٥ وديوان الاعشى / ٢١ والمفضليات ١٢٠ / ١ (٩) انظر ديوان عامر بن
الطفيل / ١٢ (١٠) انظر ديوان عامر / ٢٧ (١١) انظر ديوان علقمة / ٧٥
(١٢) انظر ديوان امرئ القيس / ١٦٣ - ١٦٥ وديوان عبيد / ١٧ والمفضليات ١ / ١١٩
(١٣) انظر ديوان امرئ القيس / ١٦٦ (١٤) انظر ديوان المزرد / ٣٨
(١٥) انظر ديوان امرئ القيس / ٤٨ (١٦) انظر ديوان ابي دواد / ٢٨٨ و٢٨٩ والاصمعيات
٣٣ / (١٧) انظر ديوان عترة / ٣٩٢ (١٨) انظر ديوان ابي دواد / ٣٠٧ وديوان علقمة
٤٣٧ / والمفضليات ٣٨١ / ٣٨٧

وشبهوا مناخرها بوجار الضباع لستهما^(١) ، وعرضوا لوصف خدها واستوائه وقلة لحم وجهها^(٢) .

واستحبوا من الخيل الطويلة العنق ، ولهذا كانت صور المشبه به كلها تمتاز بهذه الصفات ، فشبهوها بجذع النخلة المشدبة كما قال ابو دؤاد^(٣) :

وهادٍ تَقْدَمَ لَا عَيْبَ فِيهِ كَالْجَذْعِ شُدْبَ عَنْهُ الْكَرْبِ

او الجذع الذي ما زال فيه الشدب باقيا كما قال ايضا^(٤) :

كَأَنَّ هَادِيَهُ جَذْعٌ بُرَايَتُهُ مِنْ نَحْلٍ مِذْوَدٍ فِي بَاقٍ مِنَ الشَّدْبِ

ووقفوا عند حوافرها وقفة طويلة ، فشبهوها بالقعب الذي يتخذ القار فيه مغارا كما قال عوف بن عطية^(٥) :

لَهَا حَافِرٌ مِثْلُ قَعْبِ الْوَلِيدِ يَتَخَذُ الْقَارَ فِيهِ مَغَارًا^(٦)

او هي من القوة بحيث تكسر الارض ، وتفتت الصخور ، وتؤثر في الاماكن المرتفعة الغليظة كما نعتها طرفة^(٧) ، وهي لثقلها تشبه مكاييل الزيت كما نعتها ابو دؤاد في قوله^(٨) :

وَنَسُورٌ كَأَنَّهُنَّ أَوَاقٌ مِنْ حَدِيدٍ يَشْقَى بَيْنَ الرَضِيمِ

وهي صلبة كالبحر^(٩) ، بل هي كالمعاول^(١٠) ، اذا وقعت على الارض ، ودخلت فيها . وشبهت صلابتها وملاستها بحجارة ماء قد علاها الطحلب ،

(١) انظر ديوان امرئ القيس / ١٦٥ وديوان ابي دؤاد / ٣٤٣ وديوان عنترة / ٣٩١ (٢) انظر ديوان ابي دؤاد / ٢٨٨ - ٢٨٩ وديوان الطفيل الغنوي / ٣٣ وديوان الاعشى / ٢٨٥
(٣) ابو دؤاد . الديوان / ٢٩٢ وانظر / ٣٢٨ من الديوان ايضا . وانظر ديوان عبيد / ١٢٣ وديوان امرئ القيس / ٤٨ وديوان عنترة / ٣٩١ وديوان طرفة / ٨٣ وديوان الطفيل / ٥ و٦ و٢١ وشرح اشعار الهذليين / ١١١٧ / ٣ وديوان عامر بن الطفيل / ٢٧ و١٠٢ وديوان الاعشى / ٢١ والمفضليات / ١٢٠ / ١ . (٤) ابو دؤاد . الديوان / ٢٨٥ . (٥) المفضل . المفضليات / ٢١٤ / ٢ . (٦) القعب : القدح الصغير . (٧) انظر ديوان طرفة / ١٣٦ . (٨) ابو دؤاد . الديوان / ٣٤٣ (٩) انظر ديوان عنترة / ٣٩٢ (١٠) انظر ديوان طرفة / ٨٣ .

فاصفرت وصلبت^(١) ، وبلغت شدتها مبلغا يجعلها تخرج القثران من مكانها لما تسمعه من صلابتها وقوتها^(٢) . وكانوا يقرنون بين وصف الحوافر بالشدة وبين قوة وطئها الارض ، ووهصها الحصى ، فشبهوا الغبار الذي تثيره هذه الحوافر وهي تدق الحصى ، بغبار قطن النوافد ، او الدخان الابيض المتصاعد من شجر التنضب^(٣) . او ذرى البرد المتحلب^(٤) ، وكانوا يلونون الغبار في بعض الاحيان بالضهبة^(٥) . ووصفوا الكتف ، وشبهوه بالقتب لارتفاعه^(٦) وعرضوا لوصف ظهرها^(٧) ، واستحبوا فيه الملاسة بحيث يشبه الزحلو^(٨) وشبهوا اللبد اذا زل عنه بالذي يزل عن الصخرة المساء^(٩) ، كما شبهوه بظهر الابل^(١٠) ، وتحدثوا عن فقار هذا الظهر واشرافها^(١١) ، وذكروا القطة^(١٢) وشبهوها بالبكرة^(١٣) ووصفوا جوانبها وشبهوها بالقдах المبرية في صلابتها ودقتها^(١٤) .

ومدحوا انتفاخ جنبها ، وخرجوا من هذه الصورة الى صور اخرى ، فاذا وثبت قطع الحزام لسعة هذا الانتفاخ ، او قطع حلق الرحالة اذا عدا^(١٥) واستحبوا ما كان من الخيل عريض الجانب ، منحني الضلوع ، واسع الجفرة^(١٦) ووصفوا عجزها ، وشبهوه بالصخرة التي جرى عليها السيل فأذهب ما كان عليها من الغبار^(١٧) ، وكما عرضوا لوصف ذنب الناقة ، عرضوا لوصف

(١) انظر ديوان امرى القيس/٤٧ وديوان عنترة/٣٩٢ وديوان النابغة/٢١١ وشرح اشعار المهذلين ١١١٧/٣ (٢) انظر ديوان امرى القيس/٥١ (٣) انظر ديوان الطفيل/٨ و ٩ وديوان بشر/١٧٩ (٤) انظر ديوان الطفيل/٩ (٥) انظر ديوان الطفيل/٢ وانظر ديوان بشر/٧٤ . (٦) انظر ديوان ابي دؤاد/٣٢٢ وديوان ليبد/١٨٧ (٧) انظر ديوان ابي دؤاد/٢٨٨ و ٢٩٥ وديوان امرى القيس/١٦٤ (٨) انظر ديوان علقمة/٤٣٧ وديوان الطفيل/٨ (٩) انظر ديوان امرى القيس/٢٠ وديوان اوس / ٦٦ (١٠) انظر ديوان عنترة/٣٩٢ (١١) انظر المفضليات/٢١٤ (١٢) القطة : مقعد الردف . (١٣) انظر ديوان امرى القيس/٤٩ وانظر ديوان علقمة/٤٣٧ . (١٤) انظر ديوان المزرد/٣٩ . (١٥) انظر ديوان بشر/١٨٨ وديوان ليبد/٢٢ (١٦) انظر ديوان ابي دؤاد/٢٨٩ ، ٣٠٤ ، ٣١٨ وديوان الطفيل/٥ (١٧) انظر ديوان امرى القيس/١٦٤ .

ذنب الفرس ، وان كانت الصور متشابهة - الى حد ما - فشبّه عنترة ذنب ،
الفرس ، وان كانت الصور متشابهة - إلى حد ما - فشبّه عنترة ذنب
فرسه ، وكثرة الشعر المحيط به يرداء الغني الثري^(١) وشبه امرؤ القيس ذيل
فرسه وغزارته بشماريخ نخل مرطب من نخل بُرّ سميحة بالمدينة^(٢) ، وعرضوا
لطوله وامتداده^(٣) ، وشبهوه بذيل العروس^(٤) ، وذيل الهدى^(٥) .. اما
ضخامته وعلوه فقد اكثّر الشعراء من ذكرهما ، فشبهوا الفرس الضخم
بالبنتاء العالي الذي يتعدّد فيه^(٦) ، وشبهها ابو داود بالثور الوحشي النشيط
لقوتها^(٧) ، وشبه امرؤ القيس فرسه لقوته ونشاطه بتيس الربل^(٨) .

ولم ينس الشعراء ان يشبهوا الثور بالكوكب المنقّص في سرعته ولمعانه
وبياضه وهو يخرج من المعركة عزيزا ظافرا^(٩) . اما وصف اعضاء هذا
الحيوان فكانت تأتي من خلال اوصافهم العامة عنه ، فشبهوا رأسه باللدن
لكبره^(١٠) ، والقرون بالسفود الذي يشوى عليه القوم^(١١) . وكان الخسد
يوصف بالسواد المشرب بالحمرة ليمنحه حسنا ويكسوه رونقا^(١٢) . وكانوا
يلحون في ذكر اوصاف الضمور والمزال والجوع^(١٣) .

اما الاظلاف فقد شبهوها بالصدف^(١٤) ، والصخرة الصلدة^(١٥) .

-
- (١) انظر ديوان عنترة / ٣٩٣ (٢) انظر ديوان امرؤ القيس / ٤٨ ويستعمل التقليل
الصورة نفسها في ديوانه / ٨ (٣) انظر ديوان امرؤ القيس / ١٦٦ (٤) انظر ديوان
امرؤ القيس / ١٦٤ (٥) انظر المعاني الكبير لابن قتيبة / ١٤٩ (٦) انظر ديوان
عنترة / ٣٩١ (٧) انظر ديوان ابي دؤاد / ٣١٧ وديوان الاعشى / ١٢١ (٨) انظر
ديوان امرؤ القيس / ٥٤٨ وديوان الطفيل / ١٢ وديوان الاعشى / ٣٣٥ والمفصليات / ٩٧/٢
و ١٦٧ (٩) انظر ديوان عبيد / ٤٤ وديوان اوس / ٣ وديوان بشر / ١٣١
و ديوان الاعشى / ٣٦٣ (١٠) انظر ديوان اوس / ٧٣ (١١) انظر ديوان النابغة / ١٥١
(١٢) انظر ديوان الاعشى / ٢٩٥ و ٢٦١ وديوان المثقب / ١٠ (١٣) انظر ديوان
عبيد / ٤٤ وادب القيس / ١٠١ وديوان الاعشى / ٢٧٩ ، ٢٩٥ (١٤) انظر ديوان
بشر / ١٠٢ وديوانه / ٣٢٥ (١٥) انظر ديوان امرؤ القيس / ٧٦ .

اما النساء فقد جعلهن الشعراء شبيهات بقطيع من بقر الوحش^(١) ، وشبه امرؤ القيس بقر الوحش في مشيتها وبياضها وبريقها بالعذارى وهن يرفلن في الملاحف الطويلة^(٢) وتشبه عيون العذارى بعيون البقر الوحشي في الجمال والسعة وشدة البياض والسواد^(٣) ، وشبهوا كشح المرأة بكشح البقر الوحشي في طيه واستوائه^(٤) . ووردت اوصاف للقرون ، فشبهت بالرماح الطويلة^(٥) وبالمفتاحين الصغيرين اللذين تباعد ما بينهما واقترج^(٦) .

وربما يتفق الشعراء في تأكيدهم اللون الأبيض ، او البياض المشوب بالسواد في حديثهم عنها ، ولهذا كانوا يختارون صور المشبه به من الصور التي يكون فيها هذا اللون واضحا وبارزا ، فشبهوهن بالسيف في بريقهن وبياضهن وحسنتهن^(٧) ، والنجوم^(٨) ، وبقعد اللؤلؤ اذا انقطع سلكه^(٩) ، والشيب الذي لاح في الشعر الاسود^(١٠) ، والجزع في بريقه وما فيه من البياض والسواد^(١١) .

اما الاشجار والنبات والازهار فكانت طرفا آخر في مجالات التشبيهات التي شبه بها الشعراء ، فالتخذوا من النخل الذي حان جزاره او النخل الرديء صورة كنوا بها عن الرجل الضعيف^(١٢) ، وشبهوا شعر المرأة في طوله وتداخله وغزازه بشماريخ النخلة^(١٣) ، كما شبهوا اجساد القتلى بمجنوح النخيل^(١٤) ، وشبهوا كرم المدوح بنوع من النخيل يأتي بمحصول وفير^(١٥) .

ووجد الشعراء في صورة الثمر وهو ينثر من جراب جامعه ، صورة

(١) انظر ديوان الطفيل/ ٢٤ وديوان لبيد/ ١٢١ وديوان الاعشى/ ١٧١ (٢) انظر ديوان امرؤ القيس/ ٢٢ (٣) انظر ديوان امرؤ القيس/ ١٦ وديوان عبيد/ ١٣٤ وديوان طرفه/ ٦٩ (٤) انظر ديوان طرفه/ ٦٩ (٥) انظر المفضليات/ ٢٠٥ (٦) انظر ديوان الاعشى/ ٢٠٩ (٧) انظر المفضليات/ ١٧٣ (٨) انظر ديوان بشر/ ٦٥ (٩) انظر ديوان الاعشى/ ٣٩ (١٠) انظر ديوان بشر/ ١١٠ والاسميات/ ٥٧ (١١) انظر ديوان امرؤ القيس/ ٢٢ و ١٧٤ (١٢) انظر ديوان طرفه/ ١٥٠ (١٣) انظر ديوان امرؤ القيس/ ١٦ و ٣٢ (١٤) انظر ديوان اوس/ ٣٠ (١٥) انظر ديوان عبيد/ ٤٥ .

سريعة ومتحركة وحية ، فقابلوها بصورة الخيل ، وهي تخرج من خلال غبار المعارك سريعة مضطربة^(١) .

ولصلابة بعض الاشجار شبهوا بها ضلوع الناقة^(٢) ، ولاستواء وطول البعض الآخر شبهوا به الجوارى الحسنان ، والغايات الناعمات^(٣) . اما شجر العندم ، الذي يصبغ به ، فقد شبهت به الحمرة^(٤) ، وشبه به الدم وعصارة القرصاد لحمرتها^(٥) . وبشجر العنصرس شبهت عيون الكلاب وهي مفتوحة مترقة ، عندما تغرى بالصيد ، لان ذلك ادعى لظهور هذه الحمرة^(٦) .

وهناك انواع من الشجر استعملوها في مجال التشبيه بالغبار كالغرقند والتنضب والعلندی ، لان هذه الاشجار كثيرة الدخان اذا احترقت ، وكذلك شبهوا الشيب بالثغام لشدة بياضه :

على ان هذا التحديد في الصور ، وهذا التعود على رسمها ، لم يقفنا حائلا دون اظهار براعة الشاعر الجاهلي في التشبيه ، وانما اعطياه مجالا للتدقيق في الصورة ، والتقصي في جزئياتها ، ليكون له الفضل في التجديد ، والقدرة على الابداع ، فعندما وجد الشاعر الجاهلي صور الطلل المكررة ، وتشبيهاته التي اقتصرت على الكتابة ، بدأ يستقصي صورة المشبه والمشبه به ، فوجد في الطلل اثارا وحفرا ، ووجد في الكتابة سطورا وتنميكا ، ووجد الصفة المشتركة بين الصورتين واضحة الملامح ، بين الخطوط والالوان ، فشبه هذه الاثار بالسطور والكتابة المنمقة ، فكانت مقارنته جديدة ، وانتباهه دقيقا يوحى بالابداع^(٧) وكذلك فعل الشعراء عندما جاءوا الى وصف رواحلهم ، لانهم وجلوا صور المشبه به - في حالة وصف هذه الراحلة بالسرعة - واحدة ،

(١) انظر الممانى الكبير/ ٥٢ . (٢) انظر ديوان حلقة/ ١١٩ (٣) انظر ديوان الاعشى/ ٣٥٣ (٤) انظر ديوان الاعشى/ ٣٥٣ (٥) انظر ديوان عبيد/ ٤٩ وديوان حنرة/ ٣٧٥ . (٦) انظر ديوان امرئ القيس/ ١٠٣ (٧) انظر ديوان طرفة/ ٣٣٤ (الاعلم) وديوان اوس/ ١ وديوان بشر/ ١٥٢ والاصمعيات/ ١٤٦ .

او تكاد تكون كذلك ، فهو الحمار الوحشي ، او الثور الوحشي ، او البقرة الوحشية ، او النعامة . فلا مفر اذن من التجديد في الصورة لتمييزها ، ولا تلهي قدرتهم وطابعهم الشخصي في اخراجها ، فكانت عند بشر حمارا وحشيا يريد اتانا ، فهو يعدو خلفها^(١) ، وكانت عند الاعشى حمارا مخططا يتابع اتانا موفورة النشاط ، مكتنزة اللحم^(٢) . وكانت حمارا وحشيا ضيق الصائد عليه المجال ، واحاط به من كل جانب عند التلمس^(٣) .

وسلكوا هذا المسلك في حديثهم عن هذه الرواحل ، وهم يسلون همومهم ، فناقاة طرفه عوجاء مرقال^(٤) ، وناقاة بشر نجباء صادقة الهواجر^(٥) ، وراحلة ليبد ناجية تجل عن الكلال^(٦) ، او كأنها السحاب قد اراق ماءه ، فحفت واستسلم لا يسر الريح^(٧) ، وحاولوا ان ينعتوها بنعوت مختلفة ، ليهيئوا الاسباب الموجبة لهذه السرعة لتقطع بهم هذه المهامة ، وتفرج عنهم الموم ، لذا فهي رواع ، شديدة التفرع ، كأن هرا قد نيب في دفتها^(٨) .

اما ضمورها فهو محمود عندهم اجماعا ، ولكن ابداع الشعراء لم يتحدد بهذه الصورة وخيالهم لم يقف عند شكل واحد في وصف هذا الضمور ، ولهذا وجدنا عبيدا يشبه هذه الرقة بالهلل^(٩) والصورة جديدة في الشعر الجاهلي .

وكما وجدنا ابداع الشعراء وبراعتهم في اوصاف الابل نجد هذه البراعة في وصف الخيل ، فالسرعة صفة محببة فيها ، واكثر الشعراء من ترديدها ، ولكن ذلك - كما اسلفنا - لم يقيد خيال الشعراء ، ولم يقعد بهم عن استخدام الصور المناسبة لهذه السرعة ، فالطفيل الغنوى ، وهو الشاعر المعروف بنعته

(١) انظر ديوان بشر/ ١٨٧ (٢) انظر ديوان الاعشى/ ٢٩٩ (٣) انظر شعر التلمس في شعراء التصراية . (٤) انظر ديوان طرفه/ ٣٤ (٥) انظر ديوان بشر / ٣٥ (٦) انظر ديوان ليبد / ٧٥ (٧) انظر ديوان ليبد/ ٣٠٤ (٨) انظر ديوان امرئ القيس/ ٦٣ و ١٧٠ وديوان اوس / ٤٢ وديوان عنزة/ ٣٧٣ - ٣٧٤ وديوان الاعشى/ ٢٧ وديوان المثقب/ ٣٤ والاصمعيات/ ١٨٨ والمفضليات ١٠/٢ . (٩) انظر ديوان عبيد/ ١١١

للخيل ، واهتمامه باوصافها ، يرى ان هذه السرعة المتناهية التي وجدها في
فرسه ، تصنع حثيفا مثل حفيف النار ، وان هذه النار تتوقد في نبات العرفج ،
وقد اختار هذا النبات بالذات ، لان ناره اشد حمرة واكثر توقدا ، واعلى
صوتا ، وهذا ما كان الشاعر يبغيه من الصورة ، ليدلل على المعنى الذي
يريده والذي اهتدى اليه^(١) .

وكان الشعراء يفصحون عن مهارتهم في جوانب كثيرة من شعر الطبيعة ،
سواء اكان ذلك من حيث الصور او المعاني ، وقد اتاحت لهم هذه المهارة
تنسيق الموضوع الذي يعالجونه ، وترتيب الافكار التي يطرقونها ، وتسلسل
هذه الافكار ، وحسن الانتقال ، ومن هنا نجد قسما من الشعراء لا يأخذون
كل ما يفد على خاطرهم من المعاني ، بل لا يزالون يثقفون ويصقلون ويتخيرون
حتى يستوي لهم المعنى المقصود .

وقد عرف اوس بن حجر بهذه الصنعة ، وبرزت قدرته في كثير من
الصور المتناثرة في ديوانه ، ففي قصيدته التي يصف فيها المطر^(٢) :

اني ارقط ولم تأرق معي صاحبي لمستكف بعيد النوم لواح
يا من لبرق ابيت الليل ارقبه في عارض كمضي الصبح للاح
فهو يشبه البرق بالصبح المضي ثم يمضي الى استعمال لفظ للاح الذي
يمثل خطف البرق تمثيلا حسنا ، ليصور قوة ضوئه حتى يومض . وسرعته
حين يمر . وفي هذا التمثيل والتصوير تبرز مقدرة اوس في استخدام اللفظ
الدقيق العبارة المثيرة ، التي تجعل المنظر بارزا متحركا .

وكذلك كان زهير بن ابي سلمى يعنى عناية كبيرة بتنقيح المعاني وصياغتها
ودفعته في تحديدها ومهارته في استعمالها وقد انعكست هذه العناية في شعره
فاستطاع ان ييث الحركة والحياة في كثير من الصور التي تعرض لها ، فاذا

(١) انظر ديوان الطفيل الفنوي ٩ و ٢٣ . (٢) اوس بن حجر . الديوان ١٥ .

قرأت له هذه الابيات التي يصف فيها المطر والنبات والفرس ادركت قدرته في العرض وتمكنه من الدقة في الوصف^(١) :

وغيث من الوسمي حوَّ تِلَاعُهُ اجابت رَوَايَةَ النجاء هَوَاطِلُهُ
صبحت بممسود النواشير سابح مُرَّ اسيل الخلد نهـد مراكله
أمين شظاه لم يُخَرِّق صفاقة بمنقبة ولم تُقَطِّع اباحلُهُ
قليلاً علفناه فاكمل صُنْعُهُ فتمَّ وعزَّته يداه وكاهله
فهو يصف المطر يتساقط على المرتفعات والوهاد

وقد انتشر فيها النبات الضارب الى السواد ، وهو يقبل مع بعض رفاقه على فرس مفتول ، محكم الخلق ، ناعم الخلد ، ضخم الجوف ، فطم منذ عهد قريب ، فهو اشد ما يكون قوة . لم يداو بألة يبطار ، لأنه لم يصب بعله . وعلى هذا النحو يمضي زهير في كثير من قصائده التي استتمت له فيها براعته المتناهية في دقة اختيار المعاني .

ويشارك النابغة اوس بن حجر وزهير بن ابي سلمى في هذه الدقة والمهارة ففي ابياته التي يقف فيها عند اطلال احبته يقول^(٢) :

وقفت فيها أصيلاً أسألها عيت جواباً ، وما بالرَّبع من أحد
الا الاواري لأياما أبيتهها والنوي كالخوض بالظلومة الجلد
ردت عليه اقاويه ولبدته ضرب الوليدة بالمسحاة في الثأد
خلت سبيل اتى كان يحبسـه ورفعته الى السجين فالتضد

فهو يحدد وقت الوقوف فيجعله الاصيل ، ويعبر عن السكوت بالاعياء والعجز ويدققت في صورة هذه الاثار وما ابقاه الزمن فيها . وفي هذه الصور تبرز قدرته ومهارته في صياغة بارعة ، فهو لم يجد في هذه الاثار الا الاتوداد وما يربط بها من حبال او دواب ، والحفر المتناثرة حول الخيام ،

(١) زهير . الديوان/ ١٢٧ - ١٣٠ (٢) النابغة . الديوان/ ٣٠ (صادر)

وقد حفرتها جارية في ارض صلبة .

وما زالت هذه الخادمة ترد الاتربة على حوافها ، لتبسط الطريق الى الخيام حتى ترد سيول المطر .

ثم يعرض لنا صورة اخرى للألم الذي يحسه ، والسهد الذي يعانيه فيقول (١)
فبت كآني ساورتني ضئيلة من الرقش في انيابها السمّ ناعم
بُسْهَد من ليل التمام سَكِيمُها لحلي النساء في يديه قَعَاقِعُ
تناذرها الراقون من سوء سمها تَطْلُقُهُ طورا ، وطورا تُرَاجِعُ

فهو يشبه الألم بلدغ الأفعى ، ثم يدق في صورة هذه الافعى ويوسع فيها حتى يجسّم الألم ، فهي دقيقة الجسم ، فيها نقط بيض وسود ، تستودع السم القاتل في انيابها ، من لدغته يمنع من النوم ، وتجعل الحلى والحلائل في يده . يحركونها لثلا ينام فيدب السم فيه اعتقادا بأنها تشفيه ، وتخفف من الالم ، وهي خبيثة لا تجيب الراقي ، فأنلر الراقون بعضهم بعضا .

وقد دلل الشعراء الجاهليون - وهم يعرضون لأوصاف الطبيعة - على قدرتهم في التركيز وحشد المعاني في الالفاظ القليلة واحساساتهم بالموصوفات احساساً قوياً ، وشعورهم بها شعوراً عنيفاً ، فعندما اراد امرؤ القيس ان يصف فرسه وصيده ولذاته ، حاول ان يسط مهارته وشجاعته وفروسيته في ركوب الخيل واصطياد الوحش ، فصور سرعة فرسه تصويرا بديعا ، فجعله قيّدا لا وابد الوحش ، اذا انطلقت في الصحراء فانها لا تستطيع افلاتا منه . حتى كأنه لها بمنزلة القيد . الذي يأخذ بأرجلها ، ثم صور حركته وسرعته ، فكأنه يفر ويكر في آن واحد ، ويقبل ويدبر في آن واحد ، وكأنه الصخرة التي حطها السيل من ذروة انحدارها . يقول (٢) :

وقد اغتدي والطير في وكناتها بمنجردٍ قيّد الأوابد هيكل

(١) النابغة . الديوان / ٨٠ (صادر) (٢) امرؤ القيس . الديوان / ١٩

مَكْرَمٌ مِفْرَرٌ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعًا كَجَمْلُودٍ صَخْرَ حَطَّةِ السَّيْلِ مِنْ عَلٍ
وَكَذَلِكَ يَحْشُدُ أَمْرُو الْقَيْسِ الْإِفْكَارَ وَيَرْكُزُ الْمَعَانِي فِي أَوْصَافِهِ لِفَرَسِهِ أَيْضًا
إِذْ يَقُولُ (١) :

لَهُ أَیْطَلَا ظَبْيِي وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَارْخَاءَ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبَ تَشَقُّلٍ
فَهُوَ فَرَسٌ ضَامِرٌ كَأَنَّهُ ظَبْيٌ نَافِرٌ ، لَهُ خَاصِرَتَاهُ النَّحِيلَتَانِ ، بَلْ لِكَأَنَّهُ
نَعَامَةٌ خَضِيفَةٌ فَلَهُ سَاقَاهَا الضَّيْبِلَتَانِ الصَّلْبَتَانِ ، وَهُوَ يَهُوِي فِي الْأَرْضِ كَأَنَّهُ
الذُّبُ الْفَرْعَ وَيَقْفُزُ كَأَنَّهُ الثَّلَبُ الْخَائِفُ (٢) . ثُمَّ يَعُودُ لَوْصَفِ فَرَسِهِ فِي
قَصِيدَةٍ أُخْرَى يَقُولُ (٣)

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعَنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي
فَهُوَ يَشْبَهُهُ بِعَقَابٍ تَنْقُضُ انْقِضَاضًا عَلَى فَرِسَتِهَا ، ثُمَّ يَذْكُرُ أَنَّ هَذِهِ
الْعَقَابُ تَصِيدُ الطَّيْرَ ، وَتَحْمِلُهُ إِلَى وَكْرِهَا ، فَتَأْكُلُهُ الْإِقْلُوبِيَّةَ ، فَمِنْهَا الطَّرِيُّ
الْفُضُّ الَّذِي يَشْبَهُ الْعَنَابَ ، وَمِنْهَا الْجَافُ الْمَتَقَبِّضُ الَّذِي يَشْبَهُ الْحَشَفَ الْبَالِي ،
أَوْ الثَّمَرُ الرَّدِيُّ الْجَافُ (٤) . وَهِيَ صُورَةٌ حَشَدَ لَهَا أَمْرُو الْقَيْسِ كَثِيرًا مِنْ
الصُّوَرِ وَالْمَعَانِي وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَلَاثِمَ مَلَامَةَ خَيَالِيَّةٍ بَيْنَ أَشْيَاءَ مُتَعَدِّدَةٍ ، تَدُلُّ عَلَى
مَقْدَرَتِهِ وَتَمَكُّنِهِ مِنَ التَّرْكِيزِ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي تَرْكِيزًا دَقِيقًا ، وَصِيَائِغَةً لَهَا صِيَائِغَةٌ
تُوحِي بِهَذَا التَّمَكُّنِ وَالْمَقْدَرَةِ كَأَنَّهُ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى أَعْنَةِ اللُّغَةِ ، يَنْتَقِي مِنْهَا مَا
يَشَاءُ ، وَيَخْتَارُ مِنْ مَعَانِيهَا مَا يَحَقِّقُ لَهُ هَذَا التَّرْكِيزَ الدَّقِيقَ فِي الْوَصْفِ وَالْمَتَابَعَةِ .

وَيَعْرِضُ لِبَيْدِ صُورَةِ الْإِطْلَالِ الَّتِي يَقِفُ بِهَا ، وَقَدْ عَفَتْ وَدَرَسَتْ بَعْدَ
رَحِيلِ أَصْحَابِهَا عَنْهَا مِنْذُ سَنَيْنَ طَوِيلَةٍ ، وَالَّتِي تَرَأَتْ لَهُ مِنْ بَعِيدٍ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ
إِلَيْهَا — كَمَا تَرَأَى سَائِرَ الْإِطْلَالِ — مُتَشَابِهَةً الْمَعَالِمَ وَكَأَنَّهَا نَقُوشٌ مَكْتُوبَةٌ فِي
حِجَارَةٍ (٥)

(١) أَمْرُو الْقَيْسِ . الدِّيْوَانُ/ ٢١ . (٢) انْظُرِ الْمَعْرَ الْجَاهِلِيَّ لِلدُّكْتُورِ شَوْقِي ضَيْفٍ/ ٢٥٤

(٣) أَمْرُو الْقَيْسِ . الدِّيْوَانُ/ ٣٨ . (٤) انْظُرِ الْمَعْرَ الْجَاهِلِيَّ لِلدُّكْتُورِ شَوْقِي ضَيْفٍ/ ٢٦٣

(٥) لَبِيد . الدِّيْوَانُ/ ٢٩٧ .

غفت الديار محلها فمقامها بنى تأبّد غولها فرجامها
فمدافع الريان عرى رسمها خلقا كما ضمن الوحي سلامها
دمن تجرم بعد عهد أنيسها حجج خلون حلالها وحرامها

ثم يرسم بعد ذلك صورة جميلة تفيض بالحياة لنبات الصحراء الذي
أخذ ينمو في هذه الاطلال في اعقاب الامطار الغزيرة التي اصابتها ، ولقطعان
الظباء والنعام والبقر الوحشي التي اتخذت منها مراعي ، تتكاثر بها ، وتعيش
هي وصغارها آمنة مطمئنة في فضاءها العريض^(١) :

رزقت مرابيع النجوم وصاها ودق الرواعد جودها فرهامها
من كل سارية وغداد مدجن وعشنة متجاوب ارزامها
فعلا فروع الايهقان واطفلت بالجلهتين ظباؤها ونعامها

ثم يصف بعد ذلك ما فعلته السيول بهذه الاطلال ، فقد كشفت عنها
رمالها فبدت كأنها صحف تجدد الاقلام كتابتها ، او وشم طال عليه
الزمن فراحت الواشمة الخبيرة تجدده^(٢) .

وجلا السيولُ عن الطلول كأنها زُبُرُ تُجَدُّ مُتُونُهَا اَقْلَامُهَا
أَوْ رَجْعُ وَاشْمَةٍ أُسِفَ نُوُورُهَا كَيْفَقَا تَعْرِضُ فَوْقَهُنَّ وَشَامُهَا
ولبيد في ابياته هذه يعبر تعبيرا صادقا عن فتنته بالطبيعة وقدرته على
تصويرها ، وتمكنه من النفاذ من خلالها الى الصحراء العريضة التي فتن بها
فمحشد لها ما استطاع من المعاني والافكار .

وهكذا نجد الشعراء يقدمون صورا جديدة مغايرة للصور التي تعودوا
على رؤيتها ، وكأنهم ادركوا القيمة الفنية لعملهم هذا ، ووجدوا فيها طرافة
ادبية لطيفة ، تميزهم عن غيرهم من الشعراء ، مستخدمين في ذلك براعتهم

(١) لبيد . الديوان/ ٢٩٨ (٢) لبيد . الديوان/ ٢٩٩ وانظر مقالة الدكتور يوسف خليل
في مجلة المجلة . العدد/ ١٠٠ ، ١٩٦٥

في حشد المعاني ومهارتهم في صياغتها ، وقدرتهم على استنباط الصور فاستعملوا الكناية والاستعارة ، فكانت صور صرير الجندب^(١) واشراف الحرباء^(٢) وترقرق السراب وتألوه^(٣) من الكنايات التي كنوا بها عن اشتداد الحر . اما الاستعارة فكانت اكثر من الكناية . فقد استعار امرؤ القيس صورة القيد - كما ذكرنا - لفرسه^(٤) ، والتغريد للحمار الوحشي اذ يقول^(٥) :

يُغَرِّدُ بِالْأَسْحَارِ فِي كُلِّ سُدُفَةٍ تَغَرَّدَ مَيْتَاحُ النَّدَامَى الْمُطْرَبِ

واستعار زهير صورة الاسد للحرب يقول^(٦) :

مَتَى تَبْعُوثُهَا تَبْعُوثُهَا ذَمِيمَةٌ وَتَضَرَّ إِذَا ضَرَّ يَتَمُوتُهَا فَتَضَرُّ

ثم استعار لها صورة الناقة^(٧) واستعار صورة الاسد لوصف الشجاع فقال^(٨) :

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلَاحِ مُقَدِّفٍ لَهُ لَبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلِّمْ

واستعار النابغة نقيق الضفادع لغناء القيان فقال^(٩) :

إِذَا نَزَلُوا ذَا ضَرْغَدٍ فَعَتَائِدًا يُخْنِيهِمْ فِيهَا نَقِيقُ الضَّفَادِعِ

كل هذا يدل على ان الشعراء لم يقفوا عند حدود التشبيهات والصور التي عرفت ، وان وجود هذه التشبيهات لم يحل بينهم وبين المعاني التي استنبطوها والصور الجديدة التي اهتموا اليها بعد وقوفهم الطويل عند المعاني المتداولة في عصرهم . وهي بعد كل ذلك - تصور مدى الجهد الذي كان يودعه الشعراء قصائدهم .

(٣) انظر ديوان بشر/ ٣٨ (٤) انظر نفس الديوان/ ٤٥ . (٥) نفس الديوان/ ١٦٢
 (١) انظر ديوان امرؤ القيس/ ١٩ (٢) امرؤ القيس . الديوان/ ٤٥ . (٣) زهير .
 الديوان/ ١٩ (٤) انظر ديوان زهير/ ١٩ . (٥) زهير . الديوان/ ٢٣ . (٦) النابغة .
 الديوان/ ٨٤ (صادر) .

الخصائص اللفظية والموسيقية

ترتبط الخصائص اللفظية في الشعر الجاهلي ارتباطا وثيقا بالخصائص المعنوية لأن التراكيب اللفظية لا تتبثق إلا من هذه الخصائص ، وطبيعي ان تكون الألفاظ متشابهة الى حد كبير ما دامت المعاني التي كان الشاعر الجاهلي يعرض لها متشابهة . ولهذا وجدنا التكرار الذي وقع فيه الشعراء الجاهليون ، وهم يترقون الموضوعات الواحدة أو يعالجون الحالات المتشابهة ، وكان الشعراء يحسون بدائرة الألفاظ تضيق بهم ، ويشعرون بوقوعهم تحت طائلة هذا التكرار وهذا ما حمل امرؤ القيس على ان يقول ^(١) :

عوجا على الطلل المحيل لأننا فبكي الديار كما بكى ابن خدام
ودفع عنرة على مشاركته في هذا الاحساس ^(٢) ، ولكن ذلك لم يقف حائلا دون التزام الدقة في وضع الألفاظ في مواضعها بحيث تؤدي المعاني المطلوبة عند بعض الشعراء . وقد انعكست ظاهرة التكرار هذه بصورة جلية في قصائد الشعراء الجاهليين حتى أصبح بإمكاننا ان نضع معجما بالألفاظ التي استخدمت في هذه الموضوعات ، فاذا ارادوا ان يذكروا ابلهم وهي

(١) امرؤ القيس . الديوان/ ١١٤ (٢) عنرة . الديوان/ ٣٦٩ . (الاعلم)

تسلي همهم وتقطع بهم الصحراء نعتوها بالبحسرة والناجية والذعليه والخطارة
والامون والذمول والمذورة والهلواع .

قال امرؤ القيس (١) :

فدع ذا وسلّ الهمّ عنك بحسرة ذمول اذا صام النهار وهجرا

وقال عبيد (٢) :

وقد اسلّي همومي حين تحضرني بحسرة كعلالة القَيْنِ شِمْلَالِ

وقال علقمة (٣) :

فدعها وسلّ الهمّ عنك بحسرة كهَمَّكَ فيها بالرداف حبيبُ

وقال بشر بن ابي خازم (٤) :

لولا تُسلّي الهمّ عنك بحسرة عيرانةٍ مثلِ الفَتَنِ المَكْدَمِ

وقال زهير (٥) :

دعها وسلّ الهمّ عنك بحسرة تنجؤ نَجَاءَ الأَخْدَرِيّ المُفْرَدِ

وقال الاعشى (٦) :

فدعها وسلّ الهمّ عنك بحسرة تزيد في فضل الزّمام وتغتلي

وقال عبيد يصفها بالنجاء (٧) :

زيافة بقتود الرحل ناجية تقري الهَجِيرَ بتبغيلٍ وإرقال

(١) امرؤ القيس . الديوان/٦٣ (٢) عبيد . الديوان/١٠١ (٣) علقمة . الديوان

/٤١٩ (٤) بشر . الديوان/١٧٩ (٥) زهير . الديوان/٢٧٠ (٦) الاعشى .

لليديوان/٣٥٥ وانظر الصفحات/١٧ و٣٧ و٥٩ و٨٩ و١٤٧ و٢٠١ و٢١٩ و٣٥٩ وانظر

ديوان لبيد/٦٧ (٧) عبيد . الديوان/١٠٢

وقال بشر^(١) :

وناجيةٍ حمكتُ على سبيل كأنَّ على مغابيتها مَلابًا
وقال زهير^(٢) :

هل تُبَلِّغني إلى الأخبارِ ناجيةٌ تَخْدِي كَوَخْدِ ظَلِيمِ خَاصِبٍ زَعِرِ
وقال الاعشى^(٣) :

بناجيةٍ كاتانِ الثميل تُوقِي السرى بعدَ أينَ عسيرا
وقال لبيد^(٤) :

وناجيةٌ أُنْعَلَتْها وابتَلَتْها إذا ما اسجَهَرَّ الآلُ في كلِّ سببٍ
وهكذا يستعين الشعراء بالأوصاف التي ذكرناها في حديثهم عن سرعة
رواحلهم وإذا رغبوا في وصفها بالشدة والصلابة والقوة والجرأة ، قالوا عنها
جمالية ووجناء وحرف وعذافره وعرمس وعلنداة ومذكرة وعافر ومقلوفة
وغيرها من الأوصاف التي تتضمن معنى الصلابة وتوحي بمفهوم القوة والشدة
قال عبيد ينعت راحلته^(٥)

لولا تُسَلِّيكَ جُماليَّةٌ أدُماءُ دامٍ خُفِّها بازل

وقال بشر بن أبي خازم^(٦) :

جُماليَّةٌ غَلَباءُ مضبُّورةٍ القرى أمُونٍ ذَمُولٍ كالفَتَقِ العَجَجَتَسِ
وقال زهير^(٧) :

جُماليَّةٌ لم يُبَقِّ سَيِّري وِرْحَلتي على ظَهْرِها من نَيْها غيرَ مَحْفِدِ

(١) بشر . الديوان/ ٣٢ وانظر الصفحات/ ٤٥ و ١٥٤ و ١٥٨ و ١٦٢ . (٢) زهير .

الديوان/ ٣١٦ وانظر / ٢٢٢ (٣) الاعشى . الديوان/ ٩٧ . (٤) لبيد . الديوان/ ١٨

وانظر الصفحات/ ٦٧ و ٧٥ . (٥) عبيد . الديوان/ ٩٨ (٦) بشر . الديوان/ ١٠١

(٧) زهير . الديوان/ ٢٢٠ .

ويسلك الشعراء الآخرون هذا المسلك في اوصافهم ، حتى اذا أجهد هذه الرواحل الكلال ، وغارت عيونها فهي الخوص ، واذا كانت اضلاعها قوية متداخلة فهي مجفرة الضلوع ، واذا ضمرت فهي حافر ، وهكذا كانوا يترقون هذه المعاني ، وهم يذكرّون هذه المراكب التي كانت تقطع بهم هذه الفيافي المقفرة .

اما الفرسان الذين عنوا بالخيّل ، واهتموا بأوصافها وادركوا ما يستحب منها ويحمد ، فلهم مجموعة اخرى من الالفاظ ، يستخدمونها وهم يذكرّون هذه الخيول وهي تحملهم الى اعدائهم فيخوضون بها المعارك ، ويطردون بها صيدهم ويقيدون بها الاوابد ، فاذا ذكروا طولها قالوا : السلهب والخنزيد والطمر والشوقب. والشيزم والشرجب ، واذا وصفوا قوتها وشدها قالوا : النهد والصلدم والعجزة ، واذا اشاروا الى ضموها ذكرّوا الاقب والشازب والعنوج ، وكذلك كانوا يذكرّون الالفاظ التي اصطلموها على ذكرها في اوصاف الثيران الوحشية ، والحمر الوحشية ، والبقر الوحشي والنعام والعقبان وغيرها من الحيوانات .

ويتضح لنا من دراسة هذه الالفاظ التي ذكرناها ، ان الشعراء الجاهليين كانوا يؤثرون في وصف حيواناتهم اللفظ الجزل والغريب ، لما يوحيه من امارات القوة في الحيوان الذي يتجدثون عنه . وكأنهم كانوا يرون لزاما عليهم ، وهم يعرضون لأوصاف هذه الحيوانات ان يوفقوا بين القوي منها ، والجزل من اللفظ ، فكانت هذه الشدة ، وكانت هذه الصلابة التي اصبحت تقليدا لفظيا يسير عليه الشعراء ، وتكاد هذه الصفة تختفي في الغالب عند تعرضهم لوصف الجوانب الاخرى من حياتهم .

ولا بد لي من ان اشير الى ان كثيرا من الشعراء كانوا يسلكون مسلكا واحدا ويستعملون أفعالا معينة أو متشابهة في الاحاديث المتشابهة ، فاذا وصفوا الاطلال استعملوا الفعل لاح وتلوح وابتدأوا الحديث بلمن الديار ، ولمن

طلل . وفي احاديثهم عن الثيران وهي تختفي في الرمال ، ذكروا الفعل اكب ومكب وفي حديثهم عن التيهو للحرب ، والاستعداد لما يقول ، لبس جلود نمر ويؤكدون الفعل لبس . وفي حديثهم عن البرق يستعملون الافعال راقب وارق وشام . واذا تحدثوا عن النعام اكبدوا الفعل ارج وأزف ، واذا عرضوا لوصف الثغور شبهوها بالافحوان ، واستعملوا معها الفعل تضحك أو تبسم ، وإذا استقصينا امثال هذه الافعال والعبارات لجمعنا معجما آخر للألفاظ التي تعود الشعراء على استعمالها في شعر الطبيعة . ومن هنا كان الشعراء يجهدون انفسهم في التنقيح والتهذيب وفي اختيار الالفاظ التي يجدون فيها الجدة ليثبتوا براعتهم ويظهروا مهارتهم ، وهذا ما حملهم على الاتجاه نحو قوالب التعبير ، فبالغوا في صياغتها مبالغة مفرطة ، لفتت اليهم انظار النقاد القدماء ، فاطلقوا عليهم من الصفات ما يشعر بهذا التنقيح ، ويدلل على هذه المهارة والتجويد .^(١)

وكان بعض الشعراء يميل الى استعمال الالفاظ التي توحى بالمعنى وتشعر بالحركة^(٢) . سالكا في ذلك طريق التصوير القوي المؤثر الذي يثير في النفس الاعجاب ، مستخدما ذلك في دقة لا تشبهها دقة ، ووضوح لا يخفى من معالم الصورة شيئا مستعينا بالموسيقى الداخلية التي تنشأ من انسجام الحروف اولا ، واتساق الالفاظ ثانيا . فعندما اراد تأبط شرا ان يصف الظليم استغل الالفاظ التي توحى بالسرعة والخفة والحركة والصوت ، وقد الح على الافعال التي تؤكد هذه المعاني ، فجعلنا نشاركه حسه ، وهو ينظر اليه ، ويتأمل نشاطه قال (٣) :

وحشحت مشعوف النجاء كأنني هجف رأى قصرا سملا وداجنا

(١) انظر البيان والتبيين ١٣-٧/٢ والاغاني ٥٧/٥ (دار الكتب) و ١١٢/٢١ (سبي)
والفضليات (لايل) ٤١٠/١ (٢) انظر ديوان طرفة/ ١٠٨ (سادر) (٣) الاصفهاني .
الاغاني (سبي) ٢١٣/١٨

من الحص هزروف كأن عفاءه اذا استدرج الفيفا ومد المغابسا
 ازج زلوج هذرفي زفاذف هذف ييدز الناجيات الصوافسا
 وعندما اراد عترة ان يصور المطر وهو ينهمر بصورة سريعة ومليرة
 على روضة استعمل الالفاظ التي تشعر بالانهمار والهدير والجريان ، الى جانب
 استخدام الصورة الدائرية المتمثلة في الدرهم الابيض ، ليرمز الى اماكن تجمع
 المياه بهذه الهيئة وعلى هذا الشكل^(١) :

جادت عليها كل عين ثرة فتركن كل حديقة كالدرهم
 سحا وتسكابا فكل عشبة يجري عليها الماء لم يتصرم
 ويرسم امرؤ القيس لفرسه صورة مليئة بالحركة ، ليصور شدة سرعته
 وجريه ، معتمدا على التقطيع الصوتي في هذه الاوصاف والملازمة بين الكلمات
 فيقول^(٢) :

مكر مفر مقبل مدبر معا كجملود صخر حطه السيل من عل
 وكان البعض الاخر من الشعراء يلج على تكرير الالفاظ التي يحاول فيها
 تقوية المعنى ، والتشديد على رنينها ، ليوكد رسم الصورة ، والاهمية التي
 يريد بها من هذا التكرير ، فعندما اراد امرؤ القيس ان يصف ديار سلمى وقد
 تعفت ودرست لالخاح المطر عليها ، ولزومه اياها ، لم يجد اوقع من ترديد
 اسم سلمى ليكون التشويق اشد . قال^(٣) :

ديار لسلمى عافيات بذى خال الح عليها كل اسحم هطال
 ونحسب سلمى لاتزال ترى طلا من الوحش اويضا بميثاء محلال
 ونحسب سلمى لاتزال كعهدا بوادى الخزامى او على رس اوعل

(١) عترة . الديوان/ ٣٧١ (٢) امرؤ القيس الديوان/ ١٩ (٣) امرؤ القيس . الديوان
 / ٢٧ وانظر قصيدة الحارث بن عباد في شراء النصرانية وقصيدة المسيب بن علس في ديوان
 الاعشى ، نشر جابر/ ٣٥٣ .

ليالي سلمى اذ تريك منصبا وجيدا كجيد الرثم ليس بمعطال
وكان فريق منهم يردد بعض الحروف التي تمتاز بجرسها ، ويحاول ان
يوزعها توزيعا متناسبا يضيفي على القصيدة نغما معينا ، وينقل اللفظ من
مجموعة حروف الى جرس موسيقى بلغة نغم ملحن^(١).

واستعان الشعراء ، لغرض التأثير في سامعيهم بطائفة من المحسنات اللفظية
من مطابقة او مجانسة ، فكانت تتناثر من حين الى حين الوان من هذه المقابلات
في قصائدهم . متوخين من خلال تلك الصور الدقة البالغة في التعبير ، والحرص
الزائد في رسم الصور الجديدة التي كانوا يهتدون لرسمها . مما يدل دلالة
واضحة على عناية الشعراء باحسانهم كلامهم ، والتفنن في اظهار فنونه
البليغة ، فالجناس التام واضح كل الوضوح في قول الافوه الاودي^(٢) :

واقطع الموجل مستأنسا بهوجل عيرانة عتريس
والجناس الناقص في قول اوس بن حجر وهو يصف السحاب^(٣) :
فالنج اعلاه ثم ارتج اسفله وضاق ذرعا بحمل الماء منصاح
وفي قول ابي دودا ينعت فرسه^(٤) :

مخلط مزيل معن مفن مطرح مضرح جموح خروج
يجانس بين معن ومفن ومطرح ومضرح .

ويعد التشبيه من اكثر المحسنات اللفظية دورانا في اشعارهم ، لانهم لم
يعرضوا لوصف شيء الا قابلوه بما يقع امامهم وما يماثل الصور التي يحسون
بها . وقد مرت نماذج كثيرة من ذلك .

وكما ادرك الشعراء استعمالات الالفاظ ، وقوة ادائها التعبيري ، فقد

(١) انظر المفضليات ١/ ١٣٠ (٢) الافوه الاودي . الديوان (الطرائف الادبية)

(٣) اوس بن حجر . الديوان/ ١٦ (٤) ابو دودا . الديوان/ ٢٩٩ .

ادركوا البحور التي يعرضون فيها اوصافهم ، ففضلوا البحور الطويلة على غيرها من البحور ، لاستيعابها للمعاني ، واتساعها للتشبيهات والاستعارات والمجازات والكتابات ، ولان الصورة التي يريدون استعمالها لا تكمل في البحور القصيرة ، لذا فقد وجد الشاعر فيها المجال الفسيح الذي يوسع الصورة في ذهنه ، ويكمل اللوحة الفنية التي اراد تخطيطها . الى جانب كون هذه البحور - بطبيعة تفعيلاتها الثقيلة ، ومقاطعها الكثيرة - تسمح بحشد الالفاظ المختارة التي يبلغ فيها الشاعر ما يرمي اليه من التأثير اذا مدح او افتخر او اعتذر ، وكان الشاعر يحكم صياغة اوصافه ، ويضبطها ادق ضبط ، ويحقق لها ما تحتاج اليه من الرونق والبهاء . فنظم في دائرة هذه الاوزان عواطفه وخواطره وافكاره . وفي كل هذه الخصائص يحاول الشاعر ان يجد الطريق للتأثير في نفوس السامعين . ومن خلال هذه المحاولات يبرز مدى الجهد الفني الذي كان الشاعر يبذله في سبيل ذلك حتى يأتي باللفظ المؤثر والتشبيه الطريف والمعنى الدقيق .

الخاتمة

لهذه الرسالة على الرغم من الجوانب التي تعالجها . والموضوعات التي تتعرض لها ، شكل عام ينتظمها ، ووحدة موضوعية شاملة تلم اطرافها ، لانها تدور في الواقع ، حول موضوع شغل الشعراء كثيرا ، فعرضوا له في كل حديث ، وتمثلوا به في كل موضع وكانت طبيعة الرسالة تفرض علي ان امهد لها بمقدمة ، احدد فيها الحيز الذي عشت فيه خلال البحث ، ووضح الاطار الذي دارت عليه ، او حوله ، هذه المجموعة الشعرية ، فكان التمهيد وصفا عاما لجزيرة العرب ، لعلاقتها بهذا البحث ، وتأثر هذا النوع من الشعر بمظاهرها وتصويره لاشكالها ، وخضوعه في كثير من اخیلته وصوره لطبيعة تكوينها ، ورأيت بعد هذا ان اقسم الرسالة الى بايين كبيرين هما الدراسة الموضوعية ، والدراسة الفنية ، ثم قسمت الدراسة الموضوعية الى فصلين ، شمل الفصل الاول منهما الظواهر الصامتة في الطبيعة الصحراوية ، وقد عرضت فيه للجبال والكثبان والسراب والوديان والدارات والبرق والرياح والابار والعيون والرياح والانواء والامطار والنجوم ، واخيرا الشجر والنبات ، وشمل الفصل الثاني منهما ، الحيوان الاليف والوحشي والطيور والزواحف والحشرات .

وكان لا بد لي من الوقوف عند هذه المظاهر ، لان الشاعر الجاهلي ،

وجد فيها مادة خصبة للحديث ، وميدانا فسيحا للتصوير ، فاستخدمها استخداما موفقا ، وعرض لها عرضا دقيقا ، ولم يترك مما يحيط به الا ما كان مبهما ، او مهمل ، او منسيا ، وقد اكثر الشاعر الجاهلي من ذكر الجبال ، لما يجد فيها من صور البقاء والخلود ، فهي ثابتة لا تتغير ، تشهد فناءه ، وفناء اجيال كثيرة سبقته . ومع كل هذا فهو لا يعرض لها في وصف خاص ، او حديث مباشر .

اما الكتبان ، فكانت لها في نفسه اسماء ، واشكال ، يوحي له كل شكل بوصف ، ويحرك كل تكوين فيها بواعث ، واغلب ما كانت تأتي اشاراته اليها في معرض حديثه عن الاطلاع ، لانهم كانوا لا ينزلون الا في صلالة من الارض ، ليكون ذلك اثبت لاوتاد الابنية . وامكن لجهر النوى ، وانما تكون الصلالة حيث ينقطع الرمل ويلتوي ويرق .

وذكر الشعراء الجاهليون السراب ، واستخدموه لتحريك صور الصحراء ، وكأنهم ادركوا قيمة الحركة في الوصف .

وذكروا الوديان ، ووقفوا عندها باعتبارها مناطق خصب ، تستقر فيها القبائل ، وتقيم مراتعها . وفي حديثهم عنها يذكرون ملاعب الصبا ، ويستذكرون ايام اللهو ، لانها تمثل ايام الصفاء والاستقرار بالنسبة لهم ، الى جانب تعرضهم لها ، وهم يذكرون انتصاراتهم ومفاخرهم ، لانها كانت تقع عند هذه الوديان ، فتقترن باسمائها . وكان لاثار عزيز الرمال ، وهي تحرق هذه الوديان ، هواجس عجيبة في نفوسهم ، ومشاعر غريبة ، ظل صدها يتردد ، ودخل قسم منها في الاساطير والمعتقدات .

اما حديثهم عن الدارات والبرق والرياح والحرات ، فكان قريبا من حديثهم عن الوديان ، باعتبار هذه المناطق تشكل اماكن خصب كانوا ينزلون فيها ، فينعمون بخيرها ومائها وخضرتها

وارتبطت الرياح عندهم بموضوع الامطار ، وكان تعرض الشعراء لها

من خلال اوصافهم للطلل ، وتعفيتة ، وتناوبها عليه ، وهي تجر ذيوها ،
وتحمو اثار ملاعبهم ، وتزيل بقايا ذكرياتهم ، الى جانب تعرض الشعراء
لها من خلال احاديثهم عن الشوق والبعاد ، وتغنيهم بالكرم عند هبوب الشمال
لانها كانت تحمل اليهم القحط والمحل والجدب ، وعندها تمتحن سرائر
الرجال ، وقد وضعوا لكل ربح اسما يختلف باختلاف مناطق هبوبها ، وبركوا
بريح الصبا وتفاخروا في الكرم عندما تهب ، وجعلوا بيوتهم ازاءها ، وبركوا
ريح الشمال ، وكانت لهم فيها احاديث طويلة .

اما المياه فكان حديثهم عنها طويلاً ، لانها سبب حياتهم ، واساس
وجودهم ، ولهذا افاضوا في ذكرها ، وقدسوا مواضعها ، وانشدوا الارجيز
في اثناء حفرها ، والاستقاء منها ، ووصفوا كل مصدر من مصادر المياه ،
فنظروا الى السماء وهي تزدحم بالسحب ، وميزوا بين كل لون من الوان
هذه السحب ، وربطوا بينها وبين مقدار ما تحمله من المياه ، وتعرضوا للذكر
ابعادها وكثافتها وسيرها ، وكانوا يلحون على هذه الاوصاف الخاها تخلصوا
منه الى مقدار ما تدره عليهم ، وشاموا البرق ، وتأملوا فيه ، ونبهوا اصحابهم
لمراقبتها ، وكانت جلجلة الرعد تبعث في نفوسهم الحنين . وفرحوا بالمطر ،
وتغنوا به ، وهو يحمل اليهم الخير والحياة ، وراقبوه وهو يمر ووصفوه وهو
يكون سيولا مواره ، تقلع الشجر وتهد البيوت ، وتنزل العصم من قلال الجبال .

ومن الطبيعي ان ينال الشجر والنبات ، والثمر والازهار والاعشاب والبقول
نصيبا وافرا من حديث الشعراء ، لاتصالها المباشر بحاجاتهم التي يعتمدون عليها
في مجابهة ظروف الحياة . فقد استفادوا من الثمر الذي كان يشكل غذاء
رئيسا لهم وحيواناتهم ، واستمدوا من النخل صورلهم وتشبيهاهم ، ومنحتهم
الوان النخلة ، والوان تمرها ، قدرة على عقد المشابهات . اما شكلها المتناسق ،
وتجمع سعفها ، وقد توسطته العذوق والسماريخ ، فكان مجالا من مجالات
التذكير بالظنون والهوادج ، وقد اظهرت النماذج التي استشهدنا بها معرفتهم
بفنون زراعتة ، وتبصرهم بالطرق السليمة التي تتبع في هذه الزراعة ، وهي

بالتالي ندلنا على اهتمامهم بهذا النوع من الشجر .

وكان تعرضهم لشجر الجبال يأتي في أحاديثهم عن الصلابة والقوة ، والشدة والاحكام ، وهذا ما دفعهم الى اتخاذه مادة اولية صالحة لاستعمال السهام والرماح والقسي ، اما حديثهم عن الاشجار الباقية فكان مستمدا من طبيعة هذه الاشجار نفسها ، ومنسجما مع استفادتهم منها ، فاذا اراد الشاعر ان يكني عن الضعف ، كنى بشجر السدر لخوره ، واذا اراد ان يكني عن الذلة والهوان ، اشار الى الكمأة ، لخوانها وضعفها وضعفها . واذا اراد ان يصور القلق والخذر والخوف ذكر السيل والهراس والعضاة ، واستفاد الشاعر الجاهلي من الوان بعض الاشجار لعقد مشابهاة ، فاستعمل الثغام في حديثه عن الشيب وأشار الى الغرقد والتنضب والعنبدى في نعتة للغبار ، وذكر الاقحوان في وصفه للثغور ، ووقف عند الفرصاد والعندم في حديثه عن الدم . وهو يذكر الاثل والعشر في حديثه عن بناء البيوت ويذكر الاثل وحده في حديثه عن صنع القصاع والجفان والانية والمكايل ومارق من الاقداح ، ويشير الى الميس في مديحه للرحال ، وهو بذلك يستعمل كل نوع من هذه الانواع في المحل المناسب له .

وكان موقفهم من الحيوان يتحدد بمدى الفائدة التي يقدمها هذا الحيوان لهم ، وبمقدار الاعانة التي يتمكن فيها من تذليل مصاعب الحياة التي كانوا يقاسون منها وطبيعي ان يكون هذا الموقف متفاوتا بين الحيوان الاليف والوحشي ، ولا بد ان يكون الاهتمام بالحيوان الاليف اكثر ، لانفعالهم منه ، والفتهم له ، واستفادتهم مما يقدمه لهم من طعام وكساء . فكانت الابل اول هذه الحيوانات ، لاهميتها البالغة بالنسبة لهم ، ولقدرتها على مقاومة ظروف الصحراء ، وللائمة كثير من اعضائها لهذه البيئة ، الى جانب مداها لهم بالغذاء والكساء ، وهذا ما جعل قصائدهم فيها اطول ، ونفسهم في ذكرها امد ، واستقصاءهم لادوصافها ادق واحكم ، وكان التجاوب في نفوس الشعراء - وهم يعرضون لها - عميقا ، والاحساس متبادلا . والمشاركة

الوجدانية التي تطبع اوصافهم صادقة ، وقد بلغ اعزازهم لها مبلغ افتدائها بالنفس . واستأثرت الخيل بحب العرب ، لما ادته لهم من نفع كثير . لذلك كانت عنايتهم بها ، واهتمامهم بتربيتها ، عناية تفوق كل شيء ، فاشتتهروا بالمحافظة على انسائها وعدم الخلط بين سلالتها ، وخلدوا ذكرها وصفاتها واسماءها في قصائدهم ومقطعاتهم ، وصنفوا في ذلك المؤلفات . وكان لهم فيها مسن التباهي والتفاخر والتنافس ما يدعو الى التأمل والاعجاب . ولا غرابة في ذلك اذا علمنا ان الخيل كانت وسيلتهم للحرب ، يطردون بها الخصوم ، وتنجيهم من المآزق اذا وقعوا فيها . وهي معقلهم الذي يتحصنون به ، وسبيلهم الى اللهو والصيد ، وزينتهم في الفخر والفروسية والحرب والكسب والرهان . وتحدثوا عن الكلاب لاعتمادهم عليها في صيدهم وحراستهم ودليلهم الذي بهتدي بواسطته الضيفان ، وتلك مكرمة من مكارمهم ، ومفخرة من مفخرهم ، على أن الحديث في مجال الصيد يعد من أوسع المجالات التي ورد فيها ذكر الكلاب لأنهم وصفوها وهي ترصد ، وترقب ، وتنطلق وكان الخاح الشعراء ينصب عليها وهي جائعة ، لتحرض على الصيد ، وتضرب به ، ثم ذكروا الغنم ، وكان ذكرهم لها سريعا ومرورهم عليها عابرا ، مستخدمين صورة الشاة والنعجة للهجاء في اغلب الاحيان لضعفهما .

اما حديثهم عن الحيوان الوحشي ، فكان يأتي من خلال اوصافهم لرواحلهم وهي في طريقها الى ممدوحهم ، او احبتهم ، لأنهم يريدون اصفاء طابع الشدة والقوة والصلابة والسرعة على هذه الرواحل ، فلم يجدوا اصلب واقوى واسرع من الثيران الوحشية ، والبقر الوحشي ، والحمر الوحشية ليشبهوا بها هذه الرواحل ، ومقاومتها ، وقدرتها على السير المتواصل ، وتحملها العبء المجهد ، والسهر الطويل ، الذي كانت تفرضه عليهم طبيعة الرحلة . وقد حملهم هذا الوقوف عند مظاهر بعض هذه الحيوانات الى تقديم بعض الصور الفنية التي يلمس منا التجديد والابداع والابتكار .

واكثر الشعراء من ذكر الظباء ، واوصافها ، والتشبيه بها ، واكدوا بعض هذه الاوصاف في حديثهم عن المرأة ، فشبها بها كل ما وجلوه

رائقا في نظرهم ، جميلا في نفوسهم ، وحاولوا ان يقرنوا ذكرها بالاطلال ،
ويقصروا في كثير من الاحيان على ذكرها ، وذكر بعض الحيوانات الوديدة
الآخري في ارتياد هذه الملاعب ، لوداعتها ، وجمال صورتها ، وتناسبها
مع ما يحملون هذه الديار من مكانة رفيعة . ولمسوا فيها السرعة والضمور
والنشاط ، فشبها بها خيولهم ، ووجد فيها الشعراء الصعاليك مجالا للمقارنة ،
فقارنوا بين سرعتهم وسرعتها ، وذكروا النعامة وكان استقصاؤهم لأعضائها ،
ووقوفهم عند بعض عاداتها اطول ، فشبها بها المراكب ، وهم يعتونها
بالسرعة والنجاء ، وضربوا بها المثل في الخوف والذعر والهزيمة والموق والحذر ،
وكانوا يؤكدون اوصاف السرعة في حديثهم عنها وقد احمر ساقاها . واطراف
ريشها ، لكونها - وهي في هذه الحالة - انشط واسرع واشد ، فلا تتمكن
الخيول من طلبها ، وقد وجدت بعض النماذج التي تفنن الزعم القائل بموق
النعام وبلاسته وحمقه وتظهر هذه النماذج حرصه على يبيضه ، وسرعته اليه
باقصى ما يستطيع من السرعة ليحتضنه .

وكما وجد الشعراء الصعاليك في الظباء حيوانا يقارنون به سرعتهم ،
فقد وجدوا في النعام حيوانا آخر يقرون به هذه السرعة ، وكانوا يحرصون
على ان يكون النعام مدعورا ، او مجفلا ، لتكون دواعي السرعة اشد . وهذا
ما كانوا يقصدون اليه ، لان النعام في هذه الحالة لا يدرك . وعلى الرغم من
كل هذا الجو الذي يخلقه الشاعر ، ويحيط به هذا الحيوان ، فهو اسبق منه ،
وركضه اسرع من ركضه ، اما الوانه واوصافه وبعض اعضائه فقد وقفوا
عندها ، ودققوا في تصويرها ، وابدعوا في اظهار هذه الالوان . وتحدثوا عن
الوعل ، واقرنت صورتها عندهم بصورة الموت ، حتى اوشكت ان تصبح
رمزا مجسما لحقيقته .

وذكروا الذئب ، ووجدوا فيها رفيقا دائما من رفاق الجوع ، وزاوجوا
بين الصورتين ووقفوا عند الضياع والثعالب ، وربطوا بين صورتها ، وصورة
الفرع عند الموت باعتبارها من الحيوانات المعروفة بولعها بجيف الموتى ،
والمشهورة برغبتها في نبش القبور . وهذا ما كان يخيفهم منها ، لانهم معرضون
لان يموتوا في العراء ، وتترك اجسادهم فيه ، وعندها يصبحون طعاما سائغا

لهذه الحيوانات ، تعمل بهم ما تشاء ، وخصوا الثعلب بالمكر والحيلة والروغان .
اما الضب ، فكان تعرضهم له في مواضع الهجاء ، وكان ذكر الاظفار
والبرائن يقرن باوصاف الشعراء لهذا الحيوان ، لان الذي عرف به هو انه
لا يحتفر الا في مكان صلب حتى لا ينهدم ، وهو يعمق حفرة ويطيل فيها
حتى تفنى برائته ، متوخيا بذلك الارتفاع عن مجاري السيل والمياه ، وعن
مدق الخوافر ، لكيلا ينهار عليه ، ولذلك كانت برائته ناقصة كليله ، وهذا
ما اوحى للشعراء باغلب المعاني التي استشهدوا بها .

ومن الحيوانات الاخرى التي تحدثوا عنها الاسد . ولكن الغريب في الامر ،
ان معظم النماذج الشعرية التي وصلت الينا ، لم تتحدث عن رؤيا حقيقية له ،
الا ابيات عروة بن الورد^(١) ، التي وصفه فيها وصفا مباشرا ومغايرا لكل
الافصاف والنوعات التي وجدناها عند غيره من الشعراء ، والتي كانت تذكر
في اغلب الاحيان في تشبيه القتيلان او الفرسان او الشجعان ، او في احاديث
الشعراء عن مفازهم ، ومفاخر قبائلهم ، وانتصاراتها ، او في ذكر مناقبهم ،
او مناقب ممدوحهم ، او في مراثيهم التي اطلقوا فيها على قتلهم وموتهم
نعت هذا الحيوان واقترب ذكر النمر بالاسد مرة ، وبالاسود اخرى ، وكان
يأتي ذكره في باب المجاز ، وخاصة عندما كانوا يريدون ان بنعتوا من اشتد
غيظه ، وتجههم وجهه وكثر غضبه .

واهتمت بعض اصناف الطيور الشعراء مشاعر القوة والسيطرة ، وتوزع
البعض الاخر منها في اثاره هواجس التشاؤم والقلق والخوف ، او الحنين
والعطف . وقد انعكست هذه الصور في الشعر الجاهلي ، فكانت لها اشكال
واوصاف وصور . واستخدم منها الشعراء ما وجدوه ملائما للمواضع المناسبة
التي ارادوا الحديث عنها ، فكان للعقاب ، والصقر والنسر والرخم جانب
وصور ، وكان للجباري والحدأ جانب آخر وصور اخرى .

(١) انظر ديوان عروة / ٥٥ - ٦٦ .

اما الحمام فقد اكتسب جانبا عاطفيا خاصا ، فهم به الشعراء ، وابدعوا في تصوير غنائه ، ولا بد لنا من ادراك الصلة المتينة بين هذه الاصناف من الطيور ، وبين هؤلاء الشعراء ، لنعرف بواعث هذا الحنين ، ودواعي هذه العاطفة ، فهي تشد الرحال من وقت الى وقت ، وهي تعاني من اجل ذلك الم الرحلة ، ومرارة الغربة ، وصعوبة الانتقال . وتقاسي من هذا ما تقاسيه . والشاعر الجاهلي يعيش المأساة نفسها ويتحمل هذه الالام بنفس الشكل الذي تتحملة هذه الطيور ، فلا غرابة اذا انعقدت الصلة ، وارتبطت الاحاسيس .

وحديث الغراب عند الشعراء الجاهليين طويل ، لانه اشأم الطيور - كما يقولون - وليس في الارض شيء اشأم منه ، ومن اجل هذا اصبح كل جزء منه مدعاة للتطير ، فاشتقوا من اسمه الغربة والاعتراب والغريب ، وتشاءموا من صياحه ، واعتبروه نذير البعد ، ودليل الفرقة . وكذلك كان معتقدهم في اليوم ، لانها - كما يعتقدون ايضا - تجلب المصائب ، وتجر النوائب ولعل ذلك بسبب منظرها الكثيب ، وصوتها الحزين ، وارتياحها المحلات المهجورة ، والمنازل الخربة ، فاقرنت صورتها باذهان الناس بصورة هذه المحلات والاماكن

واستخدموا القطا في تشبيه الخيل ، لسرعتها وانطلاقها ، وعند وصفهم للابل ، وهي تشق هذه الصحراء وقت الهجرة ، وعندما يكون القطا جائعا على الارض او نائما ، اتقاء حرارة الشمس اللافتحة ، مؤكدين نشاط رواحهم في هذا الوقت الذي يصعب فيه السير ، اما افحوصها ، فقد وجد الشعراء فيه صورة لتشبيه ما صلع من الرؤوس ، وذهب من الشعر ، لان القطا تجيء الى الموضع اللين من الارض فتفحصه وتملسه ، ثم تدير حوله ترابا فتبيض على غير عش ، وقد وجدوا في طري التشبيه جوانب واضحة لعقد مثل هذا التشبيه . ووقف الشعراء عند الديك ، وكنوا به عن الفجر ، لان صوته ينغص على الندامى مجلسهم ، وعرضوا لذكر الحجل . والسمام والعصافير والخفافش والكركي وطير الماء والهدهد وبعض الطيور الاخرى التي دخلت في مجال الاساطير كالأرواح والقوارى ، وذكروا بعض اصناف الزواحف والحشرات

كالافاعي واكدوا الوائها ، وشبهوا بها ، وذكروا وقت خروجها ، شأنها في ذلك شأن بقية المحسوسات التي كانت تقع تحت انظارهم . وكنوا بالعقارب عن الاذى والملة والشرور والمكائد ، وتعرضوا لذكر الحرباء في حديثهم عن شدة الحر .

وكان وجود الذباب بالنسبة لهم يعني الحياة ويقظتها ويعد وجوده دليلا من ادلة الخضرة والربيع ، لانه لا يعني الا في الرياض ، ولا يهزج الا في الخضرة ، وشبهوا خيلهم بالجراد ، ووجد هذا التشبيه في نفوس الشعراء رضى واستحسانا . اما النحل فكان له عند هذيل شأن ، ولهم في اختيار عسله قصص حفظها لنا الشعر الجاهلي وحفظ لنا وسائلهم التي كانوا يستخدمونها في سبيل ذلك ، ومتاعبهم التي كانوا يعانون منها الامرين وهم في طريقهم الى خلاياه . ومن هذا العرض السريع الذي اوجزته بهذه الصفحات ندرك موقف الشعراء الجاهليين من هذه الحيوانات .

ثم درست الظواهر الفنية في شعر الطبيعة ، وحاولت ان امهد لهذه الظواهر بدراسة موجزة لفن الشعر الجاهلي وتطوره ، ووجدت انه من العبث ان نحاول تحديد البداية الاولى للشعر العربي ، وتثبيت المراحل التي مر بها ، وبينت ان الشعر العربي الموجود بين ايدينا قد سبق بمحاولات كثيرة ، وتجارب متعاقبة ، ارسى دعائمه ، وحققت له مقوماته وتقاليدته الفنية التي استقرت واصبحت معالم ثابتة ، ثم اشرت الى ان صناعة هذا الشعر قد توفر لها من الخصائص ما جعلنا نعتقد ان الشعراء كانوا يذبلون في سبيل الوصول الى هذه الصناعة جهدا شاقا ، وعناء كبيرا ، وهم من اجل ذلك ينقحون ويمجدون ، ويعاودون النظر ليصونوا كلامهم مما قد يفسده ، ليحققوا الشكل الفني المتعارف عليه ثم لاحظت في تصويرهم لظواهر الطبيعة الصامتة ايمان بعض الشعراء بقوى خفية في بعض النباتات والجمادات والحيوانات فكانوا ينسبون اليها قدرة تفوق قدرة البشر ، ويسلمون بسيطرتها على الطبيعة ، واختفائها وراء كل ظاهرة تعرض لهم . فحاولوا التقرب اليها ، واسترضاءها واستمالتها

اليهم بما يقدمونه لها ، وكانوا يرون في صور بعض الاشياء صورة اشياء اخرى
فحاولوا ان يقيموا بينهما علاقات التشبيه وهكذا كان كل شيء يقع تحت
بصرهم يحسون فيه الحياة والحركة .

ولا بد ان يكون هذا التصور نتيجة طبيعية للحياة العربية ، فالعربي يتفرد
في القفار والوديان ، ويسلك المهامة الوحشة واذا صار الانسان في مثل هذه
الاماكن تداخلت عليه الظنون وتصورت له الاصوات ، وتضخمت في مخيلته
الاجسام . وقد انعكست هذه الصور في الشعر الجاهلي بصورة واضحة تدل
على مدى تأثر حياتهم بامثال هذه الكائنات الروحية التي لا أول لها ولا آخر .
ثم وجدت وقوفهم عند الاطلاع طويلا ، وهذا الوقوف حملني على
التعرض للمحاولات التي جرت في تفسير هذه الظاهرة ، فاعتبرت اشارة
ابن قتيبة من اولى الاشارات التي حاولت ذلك . وتعليل الدواعي التي دفعت
الشعراء الى سلوك هذا المسلك . ثم عرضت لرأى المستشرق الالماني فالتر براونه
الذي حاول تفسير هذه الظاهرة من خلال التماسه للوان من التفكير الوجودي ،
فاعتقد ان موضوع اختيار القضاء والفناء والتناهي هو الذي حرك الانسان في
كل زمان ، وهو الموضوع الذي يرده عن وعيه ، وان الشعراء صمدوا في
نسيبهم عن مشاعر صادقة كامنة في نفوسهم ، تمثل نوعا من القلق الوجودي
ثم اشرت الى محاولة الدكتور يوسف خليف ، والتي حاول ان يجعل فيها
فترات الفراغ التي كانت تطول في بعض الاحيان - وخاصة في ايام الربيع ،
عندما تتحول البادية الى جنة خضراء - سببا من اسباب ملء اوقات الفراغ
بأي شيء . حتى لا تستحيل الحياة معها فراغا باردا ، لا احساس بالوجود
فيه ، وشعورا بالضيق في هذه الصحراء التي تخيل للانسان فيه انه يعيش
في عالم لا يعرف الحدود ، ولا يدرك معنى النهاية ، ثم تتبعت تحديد الدكتور
يوسف مسائل حل هذه المشكلة ، فوجدته يحددها في ثلاثة اتجاهات اساسية ،
هي الخروج الى الصحراء للرحلة او للصيد ، والالتقاء بالرفاق لشرب الخمر ،
والسعي خلف المرأة ، طلباً للحب والغزل ، ثم محاولة الدكتور تفسير بداية

هذه المقدمة فجعلها طبيعية عند شعراء المرحلة الفنية الاولى ، ثم تحولت الى مقدمة تقليدية عند شعراء المرحلة الثانية من حياة هذا الشعر ، ثم المرحلة الثالثة التي استقرت فيها القصيدة العربية واتضحتم مقومات العمل الفني ، حتى خيل لبعض الشعراء انه لم يعد هناك جديد يستطيعون اضافته الى شعرهم .

وارى ان بكاء الاطلال ليس عاطفة خاصة ، ولا تجربة وجدانية ذاتية ، بل لحظة حزينة املاها على الشاعر شعور الجماعة التي ينتمي اليها ، بالحرمان من الوطن المكاني ، وبالحنين الى الاستقرار والمقام الثابت الذي يستطيع فيه ان يقيم بيتا يخلد فيه ذكرياته ، ويسترجع ملاعب صباه ، وهو في الواقع لا يواجه ذكرى حبه فحسب ، وانما كانت تنداعى في ذاكرته صور شبابه الزاهب . وهذان الدافعان يكفيان لخلق عاطفة تثير في نفسه جوا مناسباً يحمله على الحنين ، وكان هذا الجو يعد التمهيد الذي يخلق الجو الشعري المناسب لقول القصيدة . وقد اصبحت المقدمة الطللية — بكل صورها والوانها — تؤدي وظيفة لخلق هذا الجو الشعري الذي يمنح الشاعر القدرة على القول . لانه يصبح في حالة معاناة شعرية حادة ، تمتد بالعاطفة اللازمة ، التي تمكنه من التنفيس عن كل ما يحتبس في نفسه من الاحساسات وهو في نفس الوقت يهيء الجو المناسب للمستمع الذي يجد في هذه يعد التمهيد الذي يخلق الجو الشعري المناسب لقول القصيدة . وقد اصبحت المقدمة الطللية — بكل صورها والوانها — تؤدي وظيفة لخلق هذا الجو الشعري الذي يمنح الشاعر القدرة على القول . لانه يصبح في حالة معاناة شعرية حادة ، تمتد بالعاطفة اللازمة ، التي تمكنه من التنفيس عن كل ما يحتبس في نفسه من الاحساسات وهو في نفس الوقت يهيء الجو المناسب للمستمع الذي يجد في هذه المعاناة شبيها لما يحس به هو ، فينشئ بهذه البداية لنفسه ولسامعه وقارئه حالة شعورية مألوفة بعواطف الحنين والشوق والاستعداد للانشاد او الاستماع او المتابعة ، يتعد فيها الانسان عن كل ما يحيط به ، او يتصل بحياته القريبة ، وهذا ما دفع الشعراء الى الالتزام بها ، والتقييد بمعانيها ، والمحافظة على اصولها .

ثم وجدت ان وصف الطلل من اكثر الموضوعات الجاهلية عاطفة واصدقها تعبيراً واشدها اتصالاً بالوجدان . وبالتالي فهو يمثل تجربة الرحلة التي قامت عليها الحياة الجاهلية . فالحنين الى الطلل يمثل الحنين للوطن ، لان الطلل وما يحيط به ، وما يتناثر حوله من الدمن ، يمثل مجموعة البيوت التي حفظت ذكريات الشعراء فلا غرابة اذا وجدنا الشاعر الجاهلي يبرز ذاتيته ، ويفرغ شخصيته - وهو يقف امام هذه الاحجار او الاثار - محاولاً بذلك اثبات وجوده المبعثر في هذه الصحراء التي لم يضمن فيها مسكناً يلم حياته الضائعة ، وسط رحلة لا تستقر ، وتنقل لا يقف .

وقد التزم الشعراء في هذا الوقوف مجموعة من الظواهر ، فكانوا مثلاً يحرصون على ان يكون حديثهم بصيغة التثنية ، لان اقل اعوان الرجل في ابله وماله اثنان ، واقل الرفقة ثلاث ، وان طبيعة الرحلة كانت تفرض على الشخص ان لا يرحل وحده ، وانما يرحل مع رفيقين . وكانوا يحرصون ايضاً على تحديد الفترة الزمنية التي مرت على ترك هذا الاثر ، لانها تمثل الفترة الحيوية من حياته ، واللحظات السعيدة التي عاشها بين جوانب هذه البقايا . وكان حرصه يدفعه ايضاً الى تحديد المواضع جغرافياً ، وتعيدها ، وتسميتها ، ليدخل الرضا الى نفسه ، وليكون مطمئناً الى صحة هذه المواضع . وعندها يكون الوقوف او البكاء في المحل الذي وقف من اجله ، او بكى عنده وقوفاً يستحق هذا البكاء ويستأهله .

ثم درست تصويره للحيوان الذي اعتنى به عناية كاملة ، ووصف حركاته وصفاً دقيقاً ، ومثل هيئاته ، وأشار الى عاداته وكان هذا الوصف والاعتناء يتوقف على مقدار صلته بهذا الحيوان من جهة ، وطبيعة الحيوان نفسه من جهة اخرى . فحديثه عن الناقة والفرس ونعته لاعضاءهما ووصافهما الداخلية والخارجية لم نجد له نظيراً في اوصافه للثور الوحشي او غيره من الحيوانات . على أن بعض اوصاف الشعراء لقسم من هذه الحيوانات لم يكن مجرد اوصاف عابرة ، وانما كان يشوب ذلك حس وعاطفة تضيفي على الوصف طابع الجمال

والرقة . وقد منحتهم معرفتهم بطباع الحيوان قدرة على اختيار الصفات البارزة . فكانت اوصافهم لبعضها تدل على دقة وبراعة ، لا تنهياً الا لشخص عاش في المفاوز ، فراقب حركاتها وادرك التطورات التي يحصل عليها . وعرف الالوان التي تتلون بها .

ثم درست تصويرهم للصيد الذي وجدوا فيه جمعا بين روائع الطبيعة وخلق الفروسية ، وتبين لي ان ضرورات العيش ، وحاجات الافراد . وملء اوقات الفراغ ، كانت تدفعهم الى ممارسته بكل وسيلة ، وتثير فيهم الرغبة في الحصول على الحيوان ، ولاحظت ان الخيل والكلاب والسهام والنبال والرماح هي الوسائل التي كانوا يستعملونها ، وان الصيد بواسطة الخيل كان يعد متعة من المنع ، ومظهرا من مظاهر الفروسية ، وكانت تمارسه فئة مرفقة من العرب ، تهيأت لها اسباب الحياة .

اما الكلاب ، فكان حديثها يأتي عرضا في تشبيه الرواحل بالثور الوحشي الذي تهاجمه كلاب الصيد . واكثر ما نجد السهام والرماح والقسي مستعملة عند شعراء هذيل والصعاليك واللصوص . وهذا ما يؤكد حاجة هؤلاء ، للانفتاح بلحوم هذه الحيوانات ، ووجدت في بعض النصوص اشارات الى ان العرب كان يستدلون الصيد ، ويحرقون الصياد .

ثم درست في الفصل الثاني الخصائص الفنية لشعراء الطبيعة، ولاحظت ان هذه النوع من الشعر يتسم بالواقعية . وان الشعراء كانوا يحرصون فيه على ان تكون صورهم مطابقة للواقع . مشابهة له . وبيئت مظاهر هذه الواقعية المتمثلة في الخبرة والمقدرة والدراية واستخدام كل صفة في المكان المعين ، واستغلال ظاهرة الالوان التي كانت تمنح الصورة قدرة اكثر على التعبير ، ثم تصوير الجوانب الدقيقة في الموصوفات . واخيرا مقارنات الشعراء التي كانت لا تنهياً الا لمن خبير هذه الصلة في مقارنته بين طرفي التشبيه ، وادرك الصفة البارزة فيه . ثم رأيت ان الشعراء قد استغلوا الحوادث التي كانت تحيط بهم استغلالا قصصيا موفقا ، وان النماذج الشعرية التي اشرت اليها تعطينا

فكرة واضحة عن المفهوم القصصي عند الشعراء الجاهلين ، وبمكنتنا اعتبار هذه البداية نقطة انطلاق للقصة الشعرية التي تعد الرائد الصحيح لهذا الفن . اما الخصائص المعنوية لشعر الطبيعة ، فقد وجدت الشاعر الجاهلي ينقل الصور التي تلوح امامه نقلا امينا بعيدا عن تحليل الاوصاف والتعمق في التشبيهات وكانت بعض التشبيهات ، تصل عند بعضهم الى القصة التي يسردون فيها ما يرومون التعبير عنه . وكأن الشعراء ادركوا حقيقة التصوير والصورة ، وهي تتجلى باشكالها وهياتها واجزائها ، وادركوا كذلك التفاصيل المتمثلة في الألوان والمظاهر التي تبرز تلك الحقيقة ، فكانوا يجمعون بين هذين الركنين جمعا متوافقا .

وفي الخصائص اللفظية وجدت بعض الشعراء يميل الى استعمال الالفاظ التي توحي بالمعنى ، وتشعر بالحركة ، وكان البعض الآخر يضطر الى تكرير اللفظ الذي يحاول به تقوية النغم ، والتشديد على رئين الكلمات ، او استعمال بعض الحروف التي تمتاز بجرسها ، واتضح لي من دراستي هذه ان الشعراء كانوا يوثقون في وصفهم حيوانهم اللفظ الجزل ، والعبارة الصعبة ، وعلت ذلك بالربط بين القوة اللفظية والقوة الجسدية التي لم يستهن بها الشاعر الجاهلي ، وكأنه كان يرى لزاما عليه ، وهو يعرض لوصاف هذه الحيوانات ، ان يوفق بين الحيوان القوي واللفظ الجزل ، فكانت هذه الشدة ، وكانت هذه الصلابة التي اصبحت تقليدا لفظيا يسير عليه اشعراء ، ولاحظت اوجه التشابه بين الفاظ الشعراء ، وهم يترقون الموضوعات الواحدة ، او يعالجون الحالات المتشابهة ، وخلصت الى انه باستطاعتنا ان نصنع معجما بالالفاظ التي تستخدم في الموضوع الواحد .

وبعد ، فهذه هي الطبيعة في الشعر الجاهلي كما لاحظتها ، وهذه هي خلاصة الدراسة التي قمت بها ، والله الموفق لكل خير .

مصادر البحث ومراجعته

- (١) الأبرص :
عبيد بن الأبرص
الديوان . تحقيق وشرح الدكتور حسين نصار
ط . القاهرة . ١٣٧٧ - ١٩٥٧
الديوان . ط . بيروت - ١٩٥٨
- (٢) ابن الأجدابي :
ابو اسحق ابراهيم بن اسماعيل (ت حوالي ٦٥٠ هـ)
الأزمنة والانواء . تحقيق الدكتور عزة حسن
ط . دمشق - ١٩٦٤
- (٣) الأزدي :
ابو بكر محمد بن الحسن بن دريد (ت ٣٢١ هـ)
وصف السحاب والمطر . تحقيق عز الدين التنوخي
ط . دمشق - ١٩٦٣
- (٤) الأسد :
ناصر الدين
مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية
ط . دار المعارف - ١٩٥٦
- (٥) الاصطخرى :
ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي (ت ٣٥٦ هـ)
المسالك والممالك .
ط . بريل - ليدن - ١٩٢٧

(٦) الاصفهاني

ابو الفرج علي بن الحسين بن محمد الاموى (ت ٣٥٦ هـ)
الاغانى
ط . دار الكتب والسياسى بحسب ما يذكر في الهامش

(٧) الاصمعي

ابو سعيد عبد الملك بن قريب، (ت ٢١٦ هـ).
(أ) الأصمعيات . تحقيق الأستاذين عبد السلام هارون واحمد
محمد شاكر
ط . دار المعارف - ١٩٥٥

(ب) الايل . ضمن مجموعة الكثر اللغوى

ط . بيروت - ١٩٠٣

(ج) الدارات . سعى بنشره وجمع رواياته الدكتور اوغست

هافنر . نشر في مجلة المشرق - السنة الاولى ١٨٩٨

(د) الشاء . تحقيق هافنر - ١٨٩٦

(هـ) النبات والشجر . ضمن مجموعة البلغة في شذور اللغة

ط . الكاثوليكية . بيروت - ١٩٠٧

(و) النخل والكرم . تحقيق الدكتور اوغست هافنر

ط . بيروت - ١٩٠٨

(٨) ابن الاعرابي

محمد بن زياد (ت ٢٣١ هـ)

اسماء خيل العرب وفرسانها . تحقيق جرجس لوى دلاويدا

ط . بريل - لندن - ١٩٢٨

(٩) الاعشى

ميمون بن قيس

الديوان . شرح وتعليق للدكتور م . محمد حسين

ط . النموذجية - القاهرة - ١٩٥٠

(١٠) الالوسي

عمود شكرى (ت ١٣٤٢)

بلوغ الارب في معرفة احوال العرب . تحقيق محمد بهجت
الاثرى .

ط . مصر - ١٣٤٢

: (١١) الأمدى

ابو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى (ت ٣٧٠ هـ)
الموازنة . ط . دار المعارف - ١٩٦١

: (١٢) امرؤ القيس

ابن حجر الكندى .
الديوان . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم
ط . دار المعارف - ١٩٥٨

: (١٣) ابن الأتباري : ابو بكر محمد بن القاسم (ت ٣٢٨ هـ)

شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات
تحقيق وتعليق الاستاذ عبدالسلام هارون
ط . دار المعارف - ١٩٦٢

: (١٤) الاودى

الافوه
الديوان في الطرائف الادبية
تحقيق عبد العزيز المبنى
ط . لجنة التأليف ١٩٤٧

: (١٥) الايادى

ابو دواد
شعره ضمن دراسات في الادب العربي
جمعه غوستاف فون غرنباوم
ط . بيروت - ١٩٥٩

: (١٦) البحتري

الوليد بن عبيد الله بن يحيى (ت ٢٨٤ هـ)
الحماسة . ضبط وتعليق كمال مصطفى
ط . الرحمانية - القاهرة ١٩٢٩

- (١٧) البصري :
- صدر الدين علي بن ابي الفرج بن الحسن (ت ٦٥٩ هـ)
الحماسة البصرية (مخطوطة - نسخة مكتبة راغب باشا استانبول
تحت رقم ١٠٩١) طبعت في الهند - حيدر آباد - ١٣٨٣
وانا في المراحل الاخيرة من عملي .
- (١٨) البغدادي :
- عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣ هـ)
خزائن الأدب ولب لباب لسان العرب
ط . بولاق - القاهرة - ١٢٩٩
- (١٩) البكري :
- ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ)
معجم ما استعجم . تحقيق الاستاذ مصطفى السقا
ط . لجنة التأليف والترجمة - ١٩٤٩
- (٢٠) البلاذري :
- احمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ)
فتوح البلدان . دى غويه
ط . بريل - لندن - ١٨٦٦
- (٢١) الثعالبى :
- عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (ت ٤٢٩ هـ)
ثمار القلوب في المضاف والمنسوب
ط . القاهرة - ١٩٠٨
- (٢٢) ثعلب :
- ابو العباس احمد بن يحيى (ت ٢٩١ هـ)
مجالس ثعلب . تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون
ط . دار المعارف - ١٣٦٩
- (٢٣) الجاحظ :
- ابو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ)
(أ) البيان والتبيين . تحقيق حسن السندوي

- ط . الاستقامة - القاهرة ١٩٤٧
- (ب) الحيدان . تحقيق عبد السلام . هارون
- ط . الحلبي - القاهرة ١٩٤٣
- (ج) رسالة في فخر السودان على البيضان
- ط . القاهرة - ١٣٢٤
- : (٢٤) الجزائري
- محمد
- نخبة عقد الاجياد في الصافات الجياد
- ط . الاهلية - بيروت - ١٣٢٦
- : (٢٥) ابن جنيد
- سلامة
- الديوان . تحقيق لويس شيخو
- ط . بيروت - ١٩١٠
- : (٢٦) الجوهري
- اسماعيل بن حماد القاراني (ت ٣٩٨ هـ)
- الصحيح . تحقيق احمد عبد الغفور عطار
- ط . دار الكتاب العربي - ١٩٥٦
- : (٢٧) ابن حبيب
- ابو جعفر محمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ)
- (أ) المحبر . ط . الهند - حيدر آباد - ١٩٤٢
- (ب) اسماء المفتالين من الاشراف في الجاهلية
- تحقيق عبد السلام هارون ضمن نواذر المخطوطات
- ط . لجنة التأليف والترجمة - ١٩٥٤
- : (٢٨) حتى
- فيليب
- تاريخ العرب (مطول)
- ط . دار النشر والطباعة - ١٩٥٨

- (٢٩) ابن حجر :
أوس
الديوان . تحقيق وشرح للدكتور محمد يوسف نجم
ط . بيروت - ١٩٦٠
- (٣٠) حسن الباشا :
تاريخ الفن في العراق القديم
ط . مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٥٦
- (٣١) حمزة :
فؤاد
قلب جزيرة العرب
- (٣٢) أبو حنيفة :
أحمد بن داود الدينوري (ت ٢٨٢ هـ)
قطعة من الجزء الخامس من كتاب النبات
عن بنشره ب . لوين
ط . بريل - - لندن ١٩٥٣
- (٣٣) ابن أبي خازم :
بشر
الديوان . تحقيق الدكتور عزة حسن
ط . الرقي - دمشق - ١٩٦٠
- (٣٤) الخالديان :
أبو بكر محمد بن هاشم (ت ٣٨٠ هـ) وأبو عثمان سعيد
ابن هاشم (ت ٣٩١ هـ)
كتاب الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين
تحقيق الدكتور محمد يوسف
ط . لجنة التأليف والترجمة - القاهرة - ١٩٥٨
- (٣٥) ابن الخطيم :
قيس
الديوان . تحقيق الدكتور السامرائي والدكتور مطلوب

ط . بغداد - ١٩٦٢
الديوان تحقيق الدكتور ناصر الاسد
ط . المدني - القاهرة ١٩٦٢

(٣٦) خليف :

يوسف
الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي
ط . دار المعارف - ١٩٥٩

.. (٣٧) اللبياني :

الناطقة (زياد بن معاوية بن ضباب)
الديوان . ضمن مجموعة الاعلم الشتمري
تحقيق الاستاذ مصطفى السقا
ط . مصطفى الحلبي - القاهرة ١٩٤٨
الديوان . دار صادر - بيروت ١٩٦٠

(٣٨) ابن رشيقي :

ابو علي الحسن بن رشيقي القيرواني (ت ٤٥٦ هـ)
العمدة في محاسن الشعر وآدابه
تحقيق محمد عبي الدين عبد الحميد
ط . حجازي - القاهرة - ١٩٣٤

(٣٩) الزبيدي :

محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الزبيدي
(ت ١٢٠٥ هـ)
تاج العروس من جواهر القاموس
ط . الخيرية - القاهرة ١٣٠٢ - ١٣٠٦

(٤٠) الزمخشري :

عمود بن عمر بن محمد الخوارزمي (ت ٥٣٨ هـ)
(أ) اعجب العجب في شرح لامية العرب
ط . الوراق - ١٣٢٨
(ب) المستقصى في امثال العرب

ط . حيدر اباد - للذكر - ١٩٦٢ -

(٤١) ابن زيد :

عدى

الديوان . تحقيق الاستاذ جبار المعيد

ط . وزارة الثقافة والارشاد - بغداد ١٩٦٥

(٤٢) السجستاني :

ابو حاتم (ت ٢٥٠ هـ)

المعمرون والوصايا تحقيق عبد المنعم عامر

ط . القاهرة - ١٩٦١

(٤٣) السكرى : ابو سعيد الحسن بن الحسين (ت ٢٧٥ أو ٢٩٠ هـ)

شرح اشعار الهذليين تحقيق عبد الستار احمد فراج

ط . المدني - القاهرة - ١٩٦٥

(٤٤) ابن سلام :

محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣١ هـ)

طبقات فحول الشعراء . تحقيق محمود محمد شاكر

ط . دار المعارف - ١٩٥٢

(٤٥) ابن أبي سلمى :

زهير

الديوان . صنعة الامام ابي العباس احمد بن يحيى بن زيد الشيباني

ثعلب

ط . دار الكتب - ١٩٤٤

الديوان . ضمن مجموعة الأعلام التستمرى تحقيق الاستاذ

مصطفى السقا

ط . البابي الحلبي ١٩٤٨

(٤٦) السلمي :

غرام بن الاصبغ

اسماء جبال تهامه وسكانها تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون

ضمن المجموعة الخامسة من نواذر المخطوطات

ط . لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٤

: (٤٧) ابن سيده

ابو الحسن علي بن اسماعيل (ت ٤٥٨ هـ)
المختصص . ط الاميرية - بولاق - ١٣١٦

: (٤٨) السيوطي

جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١ هـ)
المزهر في علوم اللغة وانواعها
ط . بولاق - ١٢٨٢

: (٤٩) ابن الشجري

ابو السعادات هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة
(ت ٥٤٢ هـ)

(أ) الحماسة . ط حيدر اباد - الدكن ١٩٤٥
(ب) مختارات ابن الشجري . ضبطها وشرحها محمود حسن
زناني ط . الاعتماد - ١٩٢٥

: (٥٠) ابن شداد

عنبرة

الديوان . تحقيق وشرح عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي
ط . القاهرة

الديوان ضمن مجموعة الاعلم الشتمري

: (٥١) الشتمري

يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالاعلم
مختار الشعر الجاهلي تحقيق مصطفى السقا
ط . الباني الحلبي - ١٩٤٨

: (٥٢) الشنفرى

الديوان ضمن مجموعة الطرائف الادبية
تحقيق عبد العزيز المينى
ط . لجنة التأليف والترجمة . القاهرة - ١٩٤٧

- (٥٣) شيخو :
لويس شيخو
شعر له النصرانية ط . بيروت - ١٩٠٠
- (٥٤) الصغاني :
اسامي اللذب وكناه
ط . استانبول - ١٣٣٠
- (٥٥) الضبي :
المفضل بن محمد (ت ١٧٨ هـ)
المفضليات - تحقيق ليال - اكسفورد - ١٩٧٠
المفضليات . تحقيق الاستاذين احمد محمد شاكر وعبد السلام
هارون ط . دار المعارف - ١٩٤٣
- (٥٦) ضيف :
شوقي
(أ) تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي
ط . دار المعارف - ١٩٦٠
(ب) الفن ومذاهبه في الشعر العربي
ط . مكتبة الاندلس ١٩٥٦
(ج) التطور والتجديد في الشعر الاموي
ط . دار المعارف - ١٩٥٩
- (٥٧) الطائي :
حاتم
الديوان . بيروت - صادر ١٩٥٣
- (٥٨) طه حسين :
(أ) في الادب الجاهلي ط . للقاهرة ١٩٣٣
(ب) حديث الاربعة . ط القاهرة ١٩٣٧
- (٥٩) ابن الطفيل :
عامر . الديوان ط بيروت - ١٩٥٩

- (٦٠) ابن العبد :
طرفة الديوان . تحقيق الدكتور علي الجندي
ط . الرسالة - ١٩٥٨
الديوان ضمن مجموعة الاعلم الشتمري
- (٦١) العبدى :
المنقب . شعر المنقب العبدى
تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين
ط . بغداد ١٩٥٩
- (٦٢) العسكري :
ابو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت ٣٩٥)
ديوان المعاني
ط . القدسي - القاهرة - ١٣٥٢
- (٦٣) علي :
جواد تاريخ العرب قبل الاسلام
ط . المجمع العلمي العراقي - بغداد ١٩٦٠
- (٦٤) ابن ابي عون :
ابو اسحق ابراهيم بن محمد بن احمد (ت ٣٢٢ هـ)
التشبيهات . ط . كيمبرج - ١٩٥٠
- (٦٥) الغطفاني :
المزود بن ضرار
الديوان تحقيق الاستاذ خليل ابراهيم العطية
ط . بغداد - ١٩٦٢
- (٦٦) الغنوى :
الطفيل الديوان . ط . لندن - ١٩٢٧
- (٦٧) الفحل :
علقمة الديوان . اعنى بتصحيحه الشيخ ابن ابن شنب
ط الجزائر - ١٩٢٥
الديوان . ضمن مجموعة الاعلم الشتمري

- (٦٨) القيرز آبادي :
 محمد بن يعقوب بن محمد بن ابراهيم (ت ٨١٧ هـ)
 القاموس المحيط
 ط . المكتبة التجارية - ١٩١٣
- (٦٩) القافي :
 ابو علي اسماعيل بن القاسم (ت ٨٣٥ هـ)
 الامالي ط . دار الكتب - ١٩٢٦
- (٧٠) ابن قتيبة :
 ابو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري ، (ت ٢٧٦ هـ)
 (أ) الشعر والشعراء ط . بيروت - ١٩٦٤
 (ب) ادب الكاتب تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط .
 الرحمانية - ١٣٥٥
 (ج) المعاني الكبير ط . حيدر اباد - الدكن - ١٩٤٩
 (د) الانواء في مواسم العرب ط . حيدر اباد - الدكن -
 ١٩٥٦
- (٧١) القرشي :
 ابو زيد محمد بن ابي الخطاب (ت)
 جمهرة اشعار العرب ط . الرحمانية ١٩٢٦
- (٧٢) كشاجم :
 ابو الفتح محمود بن الحسن الكاتب (ت بعد ٨٣٥ هـ)
 المصايد والمطارد تحقيق الدكتور محمد اسعد طلس
 ط . دار المعرفة - بغداد - ١٩٥٤
- (٧٣) ابن الكلبي :
 هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٦ هـ)
 انساب الخليل تحقيق احمد زكي
 ط . دار الكتب - ١٩٤٦
- (٧٤) ليبد :
 الديوان تحقيق الدكتور احسان عباس

- ط. الكويت - ١٩٦٢ :
- (٧٥) المبرد :
- ابو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ)
الكامل في اللغة والادب تحقيق الدكتور زكي مبارك
ط. القاهرة - ١٩٣٦ :
- (٧٦) المرتضى :
- الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ)
امالي المرتضى ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم
ط. القاهرة - ١٩٥٤ :
- (٧٧) المرزوقي :
- ابو علي بن محمد بن الحسن (ت ٤٢١ هـ)
(أ) شرح الحماسة . تحقيق عبد السلام هارون واحمد امين
ط. لجنة التأليف والترجمة - ١٩٥٣
(ب) الازمنة والامكنة
ط. حيدر اباد - الدكن - ١٣٣٢ :
- (٧٨) ابن المعتز :
- ابو العباس عبد الله بن المعتز بالله الخليفة العباسي
(ت ٢٩٦ هـ)
البدیع . ط . الحلبي - القاهرة - ١٩٤٥ :
- (٧٩) ابن منظور :
- محمد ابن مكرم ابن علي ابن احمد (ت ٧١١ هـ)
لسان العرب . ط . القاهرة - ١٣٠٨ :
- (٨٠) الميداني :
- ابو الفضل احمد بن محمد النيسابوري (ت ٥١٨ هـ)
الامثال . ط . المحدثين - القاهرة - ١٩٥٥ :
- (٨١) ابن النديم :
- ابو الفرج محمد بن اسحق بن يعقوب (ت ٣٨٥ هـ)
الفهرست . ط . التجارية - القاهرة - ١٣٤٨

- (٨٢) نوفل :
سيد . الطبيعة في الشعر العربي
ط. القاهرة — ١٩٤٥
- (٨٣) ابن الوردة :
عروة . الديوان . تصحيح الشيخ ابن أبي شنب
ط. الجزائر — ١٩٢٦
الديوان ط. بيروت — ١٩٥٣
- (٨٤) هنيل :
ديون الهذليين
ط. دار الكتب — ١٩٤٨
- (٨٥) ابن هشام :
أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣ هـ)
السيرة النبوية تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط. القاهرة
— ١٩٣٧
- (٨٦) — الحمداني :
أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤ هـ)
(أ) صفة جزيرة العرب ط. بريل . ليدن — ١٨٨٤
(ب) الأكليل . نشر نبيه فارس
ط. برتسن — ١٩٤٠
- (٨٧) ياقوت :
أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت ٦٢٦ هـ)
معجم البلدان
ط. لا ييزك ١٨٦٦

الفهرس

الصفحة

٧	تقديم الدكتور شوقي ضيف
٩	المقدمة
١٣	تمهيد

الباب الأول : الدراسة الموضوعية

٩٥ - ٢١	الفصل الأول : الطبيعة الصامتة :
---------	---

الجبال والكتبان والسراب ، الوديان والدارات والبرق والرياض
والحرات ، الآبار والعيون والحساء ، الرياح والانواء والأمطار
والنجوم ، الشجر والنبات .

٢٢٣ - ٩٧	الفصل الثاني : <u>الطبيعة المتحركة</u> :
----------	--

الحيوان الأليف ، الحيوان الوحشي ، الطيور ، الزواحف
والحشرات .

الباب الثاني : الدراسة الفنية

٣١٣ - ٢٢٥	الفصل الأول : تصوير الطبيعة في الشعر الجاهلي
-----------	--

الصفحة

✓ فن الشعر الجاهلي وتطوّره ، تصوير الطبيعة الصامتة ، الاطلاع
تصوير الطبيعة الحية ، الصيد .

الفصل الثاني : الخصائص الفنية في شعر الطبيعة ٣١٥ - ٣٨٠

الواقعية في شعر الطبيعة ، القصصية في شعر الطبيعة : الخصائص
والموسيقية ...

إختاتمة : تلخيص البحث وتسجيل أهم نتائجه ٣٨١ - ٣٩٤

مصادر البحث ومراجعته ٣٩٥ - ٤٠٨

فهرس المصادر ٤٠٩ - ٤١٠

